

في آيات الكتاب

تأليف

فضيلة الشيخ عطية محمد سالم

مكتبة دار التراث

بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم


السؤال والجواب
في آيات الكتاب

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م



مقدّمة المؤلف

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين وعامّتهم بمنِّك يا أرحم الرَّاحمين .

وبعد : فإنَّ أسلوب السؤال والجواب يعتبر في المرتبة الأولىٰ في مناهج التربية والتعليم لقوة وضوحه وشدَّة تأثيره وتحديد مدلوله . فهو يثير الشعور ويسترعي الانتباه ، ويركّز الفكر ويوقظ الذهن لتصوّر المسؤول عنه ولتلقّي الجواب ، خاصة للعالم بتصاريف الكلام ومقتضيات المقام ، كما في حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت رديف النَّبيّ ﷺ فقال لي : « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ » . وإنَّا لنوقن أنَّ معاذاً رضي الله عنه لم يكن يعلم الجواب ، وأنَّ رسول الله ﷺ سأله وهو يعلم أيضاً أنه لا يعلم الجواب ، ونحسّ من معاذ أنه حين سمع هذا السؤال أيقن بأنَّ الرسول ﷺ ما سأله إلاَّ ليعلمه ، فيتَّجه معاذ بكليته ويستجمع شعوره وحسّه ليظفر بعلم ما لم يكن يعلم ، فإذا ما ألقىٰ رسول الله ﷺ الجواب عليه كان قلبه حاضراً وسمعه صاغياً، وكان وعاء علم لما يسمع ، وما حفظه فلن ينساه . وهذا ما يسمَّىٰ بأسلوب التشويق والاسترعاء .

وكذلك الحال إذا كان السؤال من جانب المتعلّم حينما يسأل عمَّا يعلم

لأنـه لا يتقدَّم بـالسُّؤال إلَّا بعد أن اعتمـل في نفسه وبـذل في سبيل معـرفتـه جهـدهُ حتى أعياه ، فيكون وقت السؤال متفاعـلاً نفسيـاً مـع مـوضـوع السؤال حريصاً على تلقّي الجواب متهيّأ لاستيعابه ، والسنة مليئة بذلك ؛ كقـولهم : يا رسول الله علمنا كيف نسلم فكيف نصلِّي عليك، إذا نحن صلَّينا عليك في صـلاتنا ؟ فقـال : « قولـوا اللهمَّ صلِّ على محمـد . . . » إلى آخـر الصـلاة الإبراهيمية .

وبعلوّ منزلة أسلوب السؤال والجـواب في مناهـج التربيـة والتعليم، فإنَّا نجـد جبريـل عليه السـلام يسلك هذا المنهـج في صـورة هي أعلىٰ مـراتب التعليم وبين يـديّ رسول الله ﷺ وبمحضـر من أصحابـه رضوان الله تعـالىٰ عليهم، وفي أشرف مكان وأكمـل حالـة لطالب العلم ، وأجمـل مـظهـر أدبي يترسَّم منهجه طـلاب العلم في كل زمـان ومكان . وقد صوَّر لنا عمر ـ رضي الله عنه ـ هذا المشهـد بأوضـح مـا يكـون إذ قـال : بينمـا نحن جلوس عنـد النَّبيّ ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سـواد الشعر لا يعرفه منـا أحد ولا يـرىٰ عليه أثـر السفر ، فجلس إلى النَّبيّ ﷺ وأسنـد ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يـديه على فخـذيه ثم قـال : يا محمـد أخبرني عن الإسـلام . فقال : « الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلَّا الله وأنَّ محمداً رسـول الله ، وتقيم الصـلاة ، وتؤتي الزكـاة ، وتصوم رمضـان وتحج بيت الله إن استـطعت إليه سبيـلاً » . فقال : صـدقت . فعجبنا لـه يسألـه ثم يصدقـه . قال يـا محمـد أخبرني عن الإيمان . قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبـه ، ورسله ، واليـوم الآخر وبـالقدر خيـره وشره » . قـال : صـدقت . فعجبنـا لـه يسـألـه ويصدقه . قال : أخبرني عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك » . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : أخبرني عن الساعة . قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائـل » . قال : أخبرني عن أماراتهـا . قال : « أن تلد الأمـة ربتها فتـرىٰ الحفاة العـراة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان » . ثم انصرف . فقال ﷺ : « ردُّوه علي » . قـال

عمـر : فطلبنـاه فلم نجده . فقـال ﷺ : « هذا جبـريـل أتـاكم يعلمكم أمـر دينكم » .

وأصبح حديث جبريل هذا هو النموذج المثالي والأسـاس لتعليم الدين لحسن السؤال ووضوح الجواب ، جبريل يسأل والرسول ﷺ يجيب .

فكيف إذا كان كل من السؤال والجواب من الله تعالىٰ ؟ أي في كتاب الله ، فمـا كان من الأمـة فقد حكـاه القرآن وأقـرّه فـالكـل من الله ، السؤال بتقرير من الله والجواب ابتداء منه سبحانه. فقد وصل إلى القمة في الوضوح والإيجاز واتّسم بأروع آيات الإعجاز .

ولو تأمّلت هذا السؤال في قولـه تعالىٰ : ﴿ أم خُلِقُـوا من غير شيءٍ أم همُ الخـالقون ﴾ [الطور : ٣٥] لوجـدت قانـون إلـزام بـالسبـر والتقسيم يلزمهم منطقياً بضرورة الإيمان بالخالق سبحانه فلا يكون الجحود بعده إلّا مكـابرة . وذلك أنه جعل في هذا السؤال أمر وجودهم من العدم دائراً بين أن يكون من غيـر موجـد أم خلقوا من غيـر شيء ، أو أن يكونـوا أوجدوا أنفسهم ، أم هم الخالقون أم أنَّ لهم موجداً وهو الله سبحانه الذي خلق السموات والأرض .

وهم لا يستطيعون الزعم بأنهم خلقـوا من غير شيء، لأنَّ غير شيء هو العـدم والعدم لا يتـأتّىٰ منه وجـود . ولا يستطيعـون أيضاً أن يـدعوا لأنفسهم أنهم هم الذين أوجدوا أنفسهم لأنهم قبل الإيجاد والخلق كـانوا في عـدم، فلم يبق إلّا أن يقرّوا لزوماً بأنَّ لهم خالقاً وهو الله سبحانه المستغني عن موجد ، بل هو سبحانه واجب الوجود لم يسبقه عدم .

وقد قررهم في جـزئيات هـذا الخلق فيما يلمسـونه في قـوله تعـالىٰ : ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُـوْنَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الْخَـالِقُـونَ﴾ [الـواقعـة:٥٨ ـ ٥٩] الجواب قطعاً ، أنت يا ربِّ سبحانك .

وممّـا يلاحظ أنَّ منهـج السؤال والجواب في كتـاب الله قد عُنِيَ بـأهمّ

قضايا الإنسان ، وشمل منهج حياته الخاصة ؛ كالإنفاق ممَّ ينفق؟ وعلى من يكون الإنفاق ؟ وأخصّ من ذلك محيض النساء ، والعشرة بين الزوجين ، ورعاية الأيتام . كما تناولت مطعمه ومشربه ومكسبه ممَّا أحلَّ لهم وحرَّم عليهم ﴿ يَسْأَلُوْنَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] .

وكذلك مغانمه في الجهاد ﴿ يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسول فاتَّقوا اللَّهَ وأصلِحُوْا ذَاتَ بَيْنِكُمْ . . . ﴾ [الأنفال: ١] .

وكذلك الظواهر الكونية في الأرض كالجبال، وفي السماء كالهلال، بل في خواص أنفسهم والروح التي بها حياتهم ممَّا لم يدركوا كنهه ولم يعلموا حقيقته .

وكذلك ما بقي لهم من معتقد في الأشهر الحرم وحرمتها في الإسلام وعن مشروعية القتال فيها وعدم مشروعيته .

بل شمل القرآن تساؤلاتهم عن البعث والجزاء وعن الساعة أيّان مرساها . بل وسؤالهم عن الله سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيْبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وعن الماضين ﴿ وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣] .

ولم ينتهِ أمد السؤال بانتهاء هذه الحياة بل نَجِدُهُ أيضاً في عرصات القيامة يسأل الله عباده ، أو تسألهم الملائكة ، أو يسأل بعضهم بعضاً ، أو يتساءل السائل مع نفسه .

إلَّا أنها في ذلك اليوم كلها أسئلة تقرير أو تقريع لأنَّ الحقائق قد علمت والمغيبات قد كشفت .

فمن الله مثلاً :﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُوْنَ * مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُوْنَ ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥] .

ومثل : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِيْنَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِيْنَ ﴾ [الأعراف: ٦-٧] .

ومن الملائكة كقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيْرٌ * قَالُوْا بَلَىٰ . . . . . ﴾ [الملك: ٨ - ٩] .

ومن بعضهم لبعض ما قصَّ الله من محادثة بين أهل الجنة وأهل النار . ﴿وَنَادَىٰ أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقّاً فَهَلْ وَجَدْتُّمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ . . . ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

ومن تساؤلهم في أنفسهم قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوْا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] .

وأشد ما يكون السؤال تقريعاً هذا السؤال الذي لم يزل يتردّد بين السماء والأرض، ولم يجد جواباً ويسجِّل أبشع جريمة إنسانية ارتكبها أهل الجاهلية وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨-٩] .

وهكذا نجد شمول عمق الأسئلة في كتاب الله واستيعابها الدنيا والآخرة . إلَّا أنَّ الذي يهمنا هو موضوع السؤال الذي فيه تشريع وتوجيه ممَّا يمكن استخلاص الأحكام منه ، والعبرة والموعظة من سياقه .

وبالله تعالىٰ التوفيق .

ومنه نستمدّ العون والرشاد إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه .

تقسيم الكلام عند البلاغيين، وأنواع السؤال

يقسم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء . **والخبر** عندهم : هو ما اشتمل على نسبة إسنادية حاصلة قبل التكلّم ، وهو ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، والنسبة الإسنادية كما في قولك : قام زيد ، ففيه إسناد القيام لزيد .

وكذلك نفي القيام عنه ، واحتمال الصدق والكذب لإمكان مطابقة الكلام للواقع وعدم مطابقته . فإن كان زيد قد قام بالفعل فيطابق الكلام للواقع وهو الصدق ، وإن لم يكن زيد قد قام فلم يطابق الكلام للواقع فيكون الكذب .

وجاء تقييده بقولهم لذاته، احترازاً ممّا تحفه القرائن فلا يحتمل إلاّ وجهاً واحداً إمّا الصدق فقط وإمّا الكذب فقط .

والأول : نحو كلام الله تعالىٰ لأنه كلام لا يحتمل إلاّ الصدق ﴿وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾ . وكذلك كلام رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ .

أمّا الثاني : فمثل من ادّعوا النبوّة بعد رسول الله ﷺ فلا تحتمل دعواهم إلاّ الكذب فقط . وكذلك من تكلّم بما يخالف البدهيات ؛ كمن يقول : الجزء أكبر من الكلّ .

والإنشاء: هو الكلام الذي لا يشتمل على نسبة إسنادية وإنّما يطلب به إيجادها . كقولك : قم يا زيد . فإنّ القيام غير موجود وطلبت من زيد إيجاده .

والخبـر : قد يُـرَاد به الإنشـاء كقـولـه تعـالىٰ : ﴿الـوالـدات يـرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ .

وينقسم الإنشاء إلى طلبي وغير طلبي:

فغير الطلبي: كـأفعال المقـاربة ، كقـولك : كـادت الشمس أن تطلع . وأفعـال المـدح والـذمّ ، كنعم وبئس كقـولـك : نعم دار المتَّقين الجنـة . وقولك : بئس دار الكافرين النار .

وصيغ العقود بعت واشتريت . والقسم : أقسمت بالله .

وهذان القسمان الأخيران يصلحان أيضاً للخبر، ويفـرّق بينهما بـالقرائن والسيـاق . فإن قلت بعت البيت وتكـون قد أوقعت البيـع فعلاً ، كـان إخباراً وإن لم تكن قد أوقعت البيع فيكون إنشاء .

والطلبي : وهوما يشتمل على التّمنّي ، والترجّي ، والاستفهام ، ويدخل فيه الأمـر والنهي ولهما مبـاحث مستقلة . ويهمّنا في هـذا القسم نوع واحـد وهو الاستفهام لأنَّه سؤال يطلب الإفهام وله أدوات هي :

الهمـزة ـ هـل ـ مـا ـ من ـ أي ـ كم ـ كيف ـ أين ـ أنَّىٰ ـ متىٰ ـ أيَّـان . وكلها قد ورد السؤال بها في كتاب الله في مـواطن لا تكاد تحصىٰ . وإليـك بيان نماذج لها .

فالهمزة : تكون للتصوّر وللتصديق . وهذا اصـطلاح منطقي بيـانه هـو أنَّ المسؤول عنه إن كان مشتركاً بين متعدد ، ويطلب بـالسؤال تعيين أحدهـا فهو للتصوّر ، كما لو دخل ثلاثة اختباراً عمرو ، وبكر ، وزيد . فنجح واحد فقط فتقول : أيُّهم نجح ؟ ويكون الجواب بتعيين الناجح باسمه .

وإن كان غير مشترك ويطلب إثباته أو عـدم إثباتـه ، كما لـو كان الـذي دخل الامتحان زيد فقط ، فتسأل أنجح أم لا ؟ ويكون الجواب بنعم أو لا .

(وهل): وهي للتصديق فقط . تقـول : هل نجـح زيد ؟ وهي تخصّص

المضارع للمستقبل . كقولك هل تسافر إلى مكة ؟ ولهذا فقوله تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ ﴾ أقوىٰ في طلب النهي من قولك : أأنتم منتهون ؟ .

وبقية أدوات الاستفهام لطلب التصوّر فقط . وكلها كما أسلفنا جاء السؤال بها في كتاب الله تعالىٰ .

فالهمزة في التصوّر ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ﴾ . وفي التصديق ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذا بِآلِهَتِنا يا إِبْرَاهِيْمُ ﴾ .

(وهل): ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِيْنٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ .

(وما) :ويُسْأَلُ بها عن شرح الاسم أو الجنس ﴿ وَمَا رب العالمين ﴾ . ﴿ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيْلُ الَّتي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُوْنَ ﴾ .

و (من) يسأل بها عن العقلاء : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ﴿ مَنْ فَعَلَ هٰذا بِآلِهَتِنَا ﴾ .

و (أي) يطلب بها تمييز أحد المشتركين : ﴿ أَيُّ الفَرِيْقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً ﴾ ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِيْنِيْ بِعَرْشِهَا ﴾ .

و (كم) يطلب بها بيان العدد ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

و (كيف) يطلب بها يقين الحال ﴿ رَبِّ أَرِنِيْ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَر كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .

و (أين) يطلب بها تعيين المكان ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُوْنَ ﴾ ﴿ أَيْنَ المفرّ ﴾ ﴿ أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُّمُ الْمَوْتُ ﴾ .

و (متىٰ) يطلب بها تعيين الزمان ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ﴿ مَتَىٰ هٰذَا

الوَعْدُ ﴾ ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الفَتْحُ ﴾ .

و (أيان) يطلب بها أيضاً تعيين الزمان ﴿ أيـان مرسـاها ﴾ ﴿ أيَّـان يوم الدين ﴾ .

والفرق بينها وبين متىٰ أنها تأتي في مقام التعظيم للمسؤول عنه .
وكل هذه الأدوات مستعملة كما ترىٰ في كتاب الله ولا تكاد تحصىٰ .
وقد حاولت إحصاءها ففاقت الأربعمائة كعمل أوّلي .

واعلم أنَّ السؤال بهذه الأدوات قد يأتي في الجمل الخبـرية كمـا يأتي في الجمل الإنشائية ، إلَّا أنه في الجمل الإخبارية يدور على معنيين :

هما التقريري والإنكاري . لأنَّـه على خلاف قـاعدة السؤال والجـواب حيث لا يُراد به طلب المعرفة بالمسؤول عنه وإنَّمـا يُراد بـه لازم الخبر، فقول الشاعر مثلاً :

ألستم خيـر من ركب المطايـا   وأنـدىٰ العـالمين بـطون راح

فهو لا يريد أن يُفهموه ذلك لأنه هو يخبرهم به ، ولا يريـد إفهامهم بـه لأنه حالهم ، وإنَّما أراد ما وراء ذلك وهو العطاء لأنَّ أندىٰ العالمين بطون راح هم أهل السخاء وهو يمتدحهم لنوالهم .

وكـذلك قـوله تعـالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ لا يُـراد به إخبـارهم وإنَّمـا تقريرهم على أنه سبحانه ربهم ، ومن وراء هذا التقرير القيـام بحق الربـوبية عليهم من عبـادته وحـده . ومثله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمـاً فـآوَىٰ ﴾ فهـو ﷺ يعلم ذلـك ، وإنَّما يـذكـره ليؤوي اليتيم وليشكـر هـذه النعمـة ﴿ أَلَمْ نَشْـرَحْ لَـكَ صَدْرَكَ ﴾ بمعنىٰ شرحنا . وهكذا ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ .

ومن الإنكـاري : ﴿ أَفَعَيِيْنَـا بِـالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُـرُوْنَ بِـاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْـوَاتاً فَـأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ﴾ وفي هـذا إنكـار عليهم في تكـذيبهم ،

والمـراد أنهم لو رجعـوا إلى أنفسهم وتأمَّلوا مـا أنكـر عليهم فيـه ، لـوجـدوا الجواب الصحيح . فلو تأمَّلوا الخلق الأول لآمنوا بالبعث . كما أوضحه قوله تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِـي العِـظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فلو أنه نسي خلقـه ورجع إلى نفسـه لعلم أنَّ الذي أنشأها أول مرة قادر على أن ينشئها مرة ثانية .

ومثله ﴿ أَتَعْبُـدُوْنَ مَـا تَنْحِتُـوْنَ ﴾ لـو رجعــوا إلى أنفسهم ونـظروا إلى معبـوداتهم لـوجـدوهـا من نحت أيديهم ، أي هم أقـدر عليها منهـا عليهم ، فكيف يصنعونها ثم يخضعون إليها ويعبدونها وهم أقدر على الفعل منها .

وهذا القسم ينوع في أوجه البلاغـة أنواعـاً عديـدة ، وفيه أسـرار دقيقة منها :

التفخيم : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْم ﴾ ، وحكايـةً عن فرعـون ﴿ أَلَيْسَ لِيْ مِلْكُ مِصْرَ ﴾ .

ومنها التوبيـخ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَـاجِرُوْا فِيْهَـا ﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيْرٌ ﴾ .

ومنهـا العتاب : ﴿ عَفَـا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ ﴿ مَـا يُدْرِيْـكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ .

ومنها التبكيت : ﴿ وَإِذَا الْمَـوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها التعظيم : ﴿ مَنْ ذَا الَّـذِي يَشْفَعُ عِنْـدَهُ إلاَّ بِإِذْنِـهِ ﴾ أي من الذي بلغت درجته ذلك .

﴿ الحاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ ﴾ ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾ . وزاد من تعظيمه تكرار المسؤول عنه .

ومنهـا التفجُّـع : ﴿ مَـا لِهٰـذَا الْكِتَـابِ لاَ يُغَـادِرُ صَغِيْـرَةً وَلاَ كَبِيْـرَةً إلاَّ

أَحْصَاهَا ﴾ . أي ما كانوا يتوقعون ذلك .

ومنها الاستعطاف والاعتذار وإن لم يذكره البعض ويصدق على قوله تعالىٰ :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِيْنَ رَجُلاً لِمِيْقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ ربِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِيْ مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِيْنَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

ولعلَّنا نورد بعض نماذج للاستفهام في الكلام الإنشائي لمجرَّد الإيضاح . منه : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ ﴾ بمعنىٰ تدبَّروا . ومنها ﴿ مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ يرغبهم في ذلك ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يَا مُوْسَىٰ ﴾ يؤنسه بذلك . وهذا مجال واسع جداً حريّ بدراسات واسعة . ولكنَّا سنقتصر على ما جاء بصيغة سأل وما تصرف منها إن شاء الله .

مادة (سأل) وما تفرَّع عنها في كتاب الله

جاءت مادة سأل وما تفرَّع عنها على قسمين : قسم لسؤال حاجة وليس لها جواب ، وإنَّما جوابها قضاء حاجتها كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[الأحزاب: ٥٣] . وكذلك قوله : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحىٰ: ١٠] على أنَّه سائل محتاج . وقوله : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾[البقرة: ٢٧٣]. وعليه قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورىٰ: ٢٣] أي لا أطلبكم .

وليس هذا القسم محل بحث لأنه ليس معه جواب فيه تشريع .

وجاءت بمعنىٰ الاستفهام ، وجاء معها جوابها وفيه تشريع الحكم لما سألوا عنه ، وهذا القسم هو محل البحث في هذا المنهج إن شاء الله .

كسؤالهم عن المحيض ، والإجابة عنه بأنَّه أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض .

وكسؤالهم عن الخمر والميسر، والإجابة عنهما بأنَّ فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ونحو ذلك .

وقد انحصر هذا النوع في حق هذه الأمة في مسائل محدودة ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أقل الأمم سؤالاً هذه الأمة ، سألوا رسول الله ﷺ أربعة عشر حرفاً وساق ثمانية منها في سورة البقرة ، والبقية مفرقة في باقي السور ابتداء من قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[البقرة: ١٨٦] . على ما سيأتي تناولها كلها بإذن الله .

وفي قول ابن عباس رضي الله عنهما أقلّ الأمم سؤالاً هذه الأمة يدل بمفهوم المخالفة أنَّ الأمم الأخرىٰ أكثر أسئلة .

والـواقع ليست العبـرة بالكثـرة والقلّة ، أي ليست في الكمّ ولكنها في الكيف . فقـد كانت أسئلة الأمم الأخـرىٰ تعنّتيـة وتعجيـزاً وشـاركهم في ذلك المشركون .

فمن اليهود وقولهم لموسىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـا مُوْسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَـكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ ﴾ [البقرة: ٥٥] .

فكذلك المشركون : ﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَـا اللَّهُ أَوْ تَأْتِيْنَـا آيَةٌ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] .

وعن النصـارىٰ قالـوا مـا قصَّ اللَّه عنهم وعن الحـواريين منهم : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ يَـا عِيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيْعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَـائِدَةً مِنَ السَّمَـاءِ قَالَ اتَّقُـوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ۞ قَالُـوْا نُرِيْـدُ أَنْ نَـأْكُـلَ مِنْهَـا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوْبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَـدْ صَدَقْتَنَـا وَنَكُوْنَ عَلَيْهَـا مِنَ الشَّاهِـدِيْنَ ۞ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْـزِلْ عَلَيْنَا مَـائِدَةً مِنَ السَّمَـاءِ تَكُوْنُ لَنَـا عِيْداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْـرُ الرَّازِقِيْنَ ۞ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَـزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُـرْ بَعْـدُ مِنْكُمْ فَـإِنِّي أُعَـذِّبُـهُ عَـذَابـاً لَا أُعَـذِّبُـهُ أَحَـداً مِنَ العَالَمِيْنَ ﴾ [المائدة : ١١٢ ـ ١١٥] .

فأنزلها الله مع هذا الوعيد لأنها آية ملموسة فلم يكفر بها إلاَّ معاند .

وقد سأل المشركون قريباً من ذلك . كما قال تعالىٰ عنهم ﴿ وَقَـالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَـكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُـوْعـاً ۞ أَوْ تَكُـوْنَ لَـكَ جَنَّـةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيْراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيْلاً ۞ أَوْ يَكُوْنَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِيْ السَّمَاءِ وَلَنْ

نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُوْلاً ﴾

[الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣] .

وقد بيَّن تعالىٰ أنه لم يأتهم بآية ملموسة إلاَّ إبقاء عليهم لأنه إذا جاءهم بها ثم كفروا فإنَّ سنَّة الله إهلاكهم . كما قال في هذه السورة من قبل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُوْنَ وآتَيْنَا ثَمُوْدَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوْا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وكما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُوْنَ ﴾[1]

[الأنعام : ٨] .

وقد بيَّن تعالىٰ أنه لا يأخذ هذه الأمة كما أخذ الأمم الماضية في وجود رسلهم وذلك في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيْهِمْ ﴾

[الأنفال : ٣٣] .

وآثر ابن عباس في موضوع السؤال التشريعي ، وهو الذي اقتصرت عليه هذه الأمة وترتيبها كما جاء في المصحف الشريف كالآتي :

قسم جاء يسألونك بدون واو . وقسم جاء ويسألونك بالواو .

الأول: يسألونك عن الأهلة، يسألونك ماذا ينفقون، يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، يسألونك عن الخمر والميسر ، يسألونك ماذا أحلَّ لهم ، يسألونك عن الساعة ، يسألونك عن الأنفال ، يسألونك عن الروح .

الثاني : ويسألونك عن اليتامىٰ ، ويسألونك عن المحيض ، ويسألونك عن ذي القرنين ، ويسألونك عن الجبال .

---

(١) وقد علم الله تعالى منهم أنهم لن يؤمنوا بأي آية كقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُون﴾[الأنعام : ١١١] .

وقال بعض العلماء : إن السؤال بدون الواو يسألونك جاء واقعياً ، أي أنهم سألوا وجاء الجواب عند السؤال .

أمَّا مع الواو فقد افترض السؤال، وأنَّ الله سبحانه علم منهم أنهم سيسألون فيما بعد فحكىٰ السؤال والجواب مسبقاً، حتى إذا جاء سؤالهم كان جوابه موجوداً .

ولكن بتأمل القسمين يبدو أنَّ الكل قد جاء السؤال والجواب في حينه ، إلَّا أن بينهما فرقاً ؛ وهو ما كانت معه الواو فهو أحقُّ وأولىٰ بالتساؤل ، أو هو في المرتبة الأولىٰ ، لأنه عملي وألزم لهم في التشريع . فمثلاً السؤال عن اليتامىٰ ، والسؤال عن المحيض ، فهذا جزء من حياتهم وبعضٌ منهم مثل :

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ فهو شخص بعينه ولَه تاريخ وآثار ، ﴿ويسألونك عن الجبال ﴾ لأنها ملازمة لهم في حياتهم في مرعىٰ أنعامهم وإيوائهم ، وقد أمروا بالنظر إليها وكيف نصبت ، ﴿وإذا سألك عبادي عني ﴾ فألزم ما يكون عليهم معرفتهم لربهم .

بينما السؤال بدون الواو فقد اشتمل أشياء ليس من ورائها إدراك كسؤالهم عن الروح، لذا لم يأتهم الجواب عمَّا سألوا : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ .

وسؤالهم عن الأهلة جاء الجواب بغير ما سألوا : ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ .

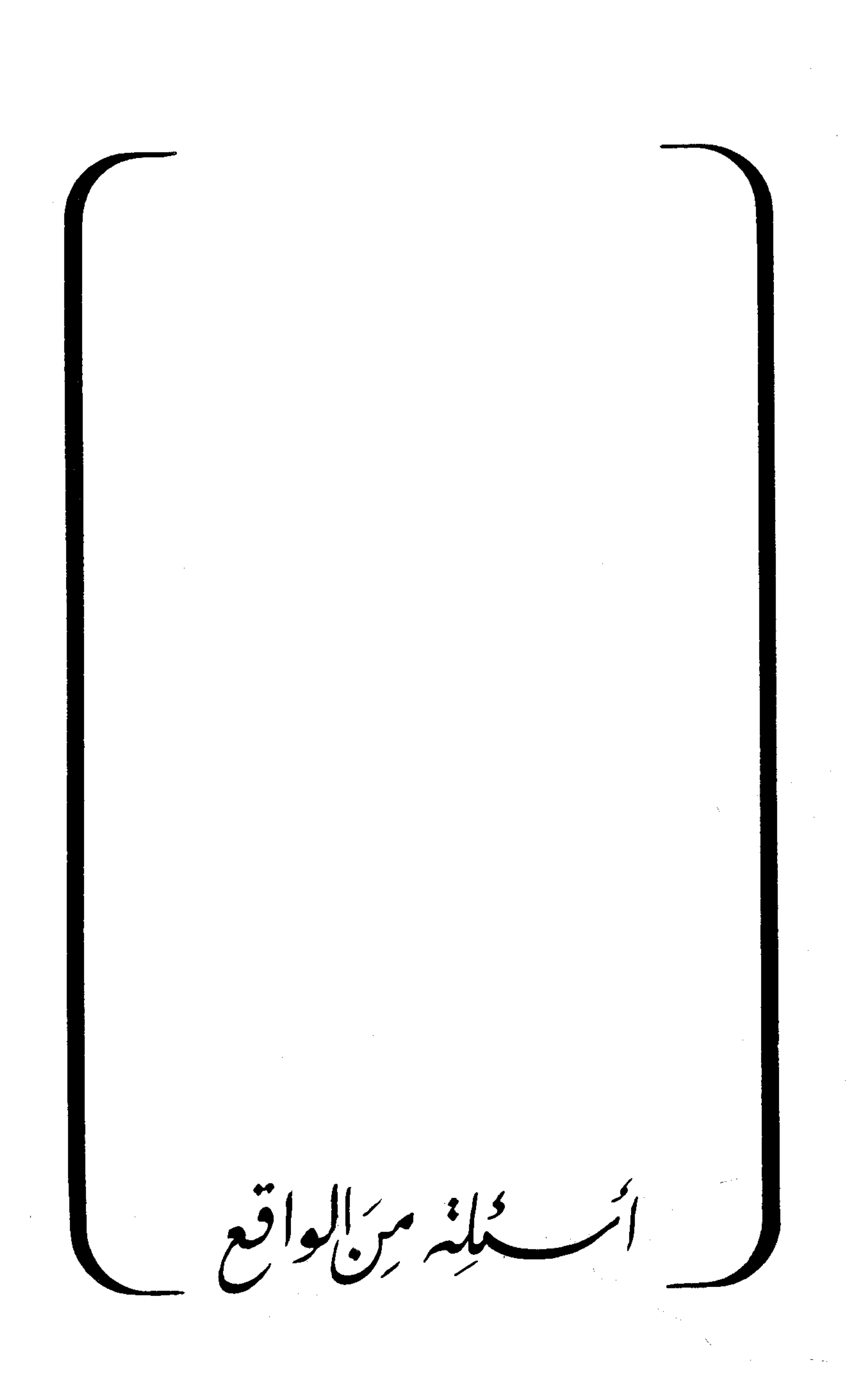
﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ، وعندهم علم به من قبل أنه محرم . ﴿ يسألونك ماذا أحلَّ لهم قل أحلَّ لكم الطيبات ﴾ ، لأنَّ طيبها موجب حلِّيتها . . . إلخ . .

ومن جانب الجواب جاء كله مصدراً « بقل » وفي موضع واحد معها

الفاء فقل وهذا في خصوص الجبال قال والـدنا **الشيـخ** الأمين في تفسيره « أضواء البيان » الفاء للتعقيب ، لأنَّ نسفها سيكون يوم القيامة . وموضع جـاء الجواب مبـاشرة بـدون واسطة قـل ، وهـو سؤالهم عن الله ، جـاء مباشرة ﴿فإنِّي قريب﴾ و إشعـاراً بأنَّ قـربه سبحـانه لا يحتـاج واسـطة ، وهكذا نجد الإعجاز في هذا الأسلوب .

*****





أسئلة من الواقع



****

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بِيْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

هـذا السؤال صـادر من المؤمنين . وروي في أسباب نـزوله أقـوال ، أقـربها أنـه سبحانـه لما أنـزل قولـه : ﴿وقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غـافر: ٦٠] قـالوا : لا نعلم في أيّ وقت نـدعوه . فنـزل قـولـه تعـالىٰ : ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ .

وجـاء عن الإمام أحمـد عند ابن كثيـر ؛ أنَّهم كانـوا راجعين من بعض الغزوات ، فكانوا لا يهبطون وادياً ، ولا يصعدون مـرتفعاً إلَّا رفعـوا أصواتهم بالتكبير . فدنا منهم ﷺ فقال : « يـٰأَيُّها النَّاس اربعوا على أنفسكم فـإنَّكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنَّما تدعون سميعاً بصيـراً ، إنَّ الذي تـدعون أقـرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

ويؤكِّـد كـون السؤال من المؤمنين ، إضـافـة السؤال إلى العبـاد ، وإضافة العباد إلى الله ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ لأنَّ إضافة العباد إلى الله في كتاب الله تأتي بهذا المعنىٰ ؛ كقوله : ﴿ إنَّ عِبادِي ليسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] . وقولـه : ﴿وَعِبَادُ الـرَّحمٰنِ الذينَ يَمْشُـونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنـاً ﴾ [الفرقان: ٦٣] . وما جاء بعد ذلك يؤيِّده : ﴿ فَإِنِّي قريبٌ أجيبُ دَعْوَةَ الداعِ إذا دَعَانِ فَلْيستجيبوا لي﴾ .

وجاء السؤال من غير المؤمنين ، سواء من المشركين ، أو ممَّن كانوا قبلهم . فممَّن كان قبلهم جاء تساؤل فرعون : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] . وكان جواب موسىٰ عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِين * قال إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٦-٢٧] . لأنَّ فرعون سأل بحرف (ما) وهذا الحرف يُسأل به عن الماهية ، يعني فرعون بسؤاله عن نوعية رب العالمين ، فلمَّا أجابه موسىٰ بصفات الله من أنَّه رب السائل ورب آبائهم ، أي خالقهم ومربّيهم ، فلم يناسب فرعون . فأعاد قائلاً : ﴿إِنَّ رسولَكُمُ الذي أُرسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ لأنه لم يأتِ الجواب مطابقاً للسؤال . وأجاب موسىٰ مرة أخرىٰ ، قال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨] أي رب الكون كله من مشرقه لمغربه .

ومثل هذا السؤال جاء عن المشركين ؛ سألوا رسول الله ﷺ عن ذات الله ، وطلبوا منه أن يبيّن لهم حقيقة الإلـٰه ، فجاء الجواب : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[الإخلاص : ١ ـ ٤] . ويلاحظ الإيجاز والاختصار والإجمال في جواب سؤال المشركين . سواء سؤال فرعون أو سؤال المشركين حيث اقتصر على قوله : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ . وعلى تقرير وحدانية الله تعالىٰ وأنه الفرد الصمد .

بينما نجد التفصيل والإيضاح في جواب سؤال المسلمين ، ونلحظ فيه تودّد المولىٰ سبحانه لخلقه ، وقربه منهم ، ورحمته ، وإرشاده إيّاهم . حيث أضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم :﴿وإذا سألك عبادي﴾ لأنَّ وصف العبودية هو أعظم مراتب المودَّة والقرب ، ولذا وصف حبيبه وصَفِيَّهُ في أسمىٰ مواطن الشرف بعبده : ﴿ سُبْحَانَ الذي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾[الإسراء : ١] فهي رحلة تشريف وتكريم لم يسبقه أحد عليه ، ولم يلحقه أحد إليه . وأيضاً : ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف : ١] .

والخضر وهو في مقام تعليم نبيه موسىٰ عليه السلام : ﴿فَوَجَدَا عَبْدَاً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَاً﴾ [الكهف : ٦٥] .

وعن سليمان وداود عليهما السلام : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [صٓ : ٣٠] . كما قال عنه في سورة (صٓ) : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [صٓ : ١٧] .

وعيسىٰ عليه السلام في معـرض التحدِّي لقـومه ، وإثبـات المعجزة ، قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِيْ نَبِيّاً * وَجَعَلَنِيْ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِيْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ إلى آخر السياق [مريم : ٣٠ ـ ٣١] .

فـإضافـة السـائلين إليـه سبحـانـه بصفـة العبـوديـة ، تنبىء لأول وهلة موالاتهم فهم عباده وهو مولاهم . والمولىٰ لا يتخلَّىٰ عن عباده .

ثم يستهـل الجواب بهـذا الوصف الـذي هـو أدلّ مـا يكـون على تلك الصلة بين الـرب وبين العبد ، ﴿ فـإنِّي قريبٌ﴾ فـأيُّ قربٍ هـو؟ إنَّـه مـا لا نستطيع تقديره ، كيف وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ ﴾ [ق:١٦] .

وقال سبحانه : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوْا ﴾ [المجادلة : ٧] .

فهـو سبحانـه أقرب إلى عبـده من أقرب الأقـربين ، كما قـال تعالىٰ : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُوْنَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على قرب اللَّه من عباده في جميع أحوالهم .

ونتيجـة هذا القـرب هي النصرة والتـأييـد ، وبـدون حـدود ، حتى إنَّ الآيـات الكونيـة لتستجيب لتحقيق ذلك . حتَّىٰ إنَّ الفـرد من عباد الله ليقف

موقف التحدِّي للعالَم أجمع . وقد سجل القرآن الكريم لنا صوراً يتوقف أمامها العقل ، ويجمد دونها الفكر ، حيث تتوقف نواميس الكائنات ، وتُخرقُ فيها العادات ، لتظهر قدرة الله في خلقه ونصرة الله لعبده .

فهذا خليل الرَّحمٰن يتحدَّىٰ النمرود وقومه ، فيحطم أصنامهم فيجمعوا أمرهم على أن يحرقوه . ويتركه سبحانه يقدرون عليه ، ويمهلهم سبحانه حتى يؤججوا نيرانهم وتستعر كأقوىٰ ما تكون . ويلقونه ، ولآخر لحظة وهو في المنجنيق إلى النار يسأله جبريل ألك حاجة ؟ فيقول : أما إليك فلا . وأمَّا إلى الله فبلىٰ . فيقول له : سله . فيعلن مدىٰ قربه من الله وانتصار الله إليه : علمه بحالي يغني عن سؤالي . فتتجلّىٰ القدرة الإلـٰهية وقربه سبحانه من عبده وخليله بأن يسلب النار ناموسها ويقلب فيها عليه طبعها : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدَاً وَسَلَاماً على إبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] فأي قرب أقرب من هذا ومن يكون أقرب لإبراهيم في تلك اللحظات من ربه؟! وقد أعلن أقرب الناس إليه وهو أبوه موقفه منه . في قوله : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ [مريم : ٤٦] فكان سبحانه أقرب إليه ممَّا سواه . وأبطل كيدهم كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدَاً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطَاً إلى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيها لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٠ ـ ٧١] .

ويوسف عليه السلام ، لمَّا أخذه إخوته من أبيه وأرادوا قتله ، ثم عدلوا إلى إلقائه في الجبّ وهم أقرب الأقربين إليه . لكن قرب الله منه ورحمته به كان أعظم : ﴿فلمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ * وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم بأمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف : ١٥] فحفظه سبحانه في قاع الجب على صغره وضعفه وآنسه بما أوحىٰ به إليه .

وهذا الكليم موسىٰ عليه السلام من أول يوم ولادته ، وخافت أمه عليه . تلقته يد العناية وكلأته عين الرعاية : ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إليكِ وَجَاعِلُوهُ

مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] أُمٌّ تخاف على ولدها ، فيؤمّنهـا الله عليه ، لأنـه تعالىٰ أقرب منها إليه ، وكانت رعاية الله أشمل كما قال في سـورة (طه) :
﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عليكَ مَرَّةً أُخرَىٰ * إذْ أَوْحَيْنا إلى أُمِّكِ مَا يُوْحَىٰ * أَنْ اقْذِفِيهِ في التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ في اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّلِي وَعَدُوٌّلَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه:٣٧-٣٩] فكانت رعاية موسىٰ عليه السلام في طفولته برعاية اللّه .

ثم هو بعد الرسالة : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِيْ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِيْ * اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْيَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِيْ مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه : ٤٢ - ٤٦] فتلك هي معيّة القرب يسمع ويرىٰ سبحانه .

ولهذا لمَّا أمر أن يسري بقومه ، كـان مستشعراً تلك المعيّـة ، مدركـاً هذا القرب كمـا قال تعـالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْـنَا إِلَـىٰ مُـوْسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَـادِيْ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَـاشِرِيْنَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِـرْذِمَةٌ قَلِيْلُونَ * وإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وإِنَّا لَجَمِيْعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٢ - ٥٦] يعني فرعون لمَّا أصبح ووجد موسىٰ قد سرىٰ ليلاً ببني إسرائيل أرسل من يعبىء له جيشـاً من أهل المدن ، واستخفَّ بموسىٰ ومن معه ، وقال عنهم إنَّهم شرذمـة قليلون . ثم بين تـأذيهم منهم بأنهم - يعني بني إسـرائيـل - يغيـظونهم مـع دوام حـذر فرعون وقومه منهم . ومـع شدة الحـذر فقد أفلتـوا منهم ، وسروا ليـلاً بدون علمهم . إلى قوله مبيناً الموقف : ﴿ فَـأَتْبَعُوهُـمْ مُشْـرِقِيْنَ ﴾ [الشعراء : ٦٠] أي سـار فرعـون في أثرهم عنـد الإشراق وَجَـدَّ في سيره حتى لحق بهم . فلمَّـا تراءىٰ الجمعان ؛ جمع فرعون ومن معه وجمع موسىٰ ومن معه ، وكان ذلـك على حافة البحر . حيث إنَّ موسىٰ أُوحي إليه أن يسير في ظـلّ سحابـة حيث تسير فكان منتهىٰ سيرها إلى ساحل البحـر ، وهنا وجـد بنو إسـرائيل أنفسهم في مضيق ؛ البحـر من أمامهم ، وفـرعـون وجنـوده من وراءهم ، وهنـا قـال

أصحاب موسىٰ : إنّا لمدركون . وعندها يبرز يقينُ نبيِّ الله موسىٰ بقرب ربه منه ومعيّته له التي وعده الله إيّاها من قبل : ﴿إِنَّنِيْ مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرىٰ﴾ [طه:٤٦] وأيقن أنَّ الله لن يتخلّىٰ عنه ولن يكله لنفسه ، فأعلنها في قوة ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِيْنِ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

وحالاً يأتي نصر الله ، فيستجيب لموسىٰ مجرد توجهه إليه : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيْمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] .

إنَّها آية القدرة الإلـٰهية ، ونتيجة القرب من عباده سبحانه ، وإلاَّ فما مدىٰ تأثير ضربة البحر بالعصا حتى يصبح وهو المتلاطم الأمواج فيجمد كل فرق كالطود العظيم ، وحالاً تصبح أرضه قاعاً وطريقاً يبساً . إنَّها آية للعالَم كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِيْنَ﴾ أي أنزلناهم إلى البحر على إثر موسىٰ وأصحابه ، ظنّاً منهم أنَّ البحر سيظل على ما هو عليه حتى يدركوا موسىٰ ومن معه . ولكن كانت النتيجة على العكس : ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِيْنَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِيْنَ * إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الشعراء : ٦٥ - ٦٧] .

إنَّه صدق الوعد من الله ، أولاً في قوله : ﴿ إِنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرىٰ﴾ [طه:٤٦] إنَّه تصديق وإيمان ويقين من موسىٰ عليه السلام بقرب ربه منه ، واستجابة دعائه ونجاته من عدوّ الله وعدوه .

وما كان لأحد إلَّا الله وحده ، هو الذي ضمن نجاةَ موسىٰ ومن معه على ضعف منهم وقوة من عدوهم . وصدق الله العظيم ﴿فَإِنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الداعِ إذا دَعَانِ﴾ .

تقدَّم الكلام على نوعية السؤال من المشركين ومن المسلمين ، وعن مدىٰ وضوح الجواب في كونه سبحانه قريب من عباده ، وأنه قرب نصرة ورحمة ، وتقدَّمت الأمثلة في حياة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في

أخطر المواقف مع أممهم ، كإبراهيم مع النمرود وإلقائه في النار . ونتيجة قرب المولىٰ من نبيّ الله يوسف وهو في الجب وقرب الله منه ، وكليم الله موسىٰ وهو في التابوت ملقىٰ في اليمّ وقرب الله منه ، ومرة أخرىٰ نبي الله موسىٰ وقومه وقرب الله منهم ؛ البحر أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، وتخوّف قومه الإدراك والهلاك ، وردُّه عليهم سريعاً وبقوة : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ .

ثم إنَّ هناك أيضاً نبيّ الله يونس ﴿إِذْ أَبَقَ إِلى الفُلْكِ المَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِيْنَ * فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهْوَ مُلِيْمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِيْنَ * للَبِثَ في بَطْنِهِ إلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُون﴾[الصافات: ١٤٠ - ١٤٤] فمن كان قريباً من يونس إذ أصبح في بطن الحوت كميت يسير به قبره ؟ ولكنه حي ترعاه عين الحي القيوم . كيف كان يتنفس ؟ كيف كان يتغذّىٰ ؟ كيف استمرَّت له الحياة ؟ أسئلة لا جواب عليها إلاَّ بقدرة الله . وقربه سبحانه منه امتداد لما كان عليه وهو في السعة من تسبيح لله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِيْنَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاْءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يقطين﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٦] حتى بعد أن أخرجه من بطن الحوت وضيقه إلى العراء وسعته ، لم يتركه على ضعفه وما لحق به ، فأنبت عليه الشجرة التي تظلّه وتقيه . فمن كان أقرب إليه من ربه ؟ لا أحد إلاَّ الله .

وجاء خبر النفر الثلاثة الذين كانوا فيمن قبلنا ، آواهم المبيت إلى الغار فسقطت على فم الغار صخرة سدَّته عليهم ، فلم يستطيعوا الخروج منه . إنَّهم يعانون الموت وهم أحياء أشبه بيونس في جوف الحوت . فأيقنوا أنه لا نجاة لهم إلاَّ باللجوء إلى الله ، وأنه وحده هو القريب منهم السميع لدعائهم . ولئن كان يونس دائم التسبيح لله ، وكان تسبيحه من أسباب نجاته كما قدَّمنا ، فإنَّ هؤلاء النفر الثلاثة سلكوا نفس المنهج إذ قالوا : لا نجاة لكم إلاَّ بالتوسّل إلى الله بصالح أعمالكم التي لكم عند الله . فليقم كل

واحد منكم وليدع ربه بصالح عمله فيما يعلمه الله منه . فقام الأول وتوسَّل ببر الوالدين فقال : اللهمَّ إنَّه كان لي أبوان كبيران كنت آتيهما بالحليب مساءً ، ولا أقدم عليهما أحداً . فنأىٰ بي المرعىٰ ذات ليلة ، فما جئتهما بالحليب إلَّا قد ناما ، فكرهت إيقاظهما ، وأولادي يتضاعون جوعاً عند قدمي فلم أقدمهم على والديّ ، ومكثت قائماً عند رأسيهما حتى استيقظا في الفجر ، فسقيتهما . اللهمَّ إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنَّا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة قليلاً .

فقام آخر وقال متوسلاً بأداء الأمانة وحق الأجير : اللهمَّ إنَّه كان عندي أجير عمل لي يوماً فأعطيته أجره كيلاً من شعير ، فاستقله وتركه وذهب مغضباً . فبعته ونميته له حتى صار نعماً كثيرة . ثم جاءني يطلب ما تركه أولاً ، فقلت له : اذهب إلى هذا الوادي وخذ أجرك هناك . فعاد وقال : أتسخر مني : إنَّ بالوادي نعماً كثيرة . قلت : هو والله أجرك نميته لك فاستاقه كله . اللهمَّ إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك فافرج عنَّا ما نحن فيه . فانفرجت قليلاً حتى رأوا النور ولم يستطيعوا الخروج .

فقام الثالث وتوسَّل إلى الله بعفَّته عن الحرام فقال : اللهمَّ إنَّه كانت لي ابنة عم أحبها أشدّ ما يحب الرجال النساء ، فراودتها عن نفسها فامتنعت ، فأخذتها سنون فجاءت تطلب عوناً ، فقلت لها : ذاك الذي تعرفين ، فامتنعت ثم رضيت . فلمَّا جلست منها مجلس الرجل من المرأة ، غطَّت وجهها حياءً وقالت : يا هذا اتَّقِ الله ولا تفضنَّ الخاتم إلَّا بحقه . فقمت عنها وأعطيتها ما تزيد . اللهمَّ إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة عنهم وخرجوا يمشون .

فمن كان أقرب إليهم من الله ومن كان أسمع لدعواتهم ؟ إنَّه الله سبحانه وحده .

وهنا لفتة كريمة وهي أن نبيّ الله يونس لم ينجّه من الهلاك في بطن

الحوت كونه كان نبيّاً بقدر ما أنجاه الله بسبب تسبيحه لله تعالىٰ . وهكذا هؤلاء النفر الثلاثة لم يتوسلوا إلى الله بنبيّ من أنبيائهم ؛ ولا بمخلوق بين يديّ الله ، ولكن بصالح أعمالهم عند الله تعالىٰ . فكان سبحانه أقرب إليهم من ذويهم ومن أقرب الأقربين إليهم .

وها هو أعظم حدث في تاريخ الإسلام يشهده غار ثور في رحلة الهجرة النبوية ، ويبدأ هذا الحدث من بيت رسول الله ﷺ ، إذ يمكر به أعداؤه ويتآمرون على قتله خفية ، فعمدوا لعشرة رجال يتربّصون خروجه ليضربوا ضربة رجل واحد . ولكن الله كان أقرب إليه فأرسل إليه جبريل فأخبره ونهاه أن يبيت في فراشه فخلَّف علياً مكانه . وخرج تحت ظلال سيوفهم غير مبالٍ بهم يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس : ٩] .

فأخذ الله عيونهم عنه ، وحجبه الله عنهم ، وألقىٰ التراب على رؤوسهم . ومضىٰ في رعاية الله حتى وصل الغار بسلام . ولمَّا أصبح المشركون وفوجئوا بعليّ ولم يجدوا رسول الله ﷺ خاب أملهم وجنَّ جنونهم ، وأخذوا يطلبونه في كل اتجاه حتى وصل الطلب إلى فم الغار بقص أثرهما . ولكنهم وقفوا أمام الغار مبهوتين حيارىٰ . إذ الأثر انقطع عند فم الغار كالذي يقول لهم إنَّه بداخله . ولكن رأوا بأعينهم ما لا يصدق معه ، وهو نسج العنكبوت يشمل فم الغار وكأنَّ لها أمداً بعيداً . وعش لحمامة فيه بيضها . فمتىٰ بنته ومتىٰ ألقت بيضها ؟ وأغصان نبات متدليات على جوانب الغار ، فمتىٰ نبت ومتى طال وتدلَّىٰ ؟

إنَّها الحيرة والدهشة . بينما الصديق في داخل الغار تساوره المخاوف فيقول : والله يا رسول الله لو نظر أحدهم موضع نعليه لأبصرنا . فيقول له ﷺ مقالته التي بدَّدت مخاوفه وبدَّلت الخوف أمناً وهو أنه أخبره بقرب الله منهما ومعيَّته لهما : « ما بالك باثنين الله ثالثهما » أي لئن كان العدو قريباً

منّا على فم الغار فالله أقرب إلينا منه ، وأقوىٰ على نصرتنا عليهم . وقد جاء القرآن الكريم بهذا الحدث في معرض النصر والحفظ فقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا * فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

لا شك أنَّ الله قريب من عباده ، سميعٌ لدعائهم ، مجيبٌ لسؤالهم ، فما عليهم إلَّا أن يستجيبوا لربّهم ويؤمنوا به كما ندبهم بقوله : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] أي يرشدهم في أمور دينهم ودنياهم ويجعلهم على بصيرة من أمورهم .

وهذا الذي دعاهم إليه سبحانه وهو الاستجابة إليه هو الفطرة والجبلة . حتى إن المشركين إذا اشتدَّ بهم كرب دعوا اللَّه مخلصين له الدين كما قال تعالىٰ عنهم : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٢] يكفر بنعمة الله عليه إذ نجّاه ويكفر بالله الذي استجاب له حين دعاه .

وقد ذكرهم ما لا ينبغي نسيانه في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس : ٢٢ - ٢٣] .

فالله قريبٌ من عباده يجيب دعوة الداعي ولو كان مشركاً . بل في الحديث إنِّي لأنصر المظلوم ولو كان كافراً . علم أنَّ له رباً فدعاني .

وذلك لأنَّ الدعاء هو عين العبادة ، وهو مخّ العبادة . فالمشرك والكافر حين يلجأ إلى الله بالدعاء يكون أشد ما يكون إخلاصاً لله ويكفر بكل ما سواه فلكأنَّه يقول : لا إلـه إلَّا أنت يا الله .

وقد اقترن الدعاء بجميع العبادات ؛ من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج . بل وفي جميع أحوال المسلم صباح مساء شدة ورخاء .

جاء في الجواب على سؤالهم الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبَادِيْ عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيْبُوا لِيْ وَلْيُؤْمِنُوا بِيْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وتقدَّم الحديث عن ورود السؤال وعن بيان القرب وإجابة الدعاء في صورة علمية ونماذج واقعية . والحديث هنا عن قوله تعالىٰ : ﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلَّهم يرشدون ﴾ .

يقول المفسّرون : استجاب وأجاب بمعنىٰ واحد . وأنشدوا لكعب الغنوي قوله :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى الندا   فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ

فقال : يستجبه وقال مجيب ولم يقل مستجيب .

ولكن المعهود في فقه اللغة أنَّ زيادة الحروف تدلُّ على زيادة المعاني كما قالوا : زيادة المبنىٰ تدلُّ على زيادة المعنىٰ . وهنا أصل المادة : أجاب وزيد هنا الهمزة والسين والتاء وهي حروف الطلب مثل : فهم واستفهم وغفر واستغفر : أي طلب الفهم وطلب المغفرة . فيكون هنا قد ضمن معنىٰ طلب الإجابة من الله لدعائهم . لمَّا قال تعالىٰ : ﴿ فإنِّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ ﴾ فإنَّ فيه حثّاً وتحضيضاً على وفرة الدعاء وضمان الإجابة

بوعد من الله ، ولكأنَّهم بادروا بالدعاء طمعاً في إجابته سبحانه لدعائهم .

ويتضمَّن هذا المعنىٰ إجابتهم لأوامر الله بالطاعة والامتثال . ويؤيِّده قوله تعالىٰ : ﴿وليؤمنوا بي﴾ إيماناً جازماً أني أعطيهم كل ما سألوا ، وكذلك يستسلموا لله تعالىٰ استسلام إيمان ويقين .

وفي هذا الأسلوب معنىٰ لطيف ، وهو في إيراد الإجابة مرتين ؛ **الأولىٰ** : من جانب الله تعالىٰ في قوله : ﴿ أجيب دعوة الداع ﴾ وإجابته عطاؤه . **الثانية** : إجابة العبد لله ؛ إيمانه به وطاعته وسؤاله حاجاته ، وعليه ؛ فإذا كان المولىٰ يجيب العبد في دعائه وهو سبحانه غني ، فليجتهد العبد في إجابته لله لشدة حاجته لربه .

فهو سبحانه يدعونا إليه مع غناه عنَّا ، فكيف نعرض عنه مع افتقارنا إليه ؟ ! وقد جاء الحديث القدسي مبيناً مدىٰ افتقارنا للدعاء في جميع شؤوننا ، كما في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه وقد جاء فيه : « يا عبادي كلكم ضال إلَّا من هديته فاستهدوني أهدكم » . ومصداقه من القرآن قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيْ هَدَاْنَا لِهَذَا وَمَاْ كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقوله : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهْوَ المُهْتَدِيْ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيَّاً مُرْشِداً ﴾ [الكهف : ١٧] . فنحن في حاجة إلى طلب الهداية دائماً ﴿ إهدنا الصراط المستقيم﴾ . وكما في الحديث القدسي :

« يا عبادي كلكم جائع إلَّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم » ولا شك أنَّ من لم يطعمه الله مات جوعاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ الَّذِيْ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوْعٍ ﴾ [قريش : ٣ ـ ٤] .

ودعوة نبي الله موسىٰ : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيْ لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيْرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] فالله هو الرازق ، والعباد مفتقرون إليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو

الْقُوَّةِ الْمَتِيْنِ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

والدعاء يستجلب الرزق من الله تعالىٰ قَلَّ ذلك أو كثر ، كما جاء في الأثر عن نبيّ الله موسىٰ عليه السلام قال : يا رب إنِّي لتعرض لي الحاجة وأستحيي أن أسألك إيّاها . قال تعالىٰ يا موسىٰ سلني كل شيء : سلني ملح عجينك وشراك نعلك وعلف دابتك .

« يا عبادي كلكم عارٍ إلاَّ من كسوته فاستكسوني أكسكم » . وهذا مشاهد حيث يأتي الإنسان إلى الدنيا عارياً ، والله تعالىٰ يعطف قلب الأم فتلفّه في تلك اللفائف إلى أن تلبسه ما يناسبه .

« يا عبادي إنَّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » أي اسألوني المغفرة لذنوبكم .

ثم بيَّن تعالىٰ سعة فضله وواسع عطائه ، فقال : « يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ، ما نقص ذلك ممَّا عندي إلاَّ كما ينقصُ المخيط إذا أُدخل البحر » .

فهذا الحديث بيَّن مدىٰ حاجة العبد للدعاء ؛ حسّاً ومعنىً ، في دينه ودنياه ، كما بيَّن عظيم فضله على عباده . ولهذا كان أشدّ الناس عناية بالدعاء هم الرسل والأنبياء ، وقد قال ﷺ : « لكلِّ نبي دعوة مستجابة ، وقد دعا كل نبيّ وتعجَّل دعوته ، وأنا ادخرت دعوتي إلى يوم القيامة شفاعة لأمتي » . أي كدعوة نوح على قومه : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىْ الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِيْنَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : ٢٦] . . .الآيات . فاستجاب الله له وأهلكهم بالطوفان وبقيت دعوته ﷺ يبعثه الله بها المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون ، حينما يشتدّ الموقف على الخلائق في المحشر ، ويضجّون إلى جميع الرسل ليشفعوا في فصل القضاء ، وكل يعتذر . حتى إذا ما أفضوا إلى رسول الله ﷺ قال : « أنا لها فيذهب فيسجد تحت العرش ويحمد الله حتى يعطىٰ سؤاله » .

وقد أثر عنه ﷺ الدعوات في جميع الحالات ؛ في سره وعلنه ، وفي ليله ونهاره وفي حربه وسلمه ، وفي عاداته وعباداته ، في مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، في نومه واستيقاظه .

ولو تأمّلنا جميع العبادات لوجدنا الدعاء عنصراً فعالاً من الوضوء إلى الصلاة ، إلى الصيام ، إلى الزكاة ، إلى الحج ، إلى الجهاد . وعلى جميع أنحائه ﷺ . وقد ألفت في ذلك المؤلفات ، وجمعت الأحاديث والآيات ، وعني بها الصالحون من عباد الله واتّخذوها أفضل القربات .

لأنَّ حقيقة الدعاء هي إظهار الحاجة واللجوء إلى الله ، فلا يتركه إلاَّ غافل جاهل مستكبر متبطّر . وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠]وهذا وعد كريم ، ثم قابله بقوله : ﴿ إِنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] فتجد أنَّ المعرض عن الدعاء المستكبر عنه في موضع المستكبر عن عبادة ربه . أي إنَّ الدعاء معادل بالعبادة ، وتكون نتيجة معاملته بعكس حاله ، وهو دخوله جهنم داخراً صاغراً عياذاً بالله . ولهذا لا ينبغي للعبد أن يقصر دعاءه على حالات الشدائد ، بل وفي حالة الرخاء تعبداً لله تعالىٰ ، وتواضعاً لعظمته ، وتعرضاً لفضله ، وتعوداً على سؤاله ولجوءاً إليه كما جاء في الحديث : « من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليُكثر من الدعاء في الرخاء » . قال المنذري : رواه الترمذي .

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء في الرخاء » . ويشهد لهذين الأثرين الحديث المشهور : « تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

والداعي دائماً مع الله ، وفي رعايته وعنايته . قال البخاري في الأدب المفرد بسنده إلى أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عزَّ وجلّ أنا

عند ظنّ عبدي وأنا معه إذا دعاني » . وقد أخرجه في الصحيح في الدعوات .

وختاماً نأتي بحديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلُّكم على ما ينجيكم من عدوّكم ، ويدر لكم أرزاقكم ؛ تدعون الله في ليلكم ونهاركم » . فإنَّ الدعاء سلاح المؤمن . ومصداق ذلك واضح من منهجه ﷺ في حياته فإنَّ أشد عدو لقيه ﷺ المشركين في غزوة بدر ، على قلَّة من العدد ، ونقص في العدة ، ووفرة العدو عدداً وعدة ، فكان أقوىٰ عوامل النصر أن قام ﷺ في العريش يدعو ربه رافعاً يديه ضارعاً إليه ، حتى كان يسقط رداؤه عن كتفيه ويرفعه له الصديق ويقول : بعض مناشدتك لربك يا رسول الله ! إنَّه منجز لك وعدك .

وكذلك قوله تعالىٰ عن نبيّ الله نوح : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح : ١٠ ـ ١٢] والاستغفار سيد الدعاء لأنه طلب المغفرة .

وكذلك الدعاء سلاح المؤمن ، وأعظم سلاح كان لرسول الله ﷺ ليلة تآمروا على قتله ، فخرج تحت ظلال سيوفهم وهو يدعو الله ويقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩] .

ولمَّا كان جالساً مع أبي بكر رضي الله عنه، فجاءت امرأة أبي لهب تولول وفي يدها فهر ، تقول أين محمد ؟ لقد هجاني . فقال الصديق : إنِّي أخشاها عليك . فقال : « لا تخف سأقول كلمات يحجبني الله عنها » وفعلاً دعا الله وتلا ما شاء الله من كتاب الله ، حتى إذا جاءت فوقفت على الصديق تقول : أين ذهب صاحبك ، لقد هجاني ، أي بقراءة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] فقال الصديق : والله ما هو بهجاء . فقالت : صدقت وانصرفت .

وتقدَّم في قصة النفر الثلاثة ، ما أنجاهم الله إلَّا بالدعاء .

أنواع الإجابة

من مباحث السؤال ﴿ وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِيْ عَنِّيْ فَإِنِّيْ قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . وما يتعلَّق بشروط استجابة الدعاء ، وأقسام الاستجابة ، وأوقات تحرّي الإجابة ، وآداب الدعاء .

وقد تقدم الحديث عن السؤال وجوابه ، ومعنىٰ القرب وصور منه وأهمية الدعاء ، وحاجة المسلم إليه في جميع أحواله .

وهنا ينشأ تساؤل عن واقع حال الكثيرين من الداعين ، والمكثرين من الدعاء ، ويتأخَّر عليهم تحقيق ما دعوا به . بيْنما الجواب هنا صريح في قوله تعالىٰ : ﴿ فإنِّي قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعانِ ﴾ . فكأنَّه وعد بإجابة كل داع . بينما بعض الداعين لا يجاب لهم .

والإجابة على هذا التساؤل من وجهين :
وجه يتعلَّق بمسلك العبد نفسه .
ووجه يتعلَّق بعلم الله بمصالح العبد وما هو خير له .

أمَّا الأول : فكما جاء في الحديث الصحيح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله طيب لا يقبل إلَّا طيباً ، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطيِّبَاتِ، وَاعْمَلُوْا صَالِحَاً إِنِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيْمٌ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿يٰأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام فأنَّىٰ يُستجاب لذلك » رواه مسلم .

وكـذلك عن ابن عبـاس رضي الله عنـه قـال : تليت هـذه الآيـة عنـد رســول الله ﷺ : ﴿ يَـأَيُّهَــا النَّـاسُ كُلُوا مِمَّـا في الأَرْضِ حَـلاَلاً طَيِّبَـاً ﴾ [البقرة:١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ادع الله لي أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال له ﷺ : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعــوة . والذي نفس محمـد بيده إنَّ العبـد ليقذف اللقمـة الحرام في جوفه ما يتقبَّل منه عمـل أربعين يومـاً ، وأيَّما عبـد نبت لحمه من سحت فالنار أولىٰ به » . رواه الطبراني .

فهذان حديثان صريحان في أنَّ المطعم والمشرب أساس صحة العمل وقبوله . وموجهان للعبد بإظهار المناسبة بين طيب الطعـام وحله ، وبين قبول الدعاء وإجابته . وذلك أنَّ كل لحم في الإنسان نبت من مطعم حـلال ، كان ذلـك اللحم طيباً ، ومن ذلـك القلب واللسان . فـإذا توجّـه إلى الله بقلبه ، وسأل الله بلسانه ، ومدَّ يـده إلى الله كان حـريّاً بـذلك لـطيب منبته وطهـارة مادته . أمَّا العكس فغذي بالحرام فإذا أراد التوجّه إلى الله بقلبه عزله الحرام عن ربه . وإذا سأل الله بلسانه كـدر الحرام صفـو دعائـه . وإذا مدَّ إلى الله يـده حجبها وردَّهـا ذلك الحـرام الذي امتـدَّت إليه ، ولا يتفق أن تمتـد إلى الحرام تحاد الله في كسبه ، ثم تمتد إلى الله تسأله من فضله .

وجـاء أيضاً في الملبس ، وإن لم يكن منبتـاً لحماً ، إلَّا أنـه يستـره ، ويشمله فجاء الحديث عن ابن عمـر رضي الله عنهما يـرفعه إلى النَّبيّ ﷺ : « مـن اشتـرىٰ ثوبـاً بعشرة دراهم ، وفيـه درهم من حـرام لم يقبـل الله لـه صلاة ما دام عليه » رواه أحمد .

ومن لم تقبل صلاته ، فدعـاؤه من باب أولىٰ . وهكـذا يتأكـد لإجابـة الدعاء أن يصدر من قلب قد استجاب لله في امتثال أوامره واجتنـاب نواهيـه كما قال تعالىٰ في الجواب : ﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي ﴾ .

ومن أسباب تأخير الإجابة أيضاً أو عدمها أن يدعو بما لا يرضـاه الله ،

كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم . كما في الحديث عند مسلم : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء» .

فهذه أسباب من جانب العبد ، إمَّا بسبب منبته في مطعمه ومشربه وملبسه ، وإمَّا بسبب اعتدائه في دعائه بإثم ، أو قطيعة رحم ، أو استعجال ثم ترك .

الوجه الثاني : أمَّا ما كان من جهة المولىٰ سبحانه ، وهو ممَّا يعلمه سبحانه من مصلحة العبد ، فإنَّه لا شك يفي للعبد بما وعده . ولكن لعلمه سبحانه بما يصلح لحال العبد فإنَّه يجعل إجابة الدعاء وفق تلك المصلحة ، وهذا دائر بين الآتي :

١ ـ إمَّا إجابة لعين ما سأل العبد .
٢ ـ وإمَّا إعطاؤه غيره ممَّا هو أنفع له .
٣ ـ وإمَّا دفع مكروه عنه بدلاً من مسألته .
٤ ـ وإمَّا أن يدخر العطاء له إلى يوم يلقاه ، وهو أحوج ما يكون إليه .
وإليك النصوص في ذلك :

١ ـ فعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « ما على وجه الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلاَّ آتاه الله عزَّ وجلّ إيّاها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . فقال رجل من القوم : إذاً نكثر . قال : « الله أكثر » . يعني أكثر إجابة .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم ينصب وجهه لله عزَّ وجلّ في مسألة إلاَّ أعطاه إيّاها : إمَّا أن يعجلها له ، وإمَّا أن يدَّخرها له في الآخرة » .

فهذان الحديثان ينصان ؛ أنَّ الداعي بين ثلاث خصال : إمَّا إجابة لما سأل . وإمَّا صرف السوء عنه بدلها ، وإمَّا ادّخارها له في الآخرة .

وقد جمعهما حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عند أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلَّا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث : إمَّا أن يعجل له دعوته ، وإمَّا أن يدخرها له في الآخرة ، وإمَّا أن يصرف عنه من السوء مثلها » الحديث .

وهذا في الواقع مقتضىٰ حكمة العليم الخبير ، لأنه أعلم بحال الإنسان كما في الحديث : « إنَّ من عبادي لمن يصلحه الفقر ، ولو أغنيته لفسد حاله . وإنَّ من عبادي لمن يصلحه الغنىٰ ، ولو أفقرته لفسد حاله » .
وكقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى : ٢٧] .

أمَّا في الأخرة فجاء عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيّ ﷺ قال : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول : عبدي إنِّي أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني ؟ فيقول : نعم يا رب . فيقول : أمَّا إنَّك لم تدعني بدعوة إلَّا استجبت لك . أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ، ففرجت عنك ؟ فيقول : نعم يا رب. فيقول إنِّي عجلتها لك في الدنيا. ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم ترَ فرجاً ؟ قال : نعم يا رب . فيقول : إنِّي ادَّخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها ؟ فيقول : نعم يا رب . فيقول: : إنِّي عجلتها لك في الدنيا . ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم ترَ قضاءها ؟ فيقول : نعم يا رب . فيقول : إنِّي ادَّخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . ـ قال رسول الله ﷺ ـ : فلا يَدَعُ الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلَّا بين له إمَّا أن يكون عجل له في الدنيا ، وإمَّا أن يكون ادَّخر له في الآخرة . قال : فيقول المؤمن في ذلك المقام : يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه» .

وعلى هذا فلا يفوت على المسلم دعاء ، إمَّا في الدنيا بما يصلح له ، وإمَّا في الآخرة وهو أشدّ حاجة لـه . ولذا قـال ﷺ فيما يـرويه أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تعجزوا في الدعاء فإنّـه لن يهلك مع الدعاء أحد » . وقال ﷺ : « من فتح لـه منكم باب الـدعاء ، فتحت لـه أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئاً يعني أحبُّ إليه من أن يسأل العافية » .

وقال ﷺ : « إنَّ الدعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء » .

وفي قـولـه ﷺ : « ومـا سئـل الله شيئـاً يعني أحبُّ إليـه من أن يسـأل العافية » ، توجيه لأعلىٰ مراتب السؤال ، وأعلىٰ أنواع الطلب . يؤكِّد هـذا ما جـاء في ليلة القدر وهي هي في علوّ شـأنها ورفعـة قدرهـا . تقول عـائشـة ـ رضي الله عنهـا ـ : ماذا أقـول إن صـادفتهـا يـا رسـول الله ؟ فيقـول لهـا : « قولي : اللهمَّ إنَّك عفو تحب العفو فاعف عني » .

لأنَّ من عفا الله عنه وعافاه في بدنه ودينه ، وعافـاه يوم يلقـاه فقد فـاز وأفلح .

وروىٰ البخـاري في الأدب المفرد أن رجـلًا أتىٰ النَّبيّ ﷺ فقـال : يـا رسـول الله أي الدعـاء أفضل ؟ قـال : « سل الله العفـو والعافيـة في الدنيـا والآخرة » ثم أتاه الغد فقال : يـا نبيّ الله أيُّ الدعـاء أفضل ؟ فقـال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإذا أعطيت العافية في الدنيا والآخـرة فقد أفلحت » .

وروىٰ بسنـده أيضاً عن عـائشة ـ رضي الله عنهـا ـ قالت : دخـل عليّ النَّبيّ ﷺ وأنا أصلّي ، وله حاجة فأبطأت عليه قال : « يا عائشة عليك بجمل الـدعاء وجـوامعه » فلمَّـا انصرفت قلت : يـا رسول الله ومـا جمـل الـدعـاء وجوامعه ؟ قال : « قولي : اللهمَّ إنِّي أسألك من الخيـر كله عاجله وآجله مـا علمتُ منه وما لم أعلم . وأعوذ بك من الشرِّ كله عاجله وآجلـه ، ما علمت

منه وما لم أعلم . وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . وأسـألك ممَّـا سألـك به محمـد ، وأعـوذ بك ممَّـا تعوَّذ منـه محمد . ومـا قضيت لي من قضاء فـاجعل عـاقبتـه رشداً » .

ومن دواعي استجابة الدعاء افتتاحه بالثناء على الله ، وختامه بـالصلاة على النَّبيّ ﷺ . فعن معـاذ ـ رضي الله عنه ـ قـال : سمـع النَّبيّ ﷺ رجـلاً وهو يقول : يا ذا الجلال والإكرام . فقال : « قد استجيب لك فَسَلْ » . وعن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : كل دعاء محجوب حتى يصلِّى على محمد ﷺ . وروىٰ الترمذي عن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : أَنَّ الـدعاء مـوقوف بين السمـاء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيّك ﷺ .

أوقات إجابة الدعاء

بما أنَّ الوقت جزء من الزمن ، والأزمنة كلها سـواء من حيث أنها دورة فلكية ، فاليوم دورة شمسية ، والشهـر دورة قمريـة . لا فضل ليـوم على يوم ولا لشهر على شهر من هذه الناحية . ولكن تفاضل الأيام وشرف الشهور بما تشهده من أحداث فاضلة ، ومناسبـات شريفـة . فيوم الجمعـة فضل بشهـود خلق آدم عليه السلام . وبـأحداث تتعلَّق بـه . كما جـاء الحديث الـطويل : « خيـر يوم طلعــت فيه الشمس يـوم الجمعة ، فيـه خلق آدم ، وفيـه أسكن الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تيب عليه . وفيه ساعة لا يصادفها عبد قائم يصلِّي يسأل الله حاجته إلَّا أعطاه إياها » .

ويوم الإثنين قال عنه ﷺ : « يوم ولدت فيه وعلَيَّ فيه أنزل » .

ويـوم الخميس قال : « فيـه تعرض الأعمـال على الله » . ولهذا كـان يصوم يوميّ الإثنين والخميس . وهكذا يوم عرفة ويوم عاشـوراء . وعشر ذي الحجة ويوميّ العيدين .

وكذلك الشهور . منها الأربعة الحرم ومنها شهر رمضان . وقد شرف شهر رمضان بمشهده نزول القرآن الكريم هدىً للناس وبيّنات من الهدىٰ والفرقان . بل شهر شهد نزول الكتب السماوية كلها ، كما قال ابن كثير رحمه الله . فإذا كان يوم الجمعة أو شهر رمضان ، فالوقت وقت فاضل في العالم كله . لا يختصّ بفضله مكان دون مكان .

وكذلك الأمكنة من حيث هي أجزاء من هذه الأرض لا تفاضل بينها ، وإنَّما تتفاضل بما خصَّت به من أحداث استقرَّت بها أو شهدتها ، كالبيت الحرام وما يتبعه ، وبيت المقدس وما حوله ، وطيبة الطيبة وما حوته ، وبيت لحم على ما قيل أيضاً .

وليست هذه الفضائل وتلك الخصائص ملكاً لإنسان يتحكَّم فيها ، ولا هي حق لمن شاء أن يضفيها ، إنَّما هي عطاء من الله ، فكما فاضل سبحانه بين الأيام والأشهر ، فكذلك هو سبحانه الذي منح الفضل للأماكن وشرَّفَ ما شاء منها .

وكل من الأزمنة والأمكنة التي فضلها الله تعالىٰ ، فإنَّ أعمال الخير فيها تتفاضل بحسب فضل ذلك الزمان ، أو هذا المكان . كما جاء قوله ﷺ في حق المكان : « صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام » أي إنَّ الصلاة في المسجد الحرام أفضل ممَّا في سواه ، إذ تعدل مائة ألف . والصلاة في بيت المقدس تعدل خمسمائة صلاة .

وفي حق الزمان قال ﷺ : « من عمل فريضة في رمضان كان كمن أدَّىٰ سبعين فريضة فيما سواه ، ومن عمل أو أدَّىٰ نافلة فيه كان كمن أدَّىٰ فريضة فيما سواه » .

وصوم يوم عرفة يكفر سنتين ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة . . . إلخ . . . إلخ فهذه مفاضلة الأعمال بتفاضل الزمان والمكان .

وهكذا الدعاء إذا كان في الزمان أو في المكان الذي خصَّه الله تعالىٰ بالفضل فإنَّه يتفاضل بقدر فضل هذا الزمان أو ذلك المكان .

وعليه إذا صادف الإنسان زماناً فاضلاً أو مكاناً كذلك ، فليجتهد في الدعاء قدر استطاعته لفضله عمَّا سواه ، فقليل العمل فيه كثير ، فكيف بمن يُكْثِرُ فيه العمل ؟ !

والأماكن المفضلة هي الأماكن المقدسة التي ذكرنا ؛ في الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وبيت المقدس . ولا يعرف مكان في العالم له ما لها ، ولا يقصد قط مكان في العالم لما يقصد لها ، كما في الحديث : « لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد ؛ مسجدي هذا والمسجد الأقصىٰ والمسجد الحرام » ، وما عداها فالكل سواء ، اللهمَّ إلَّا المساجد في كل البلاد أفضل ممَّا سواها من أماكن تلك البلاد ، لأنها بيوت الله ، فكما أنَّ الأسواق شر الأماكن ، فالمساجد أفضل الأماكن .

والذي يهمنا هنا الأوقات المفضلة التي هي مظنَّة تقبُّل الدعاء وإجابة الداعي ، وهي متفاوتة قدراً ومقداراً ، أي تتفاوت في فضلها وفي مدتها ، نجملها في الآتي :

١ ـ ثلث الليل الأخير ، جاء في صحيح البخاري قال : باب الدعاء نصف الليل . وساق حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يتنزَّل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر فيقول : هل من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » والترجمة في صحيح البخاري بنصف الليل ، ليتهيَّأ الإنسان قبل وقت التنزّل أو النزول على الرواية الأخرىٰ . وخصَّ هذا الوقت لسكون العالم ، وهدوء الحركة ، وغفلة النائمين ، وعزيمة من يقوم في ذلك الوقت مع نوازع الرغبات في الخلود إلى الراحة والنوم .

وقد تضمَّن هذا الحديث إغراء العباد بالدعاء ، ووعداً بالإجابة ، ولهذا كان موضع عنايته ﷺ يتهجَّد ويتعبَّد .

٢ ـ عقب الأذان : كما جاء في الحديث « إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ وَسَلُوا الله لي الوسيلة » وحديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهمَّ رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائي . (والمقام المحمود : هو الشفاعة العظمىٰ في جميع الأمم لفصل القضاء) .

٣ ـ ما بين الأذان والإقامة : لحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة » . رواه النسائي وصحَّحه ابن خزيمة .

٤ ـ أثناء الصلاة : خاصة في حالة السجود ، لأنه أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا وإنِّي نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ، فأمَّا الركوع فعظموا فيه الرب ، وأمَّا السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

٥ ـ والصائم عند فطره ، وليالي رمضان كلها وخاصة ليلة القدر ، وشأنها معلوم وقد جاء عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قلت يا رسول الله ماذا أقول إن أنا صادفتها ؟ قال : « قولي اللهمَّ إنَّك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني » . وتقدَّم الكلام على هذا الدعاء مع إيجازه أنه جمع الخير كله والفلاح .

٦ ـ وعشية عرفة : لما جاء في الحديث : « إنَّ الله ينزل إلى سماء الدنيا عشية يوم عرفة فيباهي بأهل الموقف ملائكة السماء ثم يقول : أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه » .

٧ ـ وينبغي أن يعلم أنَّ هـذه كلها أوقـات عـامـة يستـوي فيهـا عمـوم الناس ، ولكن هناك أوقات خاصة تختصّ بأصحابها بحسب اختلاف الأحوال والأوضـاع ، وهي أوقات الشـدائد والكـروب . فكـل شخص أينمـا كـان إذا نزلت به حاجة ، أو ضاقت به ضائقة ولجأ إلى ربه سبحانه بصـدق وإخلاص موقناً أنه لا مغيث له إلاَّ الله ، ولا فارج كربـه إلاَّ الله ، ولا مذهب همـه إلاَّ الله ، ولا قاضي حاجته إلاَّ هو سبحانه ، فدعا ربه موقناً بالإجـابة فلن يخيب الله رجـاءه ، ولن يرد يـديه صفـراً . حتى ولو كـان كافـراً ، فكم نجاهم في ظلمات البحر يدعونه سبحانـه رغباً ورهبـاً . وفي الحديث القـدسي : « إني لأنصر المظلوم ولو كان كافراً ، علم أنَّ له رباً فدعاني » .

بقي التطلّع إلى معرفـة أي أسماء الله أحبُّ إلى الله ، فنـدعوه بهـا ؟ وما هو الاسم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ ؟

لنعلم أولاً أنَّ الله تعالىٰ قال : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَـاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُـوهُ بِهَا ﴾ [الأعـراف : ١٨٠] أي بكل منهـا . وقالـوا ليتخيّر العبـد من الأسماء مـا يتنـاسب مع حاجته ، فطالب الرزق يدعو يا رازق . وطـالب المغفرة ، يـدعو يـا غفار ونحو ذلك . وهي كما جاء في الحديث : « إنَّ لله تسعاً وتسعين اسمـاً مائـة إلاَّ واحداً من أحصاهـا دخل الجنـة » قيل : أحصـاها : فهم معنـاها ، ودعـا بكل منها فيما يناسبه .

أمَّا الاسم الذي إذا دعي به أجاب ، فقد جاء عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهمَّ إنِّي أسـألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحبّ إليك الذي إذا دعيت بـه أجبت ، وإذا سئلت به أعطيت . وإذا استرحمـت به رحمت ، وإذا استفرجت به فرجت » فقال يوماً : « يا عائشة هل علمت أنَّ الله قد دلَّني على الاسم الذي إذا دعي بـه أجاب ؟ » قـالـت : قلت بأبي أنت وأمي يـا رسول الله فعلمنيـه . قـال : « إنَّـه لا ينبغي لك يـا عائشـة » . قالت : فتنحيت وجلست سـاعـة ثم قمت

فقبلت رأسه . ثم قلت له يا رسول الله علمنيه ، قال : « إنَّه لا ينبغي لك يا عائشة أن أعلمك ، إنَّه لا ينبغي أن تسألي به شيئاً للدنيا » . قالت : فقمت فتوضَّأت ثم صليت ركعتين ، ثم قلت : اللهمَّ إنِّي أدعوك الله وأدعوك الرَّحمٰن ، وأدعوك البرّ الرَّحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنىٰ كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، أن تغفر لي وترحمني . قالت : فاستضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « إنَّه لفي الأسماء التي دعوت بها » . رواه ابن ماجه . ولا شك أنه من أسمائه الحسنىٰ التي علمتْها أو لم تعلمها . وهذا من فقه أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وقد تكون أخذته من صنيع رسول الله ﷺ في قوله : « اللهمَّ إنِّي أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء همِّي وحزني » .

وقوله ﷺ لها : « إنَّه لا ينبغي أن تسألي به شيئاً للدنيا » أي لأنها أقل من أن تسأل بهذا الاسم الأعظم . وهو مثل قوله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلَّا الجنة » أي لعظمته وجلاله .

اللهمَّ إنَّا نسألك بأسمائك الحسنىٰ وصفاتك العليا أن توفقنا لكل ما تحبه وترضاه .

*****

السؤال الثاني الأهلة

****

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

الأهلة جمع هلال ، وهو القمر في أوله ، ثم يُقال له القمر . فإذا اكتمل قيل له بدر ، وأصله من رفع الصوت بالتهليل ، حيث كانوا إذا تراأوه هلَّل بعضهم لبعض برؤيته . وسؤالهم عنها كان بموجب رؤيتهم إيّاها متفاوتة من هلال دقيق في أول استهلاله ، ثم يتدرج في نموه حتى يكتمل بدراً ممَّا يثير تساؤلهم ، ويسترعي الجواب مبيناً الحكمة في ذلك ومهمتها في حياتهم .

ونص السؤال والجواب : هو قوله تعالىٰ : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ .

وممَّا يسترعي هذا السؤال مشاهدتهم للشمس تأتي وتروح على وتيرة واحدة تشرق صباحاً وتغرب مساء ، ولم يتغير من شكلها ولا توقيتها شيء ، والكل من آيات الله فجاءهم الجواب بأن تغير الأهلة وتطوّرها للتوقيت العام للناس ، والخاص للعبادات ﴿ قل هو مواقيت للناس والحج ﴾ ولا شك أنَّ مع الحج غيره من صيام وزكاة . . . إلخ على ما سيأتي ، إن شاء الله .

والمواقيت : جمع ميقات ، وهي ضرورة لنظام حياة الأمم ، وقد اتَّخذت كل أمة لنفسها توقيتاً خاصاً بها ، كالتاريخ العبري ، والقبطي ، والفارسي ، وغير ذلك .

وقد ارتبطت المواقيت غير العربية بمنازل الشمس في بروجها ومسيرها العام السنوي . ولكل تاريخ نقطة بداية عند أهله ؛ كالتاريخ الميلادي من ميلاد المسيح .

وكان للعرب توقيت إلاَّ أنه ليست له بداية ، وكانت كل سنة وحدة بذاتها ، وربما ربطوا بعض السنوات ببعض الأحداث كعام الفيل مثلاً .

وباتفاق جميع الأمم أنَّ السنة هي الوحدة الكبرىٰ للزمن ، وأنها عند الجميع اثنا عشر شهراً ، وكلها ـ ما عدا العرب ـ تعتبر الشهر بحركة الشمس ، والسنة عندهم شمسية ، بينما العرب تعتبر الشهر بحركة القمر والسنة عندهم قمرية .

وتفرق السنة الشمسية عن القمرية أحد عشر يوماً تقريباً . وإليه الإشارة في قوله تعالىٰ عن أهل الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِيْ كَهْفِهِمْ ثَلاَثَمِائَةٍ سِنِيْنَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ [الكهف : ٢٥] فالثلاثمائة قمرية والتسعة الزائدة فرق ما بين الشمسية والقمرية .

فجاء الإسلام واعتبر التوقيت بالسنة القمرية ، ووحدة الشهر بالهلال : ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِيْ كِتَابِ اللّٰهِ﴾ [التوبة : ١٣٦] .

وفي هذا النص القرآني الكريم ، تَمَيُّزٌ للعرب ثم للمسلمين عن بقية الأمم . كما أنه التوقيت الفطري الذي يستوي في معرفته الحاضر والباد ، والعالم والجاهل ، والصغير والكبير . لأنَّ استهلال الأهلة آية كونية محسوسة مرئية ، بخلاف منازل الشمس ومسيرها العام وتنقلها في البروج التي هي الحَمَل والجوزاء والسرطان . . . إلخ . لأنَّ معرفة ذلك موقوفة على من يعلم مسار النجوم ومطالعها . وليس كل الناس يعلم ذلك .

فطرة التوقيت في الإسلام :

والإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ كان توقيته أيضاً فطري . ففي الصلاة

مثلاً ، وهي عبادة يومية ربطها بحركة الشمس اليومية ، وهي الحركة المشاهدة الملموسة من شروق الشمس إلى غروبها ، أو بمجموع الليل والنهار ، فربط الأوقات الخمسة بذلك ؛ فالصبح : من انفجار الفجر من ظلمة الليل ، والظهر : من زوال الشمس عن كبد السماء ، والعصر : بتحولها إلى ربع القوس ، والمغرب : بغروبها ، والعشاء : بالشفق الأحمر التابع للغروب . وهذا يعرفه كل من وجبت عليه الصلاة بدون توقف على علم خاص به ولا حساب يحدّده .

والأمور التي ربطها الشارع بالأشهر وهي متعددة ، فقد أناط تحديدها بالهلال ، لظهوره ويسْر معرفته على الجميع ، وهي المحرم وصفر وربيع . . . إلخ .

والتوقيت المحدَّد بالأشهر في القرآن كثيرة وهي :

١ ـ الحج وهو المنصوص عليه في هذا الجواب لقوله تعالىٰ : ﴿ الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

٢ ـ الصوم وهو الوارد قبل هذا السؤال والجواب مباشرة على ما سيأتي .
وقد قال ﷺ : « صوموا لرؤيته » يعني رؤية هلال شهر رمضان .
لقوله تعالىٰ : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وبه يبطل الصوم بالحساب لأنَّ الله جعل المواقيت للأهلّة وليس للحساب .

٣ ـ الكفارات : سواء كفارة الظهار في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ [المجادلة : ٤] .
أو كفارة القتل كما في قوله تعالىٰ : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٩٢] .

٤ ـ الحمل والرضاع : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

٥ ـ وتمام الرضاع : ﴿ وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَـوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة:٢٣٣] .

٦ ـ مـدة الإيلاء من النسـاء : ﴿لِلَّذِيْنَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَـائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَـةِ أَشْهُـرٍ فَإِنْ فَاؤُا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦] .

٧ ـ عُدَدُ النساء :

أ ـ المتـوفىٰ عنها زوجهـا : ﴿وَالَّـذِيْنَ يُتَـوَفَّـوْنَ مِنْكُمْ وَيَـذَرُونَ أَزْوَاجَـاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَاً ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

ب ـ والمطـلّقة التي ليست من ذوات الحمـل ولا الحيض . كـالصغيرة والآيسـة : ﴿ وَالـلَّائِيْ يَئِسْنَ مِنَ المَحِيْضِ مِنْ نِسَـائِكُمْ إِن ارْتَبْتُمْ فَعِـدَّتُهُنَّ ثَلَاثَـةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق : ٤] أي كـذلك عدَّتهنَّ مثلهنَّ .

﴿ وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] .

٨ ـ الأشهـر الحرم : ﴿إِنَّ عِـدَّةَ الشُّهُورِ عِنْـدَ اللَّه اثْنَا عَشَـرَ شَهْـراً فِيْ كِتَـابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الـدِّيْنُ القَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وقد جاء بعدها قـوله تعـالىٰ : ﴿إِنَّمَا النَّسِيْءُ زِيَـادَةٌ فِيْ الْكُفْرِ يُضَـلُّ بِهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُـوَاطِئُوا عِـدَّةَ مَا حَـرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَـرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُـوْءُ أَعْمَـالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِيْ القَـوْمَ الْكَـافِـرِيْنَ ﴾ [التوبة : ٣٧] .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيْهِ قُلْ قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] . وقوله : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِيْنَ

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الحَرَامَ ﴾ [المائدة : ٢]

وغير ذلك ممَّا فيه تفاصيل أحكام الشهر الحرام ، وسيأتي تفصيلها في السؤال الخاص بها إن شاء الله .

والذي يهمّنا هنا حكم هذا الجواب على سؤالهم : ﴿قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وذلك لأمرين :

الأول : أنها هي الشهور المعتبرة عند الله من أول يوم خلق الله السموات والأرض ، ويكفي هذا أصالة لها وصلاحية : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرَاً فِيْ كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [التوبة : ٣٦] .

الثاني : لارتباط التشريع بها ولا يجزىء غيرها عنها قطعاً وذلك للآتي :

١ ـ ما جاء في نفس هذه الآية منها أربعة حرم ، أي من هذه الإثني عشر لا غيرها .وللأشهر الحرم أحكام في الحرب والسلم على ما سيأتي في موضوعها . وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ المغايرة فيها تعتبر نسيئاً وهو زيادة في الكفر .

٢ ـ ما جاء في جواب السؤال ؛ مواقيت للناس والحج . والحج أعظم أركان الإسلام أحكاماً ، وهي كما قال تعالىٰ : ﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة : ١٩٧] واتَّفقوا على أنها ؛ شوال، وذو القعدة، وجزء من ذي الحجة . ولا يتأتَّىٰ الحج في غيرها . ويلاحظ أنها مرتبطة بالأشهر الحرم ، الممنوع فيها قتال ، وذلك لحكمة بالغة ، وهي ؛ أنهم كانوا يغيرون على بعضهم ويتقاتلون فيما بينهم أثناء العام ، فإذا دخلت الأشهر الحرم كفوا عن القتال وأوقفوا الغارات . وهنا يتأتَّىٰ لمن أراد الحج أن يسير بين

القبائل آمناً حتى يحج ويرجع، ويلاحظ أنَّ تلك الأشهر كافية لمن في أقصىٰ الجزيرة أن يأتي إلى مكة يحج ويرجع إلى وطنه قبل أن تنتهي الأشهر الحرم . وقد ربط بينها وبين الهدي وبين الكعبة في الحرمة كما في قوله تعالىٰ : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ﴾ [المائدة:٩٧] أي قياماً لهم في حياتهم آمنين على أنفسهم في الأشهر الحرم ، كما هم آمنون في جوار الكعبة والبيت الحرام ، ومن دخله كان آمناً .

٣ ـ فريضة الصيام محدودة بشهر رمضان ولن يحلّ محله غيره .

٤ ـ وكفارات الأَيمان شهرين متتابعين . ولا يتأتّىٰ ذلك إلاَّ باعتبار الشهور القمرية ، ولا تصحّ بغيرها لأنَّ غيرها قد تتوالىٰ واحداً وثلاثين يوماً ، أو أحدها ثمانية وعشرين ، وهذا مغاير لما بيَّن ﷺ ؛ الشهر ثلاثون يوماً ، وتسع وعشرون ، فلا يزيد عن الثلاثين ولا ينقص عن التسع والعشرين .

٥ ـ وكذلك عُدَد النساء ، ومدَّة الإيلاء . وكل ما تقدَّم ذكره ممَّا فيه حلال وحرام . ولما كان هذا تشريع للجميع كان ميسراً ومنضبطاً عند الجميع ، لأنَّ القاعدة الشرعية أنَّ كل ما كان عامّ التشريع كان في متناول العموم . فرؤية الهلال في السماء عامة في أقطار الدنيا وظاهرة لكل من نظر إليها . وذلك من آيات الله ، ولن يتأتّىٰ ذلك بحركة الشمس الدائبة والتي لا يعرف منازلها إلاَّ أهل الاختصاص بمعرفتها .

أمَّا مواقيت الناس ففي معاملاتهم ، وأهمها الوفاء في الدين ، كما قال تعالىٰ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىً فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ومعلوم أنَّ الأجل المسمَّىٰ لا بدَّ له من توقيت .

وكذلك البيوع كما في بيع السلم ، قال ﷺ : « من أسلف في شيء

فليسلف في شيءٍ معلوم وكيل معلوم إلى أجلٍ معلوم » .

وقد جاءَ ربط هذا الآجال بقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الَّذِيْ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٥] .

فتقدير القمر منازل من كبريات آيات الله ، ما خلق الله ذلك إلَّا بالحق . فلا يتطرَّق إليه خلل ولا يعتريه باطل ، وهي بأدقّ ما يكون : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيْمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِيْ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يٓس : ٣٩ - ٤٠] .

وهكذا على مرِّ السنين آلاف وملايين ، لم يطرأ على هذا النظام البديع أيّ تغيير ، وكلٌّ يجري إلى أجلٍ مسمًّى . وتبارك الله رب العالمين . وفيه لفت لقدرة المولىٰ سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَىٰ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

أمَّا كيف قدرت منازله وكيف دقَّ حسابه في مسيره ، فهذا ما لا يدرك كنهه إلَّا العزيز العليم . ويكفينا أن نقف عند حد إدراكنا ، والارتباط بمصالحنا في المواقيت للناس والحج .

التطبيق العملي للتوقيت القمري

تقدَّم أنه لم يكن للعرب نقطة بداية للتوقيت ، وكانت السنة وحدة مستقلة ولربما ربطوا بعض السنين بأحداثها كعام الفيل مثلاً .

فلمَّا قامت للمسلمين دولة وكان لهم نظام في التشريع والالتزامات في العهود والعقود ، كان لا بد من تحديد نقطة بداية للتوقيت الإسلامي ، وفي

خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ رفعت له رقعة بأجل في شهـر من شهور السنـة شعبـان . فقال : أيّ شهـر هو ، من أي السنـوات ؟ السنـة التي مضت ، أم السنة التي تأتي ؟ فاجتمع مع أهل المشورة واتفقوا على جعل الهجرة النبـوية بداية لهذا التوقيت . حيث أنهـا كانت هي بـداية بنـاء كيان الأمـة الإسلاميـة وتميّزها ، ووضع قواعد التشريع وانطلاق الإسلام إلى العالم . إلَّا أنهم بدل أن يجعلوا بداية السنة شهر بـداية الهجـرة ربيع الأول ، جعلوه شهـر المحرم بعـد انتهاء النـاس من موسم الحـج واستئنافهم الحيـاة العملية من جـديـد . فكانت الهجرة هي بداية التاريخ الإسلامي وسمي التاريـخ الهجري لـذلك . واعتبرت بداية السنين فيه هو المحرم وهو من الأشهر الحرم فتبدأ بشهر حرام وتنتهي بشهر حرام ، وهو ذو الحجة .

بقي تحقيق ابتداء كل شهر وتطبيقه عملياً . وأهـم ذلك في أمرين :

أ ـ الصيـام : وهــو المنصــوص عليــه فـي آيــة السـؤال ، أمَّــا الحــج فبذكره صراحة : ﴿ قُـلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّـاسِ وَالحَجِّ ﴾ وأمَّـا الصوم ، فضمناً لمجيء آية السؤال عن الأهلَّة عقب آيات تشريع الصيام مباشرة في ترتيب المصحف .

أمَّـا اعتبار البـداية لكـل شهر بـالنسبة لبلدان العـالم الإسلامي ، فهـو خـاضع لمبحث اتحـاد المطالـع أو اختلافهـا ، وهـو مبحث قـديم نشـأ بعـد الخلفاء الراشدين ، في بداية الدولة الأموية ، لحديث كريب : بعثته إحـدىٰ أمهات المؤمنين من المدينـة إلى معاويـة في الشام ، في حـاجة لهـا فصادف دخول رمضان فرأوه ليلة الجمعة ، ورآه معهم كريب ، وصام الناس بذلـك . فقدم كريب المـدينة قبـل نهايـة الشهر ، فتـذاكر كـريب مع ابن عبـاس رؤية الهـلال ، فقال ابن عبـاس : إنَّا لم نـرَ الهلال إلَّا ليلة السبت ، أي : صـام أهل المدينة بعد أهـل الشام بيـوم . وقال ابن عبـاس : لا نزال صيـاماً حتى نـرىٰ الهلال ، أو نكمـل العدة ثـلاثين . فقال كـريب : ألا تكتفـون بـرؤيـة

معاوية ؟ يعني تعيدون معهم ، وتقضون يوم الجمعة ؟ فقال ابن عباس : لا ! هكذا أمرنا رسول الله ﷺ : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته » .

فاختلف الناس بعد ذلك . فمن قائل : إنَّ لكل قطر رؤيته . ومن قائل : بل إنَّ رؤيته في أي بلد تلزم العالم الإسلامي كله . ومن أخذ منهج التفصيل :

وهو تقسيم مواقع البلدان بعضها من بعض . فما كان متباعداً لا تلزمه رؤية البعيد ، وما كان متقارباً تلزمه بناء على وجود اختلاف المطالع قطعاً بين بلدان العالم ، لوقوع الليل في جهة بينما يكون النهار موجوداً في جهة أخرىٰ . . . إلخ .

أمَّا ما كان بين بين فهو دائر على مبدأ تحقيق المناط في تحقُّق اختلاف المطالع أو عدم اختلافها ، وهذه القضية لازمت التاريخ الإسلامي . ولكن المشهور والذي دلَّ عليه حديث ابن عباس هو اعتبار اختلاف المطالع لكل ما كان مثل الحجاز والشام . وتحقيق ذلك كتب الفقه الموسعة ممَّا لا يحتمله هذا المنهج .

إلَّا أنَّ الذي يجب التنبيه عليه هو أنَّ القطر الواحد مهما تباعدت أطرافه ـ كالسعودية مثلاً ـ شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، فإنَّ الرؤية فيه من أي بلد فإنَّها تلزم جميع البلدان ، لوحدة الولاية والسلطان ، ووجوب اتحاد المواطنين بدءاً وختاماً .

ب ـ أمَّا ما يتعلق بالحج : فإنَّه مهما اختلفت المطالع أو اتَّحدت ، فإنَّ العبرة بالإجماع هي برؤية بلد الحج السعودية . ولا ينظر إلى أيِّ مطلع آخر وعلى جميع الحجاج ، من كلِّ فجٍّ عميق أن يقفوا بعرفة ويعتبروا عيد الأضحىٰ بمَا يثبت في السعودية .

وهذا أمر معقول المعنىٰ ، وإلَّا لو اعتبر أهل كل قطر مطلعهم لتعددت

الوقفة ، وبالتالي عيد الأضحىٰ ، ووقع الخلل في العبادة ، وانقسام في الأمة ممَّا يمنعه الشرع ويأباه العقل .

بقيت مسألة ما إذا سافر إنسان من بلدٍ لآخر قبل أو أثناء رمضان ، فهل العبرة بمطلع بلده ، أم البلد الذي وصل إليه ؟ وقد اشتدَّت الحاجة إليها اليوم نظراً لتوفُّر وسائل النقل وسرعتها ، حيث يمكن لإنسان أن يسافر من أقصىٰ المغرب إلى أقصىٰ المشرق في يوم واحد . وتحت هذا صورتان :

الصورة الأولى : صورة الفطر في يوم سفره ، وذلك كالآتي :

شخص سافر من الدار البيضاء بعدما أصبح صائماً ، ووصل إلى جدة وأخذ بالمذهب القائل بإتمام صوم اليوم الذي بدأ سفره فيه ، فوصل إلى جدة قبل غروب الشمس فغربت عليه بعد وصوله ، بينما بقي على غروبها في الدار البيضاء عدة ساعات فهل يفطر مع أهل جدة لغروب الشمس عليهم ، أم ينتظر غروبها في الدار البيضاء التي بدأ صيامه منها ؟ يجمع المسلمون أنه يفطر مع أهل جدة لأنَّ حكمه أصبح من حكمهم .

وكذلك العكس بالعكس ، لو كان سفره من جدة إلى الدار البيضاء فوصل الدار البيضاء قبل أن تغرب الشمس في الوقت الذي قد غربت الشمس في جدة فهل يفطر نظراً لغروبها في بلد بداية الصوم ، أم يظل صائماً حتى تغرب على البلد الثاني وهو الدار البيضاء ؟ يجمعون أيضاً أنه إن كان معتداً بصومه فلا يفطر إلَّا مع أهالي الدار البيضاء ، والطول والقصر في كل الحالتين لا تأثير له .

الصورة الثانية في نهاية الشهر : إذا اختلفت البلدان في بدايته فهل يعيِّد تبعاً لبلده ، أم تبعاً للبلد الذي هو فيه ؟ والاتفاق أيضاً على أنه يعتمد عيد البلد الذي هو فيه ، ثم ينظر إن كان ما صامه أقلّ من الشهر قضىٰ ما بقي عليه ، وإذا تأخَّر عيد البلد الذي هو فيه عن عيد البلد الذي سافر منه لا

يصوم أكثر من ثلاثين يوماً ويفطر سراً ثم يعيّد مع أهل البلد الذي هو فيه .

ولعلَّ من قائل يقول : كيف كان لهم أن يعرفوا العيد في أي البلدين في الزمن السابق ، وليس لديهم وسيلة السفر إلَّا الإبل والسفن ؟ بخلاف اليوم من البرق والهاتف ؟ فيجاب بأنهم كانوا يستعملون إيقاد النار في مراكز متعددة فيوصلون الخبر في أقرب وقت . فمثلاً كانوا ينقلون الخبر من الإسكندرية على البحر الأبيض إلى المغرب في ثلاث ساعات فقط . وذلك في الحالات المستعجلة ، فكان من الممكن إعلام من شاؤوا في أقرب وقت .

وممَّا يعتزّ به كل عالم وطالب علم أنَّ هذه المسألة قد نصَّ عليها الفقهاء ، وفرضوا لها صورة افتراضية أصبحت حقيقة واقعية اليوم ، وذلك بقولهم : لو طار ولي من المغرب إلى المشرق في نهار رمضان ، فغربت الشمس بالمشرق قبل أن تغرب في بلده ، فهل يفطر أم ينتظر غروبها في بلده ؟ إنَّها عين المسألة التي هي واقع حياتنا اليوم ، ومعلوم أنَّ أحداً لن يطير بذاته ولكن أصبح يطير بالطائرة . وهذا من ثراء الفقه الإسلامي وسعة أفق تصور الفقهاء ، ممَّا اضطرَّهم إلى التمثيل بما ليس بواقع تقريباً للأفهام . كما قالوا : لو صلَّىٰ في أرجوحة معلَّقة في الهواء ـ يعنون ليست متعلقة بشيء متصل بالأرض ـ هل تصحّ صلاته أم لا ؟ وقد جاءت أرجوحة الهواء فعلاً وهي الطائرة والبالونات .

ولعلَّ ربط التوقيت الشهري بالهلال ليجدد في المسلم ارتباطه بالله تعالىٰ ، كلَّما يرىٰ هذه الآية الكونية تعتريها التغييرات ، من نقص إلى زيادة ، ثم عودة إلى نقص وفي نظام دقيق ، يعلم أنَّ لهذا الكون مدبراً يسير أفلاكه ، ويسخر آياته ، وقد كثر ذلك في كتاب الله ، يستلفت الأنظار إلى قدرة الله تعالىٰ متمدحاً ببديع صنعه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِيْ جَعَلَ فِيْ السَّمَاءِ بُرُوجَاً وَجَعَلَ فِيْهَا سِرَاجَاً وَقَمَرَاً مُنِيْرَاً﴾ [الفرقان : ٦١] إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ

السَّمَواتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَـرْشِ يُغْشِيْ اللَّيْلَ النَّهَـارَ يَـطْلُبُهُ حَثِيْثَـاً وَالشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُـومَ مُسَخَّراتٍ بِـأَمْرِهِ أَلَا لَـهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَـارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ ﴾ [الأعـراف : ٥٤] . بل إنَّ تـأمل هـذه الآيات يجـدد اليقين بلقاء الله كما في قوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ الَّذِيْ رَفَـعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْـرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيْ لِأَجَلٍ مُسَمَّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

وإذا تمدح الله سبحانه برفـع السماء بغيـر عمد ، فـإنَّه سبحـانه أيضـاً يتمـدَّح بتسخير الشمس والقمـر وتعليقها في الفضـاء بقـدرتـه دلالـة على أنَّ القادر على ذلك كله ، قادر على بعثهم ولقائه .

وقـد كان في الأهلَّة آيـة محسوسـة عاجلة ، شـاهـدهـا منكـرو البعثة المحمّدية وهي انشقاق القمر ، وهم يعاينون ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ [القمر : ١] .

وختاماً فإنَّه يمكن القول بأنَّ الله جعل في الأهلَّة من الآيات وربط بهـا من التشريع ، ما هي جديرة باهتمـامهم والسؤال عنها ، ويجـابون لتسـاؤلهم ويكشف لهـم عن حكمتهـا من أنهـا مـواقيت للنـاس وآيـات على القـدرة الإلـٰهية .

وقد كان ﷺ إذا رأىٰ الهلال يقول : « اللهمَّ أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله . هلال خير ورشد هلال خيـر ورشد ربي وربك الله آمنت بالله الذي خلقك » ٣ مرات وعند الـطبراني في الأوسط أنَّ الصحـابة كـانوا يتعلمـون هذا الـدعاء : اللهمَّ أدخله علينـا بـالأمن والإيمـان والسلامة والإسلام ورضوان من الرَّحمٰن وجوار من الشيـطان . وهكذا تـرتبط رؤية الأهلَّة بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر .

*****

****

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

جاء السؤال عن الإنفاق في القرآن مرتين بصفتين متفقتين . وجاء الجواب مرتين بجوابين متغايرين ، وفي كل منهما معاً بيان الإنفاق منهجاً وموضوعاً . والسؤالان كلاهما في سورة البقرة .

والأول منهما حسب ترتيب المصحف الشريف هو قوله تعالىٰ :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ .

والسؤال الثاني جاء ضمن سياق السؤال عن الخمر والميسر :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَىٰ ﴾ [البقرة : ٢١٩ ـ ٢٢٠] .

ويلاحظ أنَّ السؤال الأول ماذا ينفقون ؟ أي عن موضوع إنفاق ؛ جنسه ، ونوعه ومقداره . ولكن الجواب جاء لا عن نوعيته ولكن عن جهة الإنفاق ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ وَاليَتَامَىٰ ، وَالمَسَاكِيْنِ وابْنِ السَّبِيْلِ ﴾ وعدد جهات الإنفاق مرتبة على

الأولوية . لأنه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الوالدين أقرب الأقربين ، ثم جاء عموم القرابات من خالات وعمات وإخوة وأخوات ، وجميع ذوي الأرحام ، ثم بالأيتام عموماً وقد يكونون من الأقربين أو لا يكونون ، فمطلق وصف اليتم يكفي ، ثم من بعدهم المساكين ، وابن السبيل ، ثم عقب على هذه الأصناف المعيّنة بقاعدة عامة ، وما تفعلوا من خير أيّاً كان مقداره أو نوعه أو جهته ، فإنَّ الله به عليم . ومعلوم أنه ليس القصد الإخبار بعلمه سبحانه ، فهذا معلوم ضرورة . ولكن القصد الوعد بالمجازاة ، وحسن الثواب ، وإفهامنا لشمول العموم في هذا المنهج .

ومن هذا يتَّضح أنَّ الجواب مطابق للسؤال ، لأنَّهم وإن سألوا ماذا ينفقون فإنَّ الجواب تضمن ما ينفقون منه ، وما ينفقون عليه . إلَّا أنه أبرز صراحة جهة الإنفاق أكثر . وهم الوالدان والأقربون وما عطف عليهم ، وأشار إلى ما ينفق منه في أول الجواب وآخره . ففي أوله بقوله : ﴿ قل ما أنفقتم من خيرٍ ﴾ فإنَّ من خير تضمنت معنيين ؛ الأول : في دلالة (من) وهي للتبغيض . والثاني : في دلالة (خير) وهو الطيب الحلال . أمَّا آخر الجواب ففي قوله تعالىٰ : ﴿وما تفعلوا من خير ﴾ والفعل أعمّ من خصوص الإنفاق ولا شكّ أنَّ الأعمّ يشمل الأخص ، فدلَّ الجواب على الجانبين ما ننفق منه ، وجهة الإنفاق .

ولكن إبراز جهة الإنفاق لمعنىٰ جليل ، وهو أنَّ القصد في الحثّ على الإنفاق إنَّما هو لمصلحة تلك الجهات ، لأنَّ أيّ إنسان إذا أنفق ماله كله في غير وجه ، كان آثماً مأزوراً ، ولو أنفق درهماً واحداً في طريقه كان موفقاً مأجوراً .

وقد قيل :

إنَّ الصنيعة لا تعد صنيعة حتى يُراد بها طريق المصنع

وجاء في الأثر ، أنَّ رجلاً ممَّن قبلكم قال : لأتصدقنَّ الليلة بألف

درهم ، فخـرج ليلاً فتصـدَّق ، فوقعت في يـد امرأة بغيـاً . فـأصبح النـاس يتحدَّثون بذلك، فقال الرجل : لأتصدَّقنَّ بألف آخر ، فـوقع في يـد سارق ، ومرة ثالثـة وقع في يـد غني إلى آخر القصـة . والذي يهمنـا أنه لم يـر إنفاق الأول ولا الثاني . . . إلخ وقع في محله فأعاده .

وقـد نصَّ الجـواب هنـا على هـذه الجهـات التي تعتبـر بحق أقـوىٰ مرافق الأمة وأهم مصـالحها ، ممَّـا يقال اليـوم تكافـل اجتماعي ، واصـطناع المعروف ، وقد جـاء عن الأعشىٰ أنه أراد أن يـذهب إلى النَّبيّ ﷺ ليسلم ، فلقيه شياطين الإنس فقالوا له : إنَّه يـأمر بـالصلاة ، فقـال : إنَّ خدمـة الرب واجبة . فقالوا : إنَّه يأمرك بإعطاء المال للفقراء . فقال : اصطنـاع المعروف واجب .

والحديث عن نوعية هذه الجهات مستفيض ومعلوم ، وأعمّ منه وأشمل ما جاء في آية قسمة الصدقات في قـوله تعـالىٰ : ﴿ إِنَّمَا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَاكِيْنِ وَالْعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِيْ الرِّقَابِ وَالْغَارِمِيْنَ وَفِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيْلِ فَرِيْضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] فهٰذا منهـج مالي متكامل يشبه أبواب ميزانية عامة يغطي مرافق الأمة .

وبتأمُّل هذا السؤال الأول في نسق المصحف نجد قبله وبعـده ما يبـرز أهميـة هذا المـوضوع ، ويجعله في قمـة أعمال الخيـر . وذلك أنَّ قبـل آية السؤال قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيْبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] وبعدها : ﴿يَسْـأَلُونَـكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ ﴾ إلى آخر الآية .

وبعدها مباشرة قوله تعالىٰ : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهْوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهْوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهْوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

فالسؤال والجواب محصور بين آيتي القتال ؛ الأولىٰ : عن الشدة التي لحقت المسلمين في غزوة الأحزاب . والثانية : أعمّ لأنها في عموم القتال وفرضية الجهاد ، وبيان ثقله وكراهية النفس حسب الجبلة .

فلكأنَّ هذا السياق يرشدنا إلى أنَّ هذا الإنفاق على تلك الجهات بالذات ، خاصة الوالدين والأقربين هو من نوع هذا الجهاد موضوعاً وجزاءً .

ولعلَّ ممَّا يؤيِّد هذا ما جاء في الحديث : أنَّه ﷺ كان جالساً مع نفر من أصحابه فخرج عليهم شاب جلد ، فقال بعضهم : لو كان هذا ـ يعني النشاط والجلد ـ في سبيل الله فقال ﷺ : « إن خرج يسعىٰ على نفسه يعفها ، أو على أبويه فهو في سبيل الله » .

والآخر الذي جاء من اليمن وقال : يا رسول الله ! جئت لأجاهد معك فقال له ﷺ : « أحي والدك » قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد» .

وهكذا يجعل النَّبيّ ﷺ السعي على النفس والأبوين نوعاً من الجهاد ، ويقدم الجهاد فيهما على الجهاد معه في سبيل الله وقتال الكفَّار .

وهنا نقول لكل ساعٍ في سبيل الإنفاق على والديه ، ليهنك هذا السعي ، وليبارك الله لك هذا الإنفاق ، وليدخره الله لك عند حاجتك إليه ، سواء في الدنيا عند كبر سنك وضعف جهدك ، أو في الآخرة أحوج ما تكون .

كما نهنأ أولئك الذين يصلون أقاربهم ، وذوي رحمهم سواء من قريب كانوا، كالخالة والعمَّة وأبنائهما ، والأخوال والأعمام ، وسواء كانوا هم أيضاً يصلونه أم لا . فإنَّ الإنفاق على الأقارب أجره مضاعف . كما قال ﷺ : « إنَّها صدقة وصلة » . وأفضلها ما كان على ذي رحمٍ كاشح ، أي مبغض .

وممّا ينبغي التنبيه عليه أنَّ النفقة على الأقارب ، قد تكون حقاً واجباً للبعض منهم . والقاعدة في ذلك هي ؛ كل من لو مات ورثته ، كان عليك إذا احتاج نفقته .

وكذلك كافل اليتيم قريباً منه أو أجنبياً عنه ، وسيأتي سؤال وجواب خاص به ، مقرّر لهم في مال الأغنياء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَفِيٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٩] .

ولقوله ﷺ : « تؤخذ ـ يعني الصدقات ـ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم » .

وابن السبيل هذا الذي جاء به الطريق ولا نعرفه بشخصه، ولا تربطنا به أيّة وشيجة ، لا قرابة ولا جوار ، بل ولا أمل أن نصطنع عنده معروفاً لما يستقبل من الأيام ، فقد لا نلتقي به بعد ذلك أبداً ، إنَّما هي رابطة الإسلام ، ووشيجة الإخاء الإنساني ، وإشباع دواعي المروءة ومكارم الأخلاق .

ونقف إجلالاً لإعجاز القرآن في هذه الخاتمة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ حيث إنَّ الموضوع إنفاق، والمنفق مستغنٍ، والجهات المعنية بالإنفاق عليها محتاجة ، واليد العليا خير من اليد السفلى . وهنا مظنَّة التساهل أو التقصير. ولضعف تلك الجهات أمام المنفقين، وعجزهم عن المطالبة بحقهم أو عدم الوصول إليه ، حتى الوالدين ، فقد يكونان كبيرين لا يقويان على إلزام ولدهما ، وكذلك بقية الأصناف ، فكان هذا التنزيل موجهاً نظر المخاطبين بالإنفاق إلى أنَّ تعاملهم وإنفاقهم ليس مع هؤلاء ، وليسوا هم الذين سيحاسبونهم بل الأمر لله سبحانه يعلم كل ما يعملون من خير . وأيضاً مقابله يعلم ما يقصرون أو يفعلون من شرٍ ، كعقوق للوالدين ، أو قطيعة للأقربين ، أو دَعٍّ للأيتام ، أو انتهار للمساكين ، أو الإعراض عن المنقطعين عن بلادهم ، مع القدرة على مدّ يد المساعدة إليهم ، كل ذلك مرجعه إلى الله سبحانه .

وهـذا يكفي لإيقاظ الضمـائر عنـد المنفقين ، لتـطييب خـواطـر هؤلاء المعدودين .

وفي منهـج الإنفاق مبـاحث متعـددة ، أهمهـا أنـواع مـا ينفق ومقـداره وآداب الإنفاق ، ولعلَّ أهمها ما أدب الله به عباده الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهـار ، وينفقون سـراً وعلانيـة ، وغير ذلـك ممَّا سيـأتي بيانـه إن شاء الله تعالىٰ .

نوعية ما ينفق منه

إذا تأمَّلنا آيات الحثّ على الإنفاق في أوجه الخير ، واجباً كان ذلك أو تبرعاً ، نجـد العنايـة بنوعيـة ما ينفق الإنسـان ، لا تقل أهميـة عن المطالبـة بـذات الإنفاق ، لأنَّ النـوعية هي الـوصلة ، وهي الخيط الذي يـربط المنفق بالجهة التي ينفق عليها ، والنوعية هي الجسر الذي يعبر عليه المنفق ليصل إلى الجهـة المنفق عليها . وبقـدر جودة هـذه النـوعيـة ، بقـدر جـودة الصلة وقوتها وصلاحية الجسر ومتانته .

وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِـذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُـوا فِيْهِ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ * الشَّيْـطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْـرَ وَيَأْمُـرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ * يُؤْتِيْ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيْراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَـةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَـذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُـهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَـارٍ ﴾

[البقرة : ٢٦٧ ـ ٢٧٠] .

إنَّـه منهج متكـامل لبيـان النوعيـة ، وما يتـرتَّب عليها بمـا فيه الكفـاية والذكرىٰ لأولي الألباب .

بدأ بالنداء لخاصة المؤمنين لأنهم الذين ينفقون امتثالاً لأمر الله كما جاء في الحديث الطويل : « والصدقة برهان » . أي دليل على صدق الإيمان لأنه ينفق عاجلاً وينتظر الجزاء آجلاً انطلاقاً من إيمانه بالله وتصديقه بوعد الله .

ثم أمرهم بصيغة الأمر الصريحة (أنفقوا) . والأمر هنا للتوجيه للنوعية من طيبات ما كسبتم وممَّا أخرجنا لكم من الأرض . ويلاحظ مجيء صنفين : (ما كسبتم) ، (وما أخرجنا لكم من الأرض) مع أنَّ ما أخرج الله لنا من الأرض لنا فيه عمل وكسب ، ولكن الجانب الأقوىٰ فيه هو جانب فضل الله تعالىٰ ، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُوْنَ﴾ [الواقعة : ٦٢ - ٦٣] ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيْهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيْهَا مِنَ العُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيْهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يٓس : ٣٣ - ٣٥] فعطف (ما عملته أيديهم) على (ثمره) (وما عملته أيديهم) يقابل قوله (ما كسبتم) . وهو عند العلماء أرباح التجارة ، وإنتاج الصناعات ، والطيب من ذلك ما كان حلالاً لا غشَّ فيه ولا تدليس ، ولا ربا فيه ولا خداع ، حتى أجور الأعمال وكل كسب للإنسان .

وهذا التوجيه أول ما يعود على الإنسان في خاصة نفسه ، بأن يكون كسبه حلالاً ومأكله حلالاً ، ويطعم أهله بالحلال . وكذلك يعود على المجتمع بأن يوجد المخلصون في أعمالهم ، الأمناء في تعاملهم ، الناصحون فيما يقدمون أو يسند إليهم .

ويأتي في المقابل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيْثَ منه تنفقون﴾ يمَّم بمعنىٰ قصد وتوجّه ، أي لا تعمدوا به إلى الخبيث نوعية حساً ومعنىً ، فخبيث الكسب هو الحرام ممَّا دخله الغش والتدليس والخداع ،

ومن الـزيادة والنقصـان ؛ كتطفيف الكيـل ، وبخس الـوزن ونقص الـذرع ، ونحو ذلك .

وخبث الحس يظهر فيمـا يخرج من الأرض ، لأنَّ منـه الطيب ، ومنـه الخبيث والأخبث ، كحشف التمـر ، وحصرم العنب ، وكـذلك بـالي الثياب ورديء الـطعام . (ولستم بـآخذيـه) أي إذا عرض عليكم وكنتم في حـاجـة إليه ، إلاَّ أن تغمضوا الأعين عنه وتكرهوا النفس عليه .

ولكأنَّ الآية الكـريمة تضـع المنفق موضـع المحتاج فيمـا يقدم إليـه ، ليعامل المحتاجين فعلاً بما يحبون هم أن يعاملوا به لو كانوا بدلاً منهم، وهـو معنىٰ قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولعلَّ هذا التوجيه الإلـٰهي الكريم يوضح لنا الحكمة في مشروعية أكل المتمتع من هدي التمتع ، ليختار الهدي الذي تـطيب نفسه أن تـأكل منـه ، فيقدمه لأخيه المسلم .

واتَّفق المفسـرون على أن تيمم الخبيث لـلإنفـاق ، إنَّمـا هـو عمـل المنافقين مع أهل الصفة زمن النَّبيّ ﷺ ، كان المؤمنون يـأتون بـأطيب قنوان النخـل يعلقونهـا في المسجد لأهـل الصفة ، وكـان المنافقـون يعمـدون إلى قنوان الحشف ويأتون بها .

والسـرّ في ذلك أنَّ المؤمنين مـوقنون بـأنَّ الحسنـة بعشـر أمثـالهـا إلى سبعمائة ، والمنافقون لا يؤمنون بذلك فيعتبرون ذلك غرماً عليهم .

ويأتي التذييل على هذه المقـارنة بين المتقـابلين ؛ الطيب والخبيث ، فيقول تعالىٰ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ ﴾ غني عن صدقاتكم كلهـا لأنَّ العطاء كله من عند الله ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، والأرزاق مقسمـة من عنده ، كما قال تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيْشَتَهُمْ فِيْ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

حميد صيغة مبالغة من الحمد ، أي يجزل العطاء لمن يعطي عباده ، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلاَّ الطيب ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل » . متفق عليه . وعند الترمذي مثله وفيه : « حتى إنَّ اللقمة لتصير مثل أحد» . وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة : ١٠٤]. وقوله : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِيْ الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

ثم يأتي بتحذير وإغراء في مقابلة بليغة : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي عند إرادة الإنسان الصدقة والإنفاق يأتيه الشيطان يثبطه ويخوفه من الفقر إن هو أنفق ، ويأمر بالفحشاء إمَّا بالإمساك نهائياً أو بإنفاق الخبيث الذي لا غناء فيه لصاحبه ، ولا فوات في إنفاقه . ولذا لما سئل ﷺ عن أفضل الصدقة قال : « ما كان عن ظهر غنىً وأنت شحيح تخشىٰ الفقر » أي في مستقبل حياتك . وعليه فكل من شحَّ بالإنفاق ، أو كان إنفاقه من هذه النوعية الخبيثة فهو واقع تحت سيطرة الشيطان ، مؤتمراً بأمره ، مصدقاً وعده .

ويأتي في المقابل الكريم : ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾ عطاء وغناء من جانبين وفي الحالين العاجل والآجل .

أولاً : وهو الأهم (مغفرة) جزاء على إنفاقك من الطيب تصديقاً بوعد الله وتكذيباً بوعد الشيطان . وفي الحديث : « اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرة » . والحديث : « الصدقة تطفىء غضب الرب وتزيد في الرزق وتقي ميتة السوء» . والآية الكريمة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيْنَ الذِيْنَ يُنْفِقُونَ فِيْ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران : ١٣٣-١٣٤] .

وثانياً : ممَّا وعد الله به على الإنفاق الطيب في قوله (وفضلاً) وهو العطاء من فضله سبحانه كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِيْ سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيْهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [الجاثية : ١٢] أي رزقه ، وهذا يستوجب الغنىٰ . وهذا على عكس ما يعد الشيطان أولياءه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . ومن أوائل الحكمة التعامل مع الله والتصديق بوعد الله ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَىٰ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيْرَاً ﴾ [البقرة : ٢٦٩] وأصل الحكمة وضع كل شيء في موضعه .

وأولوية ذلك أن تضع الطيب من الكسب في أطيب طريق ، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالىٰ والله واسع عليم . فمهما كان من إنفاق فإنَّ أجره عند الله عظيم ومغفرته واسعة . كما قال تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً ﴾ [غافر: ٧] فلا تخفىٰ عليه حالات المنفقين ولا نوعيات ما ينفقون .

وفي ختام هذا السياق يأتي أيضاً بالعموم : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : ٢٧٠] وهذا التذييل يقابل ما جاء في جواب السؤال . ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيْمٌ ﴾ .

وكذلك (وما أنفقتم) من نفقة قليلة كانت أو كثيرة ، طيبة كانت أو خبيثة ، أو نذرتم من نذرٍ وفيتم به أو لم توفوا ، فإنَّ الله يعلمه وهو الذي سيعاملكم بمقتضىٰ علمه فراقبوه سبحانه وابتغوا من فضله .

وهذا المنهج الواضح في هذا السياق ، قد تخرج وتربىٰ عليه أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهم ، إذ كانوا يعمدون إلى أحبّ أموالهم إليهم فيقدمونها في سبيل الله .

وهذا أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحبّ أمواله إليه (بيرحاء) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب منها من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلمَّا نزلت هذه الآية : ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله إن الله تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بيرجاء) وإنَّها صدقة أرجو برّها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : « بخ بخ مال رابح مال رابح » .

وفي هذا الحديث ربط بين الإنفاق من الطيب ، والإنفاق ممَّا يحبون . لأنَّ الإنفاق ممَّا يحبه الإنسان دليل على إيثاره ما عند الله على ما يكون عنده ، يقيناً بما عند الله . وصحَّ عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت يوماً صائمة وبعد العصر جاء سائل يسأل فقالت لبريرة : أعط السائل فقالت : ليس عندي إلَّا قرص شعير ستفطرين عليه . فقالت لها : أعطه السائل . وعند الإفطار يرزق الله . فأعطته بريرة وهي مشفقة على عائشة . ولمَّا جاء المغرب وقامت لصلاتها فلمَّا سلمت فإذا بشاة بقرامها ، أهداها رجل لم يكن يهدي من قبل ذلك شيئاً . فقالت عائشة : كلي يا بريرة هذا خير من قرصك ثم قبضت قبضة من طعام وقالت : لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه فيما عند الله أقوىٰ ممَّا في يده .

مقدار الإنفاق

قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

إنَّ مقدار الإنفاق هو موضوع الجواب في السؤال الثاني ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾ وأصح معاني العفو : الزيادة . ومن معاني العفو : المسامحة . والعفو الشيء الميسور .

والمعنىٰ في هذا الجواب قل العفو يعني الزائد عن حاجتهم وما

يستغنىٰ عنه . وأن يكون الإنفاق عن غنىٰ لا عن اضطرار وحاجة .

ومن مجموع نصوص القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، يتحصَّل لنا أنَّ الإنفاق قسمان : إنفاق واجب مفروض ، وإنفاق مستحب مندوب . فالواجب منه محدد ، لأنَّ الوجوب إلزام . والإلزام لا بد من تحديده ، وتعيينه ليمكن امتثاله وأداؤه .

وذلك كالزكاة كما قال تعالىٰ : ﴿ وَفِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٩] وقد بيَّنت السنة هذا المعلوم بأنصباء الزكوات في النقدين ؛ في الذهب نصابه عشرون مثقالاً ، وفيها ربع العشر بمعدل نسبة ٢,٥٪ .

والفضة مائتا درهم وفيها كذلك ٢,٥٪ . وتتحوَّل النسبة في جميع العملات إلى القيمة الشرائية أي صرفها بذهب وفضة . على ما هو معلوم في مباحث الزكاة . وكذلك في الحبوب والثمار خمسة أوسق في ستين صاعاً مجموعها ثلاثمائة صاع ، وهكذا في جميع الأموال الزكوية .

ومثلها الكفارات ، سواء في اليمين أو الظهار أو غيرها .

وهذا القسم أيضاً ينطبق عليه معنىٰ العفو لأنَّ الزكاة لا تجب إلَّا في الزائد ، وذلك أنها لا تكون إلَّا علىٰ من ملك نصاباً ، ومكث تحت يده حولاً كاملاً . وهذه علامة الاستغناء لأنه لو لم يكن مستغنياً لما بقي النصاب تحت يده طيلة العام كله .

وحتى النوعية في هذا القسم المحدد ، ومعلوم المقدار . يصدق عليها أيضاً معنىٰ العفو ، فلا هو من أنفسها القليل النادر ، ولا هو من أردئها الذي لا يغني شيئاً ، كما قال ﷺ في الزكاة : « وإيَّاك وكرائم أموالهم » . وقال تعالىٰ في الكفارة : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] لأنَّ هذا واجب والواجب فيه إلزام ، والإلزام يتبعه تنفيذ ، والتنفيذ لا يكون إلَّا في

محدود ومستطاع . فالحد لعدم التقصير أو التجاوز ، والاستطاعة احترازاً من العجز والقاعدة في هذا القسم قوله تعالىٰ : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ [الطلاق : ٧] والآية الأخرىٰ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وأمَّا القسم الثاني من قسمي الإنفاق ، وهو المندوب إليه ، فإنَّه لما لم يكن فيه إلزام كان على التخيير ، وبدون تحديد وموكل إلى نفس المنفق . ولكن مع ذلك وضعت له ضوابط تحكمه سعياً وراء الفضيلة في هذا الباب .

والفضيلة هنا : هي الوسط بين طرفي الإنفاق اللذين هما التبذير والتقتير .

والقاعدة الأساسية في ذلك هي في قوله تعالىٰ في وصف صفوة العباد : « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * والَّذِينَ يَبِيْتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٦٧] القوام : الاعتدال . فمع هذه الصفات الحميدة تواضع مع الخلق ، وتعفف في النطق ، واجتهاد في الأسحار ، وإشفاق من النار ، يلتزمون التوسط في الإنفاق ، لا إسراف ولا تبذير ولا شحّ ولا تقتير .

حتى لو كانت جهة الإنفاق من أفضلها . كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَآتِ ذَا القُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيْراً * إِنَّ المُبَذِّرِيْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِيْنِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٦ ـ ٢٧] .

ونلحظ أنَّ السياق هنا في إيتاء الحقوق لذوي القربىٰ ، والمسكين ، وابن السبيل ، وهم الجهات التي أمرنا ووجهنا في جواب السؤال الأول للإنفاق عليهم ، في قوله تعالىٰ ، هناك : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا

أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ ﴾ . الآية . ومع ذلك يأتي النهي عن التبذير . فهذه هي القاعدة ومنها المنطلق فمن وقف عندها ، وقف عند الفضيلة ، ومن تجاوزها بطيب نفس ، وتسامياً في فعل الخير ، ومسارعة إلى رضوان الله تعالىٰ دون المساس بمصلحة الآخرين ، فالمجال واسع وفضل الله أوسع . كما فعل الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنفق كل ما يملك ، لكنه لم يؤذ أهله لأنهم على شاكلته وفي معاونته .

وقد جاء في إفساح المجال للتسامي في الخير تطوعاً قوله تعالىٰ : ﴿وَعَلَى الَّذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرَاً فَهْوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ [البقرة : ١٨٤] أي زاد في فدية اليوم عن إطعام المسكين الواحد بإطعام مسكينين أو أكثر فهو خير .

وقوله ﷺ لما بين مقدار الزكاة في الذهب والفضة والإبل والبقر، وسئل عن الخيل وبين أنواعها الثلاثة ؛ لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، وبين ذلك بما تكون في سبيل الله أو للخلاء أو الخيلاء .

سئل ﷺ عن الحمر فقال : « لم ينزل علي فيها شيء إلَّا هذه الآية الفاذة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧] وهذا عام في كل فعل الخير قل أو كثر كما في حديث عائشة ـ رضوان الله تعالىٰ عليها ـ لما أعطت المسكينة حبة العنب فاستقلتها ، فقالت لها عائشة : إنَّ الله يقول : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهُ ﴾ انظري كم في هذه الحبة من ذرة .

فالقاعدة الأساسية أن يكون الإنفاق في الحد الوسط . وأول المصحف الشريف في افتتاحية سورة البقرة في وصف المؤمنين المتَّقين قال : ﴿الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] ومن للتبعيض .

وبهذا التوجيه يستمر الإنفاق ويزداد عدد المنفقين بدون تحديد ، من الذرة إلى القنطار . ويكون المعول على أمر أهم من المقدار ومن النوعية ،

وهـو أنَّ المقدار يمكن أن يكـون نسبياً وليس اطرادياً ، فبنسبـة قـدرة المنفق يكون اعتبار المقدار .

وهذا الحديث في قوله ﷺ : « درهم سبق مـائة ألف درهم » فقـالوا : وكيف ذلـك يا رسـول الله فقال : « رجـل عنده درهمـان فتصدق بـأحدهمـا ورجل عنده مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها » .

وبالمقارنة بينهما نجـد صاحب الـدرهم قد تصـدَّق بنصف ما يملك ، وصاحب المائة ألف درهم تصدق بطرف من ماله . بل ولو أنَّ صاحب المـال الكثير تصدق بنصف ماله فلن يساوي صاحب الدرهم لأنه سيبقىٰ لـه النصف الآخر وهو مال كثير . أمَّا صاحب الدرهـم فقد تصدَّق بنصف مالـه ولم يبق له إلَّا درهم واحد .

وهنا تأتي قضية سعد ـ رضي الله عنه ـ لمَّا دخل عليه النَّبيّ ﷺ بمكـة يعوده في الفتح ، فبكىٰ سعد وخاف أن يموت بمكة بعد أن هاجـر منها ، ثم قال : يا رسـول الله إنَّ مالي كثيـر ولا يرثني إلَّا ابنتي، أفأتصدَّق بثلثي مـالي قـال : « لا » . قال : فبـالنصف . قال : « لا » . قـال : فبـالثلث . قـال : « نعم والثلث كثير » ثم قال : « لَئِنْ تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهـم عالة يتكففـون الناس السؤال اللهمَّ أمض لأصحـابي هجـرتهم » . . . الحـديث . فهذا بين يدي رسول الله ﷺ يريد أن يتصدَّق بثلثي ماله فيـردّ ﷺ إلى الثلث والثلث كثير ويرشده إلى مراعـاة حال ورثتـه . وإنَّ فيه إشـارة لطيفـة وهي أنَّ سعداً لن يموت في مرضه هذا وسيعيش وسيولد له الأولاد ويكثر ورثته . ولن ترثه ابنته فقط . وذلك من قـوله ﷺ : « لئن تـذر ورثتك » وهـذا جمع وليس فرداً . وفعلاً قد كان .

ولعلَّنـا فيما قـدمنا قـد نـوهنـا عن الإجـابـة الأولىٰ في بيـان الجهـة . وعن الجهـة الثانيـة في بيان المقـدار . وقد ألممنـا بالنـوعيـة في طيّبـات مـا كسبتم ، وبقيت جهـة هامـة جـداً تعتبـر من الأخـلاقيـات المثـاليـة في هـذا

الباب ، وقد وضعت الطريقة والكيفية التي تحافظ على شعور المحتاجين حتى ولكأنَّهم أغنياء لم يعبهم الفقر ، ولم ترهقهم الحاجة . طريقة تنزع من غريزة المعطي طموح التعالي والامتنان . طريقة تجمع بين الأغنياء في تواضعهم والفقراء في تعففهم على ما سيأتي ، إن شاء الله .

آداب الإنفاق

لكل عمل في الإسلام آدابه ، لأنَّ الإسلام رسالة آداب وأخلاق ؛ أدب مع الله، وأدب مع الخلق . فآداب الصلاة الخشوع فيها ، وآداب الصيام كفّ اللسان حتى عمَّن يتطاول عليك ، فلتقل إنِّي صائم ، وآداب الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج . حتى الجهاد والقتال : النهي عن قتل النساء والصبيان ، وعدم المثلة بالقتلىٰ إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء : « فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

وآداب الإنفاق تتمثَّل في جميع صوره وكيفياته ، ابتداء من النوعية الطيبة (من طيبات ما كسبتم) وتحديد الجهات التي ينفق عليه من الوالدين والأقربين واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل ، وغير ذلك من مصانع المعروف .

ثم تأتي المثالية في الكيفية والصورة صراحة في كتاب الله تعالىٰ ، واقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ الَّذِيْنَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٢] .

فهٰؤلاء ينفقون أموالهم والأموال عامة إشعار بكثرة إنفاقهم ، لأنه لم يقل من أموالهم ، بل قال أموالهم . ثم هم يحافظون على شعور من ينفقون عليهم فلا يسيئون إليهم بإشعارهم بالفاقة ولا بالتمنّن عليهم بما يقدمون لهم . فلا يضيفون إلى آلام الفقر والحاجة آلاماً أخرىٰ ، بتحمّل المنة

والتصدُّق عليهم . بل يعطونهم بيد رحيمة ونفس كريمة في طلاقة وجه وسماحة خاطر . فيأتي جزاؤهم من نوع عملهم ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ وعد كريم من ربٍ رحيم ، وإجمال الأجر عند ربهم مشعر بوفرته وفضله . وكما أحسنوا لعباد الله فالله هو الذي يتولّىٰ المجازاة ، ولا خوف عليهم لأنهم أذهبوا مخاوف الفقير من الفقر ، ولا هم يحزنون لأنهم أدخلوا السرور على من أحزنتهم الفاقة والحاجة .

ثمَّ بيَّن تعالىٰ في الآية التي تليها عدم جدوىٰ الصدقة التي يتبعها الأذىٰ أيّاً كان نوعها، وأيّاً كان مقدارها ، لأنّ ما يتركه مثل تلك الصدقة في نفوس المحتاجين أشدّ غضاضة ومضرّة ممَّا هم فيه من شدة وفاقة ، فقال تعالىٰ : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

والمتأمل هذه الآية مع ما قبلها يجدها تعالج ما عساه قد يكون من الغني للفقير حين يأتي ويسأل. فالآية الأولىٰ فيها: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ أي إن أعطوا بمجرد السؤال لا يمنون ، وإن امتنعوا وألحّ السائل ، دفعوه عنهم بالعطاء، وشعر منهم بالإساءة . فهنا علاج ذلك ؛ قول معروف خير من ذاك العطاء ، ومغفرة لإساءة المُلِحّ خير من دفعه بعطاء مستكره .

ومن جانب آخر المسؤول ، إمَّا واجد فيعطي بالحسنىٰ ، وإمَّا معدم فليقل معروفاً ، ومغفرة سواء من المسؤول عن إلحاح السائل ، أو مغفرة من السائل نفسه لامتناع المسؤول عن العطاء فيغفر السائل له امتناعه ويستره ، خير له أي للسائل نفسه من أن يعطىٰ صدقة يتبعها أذىٰ بنهر أو زجر أو تأفّف .

وعلى الوجه الأول قوله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيْمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحىٰ : ٩-١٠] .

واعتبار قول المعروف خير وأفضل من نوع تلك الصدقة ، يعطي كل مسؤول إمكانية الإحسان لكل سائل . كما قيل : فليسعد النطق إن لم يسعد المال . وكقول علي ـ رضي الله عنه ـ : إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

وفي الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة ، وإن من المعروف أن تلقىٰ أخاك بوجه طَلْق » أخرجه مسلم . وقال القرطبي تلقِّي السائل بطلاقة الوجه ، وقول المعروف يجعل السائل يشكر إن أُعطي ، أو يعذر إن لم يُعْطَ . وأنشدوا لأبي بكر بن دريد لما قصد بعض الوزراء في حاجة ، ولم يقضها له وتضجر منه ، فأنشد قائلاً .

لا تدخلنَّك ضجرة من سائل ... فلخير دهرك أن ترىٰ مسؤولا
لا تجبهنَّ بالردِّ وجه مؤملٍ ... فبقاء عزّك أن ترىٰ مأمولا
تلقىٰ الكريم فتستدل ببشره ... وترىٰ العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنَّك عن قليل صائرٍ ... خبراً فكن خبراً يروق جميلا

وجاء عن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيّ ﷺ أنه قال : «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ، ثم ردُّوا عليه بوقار ولين أو ببذل يسير أو ردّ جميل فقد يأتيكم من ليس بأنس ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالىٰ » وفيه إشارة إلى حديث النفر الثلاثة ، الأقرع والأبرص والأعمىٰ لما جاءهم ملك على حالة كل واحد منهم وسأله فنهره الأقرع والأبرص ، وأحسن لقاءه الأعمىٰ . فكان جزاؤهم من جنس عملهم .

في التذييل على ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىً﴾ جاء بقوله تعالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيْمٌ ﴾ غني : واسع الغنىٰ ، وقد أغناكم من فضله وقادر على أن يغني أولئك كما أغناكم ، وحليم على عباده .

وكأنَّه يقول لهم : إمَّا أن تعطوا السائل ولكم الجزاء الواسع من الله ،

وإمَّا أن تحلموا على هؤلاء إن لم تعطوهم شيئاً . أو إن الله غني عنكم وعن عطائكم ، ولولا حلمه عليكم لعاجلكم بالعقوبة ، فاتَّقوا غضبه واستجلبوا حلمه .

ثم يأتي التحذير والإنذار في صورة ملموسة عقب تلك الآيات مباشرة في قوله تعالىٰ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ والأَذَىٰ كَالَّذِيْ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدَاً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِيْ القَوْمَ الكَافِرِيْنَ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

لمَّا كان قوله تعالىٰ في الآية قبلها ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ﴾ (وخير) اسم تفضيل . يشعر هذا القول بوجود نوع من الخير في تلك الصدقة ، ولكن قول المعروف والمغفرة خير منه ، هكذا دلالة اسم التفضيل . ولكن جاء في هذه الآية عقبها ، النص صراحة بأن تلك الصدقة لا خير فيها نهاية ، بل هي باطلة لا أجر فيها ، لأنَّ المنّ فيها والأذىٰ بها قد أبطلها . ثم بين نفسية هذا المتصدِّق بهذه الصورة ، واهتزاز شخصيته في المجتمع بقوله تعالىٰ عنه : ﴿كَالَّذِيْ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ في **تظاهر ورياء** ، ولا يؤمن بالله الذي يجازي والذي يطلع ، ولا باليوم الآخر الذي يقدم فيه على الله ، أحوج ما يكون هو فيه .

ثم ضرب تعالىٰ مثلاً لهذا المنفق المرائي في صورة عجيبة ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ ـ حجر أصم أملس ـ عليه تراب فالحجر في مقابلة قلبه القاسي الذي لا يلين في قول معروف ولا يعطي من صلابته شيئاً ، ولكن ذرّ عليه ذرات التراب ، وهو مقابل ما قد تصدَّق به ضآلة ونوعية ، فجاء مطر وابل شديد على ذلك الحجر الصلد ، فلم يلبث أن ذهب التراب عنه وتركه صلداً ، فأصبح أولئك المراؤون لا شيء بأيديهم ، ولا يقدرون على شيء ممَّا كسبوا حيث ذهب به ذلك الوابل . وختم الآية بوعيد شديد :

﴿ واللَّهُ لَا يَهْدِيْ القَوْمَ الكَافِرِيْنَ ﴾ . أي الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر المتقدِّم ذكرهم . وإفساد المعروف بالمنّ معروف عند الناس كما قيل :

أَفْسَدْتَ بالمَنِّ مَا أَسْديتَ مِنْ حَسَنٍ   ليس الكريمُ إذا أَسْدىٰ بِمنَّان

وقابل الله تلك الصورة بصورة طيبة مثمرة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وتأمَّل مجيء الوابل هنا ، فإنه أصاب جنة بربوة خصبة التربة ، لينة المنبت ، فاستقبلته وامتصَّته فارتوت بخيره فضاعفت أكلها ، بينما الوابل هناك صادف حجراً أصماً فلم يتقبَّل منه شيئاً فذهب الوابل بما عليه من تراب .

ولحفظ الصدقات من خطر الرياء ، جاء التوجيه بإخفائها ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١] . وقيل إبداؤها في فريضة الزكاة ، وممَّن قوي إيمانه بالله ، وإخفاؤها لصدقة التطوّع . واقرأ قوله تعالىٰ : ﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ فِيْ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] أي على كل حالاتهم ، وقوله تعالىٰ : ﴿ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرَّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] والحديث الجليل : «سبعة يظلّهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلَّ إلَّا ظله ؛ إمامٌ عادل ـ وفيه ـ ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما أنفقت شماله» .

آثار الإنفاق في الأمة

من المعلوم أنَّ لكل تشريع إسلامي آثاره في سلوك الأمة . فالصلاة حافظ ووقاية للمجتمع ، فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر وتصل العبد بربه ، وعون للعباد على مواجهة الحياة كما قال تعالىٰ : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : ٤٥] .

والصوم يورث تهذيباً في النفوس ، ويقظة في الضمير ، وتقوىٰ الله عزَّ وجلّ .

والحج قد صرَّح الله تعالىٰ عنه في قوله : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج :٢٨] .

وإذا جئنا إلى الإنفاق بقسميه ؛ الواجب والمندوب ، وأخذنا السؤالين وجوابهما ، وبقية النصوص المتممة لهما ، لوجدنا وحدة متكاملة لمنهج فاضل عظيم الآثار ، قوي التأثير .

فالسؤالان ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ وجواب أحدهما ﴿ قل العفو ﴾ وجواب الآخر ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ وَالْيَتَامىٰ وَالْمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيْمٌ ﴾ .

ومن مجموعهما يتحصَّل عندنا الإنفاق من العفو الزائد ممَّا لا يشق على المنفق . ووجهة الإنفاق لأقرب الأقربين خاصة وعامة الوالدين ومن يتَّصل بهما ، ثم ضعاف المجتمع ، يتامىٰ ، ومساكين ، وغريب منقطع ـ وهو ابن السبيل ـ ثم يتَّسع المجال لجميع أبواب الخير ، وما الله سبحانه به عليم : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيْمٌ ﴾ أي أنفقوا من فضل أموالكم على ذويكم وعلى ضعفائكم ، فيكون أثر هذا الإنفاق صلة الأقارب ووفاء بحقهم ، وجبراً لضعف أولئك ، وتطييب خواطرهم .

وفي هذا الجانب تحقيق لمطلب إنساني فاضل ، يستجيب إليه كل

إنسان عاقل ، ولو ذهبنا أبعد من هذا لوجدنا الآثار النفسية والمادية العميقة التي تعالج نزعات النفوس ، وتنتزع الجسد من القلوب . وتُذْهب الشحّ والتقتير ، تنظم الإسراف والتبذير . وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتزكّيهم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] فهو أمر تكليف من الله لرسوله بالقيام بأخذ الصدقة من أموال الأغنياء ، يدفعها لأيدي الفقراء ، لا يحل لمحمد ولا لآل محمد ﷺ منها شيء ، فهو ﷺ يتكلّف عناءها ، ولا يصيبه غناؤها . إنَّها أوساخ الناس من جهة ، فلا تليق بمقامه ﷺ . ومن جهة أخرىٰ تبرئة لجانبه ﷺ من مظان أصحاب الأموال حين يقوم بجمعها ، والقتال دونها ، كما في الحديث : « من أدَّاها طيبة بها نفسه قبلناها ، وبها ونعمت، ومن منعها أخذناها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لمحمد ولا لآل محمد منها شيء » . فهو يجمعها منهم ويردها عليهم ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، وفي هذا التكليف للرسول ﷺ ، ولأولياء أمور المسلمين بعده ، الحفاظ على شعور الفقراء من جهة التطفّل بالسؤال ، والتعرّض لأصحاب الأموال ، أعطوهم أو منعوهم . ومن جهة أخرىٰ حفاظاً على أموال الأغنياء من أن يتعدَّىٰ عليها أولئك الفقراء ، لو ترك لهم أخذ حقوقهم بأنفسهم ، فتكون هناك جهة تتولىٰ هذا العمل من الجانبين ؛ جمعه ، وتوزيعه . فتأخذ الحق ولا تزيد عليه ، وتعطي الحق ولا تنقص منه ، وفي هذا من آثار التنظيم والطمأنينة والاستقرار ما لا يخفى .

أمَّا قوله تعالىٰ : ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ فالتطهير : كما يقول العلماء غالب ما يكون من نجس ، أو خبث ، والمسلمون لا نجس ولا خبث في ذواتهم ، ولا في أموالهم . فيحمل المعنىٰ على ما يصلح له في هذا السياق . وإذا كان النص لم يتوجه إلى أحد الجانبين ؛ المنفق والمنفق عليه ، وأسند لمجموع الأمة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وجاء تطهرهم وتزكيهم ، والتزكية تكون بمعنىٰ النماء ، وتكون بمعنىٰ النقاء ، كقوله تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس : ٩] .

فإنَّ المعنىٰ يتوجه معاً إلى الطرفين ، ويكون ذلك في طهارة النفوس وتزكيتها .

لأنَّ المال عصب الحياة صنو النفس والولد ، فهو موضع حرص الإنسان في تحصيله ، وموضع شحّه في تدبيره .

فنفوس الأغنياء شحيحة عليه ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء:١٢٨] ونفوس الفقراء حريصة حرصاً شديداً على تحصيله لسدّ حاجتها منه ، فتحسد الأغنياء عليه . ومن هنا كان للمال تعلّق بنفوس الجانبين ؛ جانب الأغنياء بالشحّ ، وجانب الفقراء بالحسد أو الحقد ، إن لم ينلهم منه ما يسد الحاجة . فإذا ما أخرج الأغنياء حقوق الفقراء من أموالهم ، طهرت نفوسهم من الشحّ ، وزكت أموالهم عن النقص ، فاطمأنُّوا وسعدوا . وإذا ما أخذ الفقراء حقوقهم من الأغنياء طهرت قلوبهم من الحقد والحسد ، واستقرَّت حياتهم أيضاً وسعدوا .

ومن مجموع الجانبين يتكون المجتمع المتعاون المتآخي ، الذي تلتقي قلوبهم على البرّ والخير والصلة .

ويوم أن كانت الزكاة منتظمة ، والصدقات متوفرة ، لم يكن في المجتمع فراغ لدعوات خادعة ، ولا لمبادىء هدَّامة ؛ من اشتراكية ، أو شيوعية . وقد شهد التاريخ وقائع عجيبة في أفريقيا في خلافة عمر بن عبد العزيز ، حيث جمع عامله الزكاة وقسم منها على الفقراء حتى استغنوا وبقي عنده مال زائد لا يدري ماذا يفعل فيه ، فكتب إليه : أن زوج الأعزب ، وسد الدين ، واحمل أبناء السبيل .

تلك آثار لم يشهد التاريخ الإنساني في أيّة أمة من الأمم مثيلاً لها ، على مستوىٰ الجماعة .

أمَّا على مستوىٰ الفرد ، فجاء عنه ﷺ : «إن الصدقة تطفىء غضب الرب وتزيد في الرزق ، وتقي ميتة السوء » .

أمَّا زيادتها في الرزق ، فأوضح ما يكون في ذلك حديث السحابة ، قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يسير في فلاة من الأرض إذ سمع صوتاً في سحابة يقول: اذهبي فاسق حديقة فلان . ثم سار في ظلّها حتى إذا توسطت حرة فأمطرت فتحوَّل الماء في شرجة ، فتبعه فإذا برجل يحول الماء في مزرعته ، فسلَّم عليه باسمه الذي سمعه في السحاب فقال : ومن أعلمك باسمي فأخبره ، وسأله عمَّا يفعله في مزرعته ، فقال له : إنِّي أنظر فيما يخرج منها فأقسمه ثلاثة أقسام ؛ قسم أدخره لعيالي ، وقسم أردّه فيها ، وقسم أتصدَّق به » فترىٰ بهذا القسم الذي يتصدَّق به يسخِّر الله له السحابة فتأتي وتسقي مزرعته .

وفي الحديث عند ابن ماجه عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « يـأيُّها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم ، بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السرِّ والعلانية ، ترزقوا ، وتنصروا ، وتجبروا » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد مالي مالي ، وإنَّما له من ماله ثلاث ، ما أكل فأفنىٰ ، أو لبس فأبلىٰ ، أو أعطىٰ فاقتنىٰ ، وما سوىٰ ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس » .

وليعلم أنَّ الإنفاق محمدة في الدنيا عند الخلق ، مجلبة في الآخرة رضا الخالق . والإنفاق لا ينقص من المال شيئاً ، كما في الحديث : « ما نقصت صدقة من مال » . وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة استتري من النار ولو بشقِّ تمرة » . وأحسن بقول دعبل في امتداح الإنفاق مطمئناً على الرزق عند الله حيث قال في أبيات طويلة يخاطب زوجته منها :

هـذا سبيلي وهذا فـاعلمي خلقي فارضي به أو فكوني بعض من غضبا
مـا لا يفوت ومـا قد فـات مطلبـه فلن يفـوتني الـرزق الـذي كتبـا
أسعىٰ لأطلبـه والـرزق يـطلبني والـرزق أكثـر لي مني لـه طلبـا
هـل أنت واجد شيء لـو عنيتَ به كـأجرِ الحمـد مـرتـاداً ومكتسبـا

وأستميح العذر لإيراد هذه الحادثة التي سمعتها ممَّن وقعت له .

قـال محدِّثي عن نفسـه : إنَّه كـان جالسـاً بمقهىٰ في الصبـاح البـاكـر كعادته ، فجاء أعرابي فجلس فقدَّم له صاحب المقهىٰ ما تجري به العـادة ، قهوة وشربة ماء ، وظنَّها الأعرابي ضيافة ، ولمَّـا أراد الانصراف طـالبه عـامل المقهىٰ بالقيمة، فأخذ يبحث عن شيء فلم يجد ، فـأُسقط في يده . قـال : فرحمت الأعرابي من هذا الموقف ، فنـاديت العامـل ودفعت له مـا يطلب . فانصرف الأعرابي شاكراً . وبعد سنوات خرجنا حجاجـاً نمشي على أقدامنـا نحو عشرين رجلاً ، فأخذنا قطاع طريق وجـردونا من كـل ما معنـا ، وقيدونـا بالحبال ينتظرون شيخاً لهم . فلمَّـا جاء تفقـد ما أخـذوا منا ثم جـاء يتفقدنـا واحداً واحداً ولما واجهني أخذ يتأمّلني ويتفحّص وجهي كأنَّ له ثأراً عندي ، فخفت على نفسي فـإذا بـه يصيـح في جمـاعتـه ، أطلقـوهم وردوا عليهم متاعهم ، ثم قال لي : هذه في شربة الماء التي تحملتهـا عني في المقهىٰ . فما أعظم أثر هذه الصدقة ، وما أكثر بركتها .

ما ينوب عن إنفاق المال

تقدَّم بيان الجـواب عن السؤال عمَّا ينفقـون ؟ وما يتـرتَّب على الإنفاق وآدابه وأثره ، في الحياة بين أفراد المجتمع .

ومعلوم أنَّ أسـاس اعتماد الإنفـاق إنَّما هـو على المـال ، والمـال هـو النافق بين الناس ، وبه تتحرك عجلة التعـامل في المجتمعـات على اختلاف المستويات .

ولكن ليس كل الناس يمتلكون الزائد من المال عن حاجتهم ، فينفقون منه ، وأيضاً ليس كل المحتاجين منحصرة حاجتهم في المال ، فهل من عوض عن المال في **تحصيل فضل ذاك الإنفاق ، أم لا ؟**

وبتأمُّل النص القرآني الكريم في الجواب على السؤال ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ وهو قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ فجعل الإنفاق من الخير . والخير أعمّ من خصوص المال . وكذلك في نهاية السياق قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيْمٌ﴾ فالجواب أَدْخَلَ فعلَ الخير أيضاً في مساق الإنفاق ، وفعل الخير قطعاً أعمّ من خصوص الإنفاق . فيشمل القول والعمل ، وعليه فهذا توجيه من كتاب الله في معرض الجواب ، يدلُّ على أنَّ الإنفاق أوسع من خصوص المال ، وأنه يشمل أعمال الخير المتعددة .

وفي معرض التشريع الفعلي تجد بعض أعمال الخير قد نابت مناب إنفاق المال وذلك في هدي التمتع ، كما قال تعالىٰ : ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَىٰ الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِيْ الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٦] فجعل الله صيام عشرة أيام بدلاً من تقديم الهدي لمن لم يجده .

وفي جميع الكفارات إمَّا عتق رقبة ، وإمَّا صيام شهرين ، وإمَّا إطعام ستين مسكيناً ، وفي كفارة اليمين صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام عشرة مساكين . فكفارة صيام اليوم عن إطعام مسكين وتارة عن أكثر ، وذلك مراعاة لحالة من لم يجد المال .

وفي السُّنَّةِ نجد الشيء الشيء الكثير ، من ذلك ؛ قوله ﷺ : « اتَّقوا النار ولو بشقٍّ تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » متَّفق عليه .

فالكلمة الطيبة نابت عن الصدقة بشق التمرة ، حيث لم يوجد شق

التمرة . وهذا نوع من سعة فضل الله على عباده ، حيث جعل لهم مجالاً واسعاً لاكتساب الأجر ، وتحصيل الفضل . وقد تكون الكلمة الطيبة أعظم أثراً على سامعها من العديد من التمرات ، وكثير من العطاء .

ولذا قال ﷺ : « إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » . وعن علي رضي الله عنه : إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم . والمشاهد الملموس أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يسع جميع الناس بماله يواسيهم ويعطيهم ، ولكن يمكن أن يوجد من يستطيع أن يحسن خلقه مع جميع الناس ، ويرضيهم بذلك .

وتقدم قوله تعالىٰ : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًىٰ﴾ وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ [الإسراء : ٢٨] .

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ : « من الصدقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه » . فمجرد طلاقة الوجه بدلاً من العبوسة عند السلام على الناس في جميع الحالات ، تعتبر تلك الطلاقة بمثابة الصدقة . وأيضاً قد تكون طلاقة الوجه أحبُّ إلى الإنسان من عبوسة معها صدقة .

والمثل الشائع بين العوام (لاقيني ولا تعشيني) أي أحسن لقاءك لي أحب إليّ من أن تقدم لي العشاء بدون حسن ملاقاة .

وفي حديث أبي ذرّ رضي الله عنه : « تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذىٰ والشوك والعظم عن الطريق صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة » رواه الترمذي وحسنه .

فنجد أنواعاً من أعمال الخير كلها صدقة لفاعلها . حتى إرشاد الضال

في الطريق ، بل ودلالة إنسان على مكان لا يعرفه ، كمنزل إنسان يسأل عنه أو نحوه يكون ذلك صدقة .

وجاء في رواية لابن حبان بزيادة فيه ، وهي قوله ﷺ : «وبصرك للرجل الرديء البصر صدقة» . وهذه الزيادة تعطي معنىً زائداً ، وهو أنك إذا بصرت لأخيك الذي لا يحسن أن يبصر لنفسه ، سواء البصر الحقيقي كأن يكون نظره ضعيفاً فتأخذ بيده وتبصر له الطريق . وفي هذا جاء الأثر ؛ إذا أخذت بيد كفيف تريه الطريق فخذ بيمينه فإنَّه صدقة . أو كان البصر من التبصّر ومن البصيرة ، بأن تتبصَّر له في عواقب الأمور فترشده إلى ما تراه الأفضل . وقد يكون أَخْرَقَ لا يحسن عملاً يزاوله فترشده إلى إحسان عمله ، وقد جاء عنه ﷺ أنه مرَّ بإنسان يسلخ شاة ، فلم يحسن سلخها فشمر ﷺ عن يده ، وأدخلها بين الجلد واللحم وأدارها وقال له : « هكذا فافعل » . فإن هذا أيضاً لك صدقة ، أو رأيت إنساناً يشتري سلعة وتعرف أجود منها فترشده إليها فهذا أيضاً لك صدقة .

وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ نجد الكلمة الطيبة تتصدَّر أسباب السعادة في قوله ﷺ : « إنَّ في الجنة غرفة يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقال أبو مالك الأشعري : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام ، وبات قائماً والناس نيام » رواه الطبراني .

وهناك نوع من الإنفاق قد يكون إلزامياً وعاملاً وقائياً ، في الحديث الطويل وهو من أحاديث الأربعين النووية ، وهو الحديث السادس والعشرون ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس ، تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها . أو ترفع له عليها متاعه صدقة . والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة » متَّفق عليه .

فالإنفاق في هذا الحديث إلزامي ، وفي مقابل عظيم نعم الله على الإنسان في كل مفصل في جسمه وسلامياته ، وهي أجزاء عظامه . وذلك شكراً لله على هذا الإنعام ، أن خلقه الله خلقاً سويّاً أولاً وقبل كل شيء ، ومتَّعه بما أنعم عليه ، ثم إنَّ تلك السلامىٰ وهي تعمل بكل دقة وانتظام طوال الليالي والأيام ، والشهور والأعوام ، وبدون توقف وبدون استبدال ، فإنَّ هذه الصدقة على كل منها بمثابة ما يسمَّىٰ عوامل الضمان والصيانة .

ولمَّا كانت هذه السلامىٰ كثيرة كما في بعض الروايات ثلاثمائة وستون سلامىٰ ، وكل سلامىٰ عليها صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، كان اللازم لها من الصدقات كثيراً ، وليس كل الناس يجد ثلاثمائة وستين صدقة كل يوم فقالوا : فمن لم يجد ؟ فجاء إرشادهم إلى ما ينوب عن ذلك من أنواع أعمال الخير حيث قال : « يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر » . قال : فمن لم يستطع ؟ أي إمَّا لضعفه وإمَّا لخوفه ؟ قال : « يرفع عظماً عن الطريق » . قالوا : فمن لم يستطع ؟ قال : « فليعن ضعيفاً » قالوا : فمن لم يستطع ذلك ؟ قال : « فليدع الناس من شره » .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ عن النَّبيّ ﷺ ، قال : « يصبح على كل سلامىٰ أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزىء عن ذلك ركعتا الضحىٰ يركعهما » .

ففي حديث السلامىٰ هذا ندب إلى التصدّق عن كل سلامىٰ ، وهي ثلاثمائة وستون ، كل يوم تطلع فيه الشمس . ووجدناهم يتساءلون عمَّن لم يستطع ؟ فبيَّن ﷺ لهم ، ما ينوب عن ذلك من أفعال الخير ، ثم هو بيَّن أيضاً ما ينوب عن ذلك كله وذلك في ركعتي الضحىٰ .

فتبيَّن من هذا كله أنَّ الإنفاق من المال ، إن لم يتيسّر بين أبناء المجتمع الإسلامي ، فإنَّ عنه عوضاً ميسراً ، وهو الكلمة الطيبة ، وطلاقة

الوجه ، والبصر لمن لم يحسن البصر ، ومعاونة الإنسان لأخيه ، والعدل بين كـل اثنين أيّـاً كـانـا ؛ خصمين ، أو ولـــدين ، أو زوجتين ، أو طـالبين ، أو عـاملين ، مطلق عـدالة في مـطلق معاملة ، كـل ذلـك عـوض عن التصـدّق بـالمال ، وعـوض عن ذلـك كله لمن لم يتيسّـر لـه شيء من ذلـك ، صـلاة ركعتي الضحىٰ . وهذا من عظيم فضل الله أن يحل الصـوم تارة ، والصـلاة أخرىٰ ، محل التصدّق بالمـال ، والإنفاق منه .وصدق الله العـظيم إذ قال : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيْمٌ ﴾ .

*****

****

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيْهِ قُلْ قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيْنِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] .

سبب هذا السؤال ومجيء هذا الجواب ؛ هو أنَّ النَّبيّ ﷺ كان قد بعث بعثاً ، وبعث عليه أولاً أبا عبيدة بن الحارث ، فلمَّا أراد الذهاب بكىٰ صبابة لرسول الله ﷺ ، ولم يقوَ على فراقه ، فبعث بدلاً منه عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً وقال له : « لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا لمسيرة يومين » . وقال لا تكره أصحابك على المسير . فلمَّا بلغ المكان ، قرأ الكتاب فاسترجع وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، وكان موضوع الكتاب أن يأتي موضع نخلة يترصّد قريشاً ويأتي بأخبارها ـ ونخلة بين مكة والطائف ـ وقال لأصحابه من أراد الشهادة فليمض معي ، ومن خشي الموت فليرجع . فقالوا : كلّنا نريد ما تريد وما منَّا أحد إلَّا وهو سامع مطيع لرسول الله ﷺ . فمضوا ونزلوا بنخلة فمرَّت بهم عير لقريش تحمل زبيباً ، وفيها عمرو بن الحضرمي ورفاقه ثلاثة . فاتّفق المسلمون على أخذهم ، فرموا ابن الحضرمي فقتل ، وأسروا اثنين وهرب واحد . وكان ذلك في نهاية جمادىٰ الثانية ، ولكن تبين أنه في أول يوم من رجب ، وهو من الأشهر الحرم . فعظم الأمر على كلا الجانبين ، فاستنكر المشركون أن يقع قتال وغنيمة وأسر في الشهر الحرام ، وتساءلوا مستنكرين . واستعظم المسلمون أن يخطىء

أصحابهم ، ولم يعرفوا نهاية جمادىٰ من بداية رجب وينتهكون حرمة الشهر ، حتى إنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « لم آمركم بقتال » . وأوقف قسم الغنيمة حتى جاء الجواب .

ويلاحظ أنَّ الاستنكار منصب على القتال ، ولكن الجواب جاء منصباً على الشهر الحرام لأنَّ حرمة الشهر أعظم من وقوع القتال ، لأنَّ الأشهر الحرم محترمة ومعظمة وفيها لهم منافع ومصالح لأنهم لم يكونوا ليقاتلوا فيها ولا يعتدون ، بل ولا ينتقمون لأنفسهم ، حتى لو كانوا في قتال قبل مجيئها ، فإذا أهلَّت عليهم تحاجزوا وكفوا ، وهناك يرجعون إلى شؤونهم الخاصة ، فتروج تجارتهم وتأمن طرقهم ، وتُتاح لهم فرصة السعي في الأرض . وتلك الأشهر هي المعنية في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِيْ كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . والحادثة وقعت في أول يوم من رجب وهم يظنونه آخر يوم ممَّا قبله ، فعظم الأمر على الجانبين لاتفاقهما على تعظيم حرمة هذه الأشهر . فجاء الجواب مقرراً هذا الواقع ومصدقاً ما قالوا : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ ﴾ ولكن لماذا لم يحترم المشركون عدة حرمات ، وارتكبوا عدة جرائم في حق المسلمين ، وعدَّد عليهم : ﴿ صَدٌّ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ كل من أراد الإسلام صدُّوه عنه ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ فهم كفار بالإسلام وكفار بالله وبرسوله . وكانوا أولىٰ الناس بالإيمان لما جاءهم رسول من أنفسهم . ﴿وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ يصدون من جاءه معتمراً من المسلمين . ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ وتعاهدهم علىٰ إيذاء أهله وجيرانه وأصحابه ، أي من حقهم البقاء في موطنهم . فإن اختلفوا معهم في الدين فقد اشتركوا معهم في الموطن ، ولكنهم ارتكبوا في حقهم جرمين ؛ إيذاؤهم على دينهم ، وإخراجهم من بلدهم مضطرين حفاظاً على دينهم ،

فهاجروا تارة إلى الحبشة وأخرىٰ إلى المدينة . فهذه الجرائم أكبر عند الله أي فلئن كان المسلمون ارتكبوا جرماً كبيراً ، فالمشركون ارتكبوا جرائم أكبر ﴿ وَالْفِتْنَةُ ﴾ عن دين الله أكبر من قتل كافر بالله . فردَّ الله على المشركين استنكارهم ، وردَّ للمسلمين اعتذارهم وأثبت لهم حقوقهم . ثم بيَّن تعالىٰ ما انطوىٰ عليه المشركون ، وهو ليس مجرد استنكار للذي تساءلوا عنه ، بل أمرهم أكبر فاحذروهم فقال : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيْنِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] وهي أشد فتنة لكم ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ ﴾ متأثراً بهم ﴿ فَيَمُتْ وَهْوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

إذاً فاثبتوا على دينكم ولا يشوش عليكم ما شنَّع به المشركون عليكم .

ثم جاء بعد هذا الجواب بيان مبدأ المسلمين في قتلهم ابن الحضرمي ، من أنه لم يكن اعتداء ولا بقصد انتهاك حرمة الشهر الحرام ، إنَّما كان ابتغاء مرضاة الله ، فقال تعالىٰ بعدها مباشرة : ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَالَّذِيْنَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] وهذه شهادة من الله لابن جحش وأصحابه ، فقال مصوراً هذه الحالة :

تعدون قتالاً في الحرام عظيمة — وأعظم منه لو يرىٰ الرشد راشد
صدودكم عمَّا يقول محمد — وكفر به والله راءٍ وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله — لئلاَّ يُرىٰ لله في البيت عابد :(ساجد)
فإنَّا وإن عيرتمونا بقتله — وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا — بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا — ينازعه غُلٌّ من القِدِّ عاند

لقد كان في هذا البعث دروس وعبر منها :

أولاً : موقف هذا الصحابي الجليل وهو أبو عبيدة بن الحارث ـ أو عبيدة بن الحارث ـ الذي لم يطق صبراً على فراق رسول الله ﷺ ، فيبكي صبابة لفراقه . فيعذره ﷺ به ويعفيه من تلك المهمة ، وفي هذا الموقف جاء أعرابي ووقف عند رسول الله ﷺ وبكىٰ ، فقال له ﷺ : « وما يبكيك » فقال : تذكرت رؤياي إيّاك في الدنيا ، فإذا متنا كنت في عليين لعلوِّ منزلتك ، وكنّا بعيدين عنك فلا نراك . فقال له ﷺ : « المرء مع من أحب » . وهكذا تلاحم الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم مع رسول الله ﷺ على الحب الصادق .

ثانياً : تلك الخطة الحكيمة والغاية في كتمان الأسرار العسكرية ، حيث يكتب ﷺ الكتاب ويحدِّد فيه المهمة ، ويأمر المكلّف بها أن لا يفضّ الكتاب ولا يعرف مكان مهمته إلاَّ بعد مسيرة يومين وابتعاده عن المدينة تحفظاً ألاَّ يتسرَّب الخبر .

ثالثاً : الطاعة المتبصّرة باليقين والتسليم ، طاعة لرسول الله ﷺ ، فيركب ويسير بأصحابه حتى يصل المكان الذي حدِّد له ليفض الكتاب، فيقرأه فإذا به يحمله مهمة صعبة ؛ هي اقتحام ديار العدو ليأتي بأخباره والمعلومات اللازمة عنه ، فينقل المهمة بكل ارتياح ويقول : سمعاً وطاعة لرسول الله ، ولا يكره أحداً من رفاقه وكانوا سبعة ويجيبونه : كلّنا نرغب فيما ترغب فيه ، وما فينا أحد إلاَّ وهو سامع مطيع لرسول الله ﷺ .

لقد سمعت وقرأت أنَّ هذه الخطة استعملت في حرب العبور كان الطيار بعدما يمون بما يلزمه ، وبعد أن يركب في الطائرة يعطى خطاباً ويؤمر ألاَّ يفضه حتى يقلع على ارتفاع معين ، ثم يتَّجه حيث يجد التوجيه فيه .

رابعاً : كانت هذه أول غزوة أو سرية ، وقتيلها أول قتيل ، وغنيمتها أول غنيمة .

ولما قسموا الغنيمة قال أميرهم : أخرجوا الخمس لرسول الله ﷺ .

وقد جاء القرآن موافقاً لهذه القسمة في قوله تعالىٰ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِيْ القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ ﴾ الآية [الأنفال : ٤١] .

خامساً : الاعتراف بالحق ولو للعدو ، حيث صادق القرآن على أنَّ القتال في الشهر الحرام كبير ولم يسوغ لوقوعه بخطأٍ ممَّا ارتكبه، ولكن قارن بينه وبين جرائم العدو التي يأتونها عمداً في حق المسلمين بدون ما ذنب ولا جرم إلَّا أنهم قالوا ربنا الله .

سادساً : كشف الجواب عمَّا يخفيه العدو من محاولته لردِّ المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا ولن يستطيعوا أبداً ، وكما قال تعالىٰ عن الأعداء الآخرين : ﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدَاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ممَّا يُحذِّر من الركون إليهم .

سابعاً : تبرئة المؤمنين من وصمة الاعتداء ، أو جرأة انتهاك حرمة الأشهر الحرم بالآية بعدها : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَالَّذِيْنَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيْلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

منزلة الأشهر الحرم وحرمة البلد الحرام

تقدَّم نقاش المشركين في قضية مقتل ابن الحضرمي بنخلة في مستهلِّ شهر رجب ، ثم تقرَّر أعمال المشركين في انتهاك الأشهر الحرم ، والبلد الحرام معاً ضد المسلمين .

وقضية الأشهر الحرم هي : أنَّ الله حرَّم القتال فيها يوم خلق السموات والأرض ، كما بيَّن تعالىٰ في قوله : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرَاً

فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وجعل تحريمها ديناً كما قال : ﴿ذَلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وكانت للعرب حاجزاً عن قتال بعضهم بعضاً وفرصة يحقنون دماءهم ، ويؤمنون سبلهم ويروجون تجاراتهم ، ويصلحون ما أفسدت الحرب بينهم . وجاء الإسلام وحافظ على حرمتها ، فلم يكن ﷺ ليقاتل في الأشهر الحرم ، ولو استهلت عليهم في قتال كف ما لم يبدأهم العدو . وقد جاء النهي صريحاً ألَّا يقاتلوا المشركين إلَّا بعد انسلاخ الأشهر الحرم كما في قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]على أنَّ هذه الأشهر هي الأشهر الحرم المنصوصة في الآية ، أو أنها أشهر الوعدة المتقدمة في أول السورة : ﴿ فَسِيْحُوا فِيْ الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِيْ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِيْ الكَافِرِيْنَ﴾ [التوبة : ٢] .

فإنَّ هذه الأشهر لا قتال فيها فقد أعطيت لهم ليعودوا إلى ديارهم .

والأشهر الحرم هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبتأمل أشهر الحج في قوله تعالىٰ : ﴿ الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة:١٩٧] وجدناها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، وما يتبعها لإتمامه بمنىٰ . وقد تزامنت أشهر الحج مع الأشهر الحرم بحيث لو خرج الحاج من دياره بأقصىٰ الجزيرة ، لأمكنه أن يصل إلى مكة المكرمة فيحج ويرجع إلى بلده ومنازل قبيلته في الأشهر الحرم ، حيث تمتد بعد إتمام المناسك من نهاية ذي الحجة وشهر المحرَّم بكامله .

ولكأنَّ المولىٰ سبحانه لمَّا دعاهم لحج بيته ليأتوا من كل فجٍّ عميق ، أمَّنَ السبيل ذهاباً وإياباً ، وجعل مواطن الحج أماناً .

فإذا وصل مكة ووصل الحرم فهناك الأمن لكل كائن حي . ﴿ وَمَنْ

دَخلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ كمـا قال ﷺ : ﴿ إنَّ مكـة حرام لا يختلىٰ خـلاها ولا ينفـر صيدها ﴾ . وقـد تندر الشـاعر في ذلـك بقولـه ، في وصف الفتيات الأوانس المتعفّفات :

يحسبن من لين الحديث فواسقاً ويصـدهنَّ عن الخنـا الإسـلام
بيض أوانس مـا هممنَ بـريبـة كـظبـاء مكـة صيـدهنَّ حـرام

وحرمة البيت حرمة مكـانية دائمـة ليست مقيدة بـزمن ، وقديمـة ليست جديدة كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِيْ بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلْعَالَمِيْنَ * فِيْهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَىٰ النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً ﴾ [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] .

فهـذا نص في أولية هـذا البيت ببكة ، وسميت مكـة بكـة لأنهـا تَبُـكُّ الحجـاج أي تدفعهم إلى بـلادهم ، أو تبك الجبـابرة وتـدفعهم عن نفسها . كما سمي البيت بالعتيق لعتقه من تسلّط الجبابرة عليه .

مباركاً: كثيرة بركاته ومن أعظم بركاته تأمينه، ولذا ندب الناس لحجه بعد أن شمله بـالبركـة وأمكنه من الأمن ، وقـد امتنَّ الله تعالىٰ على أهله بهـاتين النعمتين ؛ البركة والأمن ، بقوله تعالى : ﴿ لِإِيْـلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْـلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِيْ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤] . وهذا الامتنان وإن كان المعني به قـريش ، إلاّ أنه شـامل لكـل من تواجـد بمكة من غيـر أهلهـا من عمـوم النـاس ، كمـا قـال تعالىٰ : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامَاً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالقَلاَئِدَ ذَلِـكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَـا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] . فالكعبة : البيت الحرام قياماً للناس : أي قـائمة بشؤونهم في مأمنهم وجلب الأرزاق إليهم ، لأنَّ تأمين البيت لمن يفـد إليه ، إعطاؤه الفرصة للإصلاح من شأنه والأخذ والعطاء مع غيره ، وأعظم من هـذا

كله تـأمينه على نفسـه ، فحرمـة البيت عامـةً لجميع النـاس وقيـامـاً لجميـع الناس .

ويـوضحه قـولـه تعـالىٰ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَـا البَيْتَ مَثَـابَـةً لِلنَّـاسِ وَأَمْنَـاً ﴾ والمثابة : يثوبون إليه يأوون ويعودون . وهذا شامل حتى البعيدين عنه وذلك في استقبالهم الكعبةِ في صلواتهم كل يوم خمس مرات وأكثر . فيكـونون في شغل شاغل ، وعمل طائل ، فإذا ما سمعوا النداء للصلاة ثابـوا إلى قبلتهم ، ويمَّمـوا مساجـدهم ، وقامـوا لله في صلواتهم ، فتصلهم بالله تعـالىٰ وهكذا كلما أبعدهم الاشتغال بدنياهم ، رجعوا إلى قبلتهم فتقرَّبوا من مولاهـم .

وأمَّا المقيمون حوله فهم في رحاب مأمنه ، وبحبوحة بركاته ، كما قال تعـالىٰ ملزماً أهله بـالإيمان، ممتنـاً عليهم بنعمة الأمـان: ﴿وَقَـالُـوا إِنْ نَتَّبِـعِ الهُـدَىٰ مَعَكَ نُتَخَـطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ . أي أنهم خـافوا الـدخول في الإِسـلام فتخـطفهم القبائـل من حولهم ، فـألزمهم الحجـة رداً عليهم بعكس ما قـالوا فقال : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَـدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧] .

ومن الإِعجـاز القرآني أنهم لمـا خافـوا من القبـائـل أن تتخـطفهم وأن يتـزعـزعـوا من مـواطنهم ، جـاء الجـواب في المقـابـل بـالتمكين والقـوة : ﴿ أولَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمَـاً آمِنَـاً ﴾ وإن أعظم عـوامل التمكين للأمـم إنَّما هـو عامل الأمن ، والأمن بكـل معانيـه . . الأمن الاجتماعي على النفس والمـال والعرض ، والأمن الغذائـي بما فيه الكفاية عن الجـوع ، والأمن الديني يقيم شعـائر دينـه دون أي اعتراض عليـه ، بل مـع حمايتـه ومساعـدتـه ، والأمن الفكري في حرية عقيدة الإِيمـان بربـه ونبيه وكتـابه ومعـاده ، وقد جمـع الله ذلـك في قولـه : ﴿حَرَمَـاً آمِناً﴾ وقـوله : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْـهِ ثَمَرَاتُ كُـلِّ شَيْءٍ ﴾ وبيَّن أنَّ اجتباء تلك الثمرات ، رزق من الله ، لا مِنَّة من مخلوق ، ولا عطاء مشروطاً من أمة من الأمم .

ثم عمل لهم مقارنة ملموسة بينهم ، وما هم فيه من نعمة الأمن ، وسعة الرزق ، وبين ما عليه الآخرون البعيدون عن حرمة البيت فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي بالإغارة عليهم ، وسلب أموالهم ، وسبي نسائهم وذراريهم . وهم آمنون في جوار هذا البيت ، وفي حمىٰ حرمه وحرمته ، وهم يشاهدون ويعاينون . ومن مجموع الآيتين الأولىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نمكّن لهم حرماً آمناً يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا ﴾ [القصص:٥٧] والثانية : ﴿ أَوَلَمْ يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف الناس من حولهم ﴾ [العنكبوت:٦٧] بمجموعهما تظهر صورة تخوف أولئك على أنفسهم ، من أن يتخطفوا من أرضهم ويهلكوا ، ومن مجموعهما ندرك نعمة التمكين لهم ورغد العيش عندهم ، وقطع مخاوفهم من أعدائهم ، بل ومن عائداتهم عندهم من أسباب العيش وتبادل المنافع وخشية العيلة ، قال الله تعالىٰ : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيْكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] وكل هذه نعم من الله تعالىٰ عليهم ولهذا قال تعالىٰ في آية العنكبوت : ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

والباطل هنا هو تخوّفهم من الناس وامتناعهم من الإسلام . ونعمة الله هي نعمة الأمن ورغد العيش في رحاب بيت الله الحرام ، أمناً دائماً لجميع الناس فاجتمعت لهم نعمة أمنين ، أمن الزمان بالأشهر الحرم ، وأمن المكان بالبلد الحرام .

حرمة المحرم

من خصائص هذا الدين لهذه الأمة ، أنَّه فرض الأمن مع الإيمان ، وأوجب السلم مع الإسلام ، وجعل بينها ارتباطاً وثيقاً ، وذلك في حرمات ثلاث :

١ - حرمة الشهر الحرام .

٢ - والبلد الحرام .

٣ - والإهلال في الإحرام .

وتقدَّم الكلام على الشهر الحرام وحقوقه ، وعلى البلد الحرام ومكانته . وبقي الحديث عن الإحرام وحرمته .

والأصل في هذا الأخير قوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القَلاَئِدَ وَلاَ آمِّيْنَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾ [المائدة:٢] .

فذكر تعالىٰ هنا شعائر الله جملة ، ثم عطف عليها الشهر الحرام والهدي ، وهو ما يساق من هدايا بهيمة الأنعام إلى البيت الحرام . والقلائد ، وهي قلائد الهدي أو قلائد الانتماء إلى الحرم . والميمِّمين وجهتهم إلى البيت الحرام ابتغاء فضل الله ورضوانه من الحجاج والعمار . وتحريم الصيد على المحرم حتى يتحلَّل ، وهو المصرح به في الآية قبلها أول السورة : بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ ﴾ [المائدة:١] .

بالرجوع إلى هذا السياق نجد التحريم جملة إلى شعائر الله ، وهي جمع شعيرة وهي كل ما نسب إلى الله تعالىٰ في مشروع ديني ، وعلى سبيل المثال ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٧] وقوله : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٩٨] والمراد تعظيم شعائر الله لأن تعظيمها من تقوى الله ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ

﴿ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] . وقد قال بعض العلماء : كل سنة متَّبعة أو فريضة مؤدَّاة فهي من شعائر الله ، كالأذان والصلاة وغير ذلك . ولذا قالوا : كل من استخفَّ بسنَّة متبعة فقد لحقه حكم الرِّدة ، عياذاً بالله .

ولأنَّ تعظيم الشعائر إنَّما هو من تعظيم من خصَّها بذلك وهو الله سبحانه .

وبعد الإجمال في الشعائر ، جاء بالتفصيل في أفراد منها ، فقال : ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ . وهذا دليل على بقاء حرمة الشهر الحرام وعدم نسخ حرمته . ونقل أبو حيان الخلاف في ذلك ؛ وأنَّ عطاء كان يقسم بالله إنَّه لا يحلُّ للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام ، إلَّا أن يقاتلوا فيه ، قال : وروي هذا القول عن مجاهد أيضاً قال : وروىٰ جابر أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يغزو في الأشهر الحرم إلَّا أن يغزىٰ .

وقد جاء عن والدنا الشيخ محمد الأمين ـ رحمه الله ـ أنَّه كان يقول بنسخها . نسخت حرمتها آيات السيف ، في آخر عرضة للقرآن في التفسير في المسجد النبوي ، صرَّح بأنَّ الصحيح أنها محكمة ولم تنسخ . ونقول : إنَّه الأنسب بحكمة التشريع ، ودعوة الإسلام للسلام ، وتحقيق وتحصيل المصالح للمسلمين على ما سيأتي في نهاية هذا الحديث ، إن شاء الله .

وكذلك الهدي ، وهو ما يهدي إلى البيت الحرام من بهيمة الأنعام . وكان من عادتهم أن يسوقوا البدن مقلدة مشعرة ، وتقليدها هو وضع قلادة في عنقها ، معلَّقة فيها نعل أو نعلان، وإشعارها هو جرحها في صفحة سنامها حتى يسيل دمها ، وذلك إشعاراً لمن يراها أنها مهداة إلى البيت ، فلا تمتدّ يده عليها أينما كانت ، فكان إشعار البدن وتقليدها بمثابة إحرام المحرم ، والهدايا تشمل بهيمة الأنعام كلها ؛ الإبل والبقر والغنم . إلَّا أنَّ التقليد والإشعار خاص بالإبل ، وسواء كان الهدي مع المحرم بنفسه أو ساقه وبعث

به إنساناً وهو جالس في بلده، كما فعل النَّبيّ ﷺ كان يرسل الهـدي وهو بـاقٍ في المدينة .

وحماية الهدي بتقليده وإشعـاره ، من خصائص هـذه الأمة في تعـظيم شعائر الله . حتى العرب في الجاهلية كانوا يعظمونه . وهـذا نوع من أنـواع افتراض الأمن من منبع الاعتقاد سواء فيِ الجاهلية أو الإسلام .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ولا القلائد ﴾ قيل هي قلائد البُدن المهداة إلى البيت فيكـون تحريمهـا تأكيـداً للبُدن من بـاب أولىٰ ، كقـول الصـديق : والله لـو منعوني عقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقـاتلتهم عليه . فيكـون قتالهم على ما يعقل به أولىٰ . وقيل : إنَّ القلائد نـوع آخر يتعلَّق بـالإنسان ، وهـو أنهم كانوا إذا أراد واحـد من أهل الحـرم أن يسافـر خارج حـدود الحرم ، أو شخص أنهىٰ عمرته وأراد العودة إلى دياره وخاف عدواً في طريقه ، عمد إلى شجر الحرم وأخذ من لحاه وجعل منه قلادة في عنقه فإذا رآه من أراد به سوءاً كفَّ عنه لحرمة مجيئه من الحرم . وهذه نعمة أمن باسم الحـرم حتى العائـد منه .

ثم تـأتي خاتمـة المطاف في قـوله تعـالىٰ : ﴿ وَلَآ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَـرَامَ يَبْتَغُـونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانَاً ﴾ . وبهـذا الأمان لآمِّين البيت الحـرام وهم الحجاج والمعتمرون ممَّا يشيع الأمن زماناً ومكاناً ، خاصاً وعاماً .

أمَّا زماناً ففي أشهر الحـج والمتوافقـة مع الأشهـر الحرم ، وفي عمـوم السنة للمعتمرين لأنَّ العمرة لا تتقيَّد بزمن ولا بأشهـر معينة ، فيكـون كل من أحـرم وأمَّ البيت محرمـاً يبتغي فضلاً من الله ورضـوانـاً لـه الأمن على نفسـه وعلى مـاله وعلى هـديه ، أمـاناً منبعثـاً من المعتقد لا يهـدمه إلاَّ مـن هـدم عقيدته . وهو أمان ملازم للفرد وللجماعة حيثمـا سار وأينمـا حلَّ حتى يصـل إلى البيت ويتمّ نسكه .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ بين نوعيـة سفره

وعلاقته بربه من أنه لم يرِد مقصداً دنيوياً فلا مضرَّة منه على أحد ولا إيذاء منه بمن يمرّ بهم .

ويستطيع القائل أن يقول : إنَّ في مقابل تأمين آمّين البيت الحرام من كل من يمرّ بهم في طريقه أن يأمنوه هو أيضاً ، ولذا فقد حرم على المحرم أن يعتدي مدة إحرامه على أيّ كائن حيّ ، حتى الصيد ؛ من طير في الهواء أو وحش في الخلاء ، لأنَّ صيد كل مكان من حق أهله ، وكذلك المحارم فإنَّ زوجته وهي حلال له تحرم عليه حالة إحرامه ، وكذلك شعره وظفره محرم عليه إزالته .

فإذا كان الصيد وهو أحلُّ الحلال محرَّماً عليه ، فحلال القبائل التي يمرّ عليها من باب أولىٰ .

وإذا كانت زوجته وهي حلاله محرمة عليه ، فمحارم الآخرين من باب أولىٰ ، وإن كان شعره وظفره حرام عليه ، فشعر وظفر ولحم ودم غيره من باب أولى ، وهكذا يكون الأمن متبادلاً للمحرم منه وله .

وفي الختام نجمل القول فنقول : إنَّ سؤالهم عن حرمة القتال في الشهر الحرام سؤال له دلالته ، والجواب له قيمته . وقد علمنا الحرمات الثلاث ، الزمانية في الأشهر الحرم ، والمكانية في البلد الحرام ، وحرمة الإحرام التي لم تتقيّد بزمان ولا مكان .

ومن مجموع ذلك تكتمل عندنا الصورة الواضحة لاهتمام الإسلام بنشر السلام ، وفرض الأمن إجبارياً ، بمثابة الهدنة الملزمة للأطراف المتحاربة ، وفي ذلك من المصالح ما يشهد به الواقع . كما في صلح الحديبية من التزامهم بالهدنة لسنتين فقط ، فقد دخل في الإسلام في هاتين السنتين أكثر ممَّن دخل فيه من أول الإسلام تسع عشرة سنة .

ولقد أدرك العالم مدىٰ الحاجة إلى الالتزام بهدنة تتيح للمتحاربين فرصة

التفاهم ، ومدى تحريم القتال في مكان معين لفرصة التفاوض على إيقاع الهدنة . فاختاروا سويسرا والتزموا أن لا تدخل حرباً لا لها ولا عليها ، ولا تشارك في أيّ حرب ، وأنه يلتقي فيها قادة الفريقين المتحاربين ، فلا يعتدي أحدهما على الآخر .

وقد سبق الإسلام إلى أن جعل مكة المكرمة بلداً حراماً ، يأمن فيه كل حيّ حتى الطير والحيوان ، فضلاً عن الإنسان . كما جعل الأشهر الحرام يحرم فيها القتال ، وجعل المحرم وما يصحبه من الهدي ونحوه آمناً . فكان الإسلام أشمل وأحكم . ولو أنَّ المسلمين راعوا حرمة الأشهر الحرم لما استمرَّ قتال بينهم مدار السنة ، ولكان في إيقاف القتال في الأشهر الحرم حقن لدمائهم ، وتوفير لعتادهم ، وفرصة لإصلاح ذات بينهم . والحمد لله على نعمة الإسلام .

*****

****

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] .

لعلَّ هذا السؤال من أهم ما سألوا عنه واهتمّوا به ، لتفشّي الخمر بينهم وانتشار الميسر عندهم ، فالمسؤول عنه من صميم حياتهم .

وبالنظر إلى أقسام السؤال من حيث الغرض منه ؛ هل هو سؤال استرشاد ؟ كالسؤال عن المحيض ، وماذا ينفقون ؟ أم تعلُّم ومعرفة ؟ كالسؤال عن الجبال ، وعن الأهلَّة ؟ أو تعنت ؟ كالسؤال عن الروح ، وعن ذي القرنين ؟ أو اعتراض واحتجاج ؟ كالسؤال عن القتال في الشهر الحرام ؟ والتعنّت والاعتراض لا يكون إلَّا من المشركين .

والسؤال عن الخمر والميسر ، سؤال استرشاد ، كما جاء عن ـ عمر رضي الله عنه ـ أنه قال : اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً .

وجاء في سبب نزول هذه الآية أنَّ عمر وعثمان ونفراً معهما من الصحابة ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم ـ أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : أفتنا في الخمر فإنَّها مضيِّعة أموالنا ، مذهبة عقولنا . فنزلت : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية . وقيل في سبب النزول ، إنَّه ﷺ لمَّا قدم المدينة وجدهم يشربون ويياسرون ، فسألوا ، فنزلت .

فالسؤال قطعاً من المؤمنين ، تأثماً وتحرجاً ، من الخمر والميسر .

وصدور هذا السؤال يثير الانتباه ، حيث إنَّهم سألوا عن أمر شائع ، ذائع ، مألوف، وتعليلهم بأنها مذهبة للمال ، مضيعة للعقل ، ليس وحده مثير هذا السؤال لأنَّ ذلك موجود معها من قبل .

وقد جاء عن قيس بن عاصم الذي حرم الخمر على نفسه بعد أن كان يشربها ، أنَّه لما وقع منه ما يستنكر أقلع عنها ، وهو أنه في حالة سكره غمز عكنة ابنته ، وسبَّ أبويه ورأىٰ القمر فتكلَّم بما لا يليق ، وأعطىٰ الخمار مالاً كثيراً . فلمَّا أفاق تركها نهائياً وأنشد أبياته المشهورة :

رأيت الخمر صالحةً وفيها   خصالٌ تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً   ولا أشفي بها أبداً سقيمَا
ولا أعطي بها ثمناً حياتي   ولا أدعو لها أبداً نديما
فإنَّ الخمر تفضح شارِبيها   وتجنيهم بها الأمر العظيما

فما علَّلوا به لسؤالهم موجود ، ومن قبل أن يسألوا .

ومهما قيل من سبب في النزول ، فإنَّ تساؤلهم جاء من وعي جديد ، وتفهُّم أعمق لحقائق الوقائع ، نشأ عن تأثير الإسلام في منهج حياتهم ، ومنطلق تفكيرهم ، جعلهم يستنكرون ما كانوا يستسيغون ويألفون ، بعودتهم إلى الفطرة السليمة .

واقتران الخمر بالميسر في السؤال وشمولهما في الجواب ، ينمُّ عن وجود عامل مشترك بينهما . ولعلَّ أقوىٰ ارتباط بينهما هو البذل ، والفخر . ويؤيِّد هذا ما جاء من الحديث عن الإنفاق بعدهما مباشرة ، وفي نفس الآية : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾ فالجواب بالعفو وهو الزائد عن الحاجة ، وبطيب نفس وتسامح ، بمثابة الردّ على الإنفاق الإلزامي بالميسر ، بدليل أنَّ السؤال الثاني عن الإنفاق أيضاً في غير هذا الموضع جاء الجواب مبيناً جهة الإنفاق لا نوع ما ينفقون .

فالخمر والميسر كلاهما مضيعة للمال ، مذهبة للعقل . وكما قال ابن

عباس : كان الرجل في الجاهلية ربما يخاطر على أهله وماله ، ـ يعني في الميسر ـ ويقامر عليهما .

وقد يكونان متلازمين ، لأنَّ من سكر هان عليه أن يقامر على كل شيء . فالسؤال عن الخمر والميسر كان حتمياً لهم ومن واقع حياتهم ، والجواب جاء مغطياً للأمرين معاً بأبلغ ما يكون ، وأدقّ وأشمل .

وبعد هذا العرض لجوّ السؤال ودوافعه ، نأتي إلى المسؤول عنه بتعريفه وتحديده .

أولاً ـ الخمر : قد يكون تعريف الخمر مفروغاً منه عند العلماء ، ولكن نظراً لما استجدَّ وما يستجد فيما بعد ، ممَّا يندرج تحت مسماها ، فإنَّه يحسن إيراد التعريف لغة وشرعاً ، ليسهل تحديد كل ما ينطبق عليه الجواب عن الخمر والميسر المتعارف عليهما وقت السؤال .

نحن نعلم أنَّ من خصائص التشريع الإسلامي العموم والشمول ، لذلك كان صالحاً لكل زمان ومكان . وعليه فالخمر لغة ، كما جاء في معجم مقاييس اللغة : الخاء ، والميم ، والراء : أصل واحد يدلُّ على التغطية ، والمخالطة ، في ستر . فالخمر : الشراب المعروف .

قال الخليل : الخمر معروفة ، واختمارها إدراكها وغليانها ، ومخمرها : متخذها ، وخمرتها ما غشي المخمور من الخُمار والسكر في قلبه . وأنشد :

لذُّ أصابت حميّاها مقاتله   فلم تكد تنجلي عن قلبه الخُمَرُ

والخمر : بفتح الميم ، الشجر الكثيف . قال أبو ذؤيب :

فليتهم حذروا جيشهم   عشية هم مثل طير الخُمَر

والخِمار : خمار المرأة . وفي المثل : العوان لا تعلم الخِمْرة . أي المرأة المجربة لا تحتاج تعلُّم كيف تختمر . والتخمير التغطية .

وفي الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] .

وفي الحديث : أتصلي المرأة في درع وخمار . قال : « نعم ! إذا كان سابغاً يغطي ظهور القدمين » .

وقال أيضاً : خامر الرجل المكان إذا لزمه فلم يبرحه . ويُقال : خمرت العجين وهو أن تتركه فلا تستعمله حتى يجوّد . ويقال : خامره الداء ، إذا خالطه . قال كثير :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلّت

والخمرة : السجادة الصغيرة ، من حصير أو غيره ، لتخميرها موضع السجود من الأرض .

قال القرطبي في تفسيره : الخمر مأخوذة من خَمَرَ : إذا ستر ، ومنه خمار المرأة وكل شيء غطّىٰ شيئاً فقد خمره ومنه الحديث : « خمروا آنيتكم » فالخمر تخمر العقل ، أي تغطيه وتستره . ومن ذلك الشجر الملتفّ ، يُقال له : الخمر لأنه يغطي ما تحته ويستره . ومنه قولهم : دخل في غمار الناس ، وخمارهم . يعني في جماعتهم بدون تمييز . ويشهد لقولهم ما جاء عن أويس القرني ، لما أراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يكتب معه كتاباً لعامل بالشام يوصي به فرفض وقال : أكون في غمار الناس .

ومن هذا القول نأتي إلى فقه اللغة للربط بين خمر ، وغمر ، فنجد الاشتراك في وجود الميم والراء ، والاختلاف في الغين والخاء ، وكلاهما من حروف الحلق ، فهما قريبا المخرج ، وبهذا يشتدّ القرب بين المادتين . والغمر: الماء يغمر ويغطِّي ما بداخله . والغين أدخل في الحلق وأشدّ خفاء فكان معنىٰ « غمر » أشدّ تغطية لأنه يخفي المغمور عن المشاهدة بالعين .

ومن هذا كله قالوا : لما كانت الخمر تستر العقل ، وتغطيه سميت

بذلك . وقيل : سميت بذلك ؛ لأنها تركت حتى أدركت ، كما يختمر العجين ويبلغ إدراكه . وعليه يكون أصل الخمر لغة يدور على معانٍ ثلاثة كلها متلازمة : التغطية ، المخالطة ، الترك . فالخمر تركت ، وخمّرت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل ، ثم خمرته . والأصل كما قال ابن فارس : الستر .

والحقيقة الشرعية للخمر : قيل ما كان من ماء العنب فقط ، وهذا ما انفرد به الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - وخالفه أصحابه، ووافقوا الجمهور، خاصة الإمام محمد بن الحسن الشيباني ، رحمهم الله جميعاً .

وقيل - وهو الصحيح عند الجمهور - : كل ما خامر العقل ، من أي شراب فهو خمر شرعاً . والفرق بين أبي حنيفة والجمهور ، في الحكم لا في التحريم ، لإجماعهم على أنَّ كل مسكر محرم وفيه العقوبة .

ومن أدلَّة الجمهور على العموم في كل مسكر ، ما جاء في الأحاديث الصحيحة الصريحة ، ومن ذلك حديث أنس - رضي الله عنه - قال : أنزل الله تحريم الخمر ، وما بالمدينة شراب إلاَّ من تمر . رواه مسلم ورواية غيره : تمر وبسر . وحديث عمر - رضي الله عنه - نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر ، والعسل ، والحنطة ، والشعير ، والخمر: ما خامر العقل . متَّفق عليه . وحديث ابن عمر - رضي الله عنه - : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » . رواه مسلم . فهذه النصوص الصحيحة الصريحة ، ناطقة بالعموم على الحقيقة الشرعية ، وليس قياساً على ماء العنب .

والفرق عندهم : أنَّ الخمر شرعاً ، يحرم قليلها ، وكثيرها أسكر أم لم يسكر . وفيه الحد ، ونجسة العين . أمَّا ما هو ملحق بالحقيقة قياساً بجامع السكر ، فلا يحرم إلاَّ ما أسكر ، وفيه التعزير في القليل منه ، ومختلف في نجاسته ، وفي تكفير جاحده .

وليس بعد صريح النص اجتهاد « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » وسيأتي بيان ما يندرج تحتها ، إن شاء الله .

ما يندرج تحت مسمَّىٰ الخمر شرعاً

تقدَّم تعريف الخمر لغة ، وشرعاً ، وعموم حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » . .

وهنا نورد ما يندرج تحت مسمَّىٰ الخمر ممَّا استحدث من مسكرات أو يستحدث فيما يأتي : روىٰ البيهقي ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه جاءه أناس يسألونه عن الطلاء . فقال : وما طلاؤكم هذا ؟ إذا سألتمونا فبيِّنوا لنا الذي تسألونني عنه . فقالوا : هو العنب يعصر ثم يُطبخ ، ثم يجعل في الدنان . قال : وما دنانكم ؟ قالوا : دنان مقيرة . قال : مزفتة ؟ قالوا : نعم . قال : يسكر ؟ قالوا : إذا أكثر منه . قال : فكل مسكر حرام . وحديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ سألها أبو مسلم الخولاني عن شراب يشربه أهل الشام يُقال له : (الطلاء) قالت : صدق الله وبلّغ حبي . سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أناساً من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها » . وعن أبي مالك الأشعري ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « ليشربنَّ أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها وتضرب على رؤوسهم المعازف ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم قردة وخنازير » .

وهذا الحديث : سواء كان على حقيقته يوقع الله بهم ما ذكر ، أو على مجازه بمعنىٰ أن يكون خسف الأرض بهم ما نزل بهم من ذلَّة الاستعمار ، وتسليط العدو عليهم يتحكم في رقابهم وفي أموالهم وأعراضهم ، بما يمليه من أحكامه وينفذه من سلطته . ويكون جعل القردة منهم تفشّي الفساد بينهم ، والخنازير سلبهم الغيرة على محارمهم ، ممَّا هو

واقع بالفعل في المجتمعات التي اشتهرت بتفشّي الخمر فيها ، وكثرة السكر منهم ، نسأل الله العافية .

وقد استحدث الناس في هذه الآونة أنواعاً من الشراب ، لم تكن معروفة من قبل ، من ذلك الكحول ، والعطورات المركبة منه ، كالمسمىٰ بالكولونيا ، والبيرة ، وغير ذلك ، حتى من (البروكيماويات) أيّاً كان نوعها ، ومدىٰ قوة أو ضعف تأثيرها ، ما دامت مسكرة في النهاية .

ويشهد لهذا الحديث عند أبي داود ـ رحمه الله ـ عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « كل مسكر حرام ، وما أسكر منه ملء الفرق ، فملء الكف منه حرام » . وحديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ ، قال : « أنهاكم عن قليل ما أسكر كثيره » رواه ابن ماجه والطحاوي .

النتيجة : ولعلّنا من هذا كله نخرج بنتيجة علمية ، وهي أن كل ما اتخذ للسكر سواء كان من تمر ، أو شجر ، أو عسل ، أو لبن ، أو مركب كيماوي ، أو أيّ جنس كان ، فإنّه يندرج تحت مسمّىٰ الخمر شرعاً .

وقد اكتشف الناس بعض النباتات التي لها تأثير على العقل أيضاً ، ولها في الجملة تأثير الخمر ، بل هي أخطر وأشد ضرراً منها ؛ كالحشيش والأفيون . والسكرنية (الداتورة) ، وألحق بذلك المسمىٰ (بالقات) ، والتبغ ، لحديث النهي عن كل مخدر ومفتر . وذكر ابن سينا في قانون الطب أنواعاً من النباتات أخرىٰ .

كما استحدثوا من الكيماويات الأشياء الكثيرة بأنواع عديدة ، على هيئة حبوب مصنفة في جملة المخدرات ، كالكوكايين ، والهوريين ، وما انتشر بين العوام من عقاقير رخيصة ذات مفعول خطير ، تعمد أعداء الأمة العربية والإسلامية نشرها بين الشباب ، لما فيها من القضاء على حيويتهم ، وانفساح مجال الرذيلة بينهم . ممّا أجهد رجال الأمن في مكافحة هذا

الخطر ، وأرهق المجتمع في تحمل أعباء آثارها السيئة .

وفي هذا المجال يبحث العلماء تصنيف كل تلك الأصناف ، كما جاء عند الإمام القرافي فقسمها إلى ؛ مسكر ، ومفسد ، ومخدر .

فجعل المسكر أنواع المشروبات ، وفيها الحد شرعاً ، وهي نجسة العين ويكفر مستحلها . وجعل المفسد ما ليس شراباً ؛ كالحشيش ، والأفيون ، وما ألحق بهما . وكلها محرمة وفيها العقوبة إمَّا حداً أو تعزيراً .

أمَّا المخدر ؛ وهو المعروف بالبنج : فهو لا يغطي العقل ، ولا يخالطه ، ولا يفسده ، ولكنه يذهب الإحساس ، ويوقف الحواس من سمع ، أو بصر ، أو لمس ، أو ذوق . ومع ذلك لا يجوز استعماله إلاَّ لضرورة ، وهي دواعي الجراحات . واستعمالاته طبياً على ثلاثة أقسام :

أ - موضعياً : كخلع السن ، أو فتح الدمل .

ب - ونصفياً : وهو من منتصف الظهر إلى القدمين ، إذا كانت الجراحة أكبر ، وفي تلك المنطقة . وهذان القسمان لا تأثير فيهما إلاَّ على الإحساس بالألم فقط ، ويبقى الإحساس بالنظر ، والذوق ، والسمع ، والشمّ .

جـ - والثالث : عام لسائر الجسم ، إذا كانت الجراحة جوفية في الصدر أو في البطن مثلاً ، وهذا القسم أشبه بالنوم العميق ، مع عدم التأثير على أيّ عضو في الجسم بالإضرار ، ولا يترك أثراً في الجسم بعد الإفاقة من أثر البنج ، بخلاف المسكر والمفسد .

الآثار الظاهرة لكل من المسكر والمفسد :

يغلب على متعاطي المفسد؛ الخمول ، والانعزال ، والخوف ، وطول الصمت ، أو البكاء . بخلاف متعاطي المسكر ، فهو على العكس يكون منتشياً ، فرحاً ، مخموراً ، شجاعاً ، كما قال حسان - رضي الله عنه - :

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً لا ينهنهنا اللقاء

وقول الآخر :

فإذا شربت فإنَّني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنَّني رب الشويهة والبعير

هذا مجمل التعريف بالخمر وما ألحق بها من المفسد ، والمخدر .

أمَّا تعريف الميسر : فهو أصلاً من مادة (يسر) وهي تدل على التيسير والسهولة . والميسر : قمار العرب .

قال القرطبي : كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجلَ على ماله وأهله فأيّهما قَمَر صاحبه ذهب بأهله وما له ، فنزلت الآية . والميسر : مصدر ميمي ، كموعد ، وموقف . وهو من اليسر والسهولة ، أو من يسروا الشيء بمعنىٰ اقتسموه . وهو هنا من يسروا الجزور اقتسموه . والياسر : القاسم بينهم . أو الجازر ، لأنه يقسم الجزور أي بين الياسرين .

وكيفيته : أنهم كانوا يأتون بالجزور ، فيُنحر وكانت لهم قداح عشرة ، وكان على سبعة منها أرقام ، وثلاثة منها مهملة ، فيقسم الجزور إلى ثمانية وعشرين جزءاً . وتلك القداح هي :

الفذ ، وعليه رقم (١) . والتوأم ، وعليه رقم (٢) . والرقيب ، وعليه رقم (٣) . والحلس ، وعليه رقم (٤) . والنافس أو النافز ، وعليه رقم (٥) . والمسبل ، وعليه رقم (٦) . والمُعَلَّىٰ ، وعليه رقم (٧) . ومجموعها ثمانية وعشرون والمغفلة هي : المنيح ، والسفيح ، والوغد . فيضعون هذه القداح العشرة في خريطة ويجيلونها لتختلط ببعضها ثم يقدمون رجلاً أميناً ، فيتناول باسم كل واحد منهم سهماً ، وهو لا يعلم رقمه ، فما طلع من القداح لواحد منهم ، أخذ المرقوم فيه من الثمانية والعشرين جزءاً من الجزور ، ومن طلع له سهم غفل لا يأخذ شيئاً وعليه ثمن الجزور .

وكانوا لا يأكلون ما يطلع لهم ، وإنَّما يطعمونه المحتاجين . وقد نظم بعضهم هذه القداح بقوله :

كل سهام الياسرين عشرة فأودعوها صحفاً منشرة
لها فروض ولها نصيب الفذّ والتوأم والرقيب
والحلس يتلوهنَّ ثم النافس وبعده مسبلهنَّ السادس
ثم المعلىٰ كاسمه المعلىٰ صاحبه في الياسرين الأعلىٰ
والوغد والسفيح والمنيح غفل ممَّا فيما يرىٰ ربيح

وكانوا يتفاخرون بذلك بأنهم يقامرون فيربحون ويطعمون المحاويج ، ويذمُّون من لم يشارك في ذلك ، ومنه قول الأعشىٰ :

المطعمون الضعيف إذا ما شتوا والجاعلو القوت على الياسر

ولم يكن هذا العمل يوقع بينهم السباب لتفاخرهم به ، كما قال لبيد :

إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم فواحش ينمي ذكرها بالمصايف

إلَّا أنه في الواقع كان أكلاً للمال بالباطل ، حيث يلزم الواحد منهم ثمن الجزور كله ، وهو لم يأخذ منه شيئاً .

وأيضاً نقول : إذا لم يورث فواحش ظاهرة ، ويستحيون من إظهار الغضاضة فيه أنفة وتكبراً ، فإنَّ القرآن الكريم قد صرح بأنه وسيلة للشيطان ليوقع العداوة والبغضاء بينهم ، في الخمر والميسر سواء .

تلك هي حقيقة الميسر محل السؤال . وقد ألحق به كل قمار فيه أكل الأموال بغير طيب نفس .

ونقل القرطبي عن مالك رحمه الله : الميسر ميسران : ميسر اللهو ، وميسر القمار . فميسر اللهو ؛ النرد ، والشطرنج ، والملاهي كلها . ويمكن أن يدخل في هذا القسم ما ظهر الآن من المسمَّىٰ بالورق (بالوت) ،

والضمنة ، والطاولة ، والكيرم ، ممّا يلهي عن ذكر الله ، على اختلاف في هذا القسم .

وميسر القمار : ما يتخاطر الناس عليه . واستثني من هذا الرهان مع وجود المحلل الذي يدخل في الرهان ولا يدفع شيئاً ، لأنَّ الدافعين بمثابة المتبرّعين . وهو خاص في السبق للفروسية ونحوه .

جواب السؤال عن الخمر والميسر

كان السؤال عن الميسر مجملاً : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ﴾ ولكن جاء الجواب مفصلاً : ﴿ قُلْ فِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ .

فأسلوب الجواب هنا غاية في توضيح الحقيقة كما هي ، يحكي الواقع بقسميه ؛ السلب والإيجاب ، دون غمط لجانب فيها ، فيقر ما لها وما عليها ، فينصّ على ما فيها من إثم وما فيها من منافع ، وكأنّه ميزان عدل يثق به ، ويطمئنُّ إليه كل قارىء وسامع ، فيكون ذلك مدعاة للثقة في قبول ما يعرضه القرآن من حلّ وتصفية للمسؤول عنه .

وقد أورده في أسلوب يثير الاهتمام ، ويدعو إلى التأمّل والمقارنة . وهذا من أهم خصائص نجاح الدعوة وسرعة الاستجابة ، حيث يجعل السائل يسعىٰ بنفسه للوصول إلى النتيجة ، ويستخلص هو بنفسه الحكم بعقل وروية وإقناع .

وقوله تعالى : ﴿ فِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ ﴾ الإثم يطلق في القرآن على عدة معانٍ .

قال الإمام الدامغاني : يطلق على الشرك ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ [المائدة : ٦٣] يعني الشرك .

وعلى المعصية كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ [المائدة : ٣] .

وعلى الذنب كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ . . الآية [البقرة : ٢٠٣] .

وعلى الخطأ ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً ﴾ [البقرة : ١٨٢] .

والواقع أنَّ الإثم في آيات القرآن أكثر من هذا وأصرح .

فمن إطلاقه على الشرك صراحة قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيْماً ﴾ [النساء : ٤٨] .

وبمعنى الظلم : ﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيْقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] وهو الرشوة ، وظلم الحكام .

والكبر : ﴿ وَإِذَا قِيْلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمَ ﴾ [البقرة : ٢٠٦] .

وسوء الظن : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وكبائر المعاصي : ﴿ الَّذِيْنَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] .

والكذب : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيْناً ﴾ [النساء : ٥٠].

كتمان الشهادة : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة:٢٨٣] . إلى غير ذلك من عظام المعاصي والذنوب ، وكل ذلك موجود في شارب الخمر إذا سكر . وسيأتي تفصيل القرآن الكريم لأمهات آثام الخمر والميسر في معرض التعليل للتحريم والتقبيح لفعلهما .

فكان في قوله تعالىٰ : ﴿ فيها إثم ﴾ الكفاية لتقبيحهما ، وخاصة عند

المؤمنين الذين يتأثَّمون ويتحرجون ، وقد يتـركون المبـاح تأثمـاً ؛ أي تحفّظاً من الإثم : « دع مـا يريبك إلى ما لا يريبـك » ولاسيّما وقـد جاؤوا سـائلين مسترشدين .

فإذا ما وصف الإثم بأنه كبير ـ وفي قراءة وصفه بأنـه كثير من الكثـرة ، كما أوردنا سابقاً ـ كان أدعى لاستقباحه وتركه ، والابتعاد عنـه وتجنبه . وقـد جـاء عن علي ـ رضي الله عنه ـ قـوله : لـو وقعت قطرة من خمـر في بئـر ، وبنيت عليه منارة لم أأذن فيها ، ولو سقـطت في وادٍ وأخصب ، لم أرع دابة فيه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ جـاء هذا الإخبـار بعد أن رسـخ في النفوس قبحها بالإثم الكبير والكثير ، حتى لا يصادف نفساً خاليـة ، ولا يجد قبـولاً ، لأنَّ وجود الإثم الكبيـر يستدعي تجنبـه بما فيـه من منافـع ، بـل إنَّ تحصيـل بعض المنافـع ليس لازماً وقـد يستغنىٰ عنها بغيرهـا ، وكمـا قيل : درء المفاسـد مقدم على جَلب المصالح .

فلو اقتصـر الأسلوب على هـذا القـدر من الجـواب ، لكـان الكفـايـة لحملهم على إهـدار تلك المنـافـع ، مقـابـل اجتنـاب تلك المـآثم ، ولكن استتبعه بالمقارنة الواضحة بقوله : ﴿ وإِثْمُهُمَـا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَـا ﴾ فلم يترك لعقل تفكيراً ، ولا لعاقل تساؤلاً ، تجاه تلك المنـافع المهـدرة ، والتي غلب عليها الإثم ورجح . ومن شأن العقلاء تغليب الأرجح .

وبهذا يردّ على من قـال : إنَّها لمـا حرمهـا الله سلب ما كـان فيها من منافـع ، بمعنىٰ انعـدامها بـالكلية ، فهي مـوجودة ولكنهـا كالعـدم ، على ما سيأتي ، إن شاء الله .

وقد جاء النص على الإثم مجملاً كما تقدَّم ، وأوردنا بعض استعمالاته في نصوص القرآن . إلَّا أنَّ القرآن الكريم لما جاء إلى نهاية معالجة موضوع الخمر والميسر ، أبرز تفاصيل الإثم فيهما ، واشتمـالها على عـظائم الجرائم

ديناً ودنيوياً ، حتى يقطع عنهم الالتفات إلى الماضي ، ويرفع عنهم التوقّف في المستقبل ، فجاء ضمن منهج تحريم الخمر والميسر بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ والأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة : ٩٠] ومعللاً ببيان نتائجهما الوخيمة في تحقيق إرادة الشيطان فيهم ، بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِيْ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

وقد أدركوا الحقيقة بذلك فكان جوابهم سريعاً : انتهينا يا رب ، وقد جاء اقتران الخمر والميسر ـ وهما محل السؤال ـ بالأنصاب والأزلام ، تلك التي تبينوا قبحها وتركوها وجانبوها تقبيحاً لها ، ممَّا يجعل المسؤول عنه في أقصىٰ درجات القبح والإثم . ثم جاء وصف الجميع بالرجس ، واتبع بنسبة هذا كله إلى عمل الشيطان ، وبيَّن غرض الشيطان من هذا العمل وهو تحقيق إرادته فيهم ليتَّخذن من عباد الله نصيباً . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ﴾ ولفظ يوقع يشير إلى الحتمية والقبح في الصورة ممَّا يستقبحه العقلاء ، ولا يقرّه إنسان أو يرضاه لنفسه لا مؤمن ولا مشرك . ثم يخصّ الجانب الديني بقوله : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ﴾ وهما قوام الإيمان عند المؤمنين ، والغاية من خلق الثقلين عبادة الله وحده . وبعد هذا كله يأتي سؤال التقرير والتقريع ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ نعم انتهينا .

وهذا مجمل ما بينه القرآن من الإثم في كل من الخمر والميسر ، كأسس عامة ، وقد ألممنا بإيراد استعمالات الإثم في القرآن أيضاً .

وهناك جوانب من المفاسد والأضرار التي تصيب الشارب ، وتنتقل آثارها إلى المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد تمتدّ إلى الأجيال التي تأتي بعده .

وهي بالنسبة إلى الخمر وما لحق بها ، قد تنقسم إلى قسمين : مفاسد وأضرار مباشرة . وأخرىٰ متسببة عنها .

أمَّا المباشرة : فمضرَّة الصحة ، وقد أمرنا بالحفاظ عليها كما قيل صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان . كإباحة التيمّم لمن يضرّه الماء ، والفطر لمن يضرّه الصوم . والخمرة تضرّ في البدن؛ كلاًمن الدورة الدموية ، والجهاز العصبي ، وتؤذي الكبد وترهق الكلىٰ ، وتفقد المخّ كثيراً من وظائفه .

وأمَّا المتسببة عنها ؛ مضرَّة المال : فهي تذهبه وتضيعه في غير ما طائل يعود على الإنسان في مقابل ما ينفقه فيها .

ومضرَّة العرض حيث لا يتحرَّز السكران فيه من شيء .

ومضرَّة سفك الدم ممَّا يتسبَّب عنها .

ويكفي في ذلك ما جاء في قصة المرأة التي دعت الرجل إليها ليقرأ لها كتاباً ، فوجد عندها خمراً ، وغلاماً ، وقد تزيّنت إليه ، فطلبته أن يواقعها ، فاستعظم ذلك وامتنع ، فطلبته بقتل الغلام فأبىٰ كل الإباء . فطلبت منه أن يشرب قدحاً من الخمر فاستسهله ، فشرب فاستزادها حتى سكر ، فواقعها وقتل الغلام . وصدق من وصفها أم الخبائث ، ورأس كل خطيئة .

وكذلك ما وقع من قيس بن عاصم ، حيث غمز عكنة ابنته وهو سكران ، وسبَّ أبويه ، ثم استقبح ذلك من نفسه ، فحرمها على نفسه بعدها .

ومن الأضرار المتسبّبة عنها اجتماعياً : تعطيل الإنتاج ، حيث يتعطَّل السكران عن العمل ، واضطراب الأمن حيث يفتك السكران ويبطش إلى حد القتل ، وإرهاق المرافق الصحية لمعالجة المدمنين ، ونقل آثار السكر والمخدرات إلى الذرية ، وتشويه الأطفال الأبرياء ، وإثقال كاهل

المجتمعات المقبلة في الأجيال القادمة .

وهنا يجدر التنبيه على ما تنفرد به الخمر وعموم المخدرات بأكبر الآثام في ذاتها ، وخصوصها ، دون بقية الجرائم الأخرىٰ . وذلك بالنظر إلى عموم الجرائم فإنَّها يمكن علاجها ، وينتهي أثرها بتركها ، إلَّا الخمر والمخدرات .

فمثلاً ؛ جرائم الزنا ، غالباً ما تقع في حالة ثوران الغريزة ، وبمجرد ارتكابها تفتر الدوافع وتنصرف الرغبة ، وكلَّما تكرَّرت ، كلَّما ضعفت دوافعها ، وقد تفقد تلك الدوافع بكبر السن ، أو بسبب آخر ، ويمكن علاجها بالزواج . وكذلك السرقة ؛ فإنَّ دوافعها غالباً الحاجة وقد تعالج بتوفير أسباب الكسب الحلال . وهكذا .

أمَّا الخمر والمخدرات؛ فعلىٰ العكس، من شربها لأول مرة تاقت نفسه إليها ، وكلَّما كرَّر شربها تمكّنت منه ، ودعته لمعاودتها . فيدمن عليها ويستعصي علاجها ، إلَّا يشربها ، كما قال الشاعر :

وداوني بالتي كانت هي الداء .

أي إنَّ داءها لا دواء له إلَّا الدوام عليه . وهذا بلا شك مصداق قوله تعالى : ﴿ فيهما إثمٌ كبير ﴾ وقوله : ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ بقي تفنيد نفعها ، وأنه كالعدم .

المنافع في الخمر والميسر وإهدارها

جاء في الجواب على السؤال عن الخمر والميسر ، قوله تعالىٰ : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ وجاء القرآن الكريم ببيان الإثم فيهما على سبيل الإجمال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ . وقد أوردنا نماذج لاستعمالات الإثم في القرآن وبعض المفاسد التي تنشأ عن الخمر ، وعن المخدرات في الجملة . ولم يتعرَّض القرآن ولا في كلمة لجانب المنافع التي نوَّه عنها في الخمر والميسر ، كما عرض أمهات المفاسد ، فما السبب يا ترىٰ ؟ ولعلَّ السبب فيما يظهر من الأسلوب والنهج الذي عرضه القرآن لهذه القضية ، هو أنه لمَّا غلب جانب المآثم على المنافع ، فأصبحت منافعهما مهدرة ، وكانت في حكم العدم . كما يقول الفقهاء : المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً ، والذي في حكم العدم لا يستحق الحديث عنه ، ولا تعداده ، إذ لا فائدة من ذلك . وأيضاً لمَّا آلَ الأمر إلى الحكم باجتنابها والنهي عنها ، تضمن ذلك تجنب ذاتها وما فيها من منافع ، ولم يبق لمنافعها وجود في نظر التشريع .

وعلى كل لو جاء سؤال عمَّا كان فيها من منافع قبل التحريم ، والتي كانوا يشربونها لأجلها ، وماذا عساه أن يجده فيها شاربوها اليوم ؟

بالتأمُّل نجدها أموراً شكلية ، ويمكن الاستغناء عنها نهائياً ، والاستعاضة عنها بغيرها ، ممَّا لا مضرَّة فيه ولا إثم ، بل قد تكون وهمية لا حقيقية .

من ذلك النشوة المؤقَّتة . فنتساءل معهم ، وأي قيمة لنشوة مؤقَّتة ، ثم يعود إلى ما كان عليه قبلها ، إن كان مهموماً ، أو مغموماً ، أو يواجه مشكلة ؟ فهل أذهبت تلك النشوة المؤقَّتة عنه همومه ، أو غمومه ، أو مشاكله ؟ أم أنها غيبته عن تلك الحالات ؟ إنَّها لحظة هروب عن المواجهة الواجبة .

ثمَّ إنَّ تلك النشوة قطعاً تعقبها فترة ، فيعتريه فتور وضعف في كل شيء ، حتى في تفكيره ، وفي كيفية مواجهته لمشاكل حياته .

إنَّ الخمر وكل مسكر ومخدر ، لا يعطي شيئاً ، فهي تأخذ ولا تعطي . وحقيقة تأثيرها كلها سلبية ، وسيظهر ذلك فيما سيأتي إن شاء الله .

حتى يتبيَّن للذين ابتلوا بها حقيقة أمرها .

وممَّا يزعمونه أنها تكسب الشجاعة ، كما قال حسان :

فنشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً لا ينهنهنا اللقاء

فذكر صفتين ؛ الإحساس بالعظمة ، والشجاعة .

إمَّا الإحساس بالعظمة ؛ فلا شك أنه إحساس كاذب يعلم بكذبه كل شارب كما قال الأعراب :

وإذا سكرت فإنَّني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنَّني رب الشويهة والبعير

فما قيمة إحساس كذاب يعلم صاحبه حقيقة كذبه ؟ ولو أنَّ أقرب الناس إليه قال له : إنَّك ملك ، إنَّك تملك أفخم القصور ، وهو يعلم من نفسه أنه من عامة الناس ، ويسكن الكوخ ويعيش كفافاً ، لعلم أنَّ القائل يسخر منه ، فكيف يرضىٰ بذلك العقلاء ؟

أمَّا الشجاعة : فقد أثبت العلم الحديث أنَّ الخمر لا يعطي شجاعة ، ولكنها تسلب الإحساس بإدراك المستقبل فيصبح قصير النظر ، ويفقد ضوابط التقدير فلا يقدر عواقب الإقدام ، سواء كان فيه فوزه أم فيه حتفه . فهي كما قلنا تسلب أصحابها بعض خصائصهم ولا تعطيهم شيئاً ، وكم يترتَّب على التهوّر من مفاسد ؟

وممَّا يزعمون أنها تقوي الباه: وقد خدعهم في ذلك ما يحسّون به في الظاهر من آثار الشهوة ، تبعاً لتأثير النشوة ، إلَّا أنها في الحقيقة تسلبهم القدرة على الفعل ، بل تسلب الأعضاء المختصة خصائصها ، فتضمر الخصية ، وتسترخي الآلة التي بها الوطء . وتذهب إلى أبعد من هذا ، فتسلب الحيوانات المنوية قدرتها على الإخصاب ، وإن أخصبت على ما

فيها من ضعف ، فإنَّ هذا الضعف تظهر آثاره في الحمل ، سواء نزل قبل أوان الولادة أو بقي حتى اكتمل وجاء إلى الحياة ، فقل أن يسلم من نقائص حسية أو معنوية ؛ في تفكيره ، وميوله . فهي إذاً حالة خادعة ، نتائجها معاكسة .

فأي عاقل أو شبيه بالعقلاء يرضىٰ لنفسه أن يخدع نفسه بنفسه ، ثم يجلب على نفسه نقيض قصده ، فهو يريد قوة الباه ، فتسلبه القدرة عليه .

وهل فكَّر فيما يترتب على ذلك ؟ إنَّها أخطار تهدد الكيان الإنساني من عدة جهات :

أ ـ بناء الأسرة التي هي وحدات بناء المجتمع ، لأنَّ الزوجة لا تستطيع أن تربط حياتها بشريك غير صالح للتعاون في الأمور المشتركة بينهما ، فغالباً تكون النتيجة الطلاق ، أو قلق الحياة الزوجية واضطرابها ، إذا كانت الزوجة ملتزمة العفّة محافظة على نفسها . وإلاَّ فإنَّها لا بد أن تطلب البديل أيّاً كان مصدره .

وأي عاقل أو شبيه بالعقلاء يرضىٰ بذلك . ولعلَّه لم يبقَ له اختيار ، ولا يؤخذ رضاه ، لأنه أصبح مسلوب الاختيار فاقد الرضا .

ب ـ أولئك الأطفال الأبرياء الذين يأتون إلى الحياة يحملون معهم آثار المسكر في دمائهم وعروقهم ، وينشأ معهم في نموّهم ، فإمَّا أن يؤثِّر عليهم في بناء الجسم ، أو في تكوين العقل . والحال أنه لا كسب لهم ولا ذنب ، وإنَّما كما قال أبو العلاء المعرِّي :

هـذا جـنـاه أبي عـلـيْـ ـيَ وما جنيت على أحد

وهب أنَّ الطفل جاء سويّاً في جسمه ، وفي عقله ، فأين ستكون نشأته وتربيته ؟ لا شك بين أبويه . فإن كانت الأم تشرب فيعظم الخطر ، إذ هي ستسقيه الشراب في رضاعه وفي طباعه ، وإن كانت لا

تشرب، فسيضيع بين يدي أب قد ضيّع نفسه، ولم يعد صالحاً لإصلاح غيره .

فأيّ تقوية في الخمر للباه ، أو موضوعه مع تلك السلبيات .

ومع ذلك يمكن الاستعاضة عن المسكر في هذا الباب بما ليس بمسكر من المأكولات .

وبهذه المناسبة ينبغي أن يعلم ، أنَّ كل مقوٍّ للباه بصفة عامة ، أنه لا يعطي طاقة جديدة بل هو بمثابة (الاقتراض) من رصيد المستقبل . فبقدر ما يتعاطىٰ مقوّياً الآن ، بقدر ما يكون الضعف في المستقبل . وهذا المقوّي يعتبر في نظر الطب ، كالسوط لراكب الجواد ، يستحثّه على الجري ولا يعطيه القوة ، فتكون النتيجة أن يسرع الآن ويفتر فيما بعد .

أمَّا الطريق السليم فهو زيادة علف الفرس قبل الجري ، وهكذا فالطريق السليم هو تنظيم الغذاء واختيار المواد التي تقوّي أعضاء هذا الجهاز بحيث هي تستطيع أن تؤدِّي مهمتها على الوجه الأكمل .

وكتب الطب القديمة مليئة بذلك ، ولكن الحذر ثم الحذر من الكتب التجارية ، وغير معروفة المؤلفين فقد تسيىء للقارىء .

فهل أدرك الشاربون خطأ هذه المسألة ، التي تكاد تكون أهمّ أغراضهم اليوم ؟! .

وممَّا يزعمون أنَّ الخمر يعطي الدفء في الشتاء ، وهي الغلطة الشرقية التي أُخذت عن الغربيين ، تقليداً لأولئك الذين يعيشون فوق الثلوج ، ولا يرون الشمس إلَّا لماماً ، ولا تنطبق على الشرقيين الذين لا تغيب الشمس عن سمائهم إلَّا لماماً ، على العكس من أولئك ، وقد خدعهم ما يمكن أن يحدثه المسكر في الشرايين من التوسعة ، فيكثر جريان الدم تحت الجلد ، فيحسب أنها أعطته حرارة زائدة أدفأته ، والبرد القاتل في

داخله[1] ، وأنهـا تعقبها بـرودة إذا ذهب الأثـر ، وانكمشت تلك الشـرايين ، علماً أنَّ توسعـة الشرايين قـد تعقب انخفاضـاً في ضغط الدم ، وقـد يُحدث أيضـاً انفجاراً في الأوردة الشعـرية في المـخ ، فتعـطل بعض مـراكـز المـخ المسيطرة على بعض أعضاء الجسم . فيعرض حياته للخطر .

والملاحظ أنَّ الغربيين الذين هم القدوة لهم ، ينظمون شـربهم بتقليل الكمية وتخفيف التركيز ، لأنها موفورة لديهم دائماً . أمَّا الشرقيون فقد تكون هناك قيود عليهم ، فينتهزون الفرصة ويعبون منها عباً ، فيكـون الخطر عليهم أشدّ .

ومهمـا يكن ، فمن الممكن الاستعاضـة عن المسكـرات في تحصيـل الدفء ببعض المطعومات ، أو المشروبات الطيبة الحلال ، مع امتثـال أوامر الدين ، وسلامة أمور الدنيا والحياة الكريمة الفاضلة .

وهـذا مجمل عـرض آية السؤال والجـواب عن الخمر والميسـر ، وقد عني القرآن بقضية الخمـر في منهج التشـريع وحكمتـه ، ممَّا يلزم تنـاوله من حيث التدرج والإيراد ، وعـلاقات النصـوص بما قبلهـا وبعدهـا ، ونأمـل أن نوفق في ذلك ، ومنه سبحانه نستمد العون والتوفيق .

آيات الخمر في القرآن الكريم حسب ترتيب النزول

سبق الكلام على آية السؤال وجوابه ، عن الخمر والميسر بمـا يقتضيه المقام .

وقد كان يمكن الاكتفاء بما قدَّمناه ، إلاَّ أنَّ القرآن الكريم رسم منهجـاً

---

(١) وقد سأل ديلم الحميري اليمني رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه إنا بأرض باردة ، نعالج فيها عملاً شديداً ، وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وبرد بلادنا . فقال ﷺ : « هل يسكر ؟ » فقال : نعم . فقال : « فاجتنبوه » . قال : إن الناس غير تاركيه . قال : «فإن لم يتركوه فقاتلوهم» . رواه أبو داود .

خاصاً لموضوع الخمر ، يتناسب وخطورتها في ذاتها ، وخطرها في المجتمع . فتناولها في عدة آيات ، وبأساليب متنوعة ، حتى عالج موضوعها علاجاً شافياً . واعتمد التدرج والإقناع ، الأمر الذي جعلهم يقلعون عنها نهائياً ، ويقتعلون آثارها من جذورها ، حتى إنَّهم عند نهاية الخطة ، والنقطة الحاسمة ، قاموا إلى ما لديهم منها فأراقوه ، وإلى أوانيها فكسروها ، أو مزّقوها ، فلم يُبقوا لها أثراً في ذاتها ، ولا في تصنيعها ، وانتهىٰ أمرها بنهاية التشريع فيها .

ولهذا الأثر البالغ في التأثير عليهم ، كان من تتمَّة إيراد الجواب أن نتناول آيات القرآن الكريم التي عالجت هذه القضية بالغة الأهمية ، وذلك حسب ترتيبها في النزول ، وحسب موضوعيتها وتأثيرها . فنقول وبالله تعالىٰ التوفيق ـ ولعلَّه يكون منهجاً عملياً للعالم كله ـ :

أولاً : حصر الآيات وبيان موقعها من السياق لنتعرف على التدرّج في التحريم . أو بالأصح ؛ التدرج في معالجة الموضوع . فأول النَّصوص التي تناولت المسكر هي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقَاً حَسَنَاً إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

فقال قوم : السكر : هو الطعام . والآية في سياق الامتنان .

والجمهور على أنَّ السكر هو (المسكر) . ويؤيِّده أنَّ الطعام مدلول عليه بكلمة (رزق) ثمَّ إنَّ الرزق قد وصف بكونه حسناً ، وهو قسيم السكر في الآية ، فيفهم بأنَّ قسيمه غير حسن ، وذلك لكونه سكراً . ثم التذييل بجعل (فيه آيات لقومٍ يعقلون) وهو أشبه بالعَتْبِ عليهم باتخاذهم هذا السكر من تلك الثمار الطيبة ، بتحويلها إلى مسكر يفسد العقول .

فهذا النص يعتبر المؤشِّر الأول في موضوع الخمر ، والإشارة الأولىٰ إلى بداية تناولها بالتشريع . وقد انتبه بعض الأشخاص إليها فتركها ، لتجرّد

السَّكَر من الوصف الذي وصف به الرزق بكونه حسناً ، وكان مؤثراً فيهم ومثيراً للسؤال عنها .

ثانياً - قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ ولعلَّ النص الأول هو الذي جعلهم ينتبهون ويفكّرون ثم يسألون فيأتيهم الجواب المفصَّل .

ثالثاً - قوله تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣]. فكانت أدخل في الموضوع بالتصريح ، بنهيهم عن اقترابهم الصلاة وهم سكارىٰ ، أي تحريمها عليهم ، لأنَّ السكر من لوازم الشرب وإذا حرم اللازم حرم الملزوم ، ولكن لزمن مؤقَّت .

رابعاً - قوله تعالى : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠ - ٩١] .

وبعدها مباشرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلَاغُ المُبِيْنُ ﴾ [المائدة : ٩٢] .

وبتأمّل هذه الآيات على هذا النحو من ترتيب النزول ، نجد بوضوح منهج التدرّج والتصعيد لتناول الموضوع . أمَّا التدرج ؛ فهو بداية أخذهم بما يلفت النظر فقط ، من حيث الاستحسان والتقبيح في النص الأول ، في وصفه الرزق من الثمرات الباقية على أصل خلقتها بأنه حسن ، والسكوت عن قسيمه الذي هو السكر ، والذي هو من ضمن اتخاذهم بأيديهم ، وبالتالي فإنَّ مفهوم المخالفة للحسن هو القبيح .

وهم أهل ذوق بلاغيّ ، وفطنة وسليقة ، ممَّا حداهم للتساؤل عن

الخمر والميسر . فالنصّ الأول : كان بمثابة المؤشر لبداية تناول هذا الموضوع ، أسلمهم وقادهم تفكيرهم إلى تقديم السؤال طواعية من أنفسهم ، فجاء قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ﴾ إذاً قد أصبحت الخمر والميسر موضوع تساؤل ، أخذت شكلاً موضوعياً اجتماعياً يتطلّب جواب الشرع ورأيه فيه . فجاء الجواب مصعداً الموضوع ، نافذاً إلى صميمه ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ وهذا أول تصريح إيجابي في تأثيم الخمر والميسر ، ثم تقرير الواقع ليفنّده : ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهم يدركون ذلك ويطلبونه منها ولكنه فنّده عليهم وأبطل تطلعهم وطلبهم إيّاه بقوله : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ وهذا بمثابة إهدار تلك المنافع ، وإحباط آمالهم فيها . إذ كيف يطلبون منافع ممًّا إثمه أكبر من نفعه ؟ إنَّ التصريح واضح ، والجواب صريح . فكان في هذا النص تدرج بهم من مجرد مفهوم القبح ، من وصف الرزق بحسن ، إلى التصريح بوجود الإثم الكبير . وهذا لا يحتاج إلى إعمال فكر ، لاستنتاج مدلول مفهوم المخالفة السابق ، بل يدركه كل من سمعه ويفهمه بداهة .

وبهذا قد وقفوا على بداية معرفة حقيقة الخمر ، ورأي التشريع فيها ، ممًّا يجعلهم يترقّبون تعليمات حاسمة ، وتوجيهات قاطعة . فكان التدرّج أيضاً بمجيء التحريم المؤقّت وربط هذا التحريم ، ممَّا لا انفكاك لهم منه ، ولا وجود لهم بدونه وهو ألزم ما يلتزمون به وهو أداء الصلوات الخمس ، التي تصل العبد بربه في اليوم والليلة عدة مرات بأوقات محدودة . فجاء : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ [النساء : ٤٣] . ومعلومٌ أنَّ النهي ليس عن اقترابهم الصلاة ، ولكن النهي منصب على ذلك الوصف المنفر للمؤمن ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ فيضع الشاربين بين أيديهم أنفسهم أنهم لا يعلمون ما يقولون . وأي تقبيح لعاقل أشدّ من هذا ؟ حيث يهذي بما لا يدري . فلو كان في غير الصلاة لكان قبيحاً ، فكيف وهو في الصلاة يخاطب ويناجي ربه ؟! وسيأتي

زيادة إيضاح لتلك المعاني ، إن شاء الله تعالى .

ولكن الذي يهمنا ، مجيء بداية تحريمها في أوقات من اليوم والليلة ، ولم يدع لهم فرصة لشربها إلاَّ من بعد صلاة العشاء ، لطول الزمن قبل الصبح ، فيصحو من سكره ويصلِّي فرض ربه .

ولما استطاعوا قهر أنفسهم عنها أكثر الأوقات ، جاء النص النهائي الذي حسم الموضوع ، وصعد الحكم فيها إلى منتهاه في قوله تعالىٰ : ﴿ يأَيُّها الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ فقُرن لهم الخمر والميسر بالأنصاب ـ وسائل الإشراك بالله ـ ، وبالأزلام ـ شعار الجاهلية ـ وقد فروا من ذلك كله وتركوه، وذلك أشدّ ما يكون تقبيحاً عندهم ، ثم صرّح بأنَّ هذه كلها رجس وأنها من عمل الشيطان ، فيسوي بين الخمر والميسر ، وبين الأنصاب والأزلام ، وفي وصفها بالرجس وهو أشدّ وأقبح من مطلق مفهوم ضد الحسن في الرزق الوارد أولاً ، وأشد قبحاً من الإثم الوارد في نص الجواب ثانياً ، ويزيده قبحاً نسبته إلى الشيطان . وحالاً وبسرعة وهم في تفاعلهم مع هذه التصريحات ، أشبه بمن أصيب بدوران وشدة انفعال ، يأتي الأمر الصارم ؛ فاجتنبوه .

ثم يعقب هذا النص بإظهار تنوّع هذا الرجس ، وآثار نسبته إلى الشيطان بما يتوصل به الشيطان لتحقيق مأربه منهم: ﴿ إنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ أي عن قناعة وامتثال .

وما لهم لا ينتهون ؟ وقد انكشف الغطاء عن كل ما كان خفيّاً عنهم . فلم يبق لهم اختيار ، وليس أمامهم إلاَّ أن ينتهوا . ولذا جاء بعدها قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيْعُوا اللَّهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي بالاجتناب والانتهاء ، وإلاَّ فليحذروا .

وبهـذا اتَّضح كيف تـدرج بهم الأسلوب ، وصعد بهم المنهـج ، حتى اقتلعها من نفوسهم .

الآية الأولى في منهج تحريم الخمر :

قال تعالىٰ :

﴿ وَمِنْ ثَمَـرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَـابِ تَتَّخِذُونَ مِنْـهُ سَكَراً وَرِزْقَـاً حَسَنَاً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل :٦٧] .

هـذه الآيـة في هـذه السـورة نـزلت بمكـة قبـل أن تستقـرّ تشـريعـات الأحكـام ، فـرأىٰ بعض المفسّـرين ، كـابن كثيـر ، أنهـا سيقت في معـرض الامتنـان عليهم بمـا أنعم عليهم من الثمـار يتَّخـذون منهـا السكـر والـرزق الحسن ، عـطفاً على أمثـالها ، بخصـوص بهيمة الأنعـام في قولـه تعـالىٰ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مِمَّـا فِي بُطُونـهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنـاً خَالِصاً سَائِغَاً لِلشَّارِبِيْنَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِـذُونَ ﴾ [النحل : ٦٦ - ٦٧] .

وكذلك مـا جاء بعـدها بخصـوص النحل ﴿ يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّـاسِ ﴾ [النحل : ٦٩] . فـرأوا أنَّ السياق كله تعـداد النعم المتنوعة .

والـواقع أنَّ هـذا السياق ، وإن كـان فيـه تعـداد نعم الله تعـالىٰ على عباده ، وله سبحانه المنَّـة في كل ذلـك ، وتستوجب شكـر المنعم ومقابلتهـا بالعرفان ، والشكر ، والإيمان ، إلاَّ أنها في جملة سياقها وترابط أسلوبها قمة في البيـان ، وحجة في إعجـاز القـرآن ، تضـع الحقـائق بين يـدي الإنسـان واضحة للعيان .

يرىٰ بعينه ويسمع بأذنه ويفكِّر بعقله ، ويستخلص منه الحكم مصحوباً

بالحجة والبرهان . فبداية السياق اعتبار ، ونهايته إنذار ، ومساقه هداية لأولي الأبصار .

يبتدىء بقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ عبرة بالغة مؤكَّدة بالواو وبإنَّ ، وبكونها لكم لو تأملتم لاعتبرتم .

﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِيْنَ ﴾ فهذا اللبن الذي تشربونه صباح مساء ، من أين يأتيكم ؟ نحن نسقيكم وأنتم تشاهدون مجيئه ممَّا تحلبون من بهيمة الأنعام ، نستخلص لكم ممَّا في بطونها ، من بين الأخبثين : فرثٍ ودم ، وهما أخبث ما في بطون بهيمة الأنعام ، ومع ذلك فإنَّ الفرث لم يؤثر عليه بعفونته ونتنه ، ولا الدم بقذره ولا يغيره بلونه ، بل يأتي خالصاً من كل شائبة سائغاً لشاربه ، أيّاً كان جنسه أو لونه أو عمره ، عربياً وعجمياً كبيراً أو صغيراً ، غنياً أو فقيراً ، صحيحاً أو سقيماً ، يتناوله سهلاً هنيئاً مريئاً سائغاً في حلقه ، لا غصَّة فيه ولا غضاضة .

قال القرطبي : وروي أنَّ اللبن لم يشرق به أحد قط . وروي ذلك عن النَّبيّ ﷺ .

إنَّها والله لنعمة عظمىٰ ، وعبرة بالغة ، وهنا يفصل العلماء موقع تلك العبرة وآثارها في بيان عملية هضم الطعام ، وتحوله إلى فرث ، ثم إلى دم ، والعصارات التي تنشأ من ذلك ، وتوزيع كل نوع على الجهاز الملائم له . فالدم إلى الكبد، والصفراء إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والرواسب إلى الخارج، والماء إلى الكلى. وقد بيَّن علم التشريح اليوم عمليات تحول الطعام وتمثيله إلى مواد مغذية ومختصَّة في أجهزة الجسم ، ما تحتار فيه عقول العقلاء ، وعجز عن إدراك كنهه الألباء . وكل هذا يجريه الحكيم العليم ، داخل ذاك الجوف من تلك الأنعام ، ويستخلص منه بقدرته وحكمته هذا اللبن الخالص السائغ . سبحانك اللهمَّ ما أعظمك وأعظم قدرتك.

ثم جاء إلى العمل الظاهر على أغصان الأشجار ، وفي رؤوس النخيل فقال : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

نحن نشاهد الثمار في أول ظهورها ، سواء في أوائل الطلع كحبات اللؤلؤ ، أو بوادر العناقيد كحبات الزمرد ، ثم نتابع مشاهدته حتى ينضج ويؤكل . أمَّا قبل طلوعه وقبل ظهوره للعيان ، ماذا حدث له ، وما هي الأطوار التي مرَّ بها قبل أن يظهر للعيان ؟ فذاك لم نعلمه حتى الآن . إلاَّ أننا نرىٰ الشجرة بجوار الشجرة في التربة ، ونراهما يسقيهما ماء واحد ، ولكنها تختلف الثمار أحجاماً ، وألواناً ، وطعوماً ، وروائح .

فمن هنا ينطلق العقل في التفكير ، فلا يجد جواباً منطقياً ، ولا تعليلاً طبيعياً وإنَّما يجد قطعاً قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وبتأمل قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ﴾ نجد النص الكريم تخيّر أفضل الثمار ليكون أعظم في المنَّة من جهة ، وإقامة الحجة عليهم من جهةٍ أخرىٰ . ثم يخاطبهم فيما يفعلونه هم ، ويتخذونه من تلك الثمار ؛ سكراً ورزقاً حسناً . وبما أنَّ هذه الآية معطوفة على ما قبلها ، من العبرة في بهيمة الأنعام ، فإنَّ فيها أيضاً عبرة ، وهي ما أشرنا إليه من تطور تلك الثمار ، من بداية تكوينها إلى نهاية إعمال اليد فيها ، ثم يلفت النظر إلى آثار أعمال أيديهم ، من تحويلها إلى سكر ، وما يبقونه على خلقته فهو رزقٌ حسن .

ويمكن عقد مقارنة بين الآيتين ؛ **فالأولى** : استخلاص اللبن خالصاً سائغاً من بين الفرث والدم ، ممَّا لا يقدر عليه إلاَّ الله . قال تعالىٰ : ﴿ نُسْقِيْكُمْ ﴾ بإسناد السقيا له سبحانه . **والثانية** : تحويل الثمرة الطيبة إلى سكر من تدخل أيديهم أسند الفعل فيه إليهم ﴿ تتَّخذون منه سكراً ﴾ .

ثم ذيل على ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾

إيقاظ للعقل ، وتنبيه للفكر إلى ما يجب على العباد من تدبّر ، وتأمل في حكمة صنع الله وعظيم إنعامه . . والنعي على أولئك العقلاء الذين لا يعملون عقولهم .

ولو تأمّلنا موقع تلك الآية ممّا قبلها ، وما بعدها لوجدنا أكثر من عبرة ، وأعظم من موعظة تكشف عن قبح صنيع الإنسان بجانب مخلوقات الله ، فإنَّ ما قبلها : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ ﴾ إلى آخرها . وبعدها قوله تعالى : ﴿ وَأَوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِيْ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِيْ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِيْ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٨ - ٦٩] .

فجاءت آية اتّخاذ السكر من ثمرات النخيل والأعناب ، مسبوقة بآية مجيء اللبن من بين فرثٍ ودمٍ خالصاً سائغاً للشاربين متلوة بآية ما أوحىٰ اللّه به إلى النحل ؛ دويبة صغيرة تأكل من الثمرات وتسلك سُبُلَ ربها ذللاً فتكون النتيجة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فتحصل في هذا السياق ؛ طرفان وواسطة .

الطرف الأول : بهيمة الأنعام . والطرف الثاني : دويبة النحل . والواسطة : هو الإنسان . والموضوع المشترك بين الثلاثة هو : تحويل المادة من مرعىٰ وثمرات . أمّا بهيمة الأنعام فتناولت المرعىٰ ، وصار إلى فرث ودم ، وتحول من هذين الأخبثين ما هو أطيب الطيبات ؛ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

وأمّا دويبة النحل ؛ فأكلت من كل الثمرات ، وسلكت سبل ربها ذللاً طبق ما أوحىٰ الله إليها ، فخرج من بطونها ـ ما أكلت من تلك الثمرات ـ شراب مختلف ألوانه فيه شفاءٌ للناس .

وهاذان الطرفان أدَّيا أعظم نعمة إلى الإنسان .

أمَّا الواسطة بينهما في هذا السياق وهو الإنسان فماذا فعل ؟ لقد حوَّل الثمرتين العظيمتين ؛ الرطب والعنب إلى سكر يفسد العقل ، ويضيِّع المال ، ويسلب الإنسان أعظم ما أعطاه الله .

فكأنَّ هذا السياق ، وموضع هذه الآية : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرَاً وَرِزْقاً حَسَنَاً﴾ قد وضع بين يدي الإنسان أقبح ما يتصوّر منه ، وهو أن تكون بهيمة الأنعام ودويبة النحل ، قد سلكت سبل ربها استجابة لما أوحى به إليها ، فحوَّلت ما في بطونها إلى أطيب الطيبات ، وإلى شراب فيه شفاء للناس ، بينما هو المميز على كل الكائنات بعقله ، يتخذ من أطيب الثمار ما يفسد هذا العقل ، ويسلب الإنسان أهم مقوماته وخصائصه .

لو عقل الإنسان وأعمل فكره لما تدنَّىٰ إلى ذلك الحد .

ولكأنَّ السياق مرة أخرىٰ يقول لنا : إنَّ اليد التي تمتد إلى الثمار أو غيرها ، فتتَّخذ منها السكر لهي أدنىٰ مرتبة من بهيمة الأنعام ، ومن دويبة النحل . ولا شك أنَّ هذه الآية ، وإن اشتملت على تعداد نِعَم الله على خلقه ، فهي بمثابة تنبيه العقول ، وإعمال الأفكار ، لما كان من امتداد أيديهم لاتخاذ السكر من تلك الثمرات ، وهي بمثابة المؤشر لبداية تناول التشريع لهذا النوع ممَّا يتخذونه .

التحريم المؤقَّت للخمر

لمَّا نزلت آية : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرَاً وَرِزْقَاً حَسَنَاً﴾ أثارت التساؤل حول السكر ، حيث أغفل وصفه بالحسن الذي وصف به الرزق قرينه في السياق . فتساءلوا : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ وجاءهم الجواب : ﴿ قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ . فكان فيهما مجرد مقارنة بين ما فيها من إثم ، وما فيها

من منافع ، وترجيح الإِثم على المنافع ممَّا يكاد يلغيها .

ولمَّا استقرَّ عندهم هذا القدر من المقارنة ، وأيقنوا أنَّ إثمها يلغي ما فيها من المنافع ، تهيَّأت النفوس لتركها . فجاء التحريم المؤقَّت في قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِيْ سَبِيْلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاْءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيْداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ [النساء : ٤٣] .

وقالوا في سبب النزول : إنَّ عبد الرَّحمٰن بن عوف ، دعا بعض الصحابة ، وصنع لهم طعاماً وقدم لهم شراباً ، فتقدَّم أحدهم فصلَّىٰ بهم فقرأ سورة ﴿ قُلْ يأَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ فخلط فيها ، فنزلت . وقيل لما نزلت الآية المتقدمة : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ ﴾ قال عمر رضي الله عنه : اللهمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت .

وعلى كل فإنَّ الخطاب في الآية موجه لخصوص المؤمنين لأنهم الذين يصلون ، والذين يرتبطون بالصلاة ارتباط عقيدة لا يمكن أن يتخلّوا عنها . وجاء النهي عن قربانهم الصلاة أبلغ من أدائهم ، لأنهم نهوا عن القيام إليها فضلاً عن الدخول فيها .

وأنتم سكارىٰ : والسكر أصله من سكرت الطريق إذا جعلته غير نافذ ، وسكرت الباب مثل غلقته . قال القرطبي : وسكرت عينه إذا تحيّرت . ومنه قوله تعالى عن الكفار : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ [الحجر: ١٥] .

والخمر بالسكر تسد على شاربها طريق العقل والتفكير ، والصلاة قوامها على التفكير في القراءة والتمعّن في الذكر والتسبيح . ولهذا كان ﷺ

إذا أُقيمت الصلاة ، أرسل ﷺ منادياً ينادي : ألا لا يقربنَّ الصلاة سكران . بل إنَّه في حالة الصحو جاء قوله ﷺ : « ليس للمصلِّي من صلاته إلَّا ما عقل » . وعلامة السكر في الشارب ـ مفهوم هذا السياق ـ هو الذي لا يعلم ما يقول ، أي يخلط في كلامه ، وأي مظهر من مظاهر الخلط ظهر عليه سواء ، في كلامه ، أو في مشيه من اضطراب ، ونحوه فقد سكر .

ويحدِّد الأطباء مظاهر التأثير بالسكر في الآتي :

١ ـ ضعف الإحساسات بشكل عام في الحواس الخمس ، السمع ، والبصر، والذوق ، والشم ، واللمس ، بسبب تأثّر الأعصاب .

٢ ـ الشعور بآلام حادة .

٣ ـ الشعور بالنمل والخدر ، ولاسيّما في الأطراف .

٤ ـ الاضطرابات الحركية وتظهر في الآتي :

أ ـ رجفات في الأطراف تجعل صاحبها عاجزاً عن العمل .

ب ـ ظهور حركات لا إرادية يقوم بها . إلى آخر ما يصاب به حتى يصل إلى الإغماء ، أو الوفاة أحياناً إذا وصلت نسبة الغول في الدم إلى حوالي ٦٪[1] .

والآية الكريمة علَّقت النهي بغاية ، وهي معرفة ما يقولون ، لأنه موضوع الصلاة .

والسر في هذا التوقيت والربط بالصلاة ، لأنها موزعة على أوقاتها ، وليس بين كل صلاتين مسافة زمنية تسمح بالسكر ثم الصحو . اللهمَّ إلَّا ما

---

(١) جاء في مجلة المختار لفبراير (١٩٥٤) ـ جمادى الآخرة (١٣٧٣) ما مضمونه : يحتفظ الشارب بتوازنه ما لم تصل نسبة الكحول في الدم إلى (١٪) ، يساوره السهاد عندما تبلغ (٢٪) ، يأخذ في الهذيان عند (٣٪) ، يتعذر وقوفه عند (٤٪) ، تنتابه دوخة وزغللة عند (٥٪) ، يفقد وعيه إذا زادت عن ذلك ، وقد تؤدي إلى الوفاة .

بين الفجر والظهر ، وما بين العشاء والفجر .

أمّا ما بين الفجر والظهر فهو وقت أعمالهم والسعي في معاشهم ، فلم يبقَ أمامهم إلاّ ما بين العشاء والفجر فقط . فكان ذلك بمثابة الفطام بحيث لم يسمح لهم إلاّ مرة واحدة فقط في اليوم والليلة .

وإذا قدروا على أنفسهم ففطموها أكثر الوقت استطاعوا فيما بعد تركها نهائياً ، وهذا هو التدرّج في التشريع والحكمة فيه ، أخذهم بما يستطيعون .

ويلاحظ في هذا النص الكريم أنَّ الله تعالىٰ ، أناطَ النهي عن قربانهم الصلاة بحالة السكر ، ولم يفصل في موجب السكر ، كأنّه يقول : أي مسكر تناولتموه فسكرتم ، فلا تقربوا الصلاة حال السكر . وهو مؤيِّد لما جاء في السنة : « كلُّ خمرٍ مسكر وكل مسكرٍ حرام » . وهذا شبيه بقضية القتل والقصاص في العمد أو الخطأ ، فالنهي عن قتل النفس ، وفيه القصاص أو الدية ، مهما كانت وسيلة القتل ، لأنَّ الغرض حفظ النفس ، فكذلك هنا الغرض من النهي هو السكر .

وهنا بالنظر إلى الغاية المغياة لهذا النهي ، حتى تعلموا ما تقولون .

إشارة لهم وهم أهل المروءة وشرف الكلمة ، يحرص الواحد منهم أن لا تسجَّل عليه هفوة في حديثه يتناقلها الركبان . فلا يخلفون وعداً ، ولا ينقضون عهداً ، ولا يكذبون في حديث ، كما جاء عن أبي سفيان بين يدي هرقل ، وهو يسأله عن النَّبيّ ﷺ ، فلم يكذب ولا كذبة ، مع أنه مشرك على دين قومه آنذاك . ولمّا سئل قال : خشيت أن تسجل عليّ كذبة .

وقال المفسرون : إنَّ مناسبة هذه الآية للسياق الواردة فيه ، هو أنّه من بداية قوله تعالىٰ : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ وبيان مكارم الأخلاق في تلك الآية ﴿وَبِالْوَالِدَيْنَ إِحْسَاناً وَبِذِيْ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِيْنِ وَالجَارِ ذِيْ القُرْبَىٰ وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَمَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٦] وما يلي ذلك من توابعها في المعنىٰ ، جاء التنبيه على الصلاة وهي عماد الدين ، بل هي الإيمان كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس ، فنصَّ على أدائها بأكمل وجوهها ؛ حساً ومعنىً . فنهىٰ عن أمرين : عن الصلاة وهم سكارىٰ حتى يعلموا ما يفعلون . وعن الصلاة وهم جنب حتى يغتسلوا . ثمَّ أرخص لهم في حالة عدم وجود الماء ، أو العجز بمرض أن يتيمّموا صعيداً طيباً . ويلاحظ اقتران حالة السكر بحالة الجنابة ، ممَّا يشعر بارتباط بينهما . ولعلَّ هذا الرابط هو أنَّ الجنابة يستقبح ذكرها ويستتر من معرفتها فكان عليهم أن يستقبحوا من أنفسهم حالة السكر ويستترون فيها ، لا أن يأتوها ثم يخرجوا إلى الناس في حالة السكر .

ومن جانب آخر وهو أنَّ الجنابة تستوجب الطهارة بالغسل ، والصلاة مشروط لصحتها الطهارة ، والذي سكر ولا يعلم ما يقول ، فقد لا يعلم أيضاً ما يفعل ، وقد يُحْدِث ولا يعلم ، فاستوجب بمجرد السكر أن يتطهَّر لاحتمال ما يقع منه من حدث. ولهذا جعل الفقهاء الإغماء ـ وهو ذهاب الإدراك ـ ، والجنون ، من موجبات الوضوء . وقالوا : إنَّ النوم موجب للناقض ، أي مظنَّة الناقض وليس هو في ذاته ناقض لما في الحديث : « العين وكاء السه » ، فإذا نامت العينان استطلق الوكاء . ولهذا استطرد السياق في حكم التطهّر في حالة السفر ، والحضر ، والصحة ، والمرض ، والترخيص بالتيمّم في حالة العذر .

فتكون هذه الآية الكريمة مرحلة حاسمة ، بين ما سبقها في آيات الخمر وما بعدها . فما كان قبلها بمثابة المؤشرات ، وأمَّا بعدها فسيأتي الحديث عنها في نهاية موضوع الخمر والنهي عنه بتاتاً ، مع تعليل النهي بما يقنع كل عاقل ، فضلاً عن كل مسلم .

وفي نهاية الحديث على آية : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ننبِّه

على أنه بعد تمام التحريم جاءت نصوص من السنة في جملتها صحيحة ، عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما ، موقوفة ومرفوعة ، عن الطبراني ، والترمذي ، والحاكم : أنَّ من شرب الخمر لا تقبل له صلاة أربعين يوماً . ورواية : « لا يقبل له صرف ولا عدل ثلاثة أيام » . ورواية سبعة أيام . وهي في مجموعها صريحة في أن شرب الخمر وإن لم يسكر ، أو سكر ثم صحا ، فإنّها ما دامت آثارها في دمه ولحمه ، فإنَّها محبطة لعمله ، ممَّا يوجب شدة الحذر ، ونهاية البعد عنها ، على ما سيأتي إن شاء الله .

النص الأخير في منهج تحريم الخمر

قال تعالىٰ :

﴿يَـأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الخَمْـرُ والمَيْسِـرُ وَالأَنْصَـابُ . . .﴾ [المائدة : ٩٠] .

بعد ما تقدَّم من مؤشرات وتلميح ، وتطلُّع الصحابة - رضي الله عنهم - إلى حكم صريح بعد ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ . وبعد ﴿وَفِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وبعد ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ . وسؤالهم اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً . كانت النتيجة الحتمية مجيء النص الأخير بالجواب الواضح الصريح ، مشتملاً على الحكم ، معللاً بموجباته ، بالغاً الذروة في البيان والإقناع ، ناهياً زاجراً بما يقرع الأسماع . فلم يبق أمامهم مجال لاختيار ، ولا شبهة تردّد ، ولا تساؤل ، ولا تعلّق ، ولا ارتباط ، بل أعلنوها صريحة بالانتهاء ، والكف ، والاجتناب ، على ما سيأتي إن شاء الله .

وهذا النص هو قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيْعُوا اللَّهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِيْنُ * لَيْسَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيْمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ ﴾ [المائدة : ٩٠ ـ ٩٣] .

وكل نص نهائي في تنظيم أو تشريع ، يجب أن يكون النهاية في الوضوح ، لا لَبسَ فيه . لأنه لا نصَّ بعده يرفع اللَّبْس ، ويجب أن يبلغ الغاية في الشمول لا نقص فيه ، لأنه لا يأتي نص بعده يكمل نقصه .

وكذلك يجب أن يكون مصحوباً بعوامل الإقناع ، حتى لا يبقىٰ لسامع تردّد ، ولا يتوقف الأخذ به على تنفيذ سلطة قاهرة . ولاسيّما النصوص التشريعية فيما يكون بين العبد وربه ، وبينه وبين نفسه ، وهذا من أخصّ خصائص التشريع الإسلامي ، حيث يقيم وازع السلطة من ضمير المسلم ، وإيمانه بالله المطّلع عليه في كل لحظة أينما كان ، فلا يخفىٰ عليه سبحانه من أعمال العبد شيئاً .

فانظر إلى الصلاة وشرطها الطهارة ، فترك أمرها إلى المصلّي . وكذلك الصيام كما في الحديث القدسي : يدع طعامه وشرابه من أجلي ما لا يطلع على حقيقة صومه إلاَّ الله ، وهو سبحانه الذي يتولىٰ جزاءه .

والزكاة وكل إليه زكاة ما يملك دون تفتيش عليه ، ولاسيّما فيما يخفي من الأموال كالنقدين ، وعروض التجارة .

وكذلك الشخص إذا كان بعيداً عن الناس ، فلا رقيب ولا سلطة يحجزه عن شرب الخمر ، إلاَّ ما اكتنف هذا النص النهائي من عوامل الإقناع ، ولوازم الإيمان ، على ما سيأتي إن شاء الله .

افتتح الآية بنداء الذين آمنوا ، ثم جاء بأداة الحصر ليجمع السامع ذهنه ويحصر فكره : ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ﴾ جمع لعظائم الجرائم في الجاهلية ؛ الجريمة على العقل بالخمر ، والجريمة على المال بالميسر ، والجريمة على العقيدة في الأنصاب ، فيما يذبح على النصب ، والجريمة على الرأي والتفكير السليم بالاستقسام بالأزلام ، ويخضعون أفكارهم وأحلامهم لما تمليه عليهم . كل ذلك جاء في قَرَنٍ واحد حكم عليه بأنه رجس ، والرجس : النجس ، سواء كان نجس العين ، أو نجس المعنىٰ . كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨]. أو رجس بمعنىٰ الإثم . كلها معانٍ ألزم ما على المؤمن أن يتبرَّأ منها ، ويبتعد عنها . فتعداد تلك الأصناف غاية في الشمول ، والحكم عليها بأنها رجس أول تعليل تمهيدي للحكم الآتي .

ثم جاء نسبة هذا الرجس إلى الشيطان : ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ونسبة الرجس إلى عمل الشيطان ، يؤكد على كل عاقل التحفظ منه ، لأنه من عمل العدو الذي أُمرنا باتخاذه عدواً : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] فجاء قوله : فاجتنبوه بعد التمهيد لها .

وقد يكون في هذا الكفاية ، لكنه فيه إجمال في قوله : ﴿ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ وهم يرون أنها من عمل أيديهم ، فهم الذين يتَّخذون السكر من ثمرات النخيل والأعناب وغيرها ، وهم الذين يياسرون على الجزور مثلاً ، وهم الذين نصبوا الأنصاب ، وهم الذين يستقسمون بالأزلام ، كل ذلك عملهم بأيديهم ، وكما قلنا إنَّ النصّ النهائي في كل تشريع لا بدّ أن يكون واضحاً غاية الوضوح .

ولهذا فقد أجمل ثم فصل ، وهو أعلىٰ أساليب البيان . فلمَّا قال من عمل الشيطان ، استوجب تطلّعاً منهم لبيان هذا العمل ، فجاء النص

بالتفصيل : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِيْ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ .

وهنا نستوقف كل عاقل أولاً ، ثم كل مؤمن ثانياً ، ليروا جميعاً مدىٰ الشمول في هذا التعليل . فقد بيَّن إرادة الشيطان من بني الإنسان عموماً ، إيقاع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، وقال في ولم يقل بالخمر والميسر ، ليبيِّن أنَّ إيقاع العداوة ذاتية فيهما ، لا سببية بهما ، لأنَّ السببي قد يجتنب السبب ، أمَّا الذاتي فلا يترك إلَّا بترك الذات . ومن له أدنىٰ مسكة من عقل ، لا يقبل إدخال العداوة والبغضاء على نفسه ، ومن نفسه ، فيكون عدواً معادياً ، وبغيضاً مبغضاً ، أي العداوة والبغضاء صادرتان منه وعليه . فإن سالم الناس لن يسالموه ، وإن سالموه لن يسلموا منه ، فأيّ قبح أشنع من هذا ؟

ثم يأتي إلى المؤمنين وفي مقومات إيمانهم ، وعند حظ الشيطان وبغيته منهم فقال : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ وقدم الصدّ عن ذكر الله ، لأنه أعمّ وأشمل ، أعمّ من الصلاة بالاستغفار ، والتسبيح ، والتحميد والتلاوة ، والسلام على المصطفىٰ ﷺ ، وفي جميع حالات المؤمن ؛ قائماً وقاعداً ﴿ الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ . الآية [آل عمران : ١٩١] .

فإذا تمكَّن من تحقيق إرادته ، ووصل منكم إلى غايته ، فصدَّكم عن ذكر الله أصبحت القلوب خالية ، ومن خوف الله خاوية ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، لأنَّ ذكر الله هو عامل التنبيه للسلامة من المعاصي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فإذا لم يذكروا الله لن يتذكَّروا فلن يبصروا . وهذا هو غاية الشيطان منهم . فأيّ شرّ تدخلونه على أنفسكم في الخمر والميسر؟ وبعد هذا كله فهل أنتم منتهون . نعم يا رب انتهينا .

ومن إعجاز القرآن أن يلي هذا التشريع قوله تعالىٰ : ﴿وَأَطِيْعُوا اللّٰهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ﴾ . فلم يدع لهم مجالاً لاختيار ، ولا فرصة لتفكير ، وقد ألزمهم الحجة فلم يبقَ إلاّ الإذعان والطاعة ، ثم يقول لهم واحذروا . أي احذروا المخالفة والتواني في الاستجابة والتأخير في الطاعة .

ثم يهددهم بعد أن حذرهم فقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن السمع والطاعة ، فاعلموا علم يقين ﴿ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِيْنُ ﴾ وقد بلَّغ ، والحساب بينكم وبين الله .

ثم جاء بما يصلح أن يكون عمل تصفية ، وما يسمَّىٰ بعدم التأثير الرجعي في الأنظمة التشريعية ، فيبيِّن أحكام الماضي بالنسبة لما شربوا قبل التحريم فيقول : ﴿ لَيْسَ عَلَىٰ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ ﴾ أي : إثم فِيْمَا طَعِمُوا ، أي شربوا قبل النهي بشرط إذا ما اتَّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . أي : اتَّقوا فيما مضىٰ ، واتَّقوا الشرب ، وآمنوا بالوعد والوعيد ، وعملوا الصالحات . على حد : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ونقل القرطبي عن ابن عباس مع أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ : إنها إعذار لمن غبر ، وحجة على الناس . ثم اتقوا وآمنوا أي : بعد النهي فصدقوا وانتهوا عمَّا نهوا عنه ، ثم اتقوا وأحسنوا أي في العمل ، ترقياً في الإيمان والعمل الصالح إلى رتبة الإحسان . أي بلا تردّد ولا عودة ولا نكسة . وهذه التصفية ، برفع الجناح عنهم فيما مضىٰ ، تشبه التصفية في موضوع الربا بعد الوعد والوعيد الشديد ، جاءت التصفية عن الماضي : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

وكذلك لما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، جاء الإخبار عن الماضي ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي تصديقكم وصلاتكم الأولىٰ .

ثم جاءت السنة بالقضاء على كل أثر من آثار الخمر في المجتمع

الإسلامي ، كأنها لم تكن .

عن أنس : أنه كان يسقي قوماً ، فسمعوا المنادي ينادي بتحريمها ، فردُّوا الكؤوس عن أفواههم وألقوا بها من أيديهم ، وكسروا أوانيها ، ومزقوا سقاءها .

وسدَّ عليهم النَّبيّ ﷺ كل نافذة تطلُّ على مكان هي فيه . فقالوا نتخذها خلاً . قال : « لا » . قالوا : نتداوىٰ بها . قال : « إنَّها داء وليست بدواء » . وحديث ابن عمر : « لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، ومبتاعها ، وبائعها ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه » رواه أبو داود ، وابن حبان . وزاد : « وآكل ثمنها » . فبهذا ، وبالحفاظ على الصلوات الخمس ، انقضى أمر الخمر من الكيان الإسلامي . وبقي من وقع تحت تأثير المغريات ، وزلَّت به قدمه ، فإنّه يقام عليه الحد تعزيراً له وردعاً لغيره . فلم تكن توجد إلَّا نادراً .

بينما الغرب بإمكانياته ، وانعقاد مؤتمراته ، وقيام جمعياته ، عجز عن معالجتها في مجتمعه . وما ذلك إلَّا لتناقض في نظام تشريعاته . ففي الوقت الذي يستصرخ المصلحون من فسادها ، يصرح المسؤولون بصنعها ، وشربها ، والاتجار بها . ولا حلَّ لها إلَّا بمنهج الإسلام الحكيم .

*****

****

قال تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

اليتامى : جمع يتيم . واليتم : الانفراد . يُقال : يتيمة الدهر ، حيث لم يوجد مثلها . وبيت يتيم ، إذا لم يأت في الشعر مثله .

وفي الاصطلاح ، اليتيم : من انفرد عمَّن يرعاه ، وقالوا : يتيم الإنسان ؛ من افتقد أباه ويتيم الحيوان : من افتقد أمه ، ويتيم الطير من افتقد أبويه . ولعلَّ السبب في هذا التقسيم هو نوع الحياة في الأجناس ، وتربية الأولاد والنسل . ويمتد في الإنسان إلى بلوغ الرشد .

ففي الإنسان ؛ الأب هو العائل ، والمُعيل ، والمتعهّد حياة الأولاد . بينما في الحيوان النتاج لا يعرف أباه ، ولا علاقة له بغير أمه ، فهي ترضعه حتى يقوىٰ على تناول طعامه بنفسه . أمَّا في الطيور ؛ فإنَّ غالبها تكون المناوبة بين الأبوين على البيض ، حتى يخرج الأفراخ . فإذا خرجت تناوب أيضاً أبواها عليها يزقانها الطعام حتى تقوىٰ على الطيران ونحو ذلك .

ولفظ اليتيم اسم جنس يصدق على الواحد وعلى الجماعة . من إطلاقه على الواحد المعين قوله تعالىٰ لرسوله ﷺ : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً

فَـآوَىٰ﴾ [الضحىٰ : ٦] . ومن إطلاقـه على الجنس قولـه تعالىٰ : ﴿فَـأَمَّـا الْيَتِيْمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾ [الضحىٰ : ٩] . وقوله : ﴿كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيْمَ﴾ [الفجر : ١٧] .

والسؤال هنا جاء عن اليتامىٰ بصيغة الجمـع ، إشعاراً بـأنَّ هذا الجنس كثير ، ويشكِّل قضية في مجتمعهم ، ولاسيّما والحرب دائرة رحاها في القتال المتواصل ، في الغزوات ، وغير ذلك .

وممَّـا روي في سبب النـزول ، مـا رواه أبـو داود ، والنسـائي عن ابن عبـاس رضي الله عنهما ، قـال : لما أنـزل الله تعـالىٰ : ﴿وَلاَ تَقْـرَبُـوا مَـالَ الْيَتِيْمِ إِلاَّ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . وكـذلك : ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمَـاً إِنَّمَا يَأْكُـلُونَ فِيْ بُطُونِهِمْ نَـارَاً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيْـراً ﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم ، فعزل طعامـه من طعامـه ، وشرابـه من شـرابه ، فجعـل يفضل من طعـامه فيحبسـه له حتى يـأكله ، أو يفسـد ذلـك عليه ، فذكروا ذلك لـرسول الله ﷺ ، فـأنزل الله تعـالىٰ : ﴿وَيَسْأَلُـونَكَ عَنِ اليتامىٰ ﴾ . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .

وقيل : إنَّ السائل هو عبد الله بن رواحة .

والسؤال عن اليتـامىٰ ، جـاء في سيـاق أسئلة قبله في آيتين مـرتبـطتين تماماً ؛ فالسؤال الأول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ﴾ وجاء جوابـه وفي نفس الآية : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وبدأت الآيـة الثانيـة بعدهـا بمتعلَّق (تتفكرون) الـذي ختمت بها الآية قبلها ، فقال : ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى ﴾ فهما آيتان كـالآية الـواحدة ، جـاء فيهما ثـلاثة أسئلة . ويـظهر الارتبـاط بين موضوع اليتامىٰ ، والذي قبله ، في أنَّ المـوضوع الـذي قبله هو السؤال عن نوعية ومقدار الإنفاق . وجاء الجواب مرشداً إلى أنه في حدود (العفو) .

والعفو هنا بمعنىٰ الزائد عن الحاجة ، تسمح به النفس دون إضرار ولا

تقتير . ثم يأتي موضوع اليتيم ، وكأنَّه يفيد بأنه إذا كان الإنفاق من أموال غير اليتامىٰ ، لا ينبغي أن يتعدَّىٰ حدود العفو ، فمال اليتيم من باب أولىٰ فلا ينبغي لوليِّه أن يتعدَّىٰ حدود الإصلاح له . كما أنَّ السياق يعطينا بدلالة الاقتران أنَّ اليتم قضية اجتماعية ، تتطلَّب النظر فيها ، كتلك القضايا المقترنة بها ، من خمر وميسر ، وإنفاق . وهذا يسوقنا إلى تصور قضية اليتم ، ومن ثمَّ تتبع منهج القرآن لمعالجتها ، وأين موضوع اليتيم في المجتمع الإنساني في منهج الإسلام ؟

تصور قضية اليتم : تعتبر قضية اليتم عالمية ، إنسانية ، اجتماعية ، أخلاقية ، بل واقتصادية . وهي في حد ذاتها إجبارية لا اختيارية ، بخلاف ما سيقت معه ، من خمر ، وميسر ، وإنفاق . لأنَّ تلك قضايا اختيارية ، وكلها بوسع الإنسان تركها .

أمَّا اليتم فلا خيار فيه ؛ لا لليتيم ولا لوالده . حيث إنَّ اليتم ينشأ عن موت الوالد ، والموت لا اختيار لأحد فيه ، كما تصوره الشاعر الجاهلي بقوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصِبْ تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

والمولى سبحانه يقول : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] ، وقال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] فيأتي الموت ، وتخترم المنية الصغير ، أو الكبير فلا تستطيع قوة على الأرض ردّه ، كما تحداهم سبحانه بقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧]

ولن يرجعوها. ومن هنا كان اليتم إجبارياً لا اختيار لأحدٍ فيه . ولما كان إجبارياً ، وبتقدير الله سبحانه ، كانت رعاية الله لليتيم ومراعاة حاله من جميع

جهاته ، والتشريع بما يكفل له كل حقوقه ، كما لو كان وليه موجوداً أو أكثر .

ويظهر ذلك بعرض نصوص القرآن ، إن شاء الله ، وبيانها من السنة النبوية ، وبعض وقائع التاريخ العملية .

ويمكن تصنيف نصوص القرآن عن اليتيم إلى الآتي :

أولاً : فيما يتعلَّق بالحفاظ على شعوره ، وملاطفته والإحسان معه أدبياً وإنسانياً ، بصرف النظر عن احتياجه ، مالياً أو استغنائه ، ولكن لمجرد التقدير والعطف وإشعاره بالحنان والمودَّة .

ثانياً ـ فيما يتعلَّق بكفالته وإطعامه وكسوته وإعالته ، وتحت هذا القسم :

أ ـ قد ضمَّه القرآن إلى أسرة كافلة من الأقارب ، وأحاطه بعناية الأولاد والإخوان والوالدين وعموم ذوي الرحم .

ب ـ فرض له في الغنائم ، وفي الأنفال مع المستحقِّين فيها .

ثالثاً : أوصىٰ به للقيام له بالقسط .

رابعاً ـ جاءت الفتوىٰ من الله في حقه .

خامساً ـ من جانب ماله ؛ وهذا الجانب استغرق حيزاً كبيراً :

أ ـ إيتاء ماله إليه موفوراً .

ب ـ تحريم أكل شيء منه ظلماً .

جـ ـ دفعه إليه بعد إيناس الرشد منه .

د ـ افتراض خدمته مجاناً ، والسماح للفقير بأخذ ما يحتاجه بالمعروف .

وسنلِّم ـ إن شاء الله ـ بهذه الجوانب بالتفصيل ، بعد إيراد الجواب على السؤال ، حيث إنَّ الجواب هو المنطلق لجميع تلك الجوانب ، ونص الجواب يُعتبر في إيجازه معجزاً : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ وجاء بالمصدر وهو أصل المادة ، عنه تأتي المشتقات كلها فيشمل الحاضر والمستقبل ، ويعمّ جميع حالاته ، وجميع حالات كافله أي : الإصلاح له على جميع الأحوال ، في جميع الأوقات يكون خيراً له في صلاح شأنه ، ولكم في صلاح تعاملكم عاجلاً وآجلاً . ولا يستطيع قلم أن يعبر عمّا اشتملته كلمة ﴿ إصلاح لهم ﴾ كما قال المولىٰ سبحانه .

ثم فصل بعض الحالات : وإن تخالطوهم في المأكل والمشرب والمساكنة فإخوانكم ، إخوة على قدر المساواة ، لا يهضم فيها صغير ، ولا يتعالىٰ فيها كبير . وبهذا يضعه القرآن الكريم في صميم الأسرة كأحد أفرادها ، أخ من إخوانهم ويوقظ فيهم إحساس المراقبة والخشية من الله فيما لو تحركت نوازع بشرية ، وشحت النفوس ، وانحرفت الميول وأرادت غريزة البنوة أن تميّز الأولاد على الإخوان ، فيقع الحيف على هذا الأخ الملحق بهم ، فيقول تعالىٰ : ﴿واللَّهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ ﴾ وقدم المفسد لأنه موقع الخطر على اليتيم .

وإذا كانت الرقابة على معاملة اليتيم هي من الله ، وهو المطّلع مهما خفيت أنواع المعاملات ، ولو بلحظ العين ، أو تقطيب الجبين ، فإنّه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . فأي حفظ ورعاية له أدقّ من ذلك ؟

ثم يهددهم بتشريعٍ آخر : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ والعَنَتُ هو: كسر العظم بعد أن جبر من كسر سابق ، أي إنّ السماح بمخالطتكم إيّاهم جبر لكسر المشقة المذكورة في سبب النزول ، ولو شاء لكسر هذا الجبر مرة أخرى ﴿ إنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ وسيأتي تفصيل المنهج القرآني لقضية اليتيم إن شاء الله .

المنهج القرآني لمعالجة قضية الأيتام

انطلاقاً من الجواب على السؤال ، بقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ وشمول هذا الجواب كل ما يضمن له المصلحة ، وقد ألمحنا إلى تصنيف نصوص القرآن في موضوع اليتيم عدة جهات ، أولها ؛ الجانب الإنساني الأخلاقي ، وهو ما يتعلّق بحسن معاملته وملاطفته ومؤانسته ، حتى لا يحسّ بوحشة ولا قطيعة .

وليعلم كل إنسان أن كل ما يقدمه المجتمع إلى اليتيم من حسن رعاية ، وما يغمره به من فيض عاطفة ، ويحيطه من حرارة حب ومودّة ، لن يعوضه والده الذي أخذ منه . فلا يُستعظم عليه شيء يقدم له ، ولا يقصر إنسان في بذل جهده معه . وأعظم ما نجد في هذا المجال الموقف العظيم الذي تهتزّ له القلوب ، وترتعد له الفرائص ، فهذا رسول الله ﷺ ، وسيد خلق الله تعالىٰ ، تأتي سورة الضحىٰ وتعدِّد نعم الله تعالىٰ عليه ، ومنها إيواؤه في حالة يتمه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ وفيها يقول له : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فهل كان ﷺ يقهر اليتامى ؟ أم أنَّ المقصود به الأمة ؟ نعم ! لقد نعته الله سبحانه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد خوطب ﷺ بما لا يشمله في شخصه قط ، وإنَّما أريد أفراد الأمة كما في قوله سبحانه : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ [الإسراء : ٢٣] . ومعلوم أنه ﷺ عند نزول هذا لم يكن عنده أحد من أبويه قطعاً ، ولكن لعظم حق الأبوين شرع الله ذلك في خطابه لرسوله ، ليكون تكليف الأمة في شخص رسولها أبلغ في التكليف ، وأقوىٰ في الإلزام ، أي لو فرض أنَّ أحد أبويه ﷺ كان موجوداً لكان هذا الحق ثابتاً لهما عليه ، فإذا أمكن ثبوت هذا الحق لهما عليه ، وهو نبيّ مرسل ، فعلىٰ غيره من باب أولىٰ ، وهكذا هنا .

ويظهر عظم هذا الحق لليتيم أنه جاء في سياق مقابلة ، فكأنَّه يقول للأمة : إنَّ كفالة اليتيم عمل معاوضة ، ويتيم اليوم كافل أيتامكم فيما بعد . فكما أنَّ بعضكم كان يتيماً فأواه الله ، فلا تقهروا اليتيم . بل كما أنَّ الله تعالىٰ قد امتنَّ على نبيّكم ، بأنه أواه وأحسن إليه ، فمن حق كل يتيم عليكم أن ترعوه ولا تقهروه . . ولعلَّ من هذا المنطلق نفهم قوله ﷺ ، مصوراً علاقة كل كافل يتيم به كأنَّه يقوم مقامه ﷺ في تنفيذ ما أمره الله به . فيقول : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » . ويشير بالسبابة والوسطىٰ معاً ، وجاءت رواية تفسر هذا التشبيه بالقرب لا بالطول والقصر ، أي بعلوّ الدرجات وتفاوتها ، بل بالقرب مثل اقتراب الإصبعين بعضهما من بعض السبابة والوسطىٰ .

ونلاحظ في السورة الكريمة ظاهرة عجيبة ، وهي أنَّ الله تعالىٰ في تعداد إنعامه على رسوله ﷺ ، ذكر نعمة الإيواء في اليتم والإغناء في العلية :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمَاً فَآوَىٰ ﴾ وكذلك ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ وكان مقتضىٰ المقابلة وشكران النعم أن يحثّه على إيواء اليتيم ، وإغناء السائل ، معاملة بالمثل . ولكنه نهىٰ عن قهر اليتيم بدلاً من إيوائه ، ونهىٰ عن نهر السائل بدلاً من إغنائه ، والقهر والنهر يشتركان في الهاء والراء من أصل المادة ، ويختلفان في القاف والنون ، والقاف أقوىٰ ، فهي من حروف القلقلة ، ولذا فهما بمعنىٰ متقارب ، والقهر أعمّ لأنَّ النهر لا يكون إلاَّ بالقول ، كالطرد ، ورفع الصوت ، وإغلاظ القول له ، أمَّا القهر فهو أعمّ ، فيكون بالكلام وغيره ، أيّ بالقول وبالفعل . إذاً اليتيم والسائل ، والقهر والنهر ، يجتمعون في بوتقة واحدة ، والنهي عن قهر اليتيم وعن نهر السائل ، أهم من الأمر بإيواء اليتيم وإغناء السائل ، على حد قول الأصوليين : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ومن منطلق مراعاة الشعور لليتيم فهو كما قدمنا في آداب الإنفاق من أنَّ بشاشة الوجه وطلاقته للمسكين وللسائلين ، أولىٰ من بذل العطاء مع عبوسة وتقطيب ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٣] . وكذلك هنا ، فحاجة اليتيم إلى كف الأذى أشدّ منها إلى تقديم المساعدة له ، فقد يكون اليتيم في غنىٰ وسعة من المال ، ولكنه لن يكون أبداً في غنىٰ ولا استغناء عن الملاطفة والإحسان إليه ، فكأنَّ النهي عن قهره أولىٰ من الحثّ على إيوائه ، ومن جانب الشمول في المعنىٰ فإنَّ الذي لا يقهر اليتيم لن يقصر في حقه ، لأنَّ أي تقصير في حقه يصير قهراً له . كما جاء الحديث : « اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الهمّ والحزن . . . وغلبة الدين ، وقهر الرجال » .

ولا يكون قهر اليتيم إلَّا ممَّن قسا قلبه، وغلظ طبعه كما ينصّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِيْ يُكَذِّبُ بِالدِّيْنِ * فَذَلِكَ الَّذِيْ يَدُعُّ الْيَتِيْمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِيْنِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣] . وفي هذا النص مقابلة بين ما جاء في سورة الضحى من خطاب رسول الله ﷺ : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيْمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وفي هذه السورة سورة الماعون يأتي الخطاب مع من يكذب بالدين ، أي يوم الجزاء من منكريْ البعث ، وقيل : نزلت في أبي جهل ، أو الوليد بن المغيرة ، كان ينحر جزوراً كل أسبوع ، فجاءه يتيم يطلب شيئاً منه فقرعه بعصاه ، وقد جعل الله أوضح علامات تكذيبه بيوم الدين ، أنه يدعُّ اليتيم ، ولا يحضُّ على طعام المسكين . والحضُّ هو حثّ الغير على الفعل ، فإذا كان لا يحضُّ غيره على إطعامه فلن يطعمه هو ، من باب أولىٰ .

ويلاحظ أنَّ السورة الكريمة عقبت على دعٍّ اليتيم بالوعيد الشديد ، للذين هم عن صلاتهم ساهون ، فلعلَّ فيه إشعارٌ بأن السهو عن الصلاة يغشي القلب ، ويضيع حق اليتيم والمسكين معاً .

ويـوضح ذلـك ما يقـابله في سورة المعـارج في قـولـه تعـالىٰ : ﴿ إِنَّ الإِنْسَـانَ خُلِقَ هَلُوعَاً * إِذَا مَسَّـهُ الشَّرُّ جَـزُوعَـاً * وَإِذَا مَسَّـهُ الخَيْـرُ مَنُـوعَـاً * إِلَّا المُصَلِّيْنَ ﴾ [المعـارج : ١٩ ـ ٢٢] فوصف الإنسـان بالهلع والجـزع والمنـع ، واستثنىٰ من عموم الإنسان صنفاً واحداً هم المصلون ، ووصفهم بـأنهم على صـلاتهم دائمون ، أي لا ينسونها ولا يسهـون عنهـا ، ونصَّ على عـلاقتهم المالية بالسائل والمحروم ، وأول من يـدخل في ذلـك اليتيم ، فقال عنهم : ﴿وَالَّذِيْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[المعارج : ٢٤ ـ ٢٥]وأثبت لهم الإيمان بيوم الدين ، فقال : ﴿والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ [المعارج : ٢٦] وليسوا كذاك الكافر الذي يكذب بيوم الدين ، إنها مقابلة تامة بين حالة إكرام اليتيم ، وحالة إهانته ودعّه وقهره .

وفي سورة الفجر نجد قولـه تعالى : ﴿ فَـأَمَّا الإِنْسَـانُ إِذَا مَا ابْتَـلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيْ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّـا إِذَا مَا ابْتَـلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ فَيَقُـولُ رَبِّيْ أَهَـانَنِ * كَـلَّا بَـلْ لَّا تُكْـرِمُـونَ الْيَتِيْمَ * وَلاَ تَحَـاضُّـونَ عَلَىٰ طَعَـامِ المِسْكِيْنِ * وَتَـأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْـلاً لَمّاً * وَتُحِبُّـونَ المَالَ حُبّـاً جَمَّاً * كَـلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكَّاً دَكَّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَّاً صَفَّاً * وَجِيْءَ يَـوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الـذِّكْرَى * يَقُـولُ يَا لَيْتَنِيْ قَـدَّمْتُ لِحَيَاتِيْ ﴾ إلى آخر السورة . [الفجر : ١٥ ـ ٢٤] .

فنجد حال الإنسان دائراً بين الإكرام والإهانة ، في التوسعة عليه وإقتار رزقه ، أي تـضييقه ، ونجـد شبه التعليـل لحالـة الإهانـة ، بـأنه لا يكـرم اليتيم ، ولا يحضُّ على طعـام المسكين ، فكـان في إكـرام اليتيم أسبـاب التـوسعة في الـرزق ، وفي إهانتـه العكس ، وأَتْبـع ذلـك بمـا هـو واقـع في الجاهلية من حرمان اليتيم من ميراثه بقوله : ﴿ وَتَـأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْـلاً لَمَّـاً ﴾ قال أبو حيان : كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ، ويأكلون نصيبهم ، وجاء

تعليل أعمّ وهو قوله : ﴿ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ ثم جاء الردع والزجر ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً وَجِيْءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِيْ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِيْ ﴾ صورة مفزعة مروعة متجهة نحو أولئك الذين لا يكرمون اليتيم ولا يحضُّون على طعامه .

ويشهد له ما جاء في سورة البلد ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِيْ مَسْغَبَةٍ * يَتِيْماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١ ـ ١٦] فنجد من مجموعة النصين في الفجر والبلد أنَّ عدم إكرام اليتيم ، وعدم الحض على إطعامه من أسباب التضييق في الرزق ، وأنَّ إكرامه ممّا يزيد في الرزق ، ويوسعه في الدنيا ، ويجتاز صاحبه به العقبة يوم القيامة .

وسواء كان إكرامه في إطعامه وإيوائه ، أو كان في ملاطفته ومؤانسته ، والكفّ عن إيذائه وقهره ودعه ، وكل ما يجرح شعوره ويسيء إليه . وهذا هو الجانب الأول في رعاية القرآن الكريم المثالية لنفسية اليتيم .

جانب إطعامه وإيوائه

روىٰ البخاري في الأدب المفرد ، أنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرُّ بيت في المسلمين فيه يتيم يساء إليه » .

وروىٰ المنذري حديث زرارة بن أبي أوفىٰ ، عن رجل من قومه يقال له مالك ، أو ابن مالك ، سمع النَّبيّ ﷺ يقول : « من ضمَّ يتيماً بين مُسْلِمَيْن في طعامه وشرابه حتى يستغني عنه ، وجبت له الجنة البتة ، ومن أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يبرهما ، دخل النار فأبعده الله ، وأيَّما مسلم أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار » . وقال رواه الطبراني وأحمد

مختصراً بسند حسن .

فقد جعل ﷺ اليتيم إلى كافله في طعامه ، كَبَرِّ الوالدين سواء . وجاء في وصف الأبرار في سورة الإنسان قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْنَاً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيْرَاً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمَاً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيْراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيْنَاً وَيَتِيْمَاً وَأَسِيْرَاً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَّبِّنَا يَوْمَاً عَبُوسَاً قَمْطَرِيْراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : ٥ - ١١] . لو أردنا أن نربط بين هذا السياق كله ، وعلاقته باليتيم لوجدنا من خير أعمالهم أنهم كانوا يطعمون الطعام على حبه وحاجتهم إليه ، كلا من المسكين واليتيم والأسير ، وذلك لوجه الله مخافة ما وصفوه يوماً عبوساً قمطريراً ، ونجد الجزاء في المقابل ، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم العبوس ولقاهم نضرة أي بهجة وطلاقة وترحيباً وسروراً .

وكأنَّه في مقابل إطعامهم اليتيم ، وبشاشة الوجه له ، خوفاً من ذلك اليوم العبوس ، جازاهم الله على أعمالهم خيراً ، ومن جنس ما أحسنوا إلى اليتيم أحسن الله إليهم ، فهم قد أمّنوا اليتيم من المخاوف ، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ، وهم عاملوه بالبشاشة وأدخلوا السرور على نفسه فلقاهم نضرة وسروراً . إنَّه ربط متكامل ، وجزاء من جنس العمل ، وفضل الله أوسع وعطاؤه أجزل .

ونجد أيضاً من أخصّ أعمال البر ، إيتاء المال على حبه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين ومن على شاكلتهم كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّيْنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِيْ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

والمَسَاكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ والسَّائِلِيْنَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فنجد إيتاء المال لليتيم ومن معه ، قسيم الإيمان وأركان الإيمان كلها ، ممَّا يجعله في أعلىٰ درجات أعمال البرّ بعد الإيمان بالله وما يستلزمه .

ومن هذا الجانب نجد القرآن الكريم لم يكتفِ بمجرَّد إطعامه ، أو إيتائه المال بل ضمَّه إلى الأقربين، فجعله تارة مع الوالدين في الإنفاق عليهما كما في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِيْنَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٥] . وتقدَّم إيضاحه في السؤال عن الإنفاق وجهته . فالإحسان إليه يوازي الإحسان إلى الوالدين . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبِذِيْ القُرْبَىٰ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيْل وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء : ٣٦] فجعل اليتيم في مقدمة هؤلاء جميعاً .

كما جعل اليتيم يشارك الوالدين والأقربين في الوصية قبل فرضية الميراث ، ونسخت الوصية للوالدين والأقربين بحديث : « لا وصية لوارث » ولآيات المواريث ، وبقي حق اليتامىٰ ، وذلك في قوله تعالىٰ من سورة البقرة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرَاً الوَصِيَّةُ لِلأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَىٰ المُتَّقِيْنَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ [النساء : ٨] فأوجب لهم حظاً من قسمة الميراث مصحوباً بقول المعروف ، حفاظاً على ثبوت أجره ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]. ومن هذا الباب في كفالة اليتيم أن جعل الله له سهماً في كل من الغنائم والفيء ، ممَّا يشعر بكفالة بيت المال لمن لا كافل له ، ففي الفيء قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِيْ القُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] . وفي الغنائم قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِيْ القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال : ٤١] . فالغنائم التي هي نتيجة جهاد المؤمنين ، وليس لليتيم فيها مشاركة لصغره وعجزه عن حمل السلاح ، يجعل الله له فيها نصيباً مع المساكين وابن السبيل ، ويلاحظ هنا لفتة كريمة ، وهي أنَّ ذوي القربى هنا هم قرابة النَّبيّ ﷺ ولكأنَّ اليتيم بمنزلتهم في إيوائه وكفالته ، شبيه بقوله ﷺ في سلمان الفارسي رضي الله عنه : « سلمان منا آل البيت » فكانت أعظم تشريف له .

وقد يكون اليتيم ذا مال ، وفي غنىً عن إطعامه وإسكانه ، ولكنه في حاجة إلى تدبير شؤونه في إصلاح ماله والقوامة على إصلاح كل ما يتعلق به ، ورعايته في نفسه ، فما موقف القرآن من تلك الرعاية وهذه القوامة ؟

أمَّا فيما يتعلق برعاية شؤونه ، فقد جاء عن داود عليه السلام : كن لليتيم كالأب الرحيم . ومن يزرع يحصد . إشارة إلى أن القائم على شؤون اليتيم ، يعامله كما يعامل أولاده ، برحمة وعاطفة ، ولو أدَّىٰ ذلك إلى إلزامه بما يكره حرصاً على مصلحته ، كإلزامه بالتعلّم وتأديبه وتنشئته على مكارم الأخلاق ، ولو أدَّىٰ ذلك إلى ضربه تأديباً لا تعزيراً . وقد قال الشاعر في ذلك :

قسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً   فليقسُ أحياناً على من يرحم

لأنَّ تلك القسوة إنَّما هي من الإشفاق عليه ، كالطبيب يجري العملية الجراحية للطفل الصغير ، فهو أشدّ الناس عطفاً عليه وبيده يشق الجلد ويخيط اللحم ، سعياً وراء شفائه . وهكذا كافل اليتيم الذي يؤويه إلى بيته ومع أولاده ، وكما قيل في المثل : عصاً وثمرة . وفي الحديث في حق الأبناء : « مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر » . فكذلك اليتيم يضرب عليها وعلى مثيلاتها . وجاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : إنِّي لأضرب اليتيم حتى ينبسط . أي ينبسط في المستقبل نتيجة هذا الضرب لصالحه . وهكذا قال محمد بن سيرين : اضربه كما تضرب ولدك .

أمَّا ما يتعلَّق برعايته : فقد نستطيع القول بأنَّ الله سبحانه أوجب على المجتمع خدمة اليتيم مجاناً ، وأباح للفقير أن يأكل بالمعروف في حدود حاجته ، كما في قوله تعالىٰ في ابتلاء اليتامىٰ ودفع أموالهم إليهم بعد إيناس الرشد منهم : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيْراً فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ ﴾ [النساء:٦] . أي الذين كانوا يديرون أموال اليتامىٰ فهم بين حالين ؛ أغنياء فَلْيَعِفّوا عن مال اليتيم ، مقابل قيامهم بخدمته وليحتسبوا وجه الله في ذلك ، ليتوفَّر ماله إليه . أو فقراء ، فأباح الله لهم الأكل بالمعروف ، وبه التنبيه البليغ أنه سبحانه قال : ﴿ فليأكل ﴾ ولم يقل فليأخذ ، كأنَّه يقول ليكن أخذه من مال اليتيم لسدّ حاجته في المأكل فقط ، ولهذا يقول الفقهاء كافل اليتيم إذا كان فقيراً ويطلب أجراً على عمله من مال اليتيم ، فإنَّ الحاكم يعطيه الأقل من أمرين ؛ أجرة المثل عن هذا العمل ، ونفقته أي نفقة العامل حسب متوسط حياة أمثاله ، ويكون الأفضل في ذلك لليتيم والأقل للعامل ، حفاظاً على مال اليتيم .

بل ونجد ما هو أبعد من هذا ، وهو ما جاء في سورة الكهف في خصوص اليتيمين ؛ فقد عمل كل من موسىٰ والخضر ـ عليهما السلام ـ في خدمة اليتيمين مجاناً وبدون أن يعلم بهما حتى اليتيمين ، ودون أن يحصلا على استضافة لهما وهما غرباء ، كما قال تعالى : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا

أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيْهَا جِدَاراً يُرِيْدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الكهف :٧٧] فالخضر وموسى وجدا جداراً يريد أن ينقض ، فهدمه الخضر وأعاد بناءه بدون أجر ولا حتى الضيافة الواجبة ، وعجب من ذلك نبي الله وكليمه موسىٰ فقال للخضر : لو شئت لاتَّخذت عليه أجراً مقابل إقامته ، ولا يكون عملك مجاناً لقوم أبوا أن يضيفونا ، فكان جواب الخضر مسجلاً حق اليتيم على القادرين المستطيعين لخدمته في قوله : ﴿ وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِيْ المَدِيْنَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحَاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وهنا يُقال : إنَّ عمل الخضر وافق إرادة ربه ، وتنفيذاً لأمره سبحانه ، ورحمة من الله باليتيمين ، وقد يُقال : إنَّ حفظ مال اليتيم كما هو ـ إن لم يضمن نماؤه على يد أمينة ـ أولىٰ من المخاطرة به في عمل مضاربة أو نحوها .

ولعلَّنا نستطيع أن نختم الكلام في إيواء اليتيم وإطعامه ، بأنَّ هذا في منهج الإسلام تكافل اجتماعي ، وواجب إنساني على ما سيأتي بيانه في نهاية المطاف معه .

ونستوقف كل كافل يتيم لينظر مدىٰ قيامه بواجبه ، ومدىٰ إصلاحه من حاله ، وليتذكَّر قول داود عليه السلام : كن لليتيم كالأب الرحيم ، ومن يزرع يحصد . أي أنَّ من أحسن كفالة يتيم لغيره ، قيَّض الله له من يحسن كفالة يتيمه إن هو ترك أيتاماً .

الإصلاح المالي لليتامىٰ

تقدَّم بيان عدة جوانب من الإصلاح لليتامىٰ الوارد في جواب السؤال عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ سواء كان الإصلاح من الجانب الإنساني في الحفاظ على شعوره ، كقوله تعالى : ﴿ فأمَّا اليتيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِيْ يَدعُّ اليَتِيْمَ ﴾ أو من الجانب الاجتماعي في إطعامه وإيوائه ، كقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيْناً وَيَتِيْماً وَأَسِيْراً ﴾ وكقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِيْ يَوْمٍ ذِيْ مَسْغَبَةٍ يَتِيْماً ذَا مَقْرُبَةٍ ﴾ وغير ذلك من الجوانب المحيطة به .

ومن أهم جوانبه ؛ الجانب المالي ، وقد أخذ حيزاً كبيراً في منهج الحفاظ عليه ، سواء في كتب الحديث أو الفقه . والذي يهمنا نصوص الكتاب العزيز إذ هي موضوع البحث ، ولا غرابة في ذلك إذ المال عصب الحياة وطاقة حركة الاقتصاد ، وهو قرين الولد وصنو النفس . ولهذا فالإنسان مجبول على شدة الحرص في تحصيله ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّاً جَمًّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِيْنَ وَالقَنَاطِيْرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وإذا حصل على المال شحّ به ، فإذا كان سهل المنال وبدون عناء ، وفي متناول اليد ، كانت النفوس أشدّ طمعاً فيه ، ومن ثمَّ تولىٰ الله تعالىٰ قسمة الأموال التي تأتي بدون كدّ ولا تعب ، كالمواريث مثلاً ، جعلها سبحانه أنصباء مفروضة لا يحلّ لأحد التغيير ولا التبديل فيها ، وكذلك الصدقات جعلها لأصناف معدودة .

ومال اليتيم فيه شبه من ذلك ، لضعف اليتيم وسلطة الوليّ عليه

وائتمانه فيه ، فجاءت النصوص فيه موجهة ، ومحذرة ، وناهية ، وآمرة ، وموضحة كل التوضيح لما يجب أن يعامل اليتيم في ماله ؛ من إصلاحه وتنميته والحفاظ عليه ، حتى من اليتيم نفسه فلا يمكن منه فيتلفه ، ولا يُسَلَّم إليه فيبذره ، وتوعد بالنار في جوف آكله بغير حق ، وهدَّد الأوصياء في أولادهم إن هم أضاعوا يتامىٰ غيرهم ، ممَّا يجعل مجموع النصوص في هذا الجانب منهجاً متكاملاً لرعاية مال اليتيم ، من يوم الوصاية عليه إلى يوم بلوغه رشده ، ودفع ماله إليه والإشهاد عليه للخروج من عهدته ، والله حسيب ورقيب . تلك النصوص نسوقها ، ونشير إلى محل الفرض منها .

النص الأول : في النهي عن اقتراب مال اليتيم إلَّا بالتي هي أحسن ، وقد تكرَّر هذا النص حرفياً في سورتين كريمتين هما سورة الأنعام ، وسورة الإسراء ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيْمِ إلَّا بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] و [الإسراء : ٣٤] . وهو في كل من السورتين جزء من آية وفي سياق عدة تشريعات عامة وهامة . أمَّا في سورة الأنعام فمن بداية قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِيْ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيْمِ إِلَّا بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيْزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١ - ١٥٣] .

فقد جاء النهي عن قربان مال اليتيم في هذا السياق ضمن وصية الله لخلقه في اتباع صراطه المستقيم ، والدعوة إلى التزامه .

وفي سورة الإسراء ، وفي أسلوب مماثل للأسلوب نفسه في الأنعام ، وبنفس البداية : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ثم : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ . ثم ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ ثم ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ثم ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ ثم ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ . ثم جاء إلى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا ﴾ ثم ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] . فقد جاء هذا النص متكرراً وضمن سياق، يعتبر منهج تشريع مستكمل ، وكلا السورتين مكيتين ، ولكن أي النصين من السورتين مدنيتين ؟ وهذا من نوع وجود الآيات المدنية في سورة مكية ، ويلاحظ أنَّ كل سياق بدأ بأعظم الحقوق ، ثم بما يليه أهمية ، بدأ بحق الله ثم الوالدين ، ففي الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وفي الإسراء نفس الشيء : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . ثم استمرَّ في بيان أهم القضايا العامة ممَّا يطول إيراده ، ويهمنا في هذا أنَّ اقتراب مال اليتيم بغير التي هي أحسن يعتبر في الجناية والجريمة بمثابة ما ذكر معه في السورتين من الشرك ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المحرمة ، وقتل الأولاد ، وارتكاب الزنا خاصة ، والفواحش عامة ، وتطفيف الكيل ، وبخس الوزن ، ونقض العهد إلى ما ذكر في السياقين الكريمين .

ومن هذا النهي عن اقتراب مال اليتيم إلَّا بالتي هي أحسن نأخذ أهلية

من يتولىٰ الوصاية على اليتيم ، من حيث القدرة على حسن التصرّف في المال بالتي هي أحسن ، وليست الصلاحية الدينية فقط من عبادات وائتمان ، بل يجب أن يكون مع الصلاح في الدين ، الصلاحية في الدنيا ، ومعرفة وجوه الإصلاح للمال ، ولهذا لا يقيم الوصيّ على اليتيم إلَّا والده قبل الوفاة أو الحاكم ، لأنَّ الوالد لا يدَّخر وسعاً في اختيار من يلي ولده من بعده ، وكذلك الحاكم يجتهد في اختيار الوصيّ .

أمَّا بقية النصوص ففي بداية سورة النساء ، وافتتحت بمقدمة عظيمة تنبّه الشعور وتوقظ الضمير ، وتربط اليتيم بالمجتمع ارتباط الجزء بالكل ، والفرع بالأصل ، حيث بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْباً ﴾ [النساء : ١] .

نداء لعموم الناس بتقوىٰ ربهم ، خالقهم من نفس واحدة تنبيهاً على وحدة الأصل ، وخلق منها زوجها تبعية الأم للأب ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، تساوىٰ كل من الرجال والنساء في أصل الإيجاد ، ثم رطب القلوب بصلة الأرحام ، وأقام عليهم الرقابة من الله ، وبعد هذه المقدمة : ﴿ وَآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخَبِيْثَ بِالطَّيِبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيْراً ﴾ [النساء : ٢] .

بعد ربط اليتيم بالمجتمع في صلة الرحم العامة في بني الإنسان ، والحثّ على تقوىٰ الله ، جاءت آية وآتوا اليتامىٰ أموالهم ، فوصف اليتم عامل ثانٍ بعد وصف الرحم ، وكلاهما يتطلَّب صلة وحسن تعامل ، ولفظ اليتامىٰ هنا يكون باعتبار ما كانوا قبل إيتاء الأموال ، لأنَّ أموالهم لا تؤدَّىٰ إليهم إلَّا بعد الرشد ، كما كانوا يقولون للنَّبيّ ﷺ : (يتيم أبي طالب) .

يعنون ما كان عليه ﷺ في صغره ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِيْنَ ﴾ [الأعراف : ١٢٠] ولا سحر مع السجود .

والخطاب فيها لأوليائهم والأوصياء عليهم ، وقالوا في سبب نزولها : إنَّ رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخيه يتيم . فلمَّا بلغ اليتيم طلب ماله ، فمنعه عمه فنزلت ، فقال العمّ : نعوذ بالله من الحوب الكبير وردَّ المال . فقال ﷺ : « من يُوقَ شحَّ نفسه ورجع به هكذا فإنَّه يحلُّ داره » يعني جنته . فلمَّا قبض الفتىٰ المال أنفقه في سبيل الله ، فقال ﷺ : « ثبت الأجر وبقي الوزر » فقيل كيف يا رسول الله ؟ فقال : « ثبت الأجر للغلام ، وبقي الوزر على والده » لأنه كان مشركاً .

﴿ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخَبِيْثَ بِالطيب ﴾ الخبيث يطلق على الحرام وعلى الرديء من الصنف ، فعلى الأول نهي عن أكل أي شيء قلَّ أو كثر من ماله ، وتوفرون الطيب وهي أموالكم الحلال بأيديكم . وعلى الثاني لا تتخيروا الجيد من ماله وتضعون مكانه الرديء من أموالكم ، وكلاهما قبيح ومن دوافع شحّ النفس .

﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي لا تضموها معها وتنفقون من الجميع فيضيع عليه بعض حقه .

وختمت الآية بهذا الوعيد الشديد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبَاً كَبِيْرَاً ﴾ .

والحوب : هو الإثم والذنب العظيم . وتقدم أنَّ هذه الآية هي التي خوفت المسلمين فعزلوا أموال اليتامىٰ ، وشقَّ عليهم أمر مصاحبتهم ، فنزلت آية السؤال عن اليتامىٰ وجاء الجواب ﴿قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ . وفي هذا النص من النهي عن ضمّ أموال الأيتام ، ما يدعو إلى عمل حساب

خاص لنفقة اليتيم ، لتقدير مصرفه شهرياً لا ضرر فيه ولا ضرار ، وهذا ما تقدّره المحاكم ليسير الولي عليه ، ويرجع إليه عند دفع المال إليه ومحاسبته، على ما سيأتي إن شاء الله .

متىٰ يدفع مال اليتيم إليه

تقدَّم الأمر بإيتاء أموال اليتامىٰ إليهم ، والنهي عن أكلها أو تبديلها ، ولكن لم يبيِّن في النص الأول ، متى تدفع إليهم أموالهم ، وقد جاء قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِيْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيْهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ [النساء: ٥] والسفيه من لا يحسن التصرف في ماله، فيشمل اليتيم ، فنهىٰ عن إيتاء السفيه ماله ، ولكن عبر عنها بأموالكم ، وكأنَّها في منزلة أموال المخاطبين من حيث المسؤولية ووجوب الحفاظ عليها ، أي كما لا تسلّطون السفهاء على حُرِّ مالكم فلا تسلّطوهم على أموالهم هم ، ولكن ارزقوهم منها بقدر ما يحتاجون من النفقة ، واكسوهم بقدر ما يكتسي أمثالهم بدون تبذير في إنفاق ولا تقتير عليهم ، وكذلك الكسوة لا بذخ وسرف ، ولا شحٍّ وعريّ ، وهكذا في جميع لوازمه . وهذا في مرحلة اليتم ، فإذا ما اجتازوا تلك المرحلة وآنستم منهم الرشد ، تأتي خطوة أخرىٰ ، ولكن قبل الدفع يجب التحقّق من إيناس الرشد منهم ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيْراً فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيْبَاً ﴾ [النساء :٦] .

والابتلاء : هو الامتحان ، والتدريب ، في القليل من المال ببيع أو شراء ، أو تنمية ليعرف مدىٰ قدرته على إصلاح ماله ، فإذا بلغ النكاح ـ أي الحلم والبلوغ ـ فقد زال عنه وصف اليتم ، وبقي إثبات الرشد ، فإن آنستم منهم

رشداً بعملية الابتلاء ، وبالتجارب المتعددة ، واطمأننتم إلى حسن تصرفاتهم ، فادفعوا إليهم أموالهم ، أي كاملة غير منقوصة ، ثم حذرهم مدة ولايتهم عليهم فقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ فنهاهم عن أكلها إسرافاً أي خطأً ، لأنَّ الإسراف هو الخطأ في الإنفاق ، وهذا يعني أن لا تسرفوا في الإنفاق على اليتيم ، فيكون بمثابة أكلكم أنتم إيّاها لأنكم أنتم الذين سلطتموهم على أكلها ، وقد قال الشاعر :

السامع الذم شريك لقائله　　ومطعم المأكول شريك الأكل

وقوله : ﴿ وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ ردٌّ على النفوس المريضة عند الذين يريدون ذهاب مال اليتيم قبل أن يكبر ، ليسلم من المطالبة ، وينتهز فرصة صغره وعجزه ، فيبادر بأكل أمواله . فيكون هذا التحذير من جانبين ؛ جانب تسلّط اليتيم على أمواله ، وجانب مبَادرة الولي إلى ذهابه بأيّ صفة كانت ، والمبادرة تعطي صورة الضعف والخوف من اليتيم إذا كبر .

ولمَّا كان لا بد لمال اليتيم من عمل تنمية ، ومحافظة ، كأن تكون له مزرعة أو تجارة أو نحوها ، وهذا العمل يحتاج إلى أجر في مقابلته ، فجاء التوجيه الإلـٰهي في ذلك تبعاً لحالة الولي ، وهي لا تخلو من أحد أمرين ؛ إمَّا الغنىٰ ، وإمَّا الفقر . أمَّا الغني فليستعفف ، وقوله تعالىٰ : (وليستعفف) فيها تفعل حتى ولو لم يكن عفيفاً فليطلب العفّة ، ويغالب نفسه عليها أمام تطلعاتها ، مع سهولة تناول مال اليتيم ودافع الطمع فيه ، وهنا يكون على الغني أن يخدم اليتيم مجاناً ، مستعفّاً عن أخذ الأجر في مقابل خدمته وكأنَّه يخدم نفسه أو أحد أبنائه .

ولعلَّ في قصة الخضر مع نبيّ الله موسىٰ عليهما السلام في بناء الجدار لليتيمين مثلاً يحتذىٰ ، ففي الوقت الذي استطعما أهل القرية فأبوا أن يضيفوهما ، مع أنَّ حق الضيافة واجب ، ومع هذا من منعهم حقهم في ضيافتهم ، وجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ، وكان بوسعهما تركه ومسؤوليته

عائدة على أهل تلك القرية ، ولكنه أقامه أي بذل من عنده لمن منعوه حقه ، ممَّا أثار تساؤل نبي الله موسى ، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأنهم ليسوا أهلاً للإحسان إليهم بهذا العمل، فبين له عليه السلام أنه إنَّما أقام الجدار من أجل اليتيمين : ﴿أَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِيْ المَدِيْنَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ـ أي والكنز مدفون تحت الجدار ـ ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي بعد بلوغهما أشدهما واستطاعتهما حفظه والدفاع عنه . ثم بيَّن موجب هذا كله بقوله : ﴿رحمة من ربك﴾ أي باليتيمين ، وإكراماً لصلاح الأبوين ، وبيَّن له أنه لم يفعله من تلقاء نفسه ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ﴾ ومفهومه أنه بأمر الله ، فنجد المولىٰ رحمة باليتيمين يسخِّر لهما الخضر وموسىٰ عليهما السلام ، يدركان الجدار قبل سقوطه فيقيمانه ليبقىٰ الكنز محفوظاً تحته حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، وبدون مقابل لا من مال اليتيمين مع غناهما بهذا الكنز ، ومع حاجة الخضر وموسىٰ إلى الطعام حيث استطعما أهل القرية ، فمع غنىٰ اليتيم وحاجة الوليّ لم يأخذ الخضر أجراً فكيف بغنى الولي ، فهو أولىٰ بالاستعفاف .

أمَّا الفقير فإنَّه قد يكون في الموازنة متعادلاً مع اليتيم ، فهو ضعيف في ماله واليتيم ضعيف في شخصه ، إذاً يكون التعاون المتبادل ، فليأكل بالمعروف ، وهو أن لا يحمل مال اليتيم ما يجحف به ، وقد بيَّن العلماء حد المعروف في ذلك بأحد أمرين ؛ أجرة المثل لهذا العمل، كما لو كان لغير اليتيم ، ونفقة العامل فيما يصلح لمثله، فإذا قدرت أجرة المثل، وقدرت نفقته ، نظرنا أيهما الأقل أعطيناه إياه . وكل ذلك حفاظاً على أموال اليتيم لا تأكلها النفقات .

وهنا وقفة للنظر بين قصة الغلامين، واستعفاف الغني ، وأكل الفقير بالمعروف ، فقصة الغلامين فيها إبقاء الكنز محله دون استثماره ولا تنميته ،

والآية هنا تشعر بإدارة أمواله بالمعروف ، وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « اتجروا في أموال اليتامىٰ لا تأكلها الصدقة » . ونحن الآن ماذا نفعل بأموال اليتامىٰ ، نودعها عند أمين كإيداع الكنز تحت الجدار فيكون مضموناً لهم ، أو نعطيها لمن يعمل فيها غنياً كان أو فقيراً على ما تقدَّم طلباً لمصلحتهم ، أعتقد أنَّ كلاًّ من الأمرين وارد ، إلَّا أنَّ على القاضي أن ينظر في ما يسمَّىٰ تحقيق المناط ، فإن وجد أميناً عفيفاً ينمي المال بشكل مضمون ، وغلب على الظن تحقق المصلحة في دفعه إليه فعل ، ويتابعه بالسؤال والمحاسبة ، فما دام يحصل على مصلحة لليتيم استمرَّ معه ، وإلاَّ استردَّ المال منه . هذا في النقد ، أمَّا في العقار من مزارع ومساكن فإن شاء أجرها مع ضمان العين ، وإن شاء أقام فيها من يديرها ، وهكذا ينظر في وجوه الإصلاح حتى يبلغ رشده ، ويدفع إليه أمواله .

ثم تأتي الخطوة الأخيرة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ هذا الإشهاد براءة للذمة ، وحيطة في وصول أموال اليتيم إليه ، وتنبيه للوصيّ أنَّ المال الذي في يده ، وإن كان أمانة ، إلاَّ أنه يتميز عن الأمانة بوجوب الحفاظ عليه حتى يرده ، فإذا علم بأنه مطالب بالإشهاد على ردّه ، سيكون ذلك من دوافع الحفاظ عليه ، وإذا علم اليتيم أنه سيشهد عليه عند استلام ماله ، سيكون عامل طمأنينة على حقه من جهة ، وسد باب الادعاءات من جهة أخرىٰ ، فأموال اليتيم عند الوصيّ أخذت شبهاً من الودائع ، بأنه أمانة عند الوصي ، وشبهاً من الديون ، بأن يسجل بكتابة سواء عند الولاية عليه ، أو عند دفعه بعد رشده .

وذيلت الآية الكريمة بما فيه الكفاية من الرقابة والعناية ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ يعني مهما احتلتم أو أخلصتم ، ومهما كتبتم وأشهدتم ، فقد لا يعلم الشاهد إلاَّ المشاهد ، ولكن الله سبحانه كافيك في المحاسبة على الظاهر والخفي ، ثم جاءت آية الميراث العامة ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾[النساء : ٧] فيدخل في جنس الرجال وجنس النساء ، كل يتيم

من الجنسين ، وكأنَّ أهم الحقوق هي حق اليتيم في الميراث حيث لم يكونوا يورثونه ، ولا يورثون النساء ، فجاء النص هنا مقرراً حق اليتيم في الميراث ضمن الرجال ، والنساء سواء ، حتى لو كان غير وارث وحضر القسمة فله رزق فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْنُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ [النساء : ٨] .

ثم جاء بالتهديد في أولادهم والمعاملة بالمثل : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِيْنَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ليتمهم من بعدهم ، كهؤلاء الأيتام في أيديهم . ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيْداً﴾ [النساء: ٩] والقول السديد : هو الصواب العدل ، كالسهم المسدد الذي يصيب الهدف ، فيشمل كل معاملات الولي مع اليتيم ، سواء في مخاطبته وتوجيهه وتربيته ، أو في خصوص أمواله من نفقات ومصاريف وإصلاح ، وغير ذلك .

وبالتأمّل في هذا الإنذار نجده عملياً يجسم حالة اليتيم بين عينيّ وليه في شخصية ذرياتهم ، ويطوي له الزمن إلى ما بعد حياته ، تاركاً ذرية ضعافاً ، موضع خوفه وشفقته وعطفه ، يخاف عليهم الضياع والذلّة والمهانة والقهر والدع ، ويشفق عليهم من كسر الخاطر وجرح الشعور ، ويعطف عليهم من الجوع والحرمان ، فهكذا هو اليوم فليعتبر اليتيم عنده بما يجب أن تعتبر أيتامه من بعده . إنَّها صورة تفوق كل الصور تأثيراً وموعظة وتوجيهاً ، وأقوىٰ دافع للإصلاح وفعل كل خير ما وسعه الفعل لهذا اليتيم . كما أنَّها صورة كعمل متبادل ، فهي أمانة مؤدَّاة وكما تدين تدان .

ثم يختتم هذا السياق ، برفع سوط من نار يتطاير شرره، ويتوقد جمره ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيْراً ﴾ [النساء : ١٠]. الله أكبر ، ظلم اليتيم في ماله يحول هذا المال أيّاً كان هو ؛ رطباً أو عنباً ، سمناً أو عسلاً ، يحوله إلى نار متوقدة في بطن

الظالم ، والنص على الأكل ، يلحق به كل إتلاف وتفويت ، قياساً بنفي الفارق المسمَّىٰ عند الأصوليين قيـاس في معنىٰ الأصل ، فكـل من فوت على اليتيم مصلحة ماله بالإتلاف ، كمن أحرقه أو كسره أو أغرقه ، أو أخذ غير المأكول ، كالملبوس ونحوه فأتلفه عليه ، فهو داخل في هذا الوعيد ، ولعلَّ مـجيء التحذير باسم الأكل ، لأنه أَخَصُّ جوانب الانتفاع ، وقد يضطر إليه فيكون غيره من باب أولىٰ ، ولعلَّ من مجموع ما قدَّمناه تتَّضح صورة التعامل مع اليتيم في جميـع جوانبه تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ .

*****

****

قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

السؤال هنا ورد مع الواو ﴿ ويسألونك ﴾ بينما بعض الأسئلة وردت بدونها (يسألونك) . وقد أشرنا إلى الفرق بين الأسلوبين من كلام العلماء ، وقدمنا مقارنة عامة وظهر منها ؛ أنَّ الأسئلة التي تأتي معها الواو هي أسئلة عملية ، وأحق هي بالسؤال من غيرها لشدة حاجتهم إليها ، وقوة ملامستها لحياتهم العملية . ومن هذا سؤالهم عن المحيض الذي هو من جبلة نسائهم . كما قال ﷺ : « هذا أمر كتبه الله على بنات حواء » .

معنىٰ المحيض : والمحيض أصله مَحْيِض على وزن مفعل مصدر ميمي متحركة بالكسرة . ولما كان حرف الياء من حروف العلة ، وهي لا تقبل الحركة أحياناً وما قبلها حرف الحاء وهو صحيح ، نقلت الحركة من حرف العلة إلى الحرف الصحيح قبله فسكنت الياء بعد كسر فقلبت مداً ، فقيل محيض . والمحيض يأتي على ثلاثة معان : مصدر ميمي بمعنىٰ الحيض ، واسم زمان لزمن الحيض مثل موعد على وزن مفعِل ، واسم مكان وهو مكان الحيض مثل مجلس .

وللحيض أسماء متعددة منها : الطمث تقول امرأة طامث يعني

حائض. وقيل الطمث هو الدم ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرَّحمٰن:٥٦] أي لم يدميهنَّ بفضّ البكارة. ومنه الضحك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾ أي حاضت [هود: ٧١].

ومنه النفاس: وعليه قوله ﷺ لعائشة في طريقها إلى مكة في حجة الوداع لما دخل عليها فوجدها تبكي فقال لها: «ما لك؟ لعلَّكِ نفست؟» أي حضتِ قالت: بلىٰ! قال: «لا عليك هذا أمر قد كتبه الله على بنات حواء» وعلمها ما تصنع لحجها، ومنها الإعصار، وعليه قول عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

يعني بالكاعبين فتاتين دون البلوغ تكعبت أثداؤهنَّ، كقوله تعالىٰ: «﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾[النبأ: ٣٣]. ومراده من المعصر من بلغت سن المحيض، فعصر الرحم دم الحيض. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾[النبأ: ١٤] يعني السحب كالإسفنج تنعصر عن المطر.

ومنه العراك. امرأة عارك يعني حائض.

وبعضهم يطلقه على (القرء) في قوله تعالىٰ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] ولكن الصحيح في معنىٰ القرء هو الزمن، ولهذا اختلفوا في المراد من القروء في الآية، فقيل: الحيض، وقيل الطهر. وسيأتي تحقيقه في محله إن شاء الله.

والأصل اللغوي للحيض هو السيلان. يقال سال الوادي، وحاض الوادي، بمعنى سال، وأنشد ابن قدامة في المغني قول عمارة بن عقيل:

أجالت حصاهن الذراري وحيضت عليهنَّ حيضات السيول الطواحم

أمَّا الحيض في الفقه والمترتّبة عليه الأحكام الشرعية فهو:

دم يرخيه الرحم إذا بلغت المرأة، ثم يعتادها في أوقات معلومة،

لحكمة تربية الولد. وقال ابن عباس : هو دم يخرج من قعر الرحم ، وهو دم خاثر .

والدماء التي تراها المرأة ثلاثة : دم حيض ، ودم استحاضة ، ودم نفاس .

أمَّا دم الاستحاضة : فهو الذي لا ينتظم في موعد مجيئه وقد يكون مستمراً مطبقاً . وقد سمَّاه ﷺ عِرْقٌ . أي دم عرق لما سألته فاطمة بنت أبي حبيش، فقال لها: «إنَّما ذلك عرق» أي دم يخرج من عرق، وليس من الرحم. وهو في حكم النزيف العادي وله أحكامه .

وأمَّا دم النفاس : فهو الذي يخرج عقب الولادة .

وقد فرق الشرع بين الدماء الثلاثة في نوعيتها وفي أحكامها .

أمَّا دم النفاس ؛ فلا يلتبس بغيره في أغلب الأحوال ، لأنَّ سببه ظاهر وهو الولادة . إلَّا إذا زاد عن مدته المعهودة ، فتكون الزيادة مترددة بين كونها حيضاً أو استحاضة . وذلك أن تنتظر المرأة بعد مضيّ أكثر مدة النفاس أربعين يوماً مثلاً ، وبقي الدم موجوداً ، هل تلك الزيادة تصادف موعد حيضتها ؟ فتكون الزيادة حيضاً . أو لا تصادف موعدها فتكون استحاضة .

أمَّا الفرق بين دم الحيض والاستحاضة ، فبينهما فرق من جهتين : جهة شرعية ، وجهة طبية .

أمَّا الجهة الشرعية : ففي الحديث الصحيح . قوله ﷺ للمرأة المستحاضة : « دم الحيض دم أسود يعرف » ـ بضمِّ الياء ـ من المعرفة . أي تعرفه المرأة بلونه ، وهو شدة حمرته حتى يميل إلى السواد . أو بفتح الياء من العَرْف ؛ وهو الرائحة طيبة كانت أو كريهة . وعلى الأول قوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [القتال : ٦] أي طيَّبها بالرائحة الزكية على أحد التفسيرين ، فيكون ﷺ جعل علامة دم الحيض أحد أمرين إمَّا اللون ، وإمَّا الرائحة . بخلاف دم الاستحاضة فهو أحمر صافٍ

خال من الرائحة كأيّ دم يخرج من أي جرح . فلا توجد فيه رائحة إلَّا إذا كان في طريقه روائح بسبب آخر فإنَّها تعلَق به .

أمَّا الجهة الطبية : فإنَّ الفرق بينهما ما يسمَّىٰ بالتجلّط أي التجمد بأن يصبح ثخيناً متماسكاً ، أي دم الحيض لا يتجلَّط ولا يتجمَّد ، لأنه قد تجلَّط في الرحم قبل أن ينزل ، بخلاف دم الاستحاضة فإنَّه نازل من العروق مباشرة ، فهو قابل للتجلّط . ويختلف التجلّط في دم دون آخر بسبب قوة عنصر التجلّط أو ضعفه (جلوموبين) .

هذه الفوارق بين الدماء الثلاثة التي تراها المرأة . وقد عرفنا سبب اثنين منها ؛ هما الاستحاضة . فإنَّه دم عرق أي نزيف . ودم الولادة وهو بسبب الولد . بقي علينا ـ ونحن في عهد تطور العلوم الإنسانية ـ أن نعرف تفصيلاً عن سبب دم الحيض وموجبه . حيث اكتفىٰ العلماء بالتنبيه على أنه دم يرخيه الرحم ، وأنه يخرج من قعر الرحم . وهذا هو الأصل من حيث مصدره . وملخص دورة الحيض للمرأة ؛ هو أنَّ للرحم دورتين : دورة حيض . ودورة ولادة . والدورة الأساسية له هي دورة الولادة ، لأنه الغرض الأول من مهمته : « تزوجوا الولود الودود » . ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾[الأنفال: ٧٥] وصلة الأرحام تكون عن طريق الأولاد والتزاوج .

أمَّا دورة الحيض : فهي الدورة التحضيرية لدورة الولادة ، والمهيّئة المكان الصالح للحمل والولادة . وذلك للآتي :

اقتضت حكمة الله تعالىٰ في تكوين الزوجين الذكر والأنثىٰ لمشابهة في الخلقة للإنجاب ،فجعل للمرأة (المبيض) ، وجعل مقابلها للرجل الخصيتين ، ومن مجموع ما يخرج منهما يكون التلقيح بالحمل .

والمبيضان على جانبي الرحم يفرز كل مبيض بويضة شهراً بعد شهر . أي يعمل شهراً ويستريح شهراً ، والشهر الذي يستريح فيه هذا يعمل فيه

المبيض الآخر . إنَّها حكمة الله الباري سبحانه . فإذا خرجت البويضة فإن أمام كل مبيض فتحة قناة الرحم في شكل فم المحقن . ولها أهداب فتلتقط البويضة وتدفعها إلى الرحم ، وهناك تنتظر وصول الحوين المنوي من الرجل . فإذا أراد الله حملاً نفذ من عنق الرحم ومنه إلى البويضة ، فتتلقاه وتتلقح به ويأخذ الرحم دورته الأساسية بالحمل والولادة أو ما شاء الله له .

أمَّا إذا لم يرد الله حملاً ولم تتلقح البويضة ، فإنَّها تنتظر مدة مقدرة لها ثم تفقد صلاحيتها للتلقيح فيطردها الرحم .

ما يترتب على هذا الطرد :

وما يترتَّب على هذا الطرد فهو الحيض وذلك أنَّ المولى سبحانه يهيِّىء الرحم لاستقبال هذه البويضة ، ما يناسب وجودها الحيوي ، كما تُهيّأ الغرفة للعروس . فيبطن الرحم بمواد لينة رخوة ناعمة ، ينمو عليها العروس الجديد . وعليه فالرحم مهيّأ لاستقبال الحمل ، فإذا لم يحصل الحمل وفسدت البويضة ، فسد أيضاً معها كل هذه الاستعدادات ، فيفرز الجسم مادة تتسلَّط على هذا الغشاء الذي تبطن به الرحم لاستقبال الحمل ، فتجلطه وتذيبه فيدفعه الرحم إلى الخارج مع البويضة . ولا يزال يتقلَّص الرحم ويدفع ما بداخله حتى يتخلص منه نهائياً .

ثم يبدأ في التهيّؤ من جديد ، وتأتي القصة البيضاء علامة على بداية هذا التهيّؤ ، حتى يتم تبطين الرحم واستكمال استعداده فتأتيه بويضة جديدة تنتظر التلقيح . وهكذا دواليك .

لقد أطلنا هنا الحديث عن سبب دورة الحيض ، وكان محلها مبحث طبي لأحد الأطباء المختصين ، ولكن لما كان هذا الكتاب من أهدافه استخلاص العبرة والموعظة، فأيّ عبرة وموعظة أكبر من معرفة حكمة الخالق سبحانه ، ومعرفة كيف جئنا إلى هذه الدنيا ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز في المرأة في صمت واستمرار فوق الخمس والعشرين سنة ؟ وآيات القدرة

تتجلَّى هناك . واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُّم مِنْ مَّاءٍ مَهِيْنٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِيْ قَرَارٍ مَكِيْنٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٢٠ - ٢٣] وذاك الماء المهين هو الأمشاج من نطفة الرجل وبويضة المرأة اختلطا بالتلقيح .

ثم تأتي الدورة الثانية والمرحلة الأخرىٰ لاستكمال المولود . وهناك الآيات الباهرات ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِيْ رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِيْ الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : ٥] .

هذا التطور بزيادة أو نقص بعلمه وقدرته سبحانه . واقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيْضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨]

وهناك التصوير والتخطيط الذي أعجز العقلاء . واقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِيْ الأَرْضِ وَلَا فِيْ السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِيْ يُصَوِّرُكُمْ فِيْ الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ ﴾ [آل عمران : ٥ - ٦] .

إنَّها آيات باهرات دالَّة دلالة قاطعة على قدرته سبحانه . وقد رأينا علاقة كل ذلك بالحيض وهو الدورة الأولىٰ المهيئة لذلك كله . ولهذا أطلنا البحث في سببه أي من الناحية التكوينية .

علاقة الحيض بالتشريع

يتعلَّق بالحيض أحكام تشريعية عديدة هي :

١ - علامة بلوغ الفتاة ، فيلزمها أحكام المكلّفين . وعليه قوله ﷺ : « لا يقبل الله صلاة حائض إلَّا بدرع وخمار سابغين » ويعني بالحائض من بلغت سن الحيض . لأنَّ الحائض وقت الحيض لا صلاة عليها .

وأقل سن الحيض تسع سنوات لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ : إذا بلغت الفتاة تسع سنوات فهي امرأة . ونقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : أعجل ما سمعت من النساء تحيض نساء تهامة يحضن لتسع .

وقد حدَّثني شخص أنَّ ابنته صارت جدة في الثانية والعشرين من عمرها . تزوجت بنت عشر فحملت ووضعت بنت إحدىٰ عشرة سنة . وبعد عشر سنين تزوجت ابنتها فكانت هي جدة في الواحدة والعشرين من عمرها .

وقد يتأخَّر بسبب أو بدون سبب إلى السبعة عشر أو الثامنة عشر أو غير ذلك .

٢ ـ سقوط فرض الصلاة عنها ، وعدم صحة الصوم منها ، والاعتكاف . لحديث : « دعي الصلاة أيام أقرائك » وحديث : « أليست المرأة إذا حاضت لم تصل ولم تصم » . وكذلك الاعتكاف سواء في المسجد أو في بيتها لأنه عبادة .

وتقضي الصوم دون الصلاة، لحديث عائشة: سألتها امرأة ما بال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت لها: أحرورية أنت؟ أي تحكمين العقل في شرع الله ـ فقالت : لا ، وإنَّما أسأل . فقالت لها : هكذا كنَّا على عهد رسول الله ﷺ نقضي الصوم ولا نقضي الصلاة ، وعلَّل العلماء ذلك بأنَّ الصوم مرة واحدة في السنة ، وغالب مدة الحيض ستة أو سبعة أيام ، فلا مشقَّة في قضائها .

أمَّا الصلاة ففي كل شهر بدلاً من كل سنة ، وفي كل يوم خمس صلوات ، ومجموعها ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين صلاة وفي قضاء هذا مشقَّة عليها .

٣ ـ منعها من الطواف لقوله ﷺ لعائشة لما حاضت ولأسماء لما نفست في ذي الحليفة : أن تصنع كل ما يصنعه الحاج غير أن لا تطوف بالبيت

حتى تطهر . وعند الإمام أبي حنيفة قول بطوافها عند الضرورة وعليها بدنة وهو مبحث مطوّل .

٤ ـ المكث في المسجد لحديث : « إنّي لا أحلُّ المسجد لحائض ولا جُنُب » أمَّا المرور لحاجة أو الدخول لضرورة فلا مانع لحديث عائشة : «ناولني الخمرة من المسجد » . فقلت : إنّي حائض . فقال ﷺ : « حيضتك ليست في يدك » . وفي رواية قال لها من المسجد : « ناوليني . . . » إلخ فيكون لا دليل فيه لأنه ﷺ هو الذي كان في المسجد وطلب منها وهي في بيتها .

واتَّفقوا أنَّ المرأة أو الرجل في حالة الحيض ، أو الجنابة إذا لم يوجد ماء إلاَّ في المسجد لهما الدخول لأخذ الماء للغسل . وقيل بالتيمم قبل الدخول .

وكذلك في حالة الهروب من عدو ولا طريق إلاَّ من المسجد أو لا ملجأ إلاَّ المسجد أن ذلك مستثنىٰ من المنع .

٥ ـ تلاوة القرآن : كما جاء عن علي ـ رضي الله عنه ـ ، كان ﷺ يقرئنا القرآن على جميع أحواله إلاَّ إذا كان جنباً فلا ولا حرفاً[1] . وقالوا الحيض أشد حدثاً من الجنابة . واستثنىٰ مالك ـ رحمه الله ـ التي تحفظ القرآن ولها ورد منه كل يوم وتخاف نسيانه بترك القراءة فلها أن تقرأ وردها فقط .

٦ ـ حمل المصحف مباشرة : لأثر عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال لجارية له : ناوليني المصحف . فقالت : إنّي حائض . فقال : ناوليني من علاقته . أي إنَّ المصحف في كيس له علاقة يعلّقه منها في الجدار ونحوه فتأخذ بالعلاقة ولا تباشر المصحف بيدها .

---

(١) ولحديث لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن « المغني » (١ / ٣٠٧) .

وكذلك الرجل الجنب والمرأة الحائض ، إذا كان المصحف في عفش ويحمل العفش ، فإنَّه لم يباشر المصحف وإنَّما هو ضمن العفش المحمول .

٧ ـ منع الوطء باتفاق : وهو المجمع عليه في هذا الجواب لهذا السؤال ؛ ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

٨ ـ كون الطلاق أثناءه بدعة ، والمنع منه . ومشروعية المراجعة إن وقع الطلاق أثناء وجوده ما لم تكن الطلقة النهائية . لحديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه طلق امرأته وهي حائض ، فأخبر عمر رسول الله ﷺ فقال له : « مره فليراجعها حتى تطهر فإن شاء أمسكها وإن شاء طلقها في طهر لم يمسها فيه » .

ومذهب الجمهور عند الأئمَّة الأربعة أن الطلاق في حالة الحيض محسوب من الثلاث . كما سئل أحمد عن ذلك فقال : إنَّ المراجعة لا تكون إلَّا من وقوع طلاق .

وسئل ابن عمر نفسه . هل حسبت عليك تطليقه ؟ فقال : مه أرأيت لو ركبت الأحموقة .

وهذا من حكمة التشريع ، لأنَّ الموقف غير ملائم للطلاق من جهتين : جهة المرأة ، وجهة الرجل .

أمَّا جهة المرأة : فإنَّها في حالة نفسية وعصبية بطبيعة تأثير الحيض عليها ، قد تتصرف بما يسيىء الزوج بدون قصد منها ، وقد تعجز عن بعض التصرّفات والواجبات التي تعودها الزوج منها في غير حالة الحيض ، فتوجد شبه عزلة وليست مناسبة لاسترضاء كل من الزوجين للآخر ، فتنعدم وسائل الإصلاح والترضية مثلاً . أمَّا حالة الطهر وعدم المساس فيه مع انتفاء المانع فهو دليل على قوة موجب الطلاق . مع ما ينضاف إلى ذلك من دخولها في العدة مباشرة إذا كان طلاقها في الطهر . وهذه مباحث مفصلة أوسع في باب الطلاق .

٩ ـ الحيض علامة الخروج من العدة لذوات الأقراء . لقوله تعالىٰ : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] . وسواء كان القرء هو الحيض ، كما اعتبره مالك ومن وافقه ، أو هو الطهر كما اعتبره أحمد ومن وافقه ، فإنَّ القرء هو الطهر بين حيضتين فلا يعرف إلّا بالحيض .

١٠ ـ كما أنه بالتالي علامة على عدم وجود الحمل غالباً .

١١ ـ عدم صحة طهارة الحائض ، ولو اغتسلت لحديث عائشة كان النسوة يتعجّلن الطهر ويبعثن بالصفرة في الكرسف فقالت: لا حتىٰ ترىٰ القصة البيضاء .

١٢ ـ وجوب الغسل بعد الطهر . على الزوجة المسلمة بالإجماع، والكتابية على خلاف . وجوب الغسل من حديث المستحاضة « دعي الصلاة أيام أقرائك ثم اغتسلي وصلّي » . والآية في الجواب حتى يطهرن أي من الدم فإذا تطهرن أي بالاغتسال .

ولعلَّ من هذا كله ظهر لنا مدىٰ ارتباط الحيض بحياة الإنسان المسلم وتعلّق العديد من الأحكام عليه فكان حقيقاً بالسؤال عنه ، وبالجواب المرشد والمعلم لهم .

وبالعودة إلى السؤال والجواب مرة أخرىٰ ، وما قدمنا من أنَّ وزن مَفْعِل يصلح أن يكون مصدراً ميمياً بمعنىٰ الحيض ، وقد أنشد له الطبري في تفسيره قول رؤبة في معنىٰ العيش على معيش .

إليك أشكو شدة المعيش ومرّ أعوام نتفن ريشي

ويصلح لفظ المحيض أن يكون اسم الزمان أو اسم المكان ، أي زمان الحيض ومكانه من الحائض ، واحتمال السؤال أن يتوجه لأي واحد من هذه الثلاثة . فهل هو عن الحيض وكيف يأتي ؟ أو هو عن زمانه وكيف

يعاملون المرأة أثناء حيضتها ؟ أو عن مكان الحيض ، وبماذا يحل لهم من الحائض أثناء حيضتها ؟ فكل ذلك محتمل وصالح لتوجه السؤال إليه . لمجيء السؤال بلفظ (المحيض) بدلاً من الأسماء الأخرىٰ من الطمث ، والحيض بأصل المادة . وهذا من إعجاز القرآن ، حيث جاء باللفظ الصالح لجميع المعاني التي تتعلَّق بأحكام الحيض من كل جانب وعلى عموم الاحتمالات .

وبالرجوع إلى سبب السؤال ، وإلى موقع الآية ممَّا قبلها وبعدها في نسق المصحف ، سيتَّضح لنا المراد من السؤال بمعرفة سببه ، وتظهر لنا العبرة البالغة والموعظة الحكيمة من موقعها في السياق .

أمَّا سبب السؤال : فله مسبقات يهودية قديمة ، يبيِّنها ما رواه ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد وغيره ، أنَّ الأصل عند اليهود ما جاء عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ اليهود كانت إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ، ولم يشاربوها ، ولم يساكنوها حتى تطهر . فسأل أصحاب النَّبيّ ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية .

ويزيد ذلك إيضاحاً ابن جرير حيث قال : وكان العرب بالمدينة في الجاهلية يرون لليهود فضل علم عليهم ، لكونهم أهل كتاب فكانوا يقلّدونهم ، ويرون ذلك حسناً .

وقال القرطبي : قال قتادة : إنَّ العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنّوا بسنَّة بني إسرائيل في تجنّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها . فنزلت هذه الآية ، أي بعد سؤالهم لرسول الله ﷺ .

وفي صحيح مسلم عن أنس ؛ وذكر معاملة اليهود للحائض ، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ . فنزلت الآية ، فقال ﷺ : « اصنعوا كل شيء إلَّا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن لا يدع من أمرنا شيئاً إلَّا خالفنا فيه . . . إلخ .

وقال القرطبي : قال علماؤنا : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض . وكانت النصارىٰ يجامعون الحُيَّضَ ، فأمر الله بالقصد بين هذين . يعني التوسّط بين إفراط اليهود ، في اعتبارهم الحائض نجسة لا تعاشر ولا تُساكن ، وتفريط النصارىٰ باعتبارها حلالاً مع الأذىٰ . وكان التوسط هو معاشرتها ومساكنتها ومخالطتها في كل شيء إلَّا النكاح أي مكان الأذىٰ . ولعلَّ من سبب السؤال ، وورود الجواب ، يتبيَّن أنَّ سؤالهم كان عن حكم الحائض عموماً ، وجاءهم السؤال مفصلاً . فيكون المعنىٰ : ويسألونك عن أحكام المحيض بمعنىٰ الحيض وما يسببه ويوجبه من أحكام ، والجواب قل هو أذىٰ . أي المحيض فاعتزلوا النساء في المحيض . والمحيض الثانية تكون لمكان الاعتزال ، وهو النكاح على ما سيأتي بيان السنة له ، وتقدم بعضه .

أمَّا الأذىٰ الذي هو علَّة الحكم ، فلم تبينه الآية ، ولا على من منهما ؛ الرجل أو المرأة ، أم هما معاً .

وفسَّر العلماء الأذىٰ ؛ بأنه المستكره من كل قبيح . وقال ابن جرير: الأذىٰ في ريحه وقذره ونجاسته ، أي في صفات دم الحيض المتقدم بيانها .

وعليه يكون الأذىٰ عائداً على الرجل فقط . ولا ينتقض بالاستحاضة ، لأنَّ دم الحيض دم فاسد كما تقدَّم .

ولكن يظهر أنَّ الأذىٰ عائد عليهما معاً بالنسبة للوجهة الصحية والنفسية . أمَّا من جانب الرجل ؛ فزيادة على ما ذكره الفقهاء من مخالطة الرجل لأذىٰ الدم ريحه وقذره ونجسه ، فإنَّه بمباشرته المرأة وهي حائض لن تتجاوب معه التجاوب الذي يعهده منها حال الطهر ، وسيكون المجهود من جانب واحد ، جانبه هو . فيرجع ذلك عليه بأثر نفسي يؤثِّر على أعصابه ، أشبه بمن يلقي ماءه خارج محله الطبيعي المخلوق له ، فضلاً عمَّا قد يلحقه من مضرَّة صحية ممَّا يتكاثر في دم الحيض من جراثيم مضرَّة ، قد تنفذ إلى

داخل جسمه فتفتك بكل ما وصلت إليه .

أمَّا من جانب المرأة ؛ فإنَّها بوجـود الحيض يختلف وضع جسمهـا في كل إحساسه من استرخاء واضطراب ، تجاوباً مع الرحم فيما يؤدِّيه . فتكـون مشاركتها مع الرجـل على أشد مـا تكون كـراهية لهـا . وبالتـالي فسيكون ردّ الفعـل عليها نفسيـاً وجسمانيـاً أشدّ مـا يكون على الـرجل . وقـد يسبِّب لها كراهية هذه المشاركة فيما بعد .

وبعض النساء إذا جاءها ماء الرجل وهي حـائض ، يتوقف دم الحيض عندها . فيكون احتباسه أشد الأذىٰ عليها . وصدق الله العـظيم : ﴿ قُلْ هُـوَ أَذًىٰ ﴾ أي عاماً عليهما معاً .

﴿ فَـاعْتَزِلُـوا النِّسَاءَ فِيْ الْمَحِيْضِ ﴾ تقـدم أنَّ الفـاء سببيـة تبيَّن أنَّ علة الاعتزال هو الأذىٰ ، الذي يلحقهما . وهذا من حكمة التشريع التي لو تتبعها البـاحث لـوجـد كـل حكم وراءه حكمـة ؛ كتحـريم نكـاح المشـركين والمشركات ، بأنهم يدعون إلى النار ، وبتحريم الميتة والـدم ولحم الخنزيـر بأنه رجس ، وبتحريم الخمر والميسر بأنَّ فيهما إثماً كبيراً .

وهكذا في حكمة الله سبحانه ، ما نهانا عن أمر إلَّا لما فيه دفـع الأذىٰ عنـا وجلب المصلحـة لنـا . ومن ذلـك هـذا الحكم بـالنسبـة للمـرأة وهي حائض .

﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾[البقرة : ٢٢٢] .

الاعتزال : مجانبة ما كان يعتاده . والأمر بالاعتزال موجَّه للرجال ، في عمـوم النساء ، ولكنـه مختصّ بنساء معينـات وهنَّ الزوجـات والإماء ، وهنَّ أيضاً مقيّدات بقيـد (المحيض) وتقدَّم أنَّ المحيض صـالح للحيض وزمـانه ومكانه . فهـو هنا دائـر بين زمانـه ، أي مدة الحيض ، وهـذا يقتضي اعتزال النسـاء مدة وجـود الحيضة ، وعليـه نكون قـد ضاهينـا اليهود ، بينمـا أُمـرنـا

بمخالفتهم ، فلا يكون مراداً . بقي مكان الحيض وهو محل الأذىٰ الذي هو علَّة الاعتزال . ويكون المراد بالاعتزال أي عن الوطء . وهذا ما جاءت به السنة في قوله ﷺ : « اصنعوا كل شيء إلاَّ النكاح » يعني الوطء . ويؤيِّد هذا استصحاب الأصل ، وهو أنَّ الزوجة قبل الحيض ليس بها أذىٰ ، وليست محل اعتزال بل العكس ، إذا اعتزلها كان مقصراً في حقها .

وهنا يأتي سؤال الفقهاء وهو قولهم : ما يحلُّ للرجل من امرأته وهي حائض؟ والإجابة هي كل شيء كان حلالاً قبل الحيض كالآتي :

معاشرتها في الفراش : فعن أم سلمة ـ عند البخاري ـ قالت : بينا أنا مع النَّبيّ ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت ، فانسللت فأخذت ثياب حيضتي . قال : « أنفست ؟ » قلت : نعم ! فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة .

وفي موطأ مالك ـ رحمه الله ـ أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت مضطجعة مع رسول الله ﷺ في ثوب واحد وأنها قد وثبت وثبة شديدة . فقال لها رسول الله ﷺ : « ما لك ؟ لعلَّك نفست ؟ » يعني الحيضة . فقالت : نعم . قال : « شدِّي على نفسك إزارك ، ثم عودي إلى مضجعك » .

فهذه سنة ثابتة بمضاجعة الحائض في فراش واحد ، مع الندب إلى اتخاذ ثوب خاص لحيضتها ، كما فعلت أم سلمة رضي الله عنها . وهذا يعطينا معنىٰ أدبياً بين الزوجين. كي تشعر الزوجة زوجها بحالتها ، حتى لا يحرجها معه ، ولا تُحرج هي نفسها . فإذا رآها بثوب حيضتها لم تراوده نفسه على شيء منها ، فيوطن نفسه على واقع حالتها . وليس معنىٰ هذا أن تكون الزوجة حال حيضتها مهملة نفسها غير مبالية بمظهرها ، فإنَّ الرجل دائماً يحب أن يرىٰ زوجته على أحسن حال ، ولأن له الحق أن يستمتع منها بغير الوطء من مباشرتها في غير المحل المعهود ، وبيانه كالآتي :

عن أم المؤمنين عائشةسئلت: ما يحلُّ للرجل من امرأته ؟ وعمَّا كان يعاملها ﷺ في ذلك . ففي صحيح البخاري عنها قالت : كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تأتزر في مور حيضتها ، ثم يباشرها . قالت : وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه ؟! وكانت ـ رضي الله عنها ـ إذا سئلت قالت : كل شيء إلَّا الفرج . كما رواه القرطبي عنها .

وعند أبي داود عن عكرمة أنَّ النَّبيّ ﷺ ، كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقىٰ على فرجها ثوباً . ولكن كيف يكون هذا الثوب وإلى أين ؟ جاء عند أبي داود والنسائي ، عن ميمونة ـ رضي الله عنها ـ كان رسول الله ﷺ يباشر المرأة من نسائه وهي حائض إذا كان عليها إزار إلى أنصاف الفخذين والركبتين محتجرة . فهذا الحد الأدنىٰ ، بالنسبة لأحد الطرفين . أمَّا الطرف الثاني ـ وهو الأعلىٰ منهما ـ فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في رواياتها أنها تأتزر بإزار واسع ، ثم يلتزم صدرها وثدييها .

كل ذلك إذا كان كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه يملك إربه وإلَّا فإن كان يخاف على نفسه فالاعتزال أولىٰ ، سداً للذريعة . يؤيِّد ذلك ما جاء عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال : يا رسول الله ! ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : « ما فوق الإزار والتعفُّف عن ذلك أفضل » . علماً بأنه ﷺ ، كان يجتنب كل ذلك في سَوْرَةِ الدم ثلاثاً .

نأخذ من هذا أنَّ الأصل إباحة الاستمتاع بالحائض بغير الوطء ، إلَّا أنه إذا خيف الوقوع فيما هو ممنوع ، فيمتنع من المباح مخافة انتهاك ما ليس بمباح . وهذا مراعاة لحالة كل إنسان على حدة ، كما جاء في شأن القبلة للصائم . حيث أرخص ﷺ للشيخ ولم يرخص للشاب ، مراعاة لحالة الشيخ بامتلاك نفسه ، وضعف الدافع عنده بخلاف الشاب .

ومعلوم أنَّ كل أمر ممنوع ومحتمل ارتكابه يجعل له عقاب يزجر عن

فعله ، فما حكم من خالف هذا الأمر بالاعتزال ، وواقع أهله في حالة الحيض ؟

جاءت السنة مقررة عقوبة لذلك وهي : ما جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عنه ﷺ : « إذا وقع رجل بأهله وهي حائض فليتصدَّق بدينار أو بنصف دينار » وقد بيَّنها في الرواية الأخرىٰ بأنه إذا كان أول الدم والدم أحمر فدينار ، وإن كان في انقطاع الدم والدم أصفر فنصف دينار . رواه الترمذي . وهذا مع التوبة والاستغفار .

ولا يحل له ذلك حتى تغتسل ، ولو انقطع الدم حتى تتطهَّر كما سيأتي .

معاملتها والمعيشة معها

سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أكان رسول الله ﷺ يأكل معك وأنت حائض ؟ فقالت : كنت آخذ العظم عليه اللحم فآكله ثم أناوله رسول الله ﷺ فيعرشه ، وكنت آخذ القدح أشرب ، وأناوله ﷺ فيضع فاه موضع فمي فيشرب . فكبر السائل ، وقال : الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة .

وجاء عنها ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : إنَّه ﷺ أوجعه البرد فقال لها : « ادنى مني » فقلت : إنِّي حائض ، فقال : « وأن اكشفي عن فخذيك » فكشفت فخذي فوضع خده وصدره على فخذي ، وحنيت عليه حتى دفىء فنام . رواه أبو داود .

وعنها وقد سألها شريح بن هانىء هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طَمِث ؟ . قالت : نعم ، كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك إلى آخر الحديث .

وأبعد من هذا كله : ما جاء عن أم المؤمنين عائشة ، وميمونة ـ رضي

الله عنهما ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري وأنا حائض . ورواية ميمونة : كان رسول الله ﷺ يضع رأسه في حجر إحدانا فيقرأ القرآن ، وهي حائض . وتقوم إحدانا بخمرته إلى المسجد فتبسطها وهي حائض . رواه النسائي .

وقد أوضحت هذا المعنىٰ عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قولها : بينما النَّبيّ ﷺ في المسجد قال : « يا عائشة ناوليني الثوب » فقالت : إنِّي لا أصلي فقال : « ليس في يدك » . فناولته . فهذا يفيد أنَّ الحائض تناول الثوب وغيره وهي حائض . لأنَّ حيضتها ليست في يدها فلا تأثر على ما تناوله لغيرها . وفي رواية أخرىٰ . قال لي : « ناوليني الخمرة من المسجد » . قالت : إنِّي حائض . قال : « إنَّ حيضتك ليست في يدك » . واستدلُّوا منها على دخول الحائض المسجد للحاجة مع التحفّظ من تقاطر الدم .

وفي موطأ مالك وغيره كان رسول الله ﷺ يدني إليها رأسه وهو معتكف فترجله ، ورواية عنها كنت أغسل رأس النَّبيّ ﷺ وأنا حائض . ورواية أرجّل رأسه ﷺ . أي ترجل شعره : تمشطه بعد أن تغسله .

بهذا تبيَّن لنا مدىٰ سماحة الإسلام ، وإلى أي حد كرَّم المرأة حتى وهي في حالتها غير العادية . وفي الوقت الذي تكاد تعزل هي نفسها لما تشعر من أذىٰ يبيح لنا الشرع الحكيم تلك المعاملة معها ، وكأنَّ شيئاً لم يكن إلَّا ما هو فطري ، وهو تجنّب الأذىٰ حتى تطهر ثم تتطهَّر .

طهرها وتطهّرها

قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

جعل الله تعالىٰ مدة الاعتزال وعدم اقترابهنَّ ، الاقتراب الخاص

بالزوجة حتى يطهرن ، ثم جعل غاية أخرىٰ بحرف إذا مرتباً بالفتاء وهي تطهرها .

فهنا طهر وتطهَّر ، وجمهور العلماء على أنَّ طهرهنَّ ؛ هو انقطاع الدم عنهنَّ . وأنَّ طهرهنَّ ليس من عملهنَّ ، بل هو ممَّا يخلق الله في أرحامهنَّ . ثم يكون بعده تطهرها . وهذا التفعّل منها هي ، وهو الاغتسال بالماء كغسل الجنابة .

وهذا المعنىٰ يعطيه ويساعد عليه فقه اللغة ، حيث أنَّ زيادة المبنىٰ تدل على زيادة المعنىٰ . والطهر أمر سلبي وهو انقطاع الدم ، بخلاف التطهّر أمر إيجابي ، وحركة تشمل الجسم كله مع استعمال الماء ، وتدليك الجلد ، ونقض الشعر ، وغسل محل الأذىٰ ، وغير ذلك على ما سيأتي بيانه .

ويلاحظ هنا أنَّه سبحانه قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ ومفهوم الغاية أنَّ النهي عن اقترابهنَّ أنه إلى ما بعد طهرن فقط، أو لو لم يغتسلن. ولكن جاء بعدها بقوله : ﴿ فإذا تطهَّرنَ ﴾ وإذا حرف شرط لما يستقبل ، وفعل الشرط تطهرن ، وجوابه فأتوهنَّ الذي كان منهياً عنه قبل الطهر . إذاً لا يحلُّ إتيانهنَّ بمجرد طهرهنَّ الذي تفيده (حتى) وإنَّما يحل بعد تطهُّرهنَّ الذي نصت عليه جملة الشرط وجزاؤه .

وهنا تتجلَّىٰ مثالية الإسلام وإعجاز القرآن ، في الجمع بين الطهر والتطهُّر مع ما فيه من الجناس البديع فإن فيه الإيماء إلى الحكمة البالغة ، والرد على البدء ، لينبه على العلَّة في المنع والموجب للإباحة ، وذلك أنه في المنع قال: ﴿هُوَ أَذًىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِيْ الْمَحِيْضِ﴾ فالمحيض أذىٰ، والأذىٰ سبب الاعتزال ، وهذا سبب يقنع به كل ذي عقلٍ وحسٍّ وذوق ، لأنَّ الأذىٰ بنفسه داعٍ للاعتزال .

ولمَّا زال الأذىٰ بطهرهنَّ ، ثم هنَّ تطهَّرنَ من آثار ذاك الأذىٰ أصبحن

قابلات للإتيان فكان موجباً للإباحة ، بل وفيه ما يشبه الإغراء بإتيـانهنَّ ، لأنَّ تَطَهُّرَهُنَّ يجعلهنَّ في أحسن حـالاتهنَّ نظافـة ، وعنايـة ، وإغراءً بـأنفسهنَّ ، ولعلَّه السرّ في الإتيان بكلمة (تطهَّرهن) بدلاً من (اغتسلن) لأنَّ الغسـل لا يؤدِّي هـذا المعنىٰ ، بل التعقيب بـالفاء في الأمـر بإتيـانهنَّ (فأتـوهنَّ) يفيد أنَّهنَّ بعـد التطهّـر مباشـرة أنسب من أيّ وقت آخر ، ولا شـك أنَّ المرأة في أول طهرها أنسب هي منها في آخره .

وبقي متى تـطهر ، وبـأيّ شيء يُعلم طهرهـا . تـطهـر بـانقـطاع الـدم عنها ، وذهاب أثره من صفرة أو كدرة ، حين ترىٰ القصة البيضاء التي أشـرنا إليها في أول الحديث ، عن دورة الرحم من أنَّ هذه القصة البيضاء هي التي تبـطن الرحم ، لاستقبـال البويضـة الجـديـدة . وقـد جـاءت بـذلـك السنَّـة المطهَّرة . فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النساء كنَّ يبعثن إليهـا بالـدرجة فيها الكرسف ، أي قطعة القماش فيها القـطن فيه الصفـرة من دم الحيض ، يسـألنها عن الصـلاة . فتقول لهنَّ : لا تعجلن حتى تـرينَ القصة البيضـاء . تريد بذلك الطهر من الحيض . وهذا طبق ما ثبت طبياً . فإذا رأت ذلك فقد طهـرت ، فعليها أن تتـطهّـر بـالمـاء على مـا سيـأتي من بيـان كيفيـة تـطهُّـر الحائض ، إن شاء الله .

متى تطهر الحائض

تقدَّم في أول الحديث عن المحيض أنَّ دماء النساء ثلاثة :

دم حيض ، أو نفـاس ، أو استحاضـة . وتقدَّم بيـان كل قسم والفـرق بينها ، من جهتي الشرع والطب والأحكام المترتبة عليها .

والحديث هنا عن : متىٰ تعتبر المرأة طاهراً ، وترفع عنها المحظورات التي تـرتبت عليها بسبب تلك الـدماء ، فيبـاح لها مـا كان محـظوراً عليهـا ، وتعود إليها حقوقها ، وتلزمها واجباتها ؟ .

وقد دوِّن كل ذلك في دواوين الفقه ، بأساليب علمية بأدقّ وأوسع ما يكون . ونودّ أن نبسط هذا المبحث لعلّه يسهل استيعابه وتتيسَّر فائدته ، إن شاء الله .

أولاً - بالنسبة إلى الحيض : وقد تقدَّم أنه الدم المعتاد الذي تراه المرأة بعد البلوغ . فإذا كانت المرأة تعتبر حائضاً بوجود هذا الدم ، فإنَّها بالتالي تعتبر طاهراً بانقطاعه . ولكن مدة وكيفية وجوده وانقطاعه عند النساء تختلف من امرأة لأخرىٰ ، بل وأحياناً قد تختلف مع المرأة الواحدة من دورة إلى دورة ؛ فيختلف زمناً ، وقدراً ، ووقتاً ، فقد يتقدَّم مجيئه أو يتأخَّر ، وقد يكثر مقداره أو يقلّ ، وقد تطول مدَّته أو تقصر . وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيْضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار ﴾ [الرعد : ٨] . وممَّا تغيض الأرحام وتزداد ما يكون من الدماء أو الأولاد . وقد يكون تغيّر تلك الحالات بأسباب معلومة كرضاع أو مرض أو تعاطي دواء بخصوصه كالمنتشرة في الأسواق ، أو لغير سبب معلوم ، ولم يأت تحديد من الشرع لكل حالة ، وجاء عموم قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فقال مالك - رحمه الله - : إنَّ ممَّا خلق الله في أرحامهنَّ الولد والدماء ، وقد وكل الله أمرهما للنساء . فلا يحلُّ لهنَّ أن يكتمن شيئاً منه ، فلا تكتم حملاً ، ولا تدعيه . ولا تخفي حيضاً ولا تدعي طهراً ، إلَّا بمقتضىٰ الحقيقة والواقع . إلَّا أنه لترتّب الأحكام على ما يخلق الله في الأرحام وجوداً وعدماً ، ولم يأت من الشارع تحديد ذلك ، وكان لا بد لهذه الأحكام من قواعد منضبطة ، أو قريبة من الانضباط ، اجتهد العلماء في وضع تلك القواعد ، مأخوذة من استقراء حالات النساء في غالب حالاتهنَّ . فوضعوا مقاييس لهذه الأنواع الثلاثة ورتّبوا عليها الأحكام المتعلّقة عليها وجوداً وعدماً .

بالنسبة إلى الحيض : فقد جعلوا له مقياساً ، أي زمناً لأقلّه وأكثره .

فما كان أقلّ من أقله ، أو أكثر من أكثره ، فليس بحيض ، وإنَّما هو استحاضة . وسواء اتفقوا أو اختلفوا في ذلك ، فإنَّها قضية اجتهادية ، إلاَّ أنهم متقاربون في الجملة .

أقلّ الحيض وأكثره

أقله عند الشافعي وأحمد ـ رحمهما الله ـ يوم وليلة . فما كان أقل من ذلك فليس بحيض ولا تترتَّب عليه أحكامه .

وأقلُّه عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ثلاثة أيام .

وأمَّا عند مالك ؛ فكان أولاً يترك ذلك لحالات النساء . فمتىٰ وُجِدَ دم فهي حائض ، ومتى ارتفع فهي طاهر . ولكنه قرَّر اعتبار الحيض بالنسبة للعبادات ، بمجرد وجود الدم ولو لحظة . فلو رأته لحظة في نهار رمضان فسد صومها ، وعليها قضاء يومها وتغتسل وتصلِّي ، أمَّا بالنسبة للعدة فوافق الشافعيَّ وأحمد في يوم وليلة ، فلا تخرج من العدة بالحيض حتى تحيض ثلاث مرات . كل مرة لا تقل عن يوم وليلة ، مع ملاحظة أنه يعتبر العدة بالأطهار في قوله تعالىٰ : ﴿ ثلاثة قروء ﴾ إلاَّ أنَّ الطهر لا يتحدَّد إلاَّ بتخلّل الحيض .

أمَّا أكثره

فعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ عشرة أيام .

وعند مالك وعند الشافعي وأحمد خمسة عشر يوماً .

فما زاد عن أكثره عندهم فهو استحاضة .

وأقل الطهر وأكثره عندهم

فعند الأئمَّة الثلاثة أبي حنيفة ومالك والشافعي خمسة عشر يوماً .

وعند أحمد ثلاثة عشر يوماً .

أمَّا الأئمَّة الثلاثة فقالوا : جعل الله عدد النساء ثلاثة قروء ، يقابلها

ثلاثة أشهر . فالقرء في مقابلة شهر ، والقرء مجموع الحيضة مع الطهر . فإذا كان أقصىٰ مدة الحيض ، كان أقل مدة الطهر خمسة عشر يوماً . وكلَّما قلَّت مدة الحيض طالت مدة الطهر . وعند أحمد حديث علي مع ابن مسعود . ولا نُطيل النقاش هنا ولكن الغرض من بيان أقل مدة الطهر : هو أنَّ المرأة إذا ارتفع عنها دم الحيض واغتسلت منه ثم بعد أيام رأت الدم ولم تمض عليها في طهرها مدة أقل الطهر ، فإنَّ الدم الذي رأته يعتبر فاسداً وليس بحيض ، ولا يكون حيضاً حتى يفصل بينه وبين الذي قبله بطهر كامل ، وأقل مدة للطهر هي ما قرَّره العلماء وقدمناه عنهم . أمَّا أكثر مدة الطهر فلا حد له ، فقد يرتفع الدم عن المرأة فلا تراه شهراً كاملاً أو شهرين أو أكثر ، ولسبب ظاهر معلوم أو لغير سبب . فتكون في كل تلك المدة طاهراً ، ولو كان ارتفاعه لسبب معلوم ، حتى ولو بتعاطي دواء يمنع مجيئه أو يرفعه بعد المجيء .

وقد وضع الفقهاء تلك القواعد والمقاييس للرجوع إليها عند التباس الأمر . أمَّا في حالة انتظام العادة واستقرارها عند المرأة ، وكل واحدة بحسب حالتها ؛ فإنَّ العمل على ما استقرَّت عليه . سواء استمرَّت على يوم واحد كل دورة ، أو على يومين ، أو ثلاثة ، أربعة ، أو خمسة . وغالب حالات النساء سبعة أيام . فإذا وقع عليها اختلاف واضطربت عليها بالزيادة ، فإنَّ لها أن تجلس إلى أكثر مدته المتقررة عندهم .

وهنا يلزم التنبيه : وهو أنه إذا كانت الدورة منتظمة ، ثم طرأ عليها اضطراب فزادت عن عادتها ، فإنَّها تترك الصلاة فترة الزيادة إلى أن تصل أكثر المدة ؛ خمسة عشر يوماً على الأكثر . ثم تنظر فإذا استمرَّت الزيادة ثلاث دورات واستقرَّت ، كانت حيضتها هي ما استقرَّت عليه من تلك الزيادة في حدود الخمسة عشر يوماً .

أمَّا إذا كان الاضطراب مرة واحدة ، أو مرتين ، ثم رجعت إلى ما

كانت عليه ، فـإنَّ حيضتها هي الأولىٰ ، وعليهـا أن تقضي صلاة الأيـام التي تركتها مدة اضطرابها ، لأننا علمنا أنه فساد . وكذلـك تقضي الصوم . وهـذا أقلّ ما يمكن إيراده في هذا المقام .

أما دم النفاس

وهو الذي ينـزل بسبب الولادة ، فـإنَّه يختلف أيضـاً باختـلاف حالات النساء . فهناك من تلد ولا ترىٰ دماً وتسمَّىٰ (الجفوف) لجفافهـا عن الدم . وهناك من تلد في الصباح وينقطع الدم عنهـا في المساء ، وهنـاك من ينقطع دمهـا بعد اليـومين والثلاثـة والأربعة إلى غيـر ذلـك . وحسب عسـر الـولادة ويسرها ، وحالة المرأة كما تقدَّم .

ولهذا فإنَّه باتفاق الأئمَّة ؛ لا حدّ لأقَلِّه . فمتىٰ ولدت ورأت الـدم فهي نفساء ، عليها أحكام الحيض المتقدِّمة كلها إلى أن ترىٰ الطهـر في أيّ وقت رأته ، فتعتبر قد طهرت وتجري عليها أحكام الطاهـرة في كل شيء إلَّا شيئاً واحداً ، فإنَّهم استحبوا تركه حتى تمضي مدة أقصىٰ النفاس .

وأقصىٰ مدة النفاس عند كل من أبي حنيفة وأحمد أربعون يوماً .

وعنـد مالـك والشافعي أيضـاً ستون يـوماً ، ولكـل أدلَّتـه ، ونقـلاً عن السلف . والغرض من تحديد أقصاه ؛ هـو أنَّ النفساء تـدع الصلاة والصيـام مدة وجود دم النفـاس إلى أن يصل الحـد الأقصىٰ ، فإذا لم ينقـطع اغتسلت وصلَّت وحكم بطهارتها .

ولكن يلاحظ أنه إذا كان الدم الزائد عن المدة المحدودة ، يوافق زمن حيضتها ، فإنَّها تعتبره حيضاً وتعطىٰ حكم الحائض ، وتكون قـد انتقلت من نفاس إلى حيض ، وتجلس مدة حيضتهـا ، فإن انقـطع الدم حسب المعتـاد فبهـا ، وإلاَّ فهـو استحـاضـة تغتســل وتصلِّي ويحكم بـطهـارتهـا ولكنهـا مستحاضة . ولأهمية مبحث الاستحاضة ، نفرده بالحديث الآتي .

الاستحاضة والدم تراه الحامل

تعتبر الاستحاضة والدم الذي تراه المرأة وهي حامل ، من أهم مباحث هذا الموضوع ، حيث إنَّ كلاًّ من الحيض والنفاس ، لهما معالمهما المحدودة .

أما دم الاستحاضة ؛ فهو قد يتداخل بين كل من الحيض والنفاس . وقد يستمر الدم على المرأة طيلة وقتها فيلتبس عليها الأمر ، حتى أنَّها في النهاية تلجأ إلى اعتبار حيضتها أمراً اعتبارياً ، وتكل حقيقته إلى الله ، لشدَّة ما يلتبس عليها الأمر .

ولهذا كان جديراً بإفراده ببحث يقرب تصوّره ، ويبيِّن أحكامه .

وكذلك الدم الذي تراه الحامل ، حيث اختلف فيه العلماء . هل هو دم حيض ، أم استحاضة ؟ وذلك لأنَّ وجود الحمل من دلائل انقطاع الحيض ، ووجود الحيض من دلائل عدم الحمل . وذلك لأنَّ المطلقة تعتبر بالأقراء على أنها ليست حاملاً . فوجود الحيض دليل على خلوِّ الرحم من الحمل . وانقطاع دم الحيض دليل على أنها حامل . فتكون عدتها بوضع حملها وهذا أمر متَّفق عليه .

فإذا ظهر حملها ، ثم رأت الدم ، فتكون قد جمعت بين النقيضين ؛ الدم والحمل . فهم وإن كانوا متفقين على أنَّ الحامل قد ترىٰ دماً ، ولكنهم يختلفون في حقيقة هذا الدم . هل هو دم حيضة ؟ أم هو دم استحاضة ؟ ولهذا أيضاً أفردناه بالبحث ، آملين أن نتوصَّل إلى بيان الحقيقة فيه إن شاء الله .

أولاً ـ دم الاستحاضة : ولتيسير معرفة الاستحاضة ؛ يمكن تقسيمها إلى قمسين : متقطعة ومتواصلة .

فالمتقطعة هي التي تراه المرأة مدة قليلة ، أقل من يوم وليلة عند

الشافعي وأحمد . وثلاثة أيام عند أبي حنيفة . وأقل من يوم وليلة عند مالك في خصوص العدة .

أو تراه مدة فوق أو أكثر من مدة الحيضة ، وهي عشرة أيام عند أبي حنيفة وخمسة عشر يوماً عند الجمهور . فيزيد معها الدم يوماً أو يومين مثلاً ، فيمكث معها ستة عشر أو سبعة عشر يوماً مثلاً . فاليوم أو اليومان الزيادة عن أكثر الحيض تكون استحاضة، وكذلك إذا رأت الدم بعد سن اليأس خمسين أو ستين . وفي هذا القسم تعامل المرأة معاملة الطاهر باتفاق ، ما عدا الوطء ، ففيه خلاف سيأتي تحقيقه ، إن شاء الله .

أمَّا المتواصلة : فإنَّ الأصل فيها حديث حمنة بنت جحش - رضي الله عنها - قالت : كنت أستحاض حيضة كبيرة شديدة ، فأتيت النَّبيّ ﷺ أستفتيه . فقال : « إنَّما هي ركضة من الشيطان ، فتحيضي ستة أيام أو سبعة أيام ، ثم اغتسلي فإذا استنقأت فصلِّي أربعة وعشرين يوماً أو ثلاثة وعشرين يوماً ، وصومي وصلِّي . فإن ذلك يجزؤك . وكذلك فافعلي كل شهر كما تحيض النساء » .

ففي هذا الحديث أنها ركضة من الشيطان . وفي بعض الروايات ، إنَّما ذلك عرق ، أي نزيف من عرق ، وليس من قعر الرحم بسبب الدورة التي تقدَّم بيانها . كما أنَّ فيه إشارة إلى استمرار الدم عليها دون انقطاع .

وهذا هو القسم الثاني : المتواصلة ، وصاحبة هذا القسم وتسمَّىٰ استحاضتها مطبقة ، وهذا القسم له ثلاث حالات :

١ - حالة لا تعرف لها حيضة ، لا بأيام معدودة ، ولا بصفات في الدم معروفة . وحكمها كما أفتاها رسول الله ﷺ تعتبر ستة أو سبعة أيام من كل شهر حيضة لها تدع فيها الصلاة والصوم . ثم تغتسل وتصلِّي وتصوم وعليها بعد الاغتسال بنيّة رفع حدث الحيضة ، ثم تتوضَّأ لكل صلاة لاستمرار خروج الدم ، من محل نقض الوضوء .

٢ ـ حالة تكون لها قبل الاستحاضة أيام حيضة معلومة العدد ، ومعلومة الزمن كخمسة أيام مثلاً ، من أول أو وسط أو آخر كل شهر ، ثم جاءتها ركضة الشيطان ، فصار الدم معها مستمراً . وهذه تفعل كما كانت أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ تفعل . كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أنَّ أم حبيبة بنت جحش شكت إلى رسول الله ﷺ الدم . فقال : « امكثي قدر ما كانت تحبسك حيضتك ثم اغتسلي » . أي بعد ذلك القدر ، وتتوضأ بعد الغسل لكل صلاة ، فهذه قد ردَّها رسول الله ﷺ إلى ما كانت تعرف من حيضتها قبل الاستحاضة ، وأنَّ عليها أن تمكث ، أي عن الصلاة والصوم عدد الأيام التي كانت تمكثها في حيضتها ، وهي سليمة . سواء كانت أيامها تلك قليلة أو كثيرة ، على نحو ما تقدَّم في مدة الحيض ، وسواء في أول أو وسط أو آخر الشهر .

٣ ـ حالة يكون الدم مطبقاً ولم تكن لها أيام معلومة من قبل ، ولكن يتفاوت وصف الدم قلَّة أو كثرة ، وسواداً أو حمرةً ، ووجود رائحة أو لا رائحة له . وهذا يكون حكمها كفاطمة بنت أبي حبيش الوارد عن عائشة ـ رضي الله عنهما ـ ، قالت : إنَّ فاطمة بنت أبي حبيش كانت تستحاض فلا تطهر ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنَّ دم الحيضة دم أسود يُعْرَف . أو يَعْرِف ـ يعني يعرف بلونه وسواده ، أو يعرف بعرفه ورائحته ـ فإذا كان ذلك فأمسكي عن الصلاة ـ أي من وجود أحد هذه الأوصاف السواد أو الرائحة ـ فإذا كان الآخر ـ أي الأحمر الخالي من الرائحة الذي هو كأيّ دم ، مثل دم الجرح أو دم الرعاف ـ فتوضَّئي وصلِّي » .

هذه هي حالات الاستحاضة المطبقة ، على ما في هذه الأحاديث الثلاثة عن بنات أبي حبيش الثلاثة ؛ حمنة ، وأم حبيبة ، وفاطمة ـ رضوان الله تعالى عليهن ـ .

أمَّا حكم المستحاضة مطلقاً ، سواء متقطعة أو متواصلة ، فالجمهور

على أنها تعامل معاملة الطاهر في صلاتها ، وصيامها ، وطوافها وتلاوة القرآن ، وحمل المصحف ، وكل ما تفعله الطاهر باتفاق ، ولكنها تتوضًأ لكل صلاة ، ولو لم ينتقض وضوؤها بناقض آخر ، لأنَّ خروج الدم من هذا المحل يعتبر ناقضاً للوضوء . ولو قدر أن لا يقف أبداً ، ويستمر تقاطره منها ، فقد جاء عنه ﷺ أنَّه نعت للمستحاضة الكرسف يعني القطن تتحفض به حفاظاً على ثيابها ، لأنه إذا أصاب الثوب يلزم غسله . كما نعت لها ﷺ الجلوس في الماء البارد ، وغير ذلك . فإذا فعلت ما أمرت به ، وقامت تصلِّي فلا يضرَّها ما غلبها منه وتمضي في صلاتها .

واختلفوا في وطئها ، فقيل : هي كالطاهر ، وقيل لا توطأ مطلقاً للأذىٰ الموجود ، وقيل إلَّا إذا خيف العنت .

ولعلَّ هذا القدر يعطىٰ ما تدعو الضرورة إلى معرفته من عموم مباحث هذا النوع وهي مستفيضة ومتشعبة . . وبالله تعالى التوفيق .

ثانياً ـ أمَّا ما تراه الحامل من الدم : فقد وقع فيه الخلاف ؛ فعند أبي حنيفة وأحمد ـ رحمهما الله ـ أنَّ ما تراه ليس بحيض ، وإنَّما هو دم فاسد من نوع الاستحاضة ، وعند مالك والشافعي أنَّ دم حيض له أحكام الحيض والسبب في هذا الخلاف أمران .

الأول : ما جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ من روايتين : إحداهما عند مالك : أنَّه بلغه أنها قالت في المرأة الحامل ترىٰ الدم أنها تدع الصلاة . وعند الدارمي قولها : إنَّ المرأة الحبلىٰ لا تحيض فإذا رأت الدم فلتغتسل ولتصلِّ . ورواية لها أيضاً لا تصلِّي حتى تطهر . فاختلاف الرواية عنها ، أوقع الخلاف عندهم ، أنَّ الحامل ترىٰ الدم في موعد حيضتها التي كانت تحيضها قبل ظهور حملها ، فكان دماً صادف عادة فكان حيضاً .

ولكن بتأمُّل هذه المسألة من حيث النصوص ، ومن حيث الناحية

الطبية في عمل الرحم ، لظهر أنَّ الراجح عدم اعتباره حيضاً . أمَّا من جهة النصوص فقال ابن قدامة : احتجَّ أحمد ـ رحمه الله ـ على عدم اعتباره حيضاً بحديث ابن عمر ـ رحمه الله ـ في طلاقه امرأته وهي حائض ، وأمر ﷺ برجعتها . وقال : « ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً » . فجعل الحمل علماً على عدم الحيض وهو الطهر ، كما جعل الطهر علماً على عدم الحمل ، فلا يكون حيضاً كالآيسة ترىٰ الدم ، وإنَّما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم . وأمَّا رواية عائشة في الحامل ترىٰ الدم تدع الصلاة ، فيُحمل على ما تراه قبيل النفاس بثلاثة أيام مثلاً ، فإنَّه يكون تابعاً للنفاس ، فتدع الصلاة . وبهذا يكون الجمع بين روايتيها .

أمَّا من الناحية الطبية : فقد قال أطباء الولادة : بأنَّ الرحم متعود على الانقباض وقت الحيضة ليخرج الدم . فإذا جاء وقت الحيضة انقبض كالمعتاد ، وخاصة في أوائل الحمل ، حتى يستقرّ حملها وتتغيّر حالة الرحم فيتوقف عن الانقباض العادي .

وبسبب هذا الانقباض قد يحدث انفصال عرق عن شبكة (المشيمة) من جدار الرحم ، فينزف من خارج الرحم ، وتظن المرأة أنَّه من الرحم . وهكذا لا ترىٰ الدم إلاَّ في موعد عادتها عند تقلّص الرحم كالمعتاد . ولعلَّ ممَّا يشهد لهذا التعليل أنَّ الله نصَّ على أنَّ الجنين في قرار مكين ، فلن يسمح بمرور شيء من أو إلى الرحم . فما تراه الحامل يكون من خارجه فلا يكون حيضاً . وقد نصَّ أطباء أمراض النساء والولادة على الفرق بين دم الحيض ، ودم الاستحاضة ، أو دماء النزيف عموماً ؛ وهو أنَّ دم الحيض إذا خرج لا يتخثّر لأنه قد تخثَّر في الرحم ويبقىٰ سائلاً حتى يجفّ . أمَّا دماء النزيف ـ ومنها الاستحاضة ـ فيتخثَّر بعد خروجه من الجسم . وهنا مسألتان كثر وقوعهما وهما :

١ ـ إذا أسقطت الحامل ورأت الدم مع السقط فما حكمه : فيُقال أولاً ينبغي

التنبيه على أنَّه يحرم التسبّب في الإسقاط ، ولو لنطفة أو علقة . ويخطىء من يقول بجوازه ما لم تنفخ فيه الروح . بل إنَّ النطفة متىٰ علقت بالرحم ، حرم إسقاطها لأنها تنمو من أول لحظة تعلق بها الرحم كنموّ الثمرة في غصنها .

فإذا قدَّر الله عليها الإسقاط فإن كان ما أسقطته تبيَّن فيه خلق الإنسان فإنَّ الدم الذي تراه معه يعتبر دم نفاس وله أحكامه .

٢ ـ إذا تناولت المرأة دواء يمنع مجيء الحيضة ، فهل تعتبر المرأة طاهراً في موعد الحيضة لعدم رؤيتها الدم ، أم لا ؟

الصحيح أنها تكون طاهراً ولا عبرة بالوقت بدون رؤية الدم وقد حدث لنسوة كنَّ مع ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ في الحج فخفنَ مجيء الحيضة قبل طواف الإفاضة ، فأخذن أعواد الأراك وطبخنها وشربنَ ماءها ، فلم تأتهنَّ الحيضة حتى أتممنَ حجَّهنَّ ، وهكذا الحال في رمضان وغير ذلك .

ولكن يجب الحذر من ردّ فعل تعاطي حبوب منع الحمل ، لسوء تأثيرها ، وخاصة من كنَّ مريضات بالكبد ، أو إحدىٰ قريباتها مريضة به ، لاحتمال أنها مريضة ولم تشعر ، لأنَّ حبوب منع الحمل مع مرض الكبد قد تؤدِّي إلى الوفاة .

وعلى كل فإنَّ المرأة إذا أخذت الدواء لعدم مجيء العادة ، ولم تأت ، أو أخذته لترفعها بعد مجيئها ، فإنَّه من جهة العبادات تغتسل وتصلِّي وتصوم ، وتكون طاهراً . .

كيفيَّة تطهُّر الحائض

معلوم أنَّ الحيض حدث وزيادة ، فالحدث يرفعه الغسل ، والزيادة التي هي الأذىٰ يلزمه شيء زائد عن الغسل . وقد بيَّنت السنة الفرق بين الغسل في حدث الجنابة ، وحدث الحيض ، وذلك في الصورة والنوع .

في الصورة : جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قصة المرأة التي سألت رسول الله ﷺ عن غسلها من الحيضة . فأمرها بشيء من المسك تتبع به أثر الدم . وفي قصتها هي أن تضع الملح . وفي قصة غيرها ، أن تضع الماء والسدر .

أمَّا موضوع المسك ، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : إنَّ امرأة من الأنصار سألت النَّبيّ ﷺ عن غسلها من المحيض ، فأمرها كيف تغتسل ثم قال : « خذي فرصة من مسك فتطهَّري بها » . قالت : كيف أتطهَّر بها ؟ ، فقال : « تطهَّري بها » ، قالت : كيف أتطهَّر بها ؟ ، قال : « سبحان الله تطهَّري بها » . وفي رواية فاستحيىٰ منها وأدار وجهه . قالت عائشة : فاجتذبتها إليّ فقلت : تتبعي بها أثر الدم . وقد امتدحت ـ رضي الله عنها ـ نساء الأنصار بقولها : نعم نساء الأنصار لم يكن يمنعهنَّ الحياء أن يتفقَّهنَ في الدين .

وبهذا وصلنا هذا العلم ، وبه عرفنا ما يجب في أدق الأمور . رضوان الله تعالىٰ عليهنَّ .

أمَّا السدر ؛ فعن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت : كيف تغتسل إحدانا إذا طهرت من الحيض ؟ فقال : « تأخذ سدرها وماءها فتتوضَّأ ثم تغسل رأسها ، وتدلك حتى يبلغ الماء أصول شعرها ، ثم تفيض على جسدها ثم تأخذ فرصتها فتطهَّر بها » .

وأمَّا الملح في غسل الحائض فعن امرأة من بني غفار قالت : أردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله ، قالت : فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح فأناخ ونزلت عن حقيبة رحله فإذا بها دم مني . وكانت أول حيضة حضتها ، فتقبضت إلى الناقة واستحييت ، فلمَّا رأىٰ رسول الله ﷺ ما بي ورأىٰ الدم قال : « ما بك لعلَّك نفست ؟ » قالت نعم ، قال : « فأصلحي من نفسك ، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب

الحقيبة من الدم ، ثم عودي لمركبك » . فلمّا فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفيء قالت : وكانت لا تطهر من حيضة إلاَّ جعلت في طهرها ملحاً وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت . رواه أبو داود .

وقال ابن قدامة ـ من الحنابلة ـ في المغني : فصل : وغسل الحيض كغسل الجنابة إلاَّ في نقض الشعر . أي إنَّ فيه بحثاً : وأنَّه يستحب أن تغتسل بماء وسدر وتأخذ فرصة ممسكة فتتبع بها مجرىٰ الدم ، والموضع الذي يصل إليه الماء من فرجها . ليقطع عنها زفرة الدم ورائحته ، فإن لم تجد مسكاً فغيره من الطيب ، فإن لم تجد فالماء شافٍ كافٍ .

وفي قوله : إلاَّ في نقض الشعر ، يتعلَّق بحكم شعر المرأة ، إذا كان مضفراً فهل تنقض هذا الضفير في غسل الحيض أم لا ؟ وكذلك في غسل الجنابة .

بوَّب البخاري بقوله : نقض الحائض شعرها . وساق حديث أم المؤمنين لما حاضت وهي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فحاضت قبل يوم عرفة . فأمرها ﷺ أن تغتسل ، وتمشط ، وتدخل الحج على العمرة . وفي هذا نقاش في امتشاطها وهي كانت محرمة بالعمرة وتدخل الحج عليها فصارت قارنة .

وقال ابن قدامة : على قول الخرفي : مسألة وتنقض المرأة شعرها لغسلها من الحيض، وليس عليها نقض من الجنابة إذا أروت أصوله . قال ابن قدامة : في شرحه نصَّ عليه أحمد قال مهنا : سألت أحمد عن المرأة تنقض شعرها إذا اغتسلت من الجنابة ؟ فقال : لا . فقلت له : في هذا شيء ؟ قال : نعم ، حديث أم سلمة . قالت فتنقض شعرها من الحيض ؟ قال : نعم . قلت له وكيف تنقض من الحيضة ولا تنقض من الجنابة ؟ فقال : حديث أسماء عن النَّبيّ ﷺ أنه قال : « لا تنقضه » .

وليس فيه خلاف فيما يتعلّق بالجنابة ، لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها بلغها عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقض رؤوسهنّ، فقالت : يا عجباً لابن عمر ! يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهنّ ؟ أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهنّ ؟ لقد كنت أنا ورسول الله ﷺ نغتسل ، فلا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات . رواه مسلم وغيره . وقال ابن قدامة رحمه الله : واتّفق الأئمّة الأربعة على أنّ نقضه غير واجب ، وذلك في الجنابة لحديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : يا رسول الله إنّي امرأة أشدّ ضفر رأسي ، أفأنقضه للجنابة ؟ قال : « لا ! إنّما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين » . رواه مسلم . وقال في المغني : إلاّ أن يكون في رأسها حشو أو سدر يمنع وصول الماء إلى ما تحته ، فيجب إزالته ، وإن كان خفيفاً لا يمنع لم يجب . والرجل والمرأة في هذا سواء ، ويلاحظ أنّ بعض الرجال ، كان يطيل شعره ويضفره ولكنه قلة . وجاء النص أن ضفائر الشعر في حالة الجنابة تجمع بين الكفين فيهما الماء ويضغط عليه بالكفين ، ليتخلّل الماء شعر الضفائر ، وذلك رفعاً للمشقّة في نقض الضفائر . أمّا الشعر المسترسل كالجمة ، فهذا يخلل بالأصابع حتى يُطمأن لوصول الماء من خلاله ، لأصول الشعر وفرق الرأس . والرجال والنساء سواء .

أمّا غسل المرأة من الحيض . فالمشهور نقض الضفائر ، لما جاء في بعض روايات حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وانقضي شعرك واغتسلي . وقالوا : إنّ الأصل في الغسل هو نقض الشعر المضفور للتأكد من وصول الماء إلى كل جزء يجب وصوله إليه . فخُفِّف على الأول ـ يعني الجنابة ـ لكثرة وقوعه ، وبقي على الثاني . يعني الحيطة على أصل مشروعيته في وجوبه . وهذا هو المقدم في مذهب أحمد ـ رحمه الله ـ .

وعند بعض أصحاب أحمد ـ رحمه الله ـ أنّ نقضه في غسل الحيضة

مستحب ، وليس بواجب . وقال ابن قدامة : وهو قول أكثر الفقهاء . وذلك بناء على أنَّ بعض روايات حديث أم سلمة المتقدِّم قولها للنَّبيِّ ﷺ أفأنقضه للحيضة وللجنابة ؟ فقال : « لا إنَّما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات ، ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين » . وحديث أسماء ـ رضي الله عنها ـ سؤالها للنَّبيِّ ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال : « تأخذ إحداكنَّ ماءها وسدرها فتطهر فتحسن الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً ، حتى تبلغ شؤون رأسها ثم تصبّ عليها الماء » . ولم يذكر لها النقض .

وينبغي التنبيه : على أنَّ هذا في خصوص الشعر ، أمَّا جلدة الرأس وسائر البدن ، فإنَّ وصول الماء إلى بشرة الرأس وعموم الجلد في الجسم كله واجب ، سواء كان الشعر كثيفاً أو خفيفاً ، ولا بد منه ولكن حتى يتأكد من وصول الماء إليه ، وقد جاء الأثر عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « تحت كل شعرة جنابة . فبلُّوا الشعر ، وأنقوا البشرة » رواه أبو داود ، وعن عليّ أيضاً أنه قال عن النَّبيِّ ﷺ : « من ترك موضع شعرة من جنابة لم يصبها الماء ، فعُلَّ به من النار كذا وكذا » .

وممَّا ينبغي التأكيد عليه هو أنَّ على من لزمه غسل واجب كالجنابة أو الحيضة والنفاس ، فإنَّ عليه تفقد ظاهر الجلد ، من أن تكون عليه موانع تمنع وصول الماء إلى الجلد مثل الطين أو العجين ، فيزيله أولاً حتى يصل الماء إلى الجلد وينقيه .

وبالأخص ما يضعه النساء من الشمع على الأظافير ، فإنَّ عليها أن تزيله بالمزيل المعروف ، وكذلك عند الوضوء . ولا ينبغي أن يُتعلَّل لذلك بأنه وضع على طهارة ، أو غير طهارة ، لأنَّ هذا خاص بحالات الضرورة ، في مسائل (الجبيرة) وهو ما يوضع على الجرح ويتعذَّر نزعه مراعاة لحالة العذر بالمرض . وهذه الشموع وما يسمَّىٰ (بالمناكير) فلا ضرورة إليها وإنَّما هي كاسمها .

وقد نبَّه العلماء في هذا المقام على لزوم تحريك مثل الخاتم في الأصبع والسوار في اليد ، وكذلك الساعة إذا كان السوار والساعة ملاصقاً للبشرة ، أمَّا إذا كان واسعاً يجول بالحركة فلا يضرك لأنَّ الغرض هو السماح للماء أن يسري تحته ليعمّ الجلد .

وكذلك التأكيد على تدليك جميع الجسد لهذا الغرض . وقد قال ﷺ : « أسبغوا الوضوء ، ويل للأعقاب من النار » . والأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم لوجود مثل المنخفض قد تخطَّاه الماء .

ولذا أيضاً وجب تعهد تثنيات الجسم ، كتلافيف السرة وجوانب البطن لذوي السمنة ، وخاصة بعض النساء ، وبعض الرجال إذا تقدم بهم السن . وتخليل الأصابع ، وكل ذلك ليحصل اليقين بوصول الماء إلى عموم الجسم . والمضمضة والاستنشاق من واجبات الغسل باتفاق الأئمَّة ، لأنهما بعضويين خارجيين ، بدليل الحديث عن لقيط بن جبيرة : « وبالغ في الاستنشاق إلَّا أن تكون صائماً » فإنَّه يستنشق بدون مبالغة وحديث عمر لما سأل عن القبلة في الصوم فقال له ﷺ : « أرأيت لو مضمضت وأنت صائم » .

فإذا نسي في حالة غسله ونسيت الحائض المضمضة والاستنشاق ، تمضمضت واستنشقت ولو بعد الفراغ من غسلها .

وفي ختام هذا المبحث عن تطهُّر الحائض ، نذكر كل امرأة بفضل هذه التعاليم الإسلامية الحنيفة ، حيث يأتي غسل الحائض بعد تلك الفترة التي كانت تعاني فيها من الأذىٰ ، وتتحمل فيها من آثاره ما يلحقها حساً ومعنىً ، ثم هي تعود لحيويتها في طهر ونقاء وكأنَّها تستدرك ما تحسّ بأنَّه قد فات عليها ، وتكتسب نشاطاً وحيوية .

تعقيب

بعد بيان صورة المحيض وأحكامه ، من كونه أذىً ، وتحريم محل الأذىٰ حتى يطهرن . قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ثم أعقب على الموضوع كله بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وبتأمل تتمة الجواب مع بدايته، نجد مقابلة تشريعية حكيمة تظهر في قضايا تحمل أدلَّتها المقنعة . فالقضية الأولىٰ : كون المحيض أذىٰ ، ورتب عليه اعتزال النساء في المحيض ، ومعقولية الأذىٰ تحتِّم منطقياً الاعتزال . ثم القضية الثانية ، في مقابلة القضية الأولىٰ : ﴿ فإذا تطهَّرن فأتوهنَّ من حيث أمركم الله ﴾ . لأنَّ الطهر والتطهُّر مدعاة الإتيان ، أي زال السبب المانع وجاء الداعي للإتيان . والأمر للإتيان هنا أمر إباحة بعد الحظر المتقدم ، جاء ليُبنىٰ عليه ما بعده ، وهو أن يكون الإتيان من حيث أمر الله سبحانه . والأمر يكون للإباحة إذا كان موجهاً لما كان ممنوعاً لسبب ، فزال سببه . كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة : ٢] . فإباحة للصيد الذي كان قد مُنِعَ قبله ، بسبب الإحرام في قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ٩٥] . ولما زال الإحرام وتحلَّلوا أباح لهم ما كان قد منعهم عنه . وأمَّا كون الإتيان من حيث أمر الله ، فإنَّه توجيه إلـٰهي كريم يجعل المسلم وهو في تلك الحالة يحافظ على تنفيذ ما أمر الله به . وحيث : اسم للمكان . كما تقول : جلست حيث جلس فلان، والمكان الذي أمر الله الإتيان منه ، هو الملحوظ في مضمون الطهر والتطهُّر ، والمستلزم اعتزال الأذىٰ ، فيتعيَّن أنَّه المكان الذي كان محل الإتيان قبل الاعتزال . وهذا أمر لا مجال لشك فيه ، وكما قال بعض العلماء : الأمر من الله تكليف ، ولا يكلِّف الله عباده إلَّا بأكمل الوجوه .

والتذييل على الموضوع كله ، بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ

وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ ﴾ بمثابة اللافتة المعبّرة عن حكمة التشريع وسموه . وقد جمع بين أمرين ؛ التوبة والتطهُّر. وذكر التوبة يشعر بذنب ولعلّه ما كان يقع من التفريط في الاعتزال المأمور به بغلبة الغريزة ودافع الجبلة . كما أشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ من قبل : وأيّكم أملك لإربه . ونظراً لضعف البشر أمام ذلك كانت التوبة تداركاً لما كان .

وذكر التطهّر مع التوبة يشعر بطهورين ؛ حسّي ومعنوي . فالحسي : من كل قذىٰ وأذىٰ وما يستقبحه ذوو النفوس الكريمة . وقد جاء في السنة : أنّه لما نزلت آية مسجد قباء : ﴿ فِيْهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِيْنَ ﴾ [التوبة:١٠٨] . أتاهم النّبيّ ﷺ فذكر لهم :«إنَّ الله يثني عليكم فماذا تفعلون؟» فقالوا : إنَّا نتبع الحجارة الماء . أي يستجمرون بالحجارة من الخلاء ثم يستنجون بعد الحجارة بالماء .

وعليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدَّثر:٤] على أحد التفسيرين حملاً للفظ على الحقيقة .

أمَّا الطهور المعنوي فهو ما تشير إليه التوبة ، أي : طهارة من الذنوب والآثام ، وما عساه كان قد بدر منهم في حق النساء وقت الحيض بأي شكل كان . وعليه في اعتبار قوم لوط لمَّا خالفهم لوط عليه السلام في مسلكهم الشاذ ، قالوا فيما بينهم : ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٨٢] ويمكن حمل الحديث عليه . في قوله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » . فهو يشمل الطهور الحسِّي لصحة الصلاة في الثياب والمكان ، ويشمل الطهور المعنوي عن الحقد والحسد ونحو ذلك .

وبعد عرض قضية المحيض ، وملابساته ، وعلاقته بالتشريع ، وأثره في ذلك كله ، والأمر بالاعتزال ، ثم إباحة الوطء مراعياً في ذلك العلة والسبب من الأذىٰ والطهر ، وهي أوصاف ملائمة للحكم ، معتبرة في العقل والعرف ، تأتي قضية تصويرية ، لكشف النقاب عن حقيقة علاقة الرجل

بالمرأة ، ومنزلة المرأة من الرجل ، في صورة يدركها كل رجل وتعيها كل امرأة . ليكون بناء الحياة الزوجية على منهج تحقيق الغاية النبيلة ، من وراء المقاييس الزوجية والموضوعية الفعلية ، لما سبق من اعتزال وإتيان ، وأنَّ ذلك لا تشهِّياً ولا حِرْماناً ، وإنَّما هو تشريع حكيم لهدف نبيل فيقول تعالىٰ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

يلحظ هنا لأول وهلة إيراد النساء مضافات للمخاطبين . . نساؤكم . . وفي هذه الإضافة من لطيف المعنىٰ ، زيادة قوة الارتباط بين الزوجين لأنَّ المعنىٰ الآتي بعدها والحديث الذي يتلو ذلك موضوعه التبعية ، والمخالطة . وهو قوله تعالىٰ : ﴿ حرث لكم ﴾ وكم هي الصلة قوية بين الحرث وحارثه والزرع وزارعه . بخلاف الموقف الأول في حالة المحيض ، والأمر بالاعتزال . قال : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ ولم يقل فاعتزلوا نساءكم . ولكن قال : فاعتزلوا النساء مع أنَّ المراد اعتزالهنَّ هنَّ نساؤهم . ولكن المقام مقام اعتزال وابتعاد فقال : فاعتزلوا النساء . وهنا موضع الحرث قال نساؤكم حرثٌ لكم . إنَّه إعجاز القرآن حقاً .

ونظير هذا الأسلوب ما جاء في أعقاب الصيام قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ ﴾ [البقرة:١٨٨] . ففي أول الكلام لما كان عقب الصيام وهو التعفّف عن الحرام ، وحفظ مال الغير كان الأموال أموالهم بينهم ، وكلٌّ فيهم يُعتبر حارساً على مال أخيه . ولكن لما جاء الباطل ووقع الإثم ، صارت الأموال أموال الناس ، فالصوم آخىٰ بينهم ، والإثم قطع إخاءهم . وكذلك هنا في قضية المحيض والطهر والاعتزال والوطء ووجود الأذىٰ ، أوجب اعتزالهنَّ واعتبرهنَّ نساء ، كأنَّهنَّ أجنبيات . ووجود الطهر والتطهُّر أدعىٰ لإتيانهنَّ ، وكونهنَّ حرثاً اعتبرهنَّ نساءهم وأقرب ما يكنَّ إليهم .

فأتوا حرثكم : الإتيان الذي يُبْتَغىٰ منه الزرع، وهو الولد ، وذلك لا يكون إلَّا في محل الازدراع ، والذي هو موجب الزواج ، والمشار إليه في قوله ﷺ : « تزوجوا الولود الودود » . وقوله : « تناكحوا تكاثروا فإنِّي مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة . . » وهذا أيضاً نظير قوله سبحانه في خصوص النساء في رمضان : ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] أي من المباشرة وهو الولد .

ولعلَّ هنا تحسن الإشارة إلى تقبيح ما يقال عن تحديد أو تنظيم النسل ، وتعاطي موانع الحمل ، لأنَّه مضادٌّ تماماً لهاتين الآيتين :﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾لأنَّ الحرث مجعول للزرع ، ومتعاطية موانع الحمل معطلةٌ لزرع هذا الحرث ، ومتسببة في كون الحرث غير منبت ، ولقوله : وابتغوا ما كتب الله لكم لأنَّ متعاطية موانع الحمل معرضة عن طلب ما كتب الله لهم من الولد ، معطلة لصنع الله . وصدق الله العظيم : ﴿ نساؤكم حرثٌ لَكُمْ ﴾ .

والعلماء يبحثون هنا تحرير المقال ؛ في مجيء الأولاد ذكوراً أو إناثاً ، ويبينون أنَّ المرأة لا دخل لها في ذلك أبداً، لأنها بنص هذه الآية الكريمة: ﴿ نساؤكم حرثٌ لكم ﴾ لا دخل لها في كون الولد ذكراً أو كونه أنثىٰ ، لأنها بالنسبة للرجل كالحرث لمن يزرعه . ولا دخل للحرث ، في نوعية الزرع الذي يزرعه الزارع فيه ولا تملك إلَّا إنبات البذرة التي أودعها الزارع إيّاها .

والبذرة تأتي من الرجل ، صالحة للذكر وصالحة للأنثىٰ . كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٦] والنطفة إنَّما تمنىٰ من الرجل .

ويقول الأطباء المختصّون في تفسير ذلك : إنَّ الحمل يكون من نطفة أمشاجٍ أي مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة ، أمَّا المرأة فمنها البويضة ، وأمَّا الرجل فمنه الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة ، فإذا اجتمعا كان

الحمـل . أمّا الـذكورة والأنـوثة فـإنَّها بسبب مجمـوع وحـدات هـذا الخليط الأمشاج . فإن كان مجموع وحداته عدداً فردياً كان الحمـل ذكراً بـإذن الله ، وإن كان مجموع وحداته عدداً زوجياً كـان الحمل أنثىٰ بـإذن الله ، والفردي والزوجي يكون من جانب الرجل فقط ، لأنَّ بويضـة المرأة تكـون دائماً عـدداً زوجياً وهو أربعة وعشرون وحـدة . أمَّـا ماء الـرجل ففيـه ملايين الحيـوانات المنـوية ، وهي على قسمين ، قسم منهـا مكـوّن في أصـل خلقتـه من عـدد زوجي أربعة وعشرين ، وقسم مكوّن من ثلاثة وعشرين ، فـإذا أراد الله خلق الـولد بين الـزوجين لا يصل إلى البـويضة في رحم المـرأة إلاَّ حيـوان واحـد فقط . فإن كان من قسم العدد الزوجي التحم مع البويضـة وكونـا معاً ثمـانية وأربعين عدداً زوجياً ، فكان الحمل أنثىٰ . ولا دخـل للمرأة أبـداً في ذلك . وإذا كـان الحيوان الـذي سبقه إلى البـويضة من قسم العـدد الفـردي (٢٣) التحم مع البويضة فكونا معاً عدداً فرديـاً سبعة وأربعين فكـان الحمل ذكـراً . ولا دخل للمرأة في ذلك أبداً .

ومعلوم أنَّ كـون نوع الحيـوان الـذي يسبق إلى رحم المـرأة فـردياً أو زوجيـاً إنَّما ذلـك لمشيئة الله تعـالىٰ وحده . ولا تستـطيع قـوة في العالم أن تتحكَّم في أنواع الحيوانات المنوية التي تسبق أو تتأخَّر ، وإنَّما ذلـك هبة من الله تعالىٰ كما قال سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَـاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَّشَـاءُ إِنَـاثـاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَاءُ عَقِيْمَاً إِنَّهُ عَلِيْمٌ قَـدِيْرٌ ﴾ [الشـورى : ٤٩ ـ ٥٠] . ولعلَّ بهـذا يتَّضح المعنى جليـاً في كـون النساء حرثاً للرجال يتلقين ما يقدمه إليهنَّ الرجال ، فيُودعوهنَّ في قرارٍ مكين إلى قدرٍ معلوم . قال أبو حيان : وأنشد أحمد بن يحيـىٰ :

إنَّمـا الأرحــام أرضــو ن لنا مــحــتــرثــاتُ
فعلينــا الــزرع فيـهــا وعــلى الـله الـنـبـات

وقالت امرأة تعرض بزوجها وتعتذر إليه في ولادتها البنات وهو يسمع :

مـا لأبي حمـزة لا يـأتينـا   يـظلُّ في البيتِ الـذي يلينـا
غضبـانُ ألَّا نـلد البـنيـنـا   ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنَّما نأخذ ما أُعطينا

فـالنساء حـرث وليس لهنَّ اختيار ، والـرجال زراع وليس لهم قـدرة . والله سبحانه الواهب الرازق .

ويهمنـا بيان مـدىٰ علاقـة هذه الآيـة : ﴿ نِسَـاؤُكُمْ حَـرْثٌ لَّكُمْ﴾ بتلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيْضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَـزِلُوا النِّسَـاءَ فِيْ الْمَحِيْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ .

موقع آية المحيض ممَّا قبلها وبعدها

لا شك أنَّ القرآن معجز من جميع الوجوه سـواء في نظمـه ونسقه ، أو في معانيه ومضمونه ، أو في تشريعه وحكمتـه ، أو في أخباره وتصـويره ، أو أي جانب جئته منه فإنَّك تجده معجزاً .

ومعلوم أنَّ نسق آياته توقيفٌ لا اجتهاد فيه . فسواء أدركنا وجه الإعجاز في هـذا النسق ، أو لم ندركـه إلَّا أنَّ المتأمـل والمتذوق قـد تلوح لـه بـوادر وأضواء لا يستطيع دفعها ، ولا يمكنه ردَّها. بحيث يظهر من السياق أنَّ كـلًّا من الآيتين متممة للأخرىٰ ، أو شارحـة لها ، أو معللة لحكمهـا ، أو مظهـرة لحكمتهـا . وهذا كله مـوجـود في هـذا السيـاق الـذي نحن بصـدده ، وهـو الحـديث عن آية السؤال عن المحيض ، والجـواب عليه بـأنه أذىٰ ، والأمـر باعتزال النساء في المحيض ، ثم الإباحة بعد الطهر والتطهّر .

فموضوعها بيان علاقة الرجل بالمرأة حـال المحيض وارتباطـه بها بعـد الطهر منه . أمَّا الآية قبلها فهي أيضاً موضوعها العـلاقة الـزوجية في ابتـدائها وإنشائها والنوعية المطلوبة فيها ، وعوامـل الاختيار وأسبـاب الابتعاد عنهنَّ .

ونفس الشيء في الآية بعدها . وذلك كالآتي :

أولاً الآيات قبلها ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢١] وبعدها مباشرة ﴿يسألونك عن المحيض﴾ .

وبالنظر في هذه الآية التي موضوعها النهي عن نكاح المشركات . ومعلوم قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وقد جاء التعليل هنا بأنَّ أولئك يدعون إلى النار ، فتكون النتيجة : نجس يدعو إلى النار ، فأولىٰ بالمؤمن الطاهر المطهَّر أن يجتنب هذا النوع من النساء . ويظهر هنا مدىٰ الربط بين المحرمات من نساء المشركين ووجوب الابتعاد عنهنَّ ، وبين الحلائل بعقد النكاح في حالة المحيض الذي هو أذىٰ ، فلكأنَّ السياق يرشد إلى أنَّه بجامع الاستقذار المادي في المحيض ، والمعنوي في الشرك المضاد للتوحيد ، كلاهما لا يتناسب مع الطهر الحسّي والمعنوي في المسلم المؤمن، أي فالنساء المشركات يحرم نكاحهنَّ ، والنساء الحُيَّض يحرم وطؤهنَّ ، وهذا كما نرىٰ غاية في التناسق والترابط .

ومعلوم أنَّ هذا في الحرائر من المشركات في حالة عقد النكاح ولا يلحق بهنَّ الكتابيات ، لأنَّ عند الكتابيات بقايا علم من الكتاب في إيمان برسل الله ، وبالبعث ، والجزاء ، وشيء من عبادة قد يستطيع الزوج المسلم أن يميلها إلى الإسلام .

وقد نصَّ تعالىٰ على جواز نكاح نساء أهل الكتاب في قوله تعالىٰ : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِيْنَ وَلاَ مُتَّخِذِيْ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥] فهي في عمومها تحل نساء أهل الكتاب المحصنات ، وهنَّ هنا الحرائر . ولم يخالف إلاَّ ابن عمر فإنَّه يلحقهنَّ بالمشركات . ويقول : أي شرك أكبر من قولها عيسى ابن اللّه ، أو قولها : العزير ابن اللّه . أيّ في النصارىٰ واليهود .

أمَّا ملك اليمين سواء من المشركات أو الكتابيات فإنَّ الاستمتاع بهنَّ مباح ، في الكتابيات باتفاق ، وفي المشركات على الصحيح . وذلك أنَّ المرأة المملوكة ليست في نفوذها ولا في شخصيتها كالحرة ، فهي مسلوبة الاعتبارية الشخصية ، وإرادتها من ضمن إرادة السيد، فلا يخشىٰ تسلّطها ، ولا يتوقع أذاها ولا دعوتها إلى النار كما هنا .

أمَّا الآية بعد المحيض فهي قوله تعالىٰ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

وهنا نجد هذا التشبيه البليغ في وضع النساء موضع الحرث . ومعلوم أنَّ المراد من الحرث الزرع ، وأنَّ الزرع لا يكون إلاَّ في التربة الطيبة المنبتة ، وليس في السبخة ، ولا في غير المنبتة .

وحرث النساء هو الوطء ، وزرع الوطء هو الولد ، والمرأة في حالة الحيض ليست صالحة للزرع ، ولا هي منبتة لزرعها ، ولا منجبة لولدها ، والعاقل يحفظ بذور زرعه عن أرض لا تنبت . ولذا حرَّم الإتيان في غير محل الزرع بالإجماع .

وبهذا كله يظهر من نسق الآيات الثلاث ، آية المحيض وما اكتنفها من الآيات قبلها وبعدها ، أنَّ من المحرمات في النكاح النساء المشركات حرائرهن وإماؤهن ، لعلتين متجانستين وهما : النجس ، والدعوة إلى النار .

أي إلى الشرك الذي هي عليه .

والحلائل من المسلمات وحرائر أهل الكتاب محرمات حال المحيض بجامع الأذىٰ في كل ، وأنَّ النهي عن المحيض يجانس النجس من الشرك ، وينافي الغرض من النكاح وهو كون النساء حرث الرجال ، وابتغاء الولد . كما قال تعالىٰ في حق الصوم : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] أي من الولد على أصحّ الأقوال .

ولعلَّ بهذا البيان يزداد ظهور سمو الإعجاز في القرآن، وسموّ التشريع في التوجيه إلى أسمىٰ مراتب الإحسان . ويربط معاملات الإنسان بعقيدة التوحيد ونور الإيمان .

*****

****

قال تعالىٰ :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِيْنَ تُعلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤] .

هذا السؤال في مصدره ومورده يؤكِّد أنَّ الحلال ما أحلَّ الله ، والحرامَ ما حرَّم الله . لأنهم تقدموا بهذا السؤال لرسول الله ﷺ ليبيِّن الله الحلال من الحرام ، وجاءهم الجواب من الله تعالىٰ بعموم ما أحلَّ ، وهي الطيبات : جمع طيب .

وبالنظر إلى الآيات الثلاث التي في افتتاحية السورة الكريمة ، نجد سلطة التشريع العليا لله رب العالمين ، وسموّ الشريعة الإسلامية ، وإعجاز القرآن الكريم .

فقد استهلَّ السورة الكريمة بقوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّيْ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ﴾ [المائدة: ١] فألزم بالوفاء بالعهد والالتزام بشرف الكلمة، وهو ما تميَّز به الإنسان عن سائر الكائنات ، حيث تقوم ارتباطاته بغيره ، والتزاماته مع الله ومع الناس بشرف الكلمة ، وإبرام العقود في معاملاته وعباداته وشؤونه كلها . ثم بيان حلِّيَّة بهيمة الأنعام إلاَّ ما استثنيَ

منها ، وحرمة الصيد على المحرم بأي النسكين حجاً أو عمرة . ثم بيَّن صاحب إصدار هذا التشريع أنه الإرادة الإلـهية العليا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ﴾ لأنه الإلـه الواحد الخالق المالك ، كما أنَّه لا يعبد إلاَّ هو ، فلا يحكم إلاَّ هو ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وكقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ يُغْشِيْ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيْثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

ومن كان هذا صنعه من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير هذا العالم ليلاً ونهاراً ، شمساً وقمراً ، ونجوماً مسخَّرات بأمره ، كان له سبحانه وحده الخلق ، وله وحده سبحانه الأمر ، وإنَّه وحده سبحانه يحكم ما يريد .

أمَّا الإعجاز في أسلوب القرآن، فهو هذا الشمول في هذا الإعجاز . قال أبو حيان : ذكروا أنَّ الكندي الفيلسوف قال له أصحابه : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن . فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد . إنِّي فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهىٰ عن النكث ، وحلَّل تحليلاً عاماً ثم استثنىٰ استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلاَّ في أجلاد . انتهىٰ. يعني مجلدات . فهذا كما ترىٰ إعجاز في إيجاز .

ثم شرع في أحكام هي من صلب حياتهم الدينية والاجتماعية ، من شعائر الله ، والشهر الحرام ، والهدي والقلائد ، وآمين البيت الحرام يبتغون

فضلاً من ربهم ، وحفظ لكل ذلك حرماته ورفع حظر الصيد بعد الإحلال .

ثم جاء بقضية أسمىٰ ما تكون في التعامل الإنساني، والتسامي الخلقي الفاضل الكريم : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢] أي لا تقابلوا شنآن القوم بشنآن مثله ، ولا يحملنَّكم جرم أعدائكم بأن صدُّوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا ، بل أوفوا أنتم بعهدكم وكونوا أنتم عوناً على البرِّ والتقوىٰ بالمحافظة على العهد والكفّ عن الاعتداء .

وكل ذلك يعد في عرف النظم الحديثة بنوداً لمنهج أسمىٰ أمة ، وأقوم حياة على الإطلاق ، بنود عامة في قواعد نظامية شاملة .

ثم جاءت الآية الثالثة في تفصيل أعيان ما حُرِّم عليهم ، لفاسد طبعه ، واستقذار ماهيته حساً أو معنىً ، فقال تعالىٰ : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ، وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ دِيْنِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِيْ مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ﴾ [المائدة : ٣] .

فبيَّن تعالىٰ تحريم المستقذرات لذوي الطباع السليمة ، من ميتة جيفة ودم مسفوح ، وما ألحق بذلك من لحم الخنزير ومنخنقة وموقوذة ، وهما ما خنقت بكتم نفسها حتى ماتت ، أو ضربت بحجر ضربة أماتتها ، والمتردّية التي سقطت من شاهق فماتت والنطيحة التي نطحتها غيرها فأماتتها ، وما أكل السبع أي افترسها فقتلها ولو لم يأكل منها شيئاً ، إلَّا ما أدرك من هذه الأصناف بعد إصابته فأدرك حياً وذكي الذكاة الشرعية ، وكلها قبل التذكية لا شك أنها مستقذرة مستخبثة باحتباس دمها فيها . فإذا ما ذكيت وهي لا زالت

حية سفح دمها وطاب لحمها .

والمحرمات لأسباب معنوية ؛ يلاحظ فيها الآتي :

أولاً ـ لحم الخنزير : والتنصيص على لحم الخنزير بدلاً من عموم الخنزير ليبرز أنَّ مناط التحريم هو لحمه وليس بسبب الدم ، أي ولو ذكَّيتموه وسفحتم دمه وبقي لحمه خالصاً من دمه فإنَّ لحمه حرام لذاته .

ويلاحظ أنه جاء في الترتيب بعد الميتة والدم ممَّا يشعر كأنَّ تحريمه قسم مستقلّ لا يتعلَّق بما قبله ، فلا كونه ميتاً، ولا كونه احتبس دمه فيه له تأثير في تحريمه ، والكلام على علة تحريمه طويل ، وموجزه ما نصَّ عليه أبو حيان؛ أنَّ لحمه يؤثر على من يأكله من باب نقل الغرائز والآثار. ومن غريزة هذا الحيوان أنه مسلوب الغيرة على أنثاه ، فمن أكثر من أكله أصبح لا غيرة عنده ، وقال : وهذا ما نشاهده في بلادنا من هؤلاء . ومهما يكن فإنَّا نعود ونذكر القارىء الكريم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ ﴾ .

ثم جاء بعد لحم الخنزير في الترتيب ، ما أهل لغير الله به ، وبعد المنخنقة والمتردّية جاء ما ذبح على النصب . فيكون المحرمات لأمر معنوي نوعان :

ما أهل لغير الله به ولو ذكِّي وأهريق دمه ، وما ذبح أيضاً وأهريق دمه ولكن على النصب في الجاهلية ، سواء كانت النصب أصناماً نصبوها أو أحجاراً وضعوها ، فهو شعار جاهلي .

ولئن كان موجب تحريم المستقذرات لذاتها ، فإنَّ ما أهل لغير الله به وأن الحكم لحقه اعتبارياً ، لأنه قد جرِّد من دمه وتخلص من موجب استقذاره ، لكنه تضمَّن اعتداء وتجاوزاً جعله محرماً كما يجعل الطيبات المستلذّة حراماً إذا تضمنت هي أيضاً اعتداء ، كاللبن والعسل وثمرات النخيل والأعناب . فهي في ذاتها طيبة ولكن إذا أخذت عدواناً بغصب أو

نهب أو سرقة ، فإنَّها تحرم على آخذها ، وإذا سمح فيها صاحبها صارت حلالاً طيبة .

وهكذا بهيمة الأنعام خلقها الله حلالاً طيبة ، وأحلَّها الله لنا كما في أول سطر من السورة ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ أي ما دامت في ملك صاحبها ووفى بعهد الله فيها فذكر اسم الله عليها كما جاء في سياق ﴿ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ وما أمسكت الجوارح ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤] فتستصحب الحلِّيَّة معها .

أمَّا إذا وقع الاعتداء فأخذت هي من خلق الله ، خلقها ورزقها وسخرها وأحلَّهالنا، فنهل لغير الله بها نذبحها ونريق دمها باسم الصليب أو الصنم ، أو جني أو ملك أو أيّ مخلوق كان . فإنَّه اعتداء آثم يأباه كل ذي فطرة سليمة .

يوضحه ما جاء في الحديث القدسي : « أنا والملأ في نبإٍ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي » . الحديث ، وتقدَّم التنبيه أنه سبحانه وحده هو الذي له الخلق والأمر .

ثم جاء تحريم المقامرة والاستقسام بالأزلام وضرب القداح ، وكانوا يجيلونها على الجزور ، ومن خرج اسمه غرم قيمتها ، واقتسموها بينهم أو أطعموها الناس باسم الأصنام فهو أيضاً اعتداء على أموال الآخرين بدون رضاهم . وقد عقب عليه سبحانه بقوله : ﴿ ذٰلكم فسقٌ ﴾ أي خروج عن طاعة الله وخروج عن منطق الحق والعدل .

وبعد هذا التفصيل بين استقراء التشريع وثبوته ، والتمكين لهذا الدين حتى إنَّ الكفار قد يئسوا من تعطيله أو النيل منه ، فقال : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ دِيْنِكُمْ ﴾ أي ولم يعد منهم خطر عليكم ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي بالتزام الطاعة والوفاء بالعهد .

وختم السياق بمسك الختام فقال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ تشريعاً وتمكيناً وتوضيحاً . ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمْ الإِسْلَامَ دِيْنَاً﴾ . جاء بعدها مباشرة : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة : ٤] .

الشمول والعموم في هذا السؤال

لقد ورد بصيغة من صيغ العموم (ماذا) وجاء الجواب كذلك عاماً بجنس العموم (الطيبات) فهو أشمل سؤال وأعمّ جواب بالنسبة لما تقدم من الأسئلة والأجوبة في آيات القرآن الكريم ، والتي كانت عن الأهلّة أو الشهر الحرام أو المحيض . أمَّا هنا فيكاد بعمومه يشمل منهج التشريع كله ، لأنَّ ما أحلَّ ضد ما حُرِّم فيشمل كل ما أحلَّه الله ، ويدلُّ بمفهومه على كل ما حرَّم الله . ويأتي الجواب مقابلاً لذلك كله قل أحلَّ لكم الطيبات ، ويدلُّ الجواب أيضاً بمفهومه على تحريم ما ليس طيباً وهو كل خبيث .

فلم يبق ممَّا شرعه الله من حلالٍ وحرام ، إلَّا واندرج في الجملة تحت هذا السؤال والجواب . ويشهد لذلك ما جاء في وصف الله تعالىٰ لرسوله ﷺ في التوراة والإنجيل لأهل الكتاب في قوله تعالىٰ : ﴿ الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِيَّ الَّذِيْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

والذي يتأمَّل الآيات الثلاثة التي سبقت السؤال والجواب في افتتاحية السورة يجد حتمية هذا السؤال والحاجة إلى هذا الجواب ، وتقدم في الصفحات السابقة إيجاز ذلك ، حيث أكَّدت الآية الأولىٰ على الوفاء بالعقود حيث كانوا لا يوفون بها إلَّا نادراً ، وربما اعتبروا عدم نقض العهد ضعفاً ،

وقد تهاجوا بعدم خفر الذمَّة في قول الشاعر :

قبيّلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبَّة خردل

فأمروا بالتزام الكلمة والوفاء بالعقود . ثم حرم عليهم الهدي والقلائد ، وآمّين البيت الحرام لا يقطعون عليهم الطريق ، وكانوا ربما اعتبروهم سلباً ، وحرِّم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وما ألحق بذلك من المنخنقة والموقوذة ، والمتردّية والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذبحوه على النصب والاستقسام بالأزلام ، وكلها كانت من مآكلهم ومكاسبهم. فكأنَّهم بتحريم كل ذلك ضاقت عليهم المآكل ، فسألوا ماذا أحلَّ لهم ، وقد جاءهم الجواب وكأنَّه مشعر بالإجابة من جهتين : جهة واقع حياتهم وما كانوا عليه . وجهة مستقبلهم وما جاءهم الإسلام به . حيث كان الجواب ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ فلكأنَّه يقول كل ما سبق تحريمه عليكم فليس بطيب بل خبيث مستقذر ، وكل ما أحلَّ لكم فإنَّما هو الطيب .

ويرشح لهذا المعنىٰ الذي ذكرنا ، ما جاء صريحاً بعدها مباشرة قوله : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة : ٥] .

وقوله سبحانه (اليوم) فإنَّه يفهم منه بمدلول المخالفة قبل اليوم ، كانوا على خلاف ذلك . وإذا تقرَّر ما أشرنا إليه من أن هذا السؤال أشمل ، والجواب أجمع ممَّا تقدَّم ، فإنَّنا نحاول بإذن الله تفصيل هذا العموم لبيان ما انطوىٰ عليه هذا الجواب علماً مسبقاً بأنَّ تفصيل ذلك إنَّما هو بإيراد النماذج فقط ، لأنَّ استقصاءه متعذِّر بينما هو ضروري كذلك لأنَّ الشريعة القويمة والتشريع الواضح يستلزم تمييز الخبيث من الطيب ، كما قال تعالىٰ : ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

ومجمل هذا المنهج في بيان ما هو طيب ومنه يفهم ما يقابله وهو

الخبيث ، وذلك في الآتي : في الكلمة الطيبة ، والأكل الحلال الطيب ، وبالمسكن الطيب ، والزوجة الطيبة ، والذرية الطيبة ، والمركب الطيب ، والطيب في العبادات والمعاملات ، والموطن الطيب ، والنتيجة والخاتمة الطيبة ، وذلك كله من مدلول كتاب الله ، وسنَّة رسول الله ﷺ .

أمَّا الكلمة الطيبة وعموم القول الطيب ، فإنَّ هذا شعار المؤمن ومبدأ الإيمان وقد كان أول التزام المؤمنين في هذه السورة ، هو الالتزام بالكلمة الطيبة ماثلة في الوفاء بالعقد في كل ارتباط مع الآخرين ، وقد قال في وصف المؤمنين : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيْدِ﴾ [الحج : ٢٤] فهو مشعر بأنَّ الطيب من القول مرتبط بالصراط الحميد فهما هدايتان قولاً وعملاً .

وضرب الله المثل للكلمتين الطيبة والخبيثة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِيْ السَّمَاءِ * تُؤْتِيْ أُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧] . والكلمة الطيبة عامة وأعلاها كلمة التوحيد (لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ﷺ) ومهما قيلَ في معناها فإنَّه مثل مضروب لكلمتين إحداهما طيبة ، ومقابلها خبيثة . والتعقيب بذكر تثبيت المؤمنين بالقول الثابت ، ولن نجد أثبت من المثل المضروب للكلمة الطيبة أصلها ثابت وامتدَّ فرعها في السماء ، وبقدر امتداد الفرع في السماء يكون ثبوت الأصل في الأرض . وهذا ما عليه المؤمن من الثبات واليقين ، وحسن المآل في الآخرة . والتعقيب على المثل الثاني بقوله تعالىٰ : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِيْنَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] إعلان بالضلال على كل منطق خبيث ، وفساد كل كلمة خبيثة . ويوضحه قوله ﷺ : « إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة لا يلقي لها

بالاً يهوي بها في النار أربعين خريفاً » وقوله ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك هذا » يعني لسانه ويقول له : « وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلاَّ حصائد ألسنتهم » والمجال هذا واسع جداً .

وإذا آمن العبد بأنَّ كل كلامه يحصىٰ عليه كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ ﴾ [ق : ١٨] وعلم أنه إنَّما أحل له من الكلام الطيبات من القول ، كان حريصاً أن لا ينطق هجراً وأن لا يقول إلاَّ حقاً ، ولا يقابل السيئة بسيئة مثلها ، وكان من عباد الرَّحمٰن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

أمَّا الطيب من الذكر والعبادات فلا يحده حد ولا يحصيه عد ، ويكفيك قوله ﷺ للتي جلست تسبِّح وتعد بالنوىٰ ، وذهب عنها ورجع وهي على حالتها فقال لها : « لقد قلت كلمات أربع تعدل كل ما قلتيه ؛ سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ورضى نفسه ومداد كلماته » . والحديث الآخر : « سبحان الله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض » .

ويكفي شرفاً للكلم الطيب أن يصعد إلى الله تعالىٰ كما في قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] والمتأمِّل أول هذه الآية وآخرها ، يجد توجيهاً سامياً فأولها : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيْعَاً ﴾ [فاطر : ١٠] فهو مشعر بأنَّ الكلم الطيب يجلب العزّة وهي عزة الصدق وحسن المنطق ولطف الأدب . وآخرها ، قوله : ﴿ وَالَّذِيْنَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] فهو في مقابل أول الآية حكم عليه بالبوار .

والمتأمل لهذه الآية الكريمة يجد منهج الكلمة الطيبة متكاملاً مع

لوازمها ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيْعَاً ﴾ أي فاطلبوها ممَّن هي إليه ومنه تكون ، ولا تكون إلاَّ منه سبحانه . بل من طلبها من غيره أو بغير طاعته أذلَّه الله ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِيْنَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيْعاً ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وروى القرطبي أنَّ النَّبيّ ﷺ قال مفسراً لهذه الآية : « من أراد عزّ الدارين فليطع العزيز » وأنشد عن الزجّاج قول القائل :

وإذا تذلَّلت الرقاب تواضعاً منَّا إليك فعزّها في ذلّها

وإن اقتران الكلم الطيب بالعمل الصالح هنا ، دليل على تلازم القول الطيب للعمل الصالح وإلاَّ لما كان طيباً ، ولذا أنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يزيّن ما يقول فعال
وإذا وزنت فعاله بمقاله فتوازنا فإخاء ذاك جمال

وهذه هي صفة المؤمن أن يطابق قوله فعله فيحرص على الكلم الطيب والعمل الصالح ، فيورثه العزة عند الله والناس .

وعكس ذلك يكون بعكسه ، كما قال تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتَاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٣] وليس هذا القول المخالف للفعل من طيبات القول ، وبالتالي ليس ممَّا أحلّ لنا . ونختم حديثنا عن الكلم الطيب ببيان القرآن لنتائجه العاجلة في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيْداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزَاً عَظِيْمَاً ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] . وبعدها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، ولكأنَّها تشير إلى أن هذه الأمانة هي الكلمة الطيبة والقول السديد .

الطيبات في المأكل والمشرب

في عموم الجواب على السؤال ، ماذا أحلَّ لهم ، جاء عموم أحلَّ لكم الطيبات . ومن أهم الطيبات هنا المطعم من مأكل ومشرب ، خصوصاً وقد تقدّمها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ألحق بذلك .

والطيب من المأكل قيل : هو الحلال ، وقيل : هو المستطاب . وقد جاء في سورة البقرة ما يفيد أنَّ الطيّبات في الجواب من حيث المأكل ما جمع الوصفين : الحل ، والاستطابة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِيْ الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨] وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] هذا في معرض الامتنان ، فأول ما يدخل ضمنه الرزق والحلال . وقوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ [الأنفال : ٦٩] وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحَاً ﴾ [المؤمنون : ٥١] وفي هذه السورة المائدة : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ .

فكل ما جمع الوصفين ؛ الحلال والطيب ، فهو قد أحلَّه الله لنا .

وبالتالي كل ما لم يحلّه ولم يكن طيباً فهو محرَّم علينا .

والمحرَّم قسمان :

قسم محرَّم لاستقذاره في ذاته ، كجيفة الميتة ، وما ألحق بها ، وخشاش الأرض من خنافس وعناكب .

وقسم محرَّم للاعتداء فيه ، وتقدّم التنبيه عليه ، وهنا من البيان ما يفهم من التعقيب على آية البقرة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً

طَيِّباً ﴾ فجاء قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٨ - ١٦٩] فالتوجيه لعموم الناس للأكل ممَّا في الأرض حلالاً طيباً ، وهو ما رزقهم الله ما دام على ما رزقهم إيَّاه . ثم حذرهم من اتباع خطوات الشيطان فيما يدعوهم إليه فيحرموا بعض ما أحلَّ الله ، ويفسدوا على أنفسهم بعض ما رزقهم اللَّه ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّه مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فتقولون هذا حلال وهذا حرام لغير ما أحلَّ الله ، أو حرمه . قال الطبري : يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوها .

وكذلك شياطين الإنس كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابَاً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] . وقال عدي : يا رسول الله ما اتخذناهم أرباباً ، ما عبدناهم من دون الله . فقال ﷺ : « ألم يكونوا يحرمون لكم ما أحلَّ الله ويحلُّون لكم ما حرَّم الله فتطيعونهم ؟ » قال : بلى ، قال: « فتلك عبادتكم إيَّاهم » .

فالنهي عن اتباع خطوات الشيطان هنا إنَّما هو إبقاء على ما أحلَّ الله لنا من التحريم كما بيَّنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامَاً وَحَلَالَاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] قالوا هو ما حرموا على أنفسهم من بهيمة الأنعام فجعلوا منها السائبة والوصيلة والحامي . . . الخ .

والواقع أنَّ قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أعمّ من حصرها في بهيمة الأنعام وأنها صالحة لكل ما تدخل فيه يد الإنسان بالتغيير سواء في عينه أو في حكمه .

وممَّا تدخلت فيه يد الإنسان في عينه كما جاء في آية النحل : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقَاً حَسَنَاً ﴾ [النحل: ٦٧] فثمرات

النخيل والأعناب ما دامت في أصولها فهي رزق حسن ، وإذا أخذها الإنسان ، فإن أبقاها على ما كانت عليه ظلّت كما هي رزقاً حسناً . أما إذا تدخلت يد الإنسان وحورتها إلى سكر ، فقد أخرجها عن نطاق الرزق الحسن إلى ما حرم الله ، فتكون حراماً بجعل الإنسان إيّاها حراماً .

وكذلك ملك الغير من ثمرات وغيرها ، فهي في ملك صاحبها رزق حسن وحلال ، فإذا تدخَّلت يد الإنسان واعتدت عليها بسرقة أو اغتصاب أخرجتها عن نطاق الرزق الحسن الحلال إلى الحرام . وهكذا كل من اتَّبع خطوات الشيطان فغير في خلق الله ، ولذا جاء في سورة النحل عقب آية ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ جاء بعد عدة آيات قوله تعالى مبيناً منهجاً شبيهاً بمنهج سورة المائدة : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيْرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴾ [النحل : ١١٤ ـ ١١٥] وعقب عليه بالآية الكريمة مباشرة : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَىٰ اللَّهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] .

وسواء أكان الافتراء بالقول كما قالوا في البحيرة والسائبة أو في الفعل كما اتخذوا من ثمرات النخيل والأعناب سكراً .

وهكذا كل من استحلَّ ما حرَّم الله كالربا والرهان والقمار وحلوان الكاهن .

وأوسع من هذا كله كل من أكل ما لا يستحقه ولو عن طريق الغش والتدليس ، فلم يأكل ما أحلَّ الله له ، لأنَّ مال الغير لا يحل إلاَّ عن طيب نفس .

ولذا جاء في صدقات النساء التي أكَّد الله تعالى عليها : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤] وقال معظماً حرمته : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ٢٠-٢١] فأكَّد دفع صدقاتهنَّ إليهنَّ ولو كان قنطاراً ، ولهنَّ عليه ميثاق غليظ .

فإذا ما طابت نفوسهنَّ عن شيء فيه فهو الحلال الهنيء ، كما جاء في أول السورة : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء : ٤] .

ويدخل في هذا القسم ؛ من أحلَّ لكم الطيبات ، من حيث المأكل والمشرب جميع أبواب المعاملات كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ١ - ٣] ومن الجانب الآخر قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ [الرَّحمن : ٩] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٥] وقوله : ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٨٥] . وفي التذييل على إبقاء الكيل والوزن هنا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ممَّا يشعر بعموم مدلول الكيل والوزن ، فيشمل الذرع والتقدير للأشياء عموماً ، وفي الوقت الحاضر تدخل ضمن ذلك أعمال البناء والطرق والمشاريع في المواصفات ومقادير ما يقع التعاقد عليه في كل شيء ، حتى (تمتير) عمل العمال ، وكل ما يدخل تحت نطاق التقديرات فهو داخل في إيفاء الكيل والوزن

ويشمل ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ حتى تقدير أجرة العامل وسوم السلعة .

ولو وسعنا النطاق ، لشمل أداء الأمانات ورد الودائع ، بل دخل فيه عدالة التحكيم لا على منصّة القضاء فحسب ، بل من كل من تولّىٰ تحكيماً بين اثنين من والد مع أولاده ، ومدرس مع تلاميذه ، وحاكم مع حكامه ، وكل راعٍ مع رعيّته . والمجال جد واسع وشامل . ونعود إلى ما أحلَّ الله من مأكل ومشرب .

والعاقل من تحرَّىٰ لنفسه الحلال الطيب ليلقىٰ الله تعالىٰ على أطيب حال .

وقد أرشد ﷺ إلى نتائج المطعم الحلال ، من العون على طاعة الله وإجابة الدعاء كما في حديث سعد : « أطب مطعمك تجب دعوتك » .

وكما قال ﷺ : « أيما لحم نبت على حرام فالنار أولىٰ به » وعموم الحديث : « إنَّ الله طيب ولا يقبل إلَّا ما كان طيباً » . والآثار عديدة .

وإذا ما تجاوزنا المأكل والمشرب ، وجئنا إلى الملبس لوجدنا السنة النبوية تجعل الدرهم الواحد من ثمن الثوب ، إذا كان حراماً وباقي الثمن كله حلالاً ، سبباً في عدم قبول الصلاة في هذا الثوب ، فيكون الطيب من اللباس ما خلص ثمنه ، وكذلك ما لم ينه عنه ﷺ من نوعه أو وصفه ، فمن النوع ثياب الحرير على الرجال ، ومن الوصف المعصفر كذلك . ومن الملبس المحرم الذهب على الرجال واستعمال أواني الذهب والفضة .

ولو تساءل متسائل ما سبب إخراج هذه الملبوسات عن نطاق الطيبات مع أنها من الزينة ؟ وهي في ذاتها طيبة محببة إلى النفس والله يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

لقيل : نعم ! أما كونها من الطيبات في ذاتها من حرير وذهب ،

وكونها من زينة الله التي أخرج لعباده ، ولكن كونها للرجال فهـذا لا يتناسب مع الرجولة ولا مكانة الرجل من المرأة . لأنَّ كونها زينة أمر عرضي تحتـاجه المرأة لتكمل ما يفوتها ممَّا تتطلَّع إليه ، كما قال الشاعر :

مـا الحلي إلَّا زينـة من نقيصـة يتمِّم إذا مـا الحسن قـصـرا

ويقول تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِيْ الحِلْيَةِ وَهْوَ فِيْ الخِصَامِ غَيْرُ مُبِيْنٍ ﴾ [الزخرف:١٨] أمَّا الرجل فرجـولته كـافية لـه عن أيِّ إضـافيـات . وعليـه فقـد أصبحت الحلية واتخاذ الزينة سمة من سمات النساء ، وهي في حقها حسنـة مستطابة ، وبالتالي فلا تحسن في حق الرجل ولا تستطاب .

فيكون قوله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة : ٤] صـادقاً بمنطوقه في حق النساء وصادق بمفهومه في حق الرجال .

الطيبات من النساء

في السؤال والجـواب الذي نتحـدث عنه الآن الـوارد في أوائل سـورة المائدة :﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾[المائدة:٤] . أنَّه أشمل سؤال وأعمّ جواب يندرج تحته كل طيب في حياة المسلم ، من كلمـة طيبة ومأكل طيب ، وملبس وزوجة وغير ذلك ، وتقدم الحديث على مجمـل الكلمة والمطعم والملبس ، والحديث هنا على الطيبات من النساء .

وقضية الطيبات من النساء من أهم قضايا المجتمعات الإنسانيـة ، وقد اهتمَّت لها الشريعة الغرَّاء من عدة جوانب ، حفظت لها حقوقها ، وحـافظت على كـرامتها ، واستـوصت بها كـل خير . حتى إنَّ النَّبيّ ﷺ ليخصص لهـا جـزءاً كبيراً من خـطبته في حجـة الوداع ، تلك الخـطبة التي بين فيهـا مهام شـرائع الإسـلام ، ودع فيهـا المسلمين ينص بقـوله : « استـوصوا بـالنسـاء خيراً » .

وذلك أنَّ المرأة قسيمة الرجل ، وجعلها الله على قدم المساواة فيما يتعلّق بالمسؤولية أمام الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ والْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِيْنَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِيْنَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِيْنَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِيْنَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِيْنَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِيْنَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِيْنَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِيْنَ اللَّهَ كَثِيْراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرَاً عَظِيْمَاً ﴾ [الأحزاب: ٣٥] .

فهذه صفات عشر من أهم خصائص الإيمان تساوت فيها المرأة الصالحة ، مع الرجل الصالح وقد تميَّز الرجل فيما تميّز فيه ، من باب القوامة ومسؤولية الحياة الملقاة على عاتقه ، رغم ما على المرأة من تبعات أيضاً ، وواجبات قد يعظم خطرها في ميدانها . فهي سكن الرجل وحاضنة الولد ، وراعية في بيت الزوج . وهي في الجملة أم وبنت وأخت ، وأعظم ممَّا قيل عنها: إنَّها نصف المجتمع، لأنَّ قضايا النصف الثاني أهمها مرتبط بها.

هذا من جهة العموم ومن جهة كونها جزءاً من المجتمع ، أمَّا الجهة الخاصة كزوجة وعلاقتها بزوجها ، وهي مناط هذا الحديث ، فإنَّها بجانب كونها سكناً له فهي منطلق آماله ومخفِّفة آلامه ، وهي محط أنظاره . والطيبة منهنَّ هي الكنز الذي يسعى الرجل للحصول عليه ، كما أرشد ﷺ بقوله لعمر ـ رضي الله عنه ـ : « ألا أخبرك بخير ما يكنز ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها أو نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » .

وهي الجوهرة التي يعمل على حفظها وصيانتها . وهي على حد قول بعض المفسرين حسنة الدنيا ، في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

والطيبة منهنَّ هي التي تمهد الطريق لزوجها في طاعة الله .

ومن قديم قال الكتاب : إنَّ وراء كل عظيم امرأة ، ولهذا القول حظ كبير من الصحة ، لأنَّ المرأة الصالحة والطيبة من الزوجات ، تكون عوناً لزوجها على أداء واجبه وتفهم عمله بما تقدم له من خدمات ، وتفيض عليه من لمسات رقيقة ، وأنفاس تجيش بالعطف والمودَّة ، فيشعر بالطمأنينة فيتجه بكل إمكانياته إلى أداء عمله فيحظىٰ بالنجاح ويحالفه التوفيق من الله .

والتاريخ مليء بالشواهد العملية ، ونجد في مطلع الإسلام سيدة النساء خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأرضاها ، فكم كان لها من عظيم الأثر الفعَّال من مساندتها لرسول الله ﷺ حين بادرت بالإسلام ، ولما اشتكىٰ إليها خوفه على نفسه ، بادرته بقولها : كلا والله لن يخزيك الله ، إنَّك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق . وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل كما هو معلوم ، فكان تشجيعاً لرسول الله ﷺ . وكما قال ابن إسحاق عنها : آمنت به ، وصدقت بما جاءه من اللّه ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفَّف الله بذلك عن نبيه ﷺ . لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلَّا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفِّف عليه ، وتصدقه وتهوِّن عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالىٰ .

وهذه الحكيمة أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بعد صلح الحديبية لمَّا فرغ ﷺ من كتابة الصلح قال لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا . فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلمَّا لم يقم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت له أم سلمة : يا نبيّ الله أتحب ذلك ؟ اخرج عليهم ثمَّ لا تكلِّم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فخرج فلم يكلِّم أحداً حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلق له ، فلمَّا رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعضٍ ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .

فهذه إحدىٰ زوجات رسول الله ﷺ تشير عليه ﷺ بما حلَّ المشكلة ، وسرىٰ عن رسول الله ﷺ ، في الوقت الذي قام فيه عمر بن الخطاب يتردّد بين الصديق ورسول الله ﷺ يقول : علام نعطي الدنية في ديننا علام لا نقاتلهم . وفرق بين إنهاء القضية بإبرام الصلح ، وبين إنهائها بالسيف . وقد كشف الله لهم عن حقيقة هذا الصلح بأنَّه فتح مبين في قوله تعالىٰ : ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيْباً ﴾ [الفتح : ٢٧] .

فلا شك أنَّ الطيبات من النساء أعظم عوناً للرجال ، وقد وَكَلَ الله الطَّيِّبات منهنَّ واختارهنَّ للرجال في قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٣] وبين ﷺ دوافع الرغبة فيهنَّ في قوله : « تُنكح المرأة لأربع لجمالها ، ولمالها ، ولحسبها ، ولدينها ـ ثم قال ـ : فاظفر بذات الدين تربت يمينك » . لأنَّ ذات الدين هي التي تطيعه إذا أمرها ، وتحفظه إذا غاب عنها . كما قال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] والغيب هنا يشمل كل ما غاب عنه الزوج من ماله وعرضه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢١] .

وهذا النوع من النساء هو المعني في جواب السؤال ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ وبمفهومه يحرم غيرهنَّ من الخبيثات . وهي كل امرأة لا تحلُّ له ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِيْنَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ ـ ٧] .

وهذه صفات المؤمنين كما في أول السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * والَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِيْنَ

هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * والذين هم لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ - ٥] .

ولذا نهى سبحانه عن الاقتراب من الزنا وقبّح فعله بقوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وجاء تصوير جرم هذه الجريمة بما لا يدع لنفس أبية مجالاً للتطلّع إليه في قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيْ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ [النور : ٣] . فقد سوَّى بين الزانية والمشركة وبين الزاني والمشرك وبرَّأ المؤمنين من ذلك. وسواء كان النكاح هنا يعني الزواج أو الزنا .

وقد جاء الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . . . الحديث .

وقد عقد القرآن مقارنة بين النوعين من النساء الطيبات وعكسهنَّ ، في سياق واحد في هذه السورة سورة النور في قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيْثَاتُ لِلْخَبِيْثِيْنَ وَالْخَبِيْثُونَ لِلْخَبِيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِيْنَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور : ٢٦] وصدق الله العظيم . ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ فثبت شمول هذا السؤل ، وعموم الجواب عليه .

وإنَّ المتأمِّل حال العالم اليوم من الجانب المسلكي والخلقي ، والباحث عن الفضيلة والهارب من الرذيلة ليجد عنصر المرأة فَعالاً في ذلك .

وإنَّ مؤسسات الإصلاح ومعاهد الإرشاد ، ورجال التوجيه ، ليعملون جاهدين على توفير الطيبات من النساء والحفاظ عليهنَّ ، يعملون على تخليص من خبث من أسباب خبثهنَّ .

ولا نبعد إذا قلنا إنَّ للمرأة الصالحة أماً كانت أو زوجة ، دوراً كبيراً في

سلامة المجتمع وأمنه ومبعث سعادته .

ويمكن أن نؤكد أنه لا صلاح للمرأة، ولا حفاظ على صلاحها إلاَّ بمنهج الإسلام الذي تربىٰ عليه السيدات الفضليات اللاَّتي حفل التاريخ بسيرتهنَّ العطرة ، وأعمالهنَّ الخالدة . ولن نفتر أن نكرّر هذا السؤال الشامل ، وهذا الجواب العام ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ .

وهل لنا ومن منطلق الإسلام أن نوجِّه عناية شباب المسلمين أينما كانوا في العالم الإسلامي ، أن يسلكوا منهج الله فيما أحلَّ لهم من الطيِّبات ، فيحسنوا اختيار الطيِّبات من النساء ؛ إذا نظر إليها أعجبته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته ، وإذا أنجبت له أكرمته ؟!

تتمة الجواب على سؤال : ماذا أحلَّ لهم ؟

كان الجواب منه سبحانه : ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ . وتقدم بيان أنواع الطيبات في الكلمات الطيبات ، والطيب من المطعومات ، والطيِّبات من الزوجات ، وما يلزم ذلك كمنهج في حياة طيبة قولاً وفعلاً .

وقد جاء عطفاً على الطيِّبات ، نوع جديد يختصّ بصنف معين ، وفي صورة خاصة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِيْنَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وذيل عليه في ختام الآية بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] .

قال علماء التفسير إنَّ المعطوف محذوف وهو كلمة (صيد) اقتضاها المقام ، وهذا الأسلوب يسميه علماء الأصول دلالة الاقتضاء . أي يقتضي الأسلوب تقديره لصحة المعنىٰ . كما قدر في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] أي مريضاً فأفطر

لمرض . وهكذا هنا أحلَّ لكم الطيبات وأحلَّ لكم صيد ما علمتم من الجوارح .

والجوارح : الكواسب ، ومنه سميت اليد جارحة لأنها موضع الكسب ، وتصدق على الكلاب والفهود والنمور . وجوارح الطير من الصقور والبازي والشاهين .

ومكلبين : قيل من خصوص الكلاب ، فلا يصاد بغيرها من جوارح الحيوان . أو متقنين تعليمها . والكَلَبُ : الضراوة . تقول : فلان كَلِبَ بكذا ؛ إذا صار ضارياً به .

وتعلمونهنَّ ممَّا علمكم الله : وتعليم كلاب الصيد حده هو أن يمتثل أمر صاحبه ، إذا أمره ائتمر ، وإذا زجره انزجر . أي حتى يصبح كالآلة عند الصائد ، فلا يصيد لنفسه هو بل يصيد لصاحبه .

وممَّا علمكم الله : بيان أنَّ هذا التعليم الذي به نعلم الجوارح ، حتى تصبح مدركة لأوامرنا وزواجرنا ، لم يكن لنا أن نعلمها هذا العلم ، ولا إلى هذا الحد إلَّا بتعليم الله إيَّانا . ولعلَّنا هنا نشير إلى أنَّ جميع ما وجد من علوم نقلية أو عقلية ، تجريبية أو استقرائية ، إنَّما هي ممَّا علمنا الله ، وأنَّ حقيقة مصدرها إنَّما هو الله سبحانه وتعالىٰ .

أمَّا النقلية التي نقلت إلينا ، فهي عن الوحي وعن رسل الله وكما قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] .

وأمَّا العقليات كالرياضيات ، فإنَّ هداية العقل إليها إنَّما هو قطعاً من الله . وقد قال تعالى مبيناً هذا المبدأ : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] فقوله تعالىٰ : ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾

قضيـة مسلمة . ثم هـو يكتسب العلم عن طريق وسـائله التي جعلها الله من السمع والأبصار والأفئدة .

وجميع ما يمكن أن يكون في هذا الكون من علوم فإنَّ مصـدرها هـذه الأسباب . لأنَّ العلم إمَّا مسموع وإمَّا مستقرى بـالتجارب ، أو بالمشـاهدة ، وإمَّا مستنتج من التجارب فيدركها الفؤاد .

وقد بيَّن الله تعالىٰ حالة المشـاهدة في أول قضـايا ابني آدم ، إذ قتـل أحدهما الآخـر وعجز عن مـواراته ، حتى بعث الله إليـه من يعلمه كمـا قال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِيْ الأَرْضِ لِيُرِيَـهُ كَيْفَ يُوَارِيْ سَـوْأَةَ أَخِيْهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْـلَ هَذَا الغُـرَابِ فَأُوَارِيَ سَـوْأَةَ أَخِيْ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِيْنَ ﴾ [المائدة : ٣١]فهذه قضية تعد من أوليـات الأمور يعجـز الإنسان الأول عن إدراكها حتى يعلمه الله .

بل في آية النحل توجيه إلى تعليم الله لغير الإنسان من الطيـور مثلاً ، ممَّا يشير في آخر الآية ، إذ في أولهـا تعليم الإنسان : ﴿ واللَّهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : ٧٨] وآخرها قوله متصلاً بالآية بعدها مباشرة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَـا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللَّهُ إنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

فالله الذي يمسك العالم كله ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض ، ويمسك الطير في جو السماء ، وذلك بقدرته قبـل كل شيء ، ثم بمـا علمها من طريقة الطيران ﴿ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[الملك: ١٩] أي صافات أجنحتها ومـا بسطتها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِيْ الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْـرُ بِجَنَاحَيْـهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وأصـرح من هذا دلالـة قولـه تعـالىٰ : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّـكَ إِلَىٰ النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِـذِيْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُـوتـاً وَمِنَ الشَّجَـرِ وَمِمَّـا يَعْـرِشُـونَ * ثُمَّ كُلِيْ مِنْ كُـلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِيْ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩] منهجُ حياة النحلة متكاملٌ، في سكناها وفي مأكلها وفي إنتاجها . كل ذلك بوحي من الله وهو وحي الإلهام. ولا نبعد إذا قلنا حتى الملائكة، لأنَّ الله تعالىٰ بين لنا تعليمه للملائكة ، بعض التعليمات الميدانية في غزوة بدر، وكيف تقاتل، وأن تضرب المشركين في المقاتل ، والوسائل ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِيْ رَبُّكَ إِلَىٰ المَلاَئِكَةِ أَنِّيْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا سَأُلْقِيْ فِي قُلُوبِ الذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢] فقوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فوقَ الأَعْنَاقِ ﴾ تعليم لمواضع الضرب وهي المقتل أو أهم المقاتل، وقوله: ﴿فَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهي الأصابع ليعطلوهم. لأنَّ من قطعت أصابعه لا يستطيع الإمساك بالسيف فلا يستطيع أن يقاتل . فلولا تعليم اللّه إيّاهم ما علموا ذلك .

وهذا ينقلنا إلى موقف مع الملائكة حينما علَّم سبحانه آدم : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِيْ بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيْمُ الحَكِيْمُ ﴾ [البقرة : ٣١ - ٣٢] .

وبهٰذا كله يتَّضح لنا أنَّ مصدر العلوم كلها ، سواء للإنسان أو للملائكة أو للحيوان أو للطير والنحل وغير ذلك ، إنَّما هو من الله وحده سبحانه عالم الغيب والشهادة وهو بكل شيء عليم . وصدق الله تعالىٰ : ﴿ تُعَلِّمونهنَّ ممَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا امْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ نتيجة لهذا التعليم لأنَّ الكلب أو الجارح من الطير لا يكون معلماً حقاً إلاَّ إذا كان ما يمسكه من الصيد قد أمسكه علينا لا على نفسه . وبهذا التعليم يفرق الكلب بين ما يمسكه علينا فلا يأكله ، وما يمسك على نفسه فهو له فيأكله .

وهنا يبحث العلماء شروط صحة أكل الصيد ، من كون الجارح معلماً وكون الذي يصيد به ، أو علمه مسلم أو كتابيّ ، وكونه يدرك الصيد حياً فيذكيه ، أو يذكر اسم الله عليه عند إرساله . وكذلك ما يرميه بسهمه أو برصاص البندقية اليوم ، وما صيد بالحد أو بالعرض والمثقل ، وكلها أحكام فقهية تهم المشتغلين بالصيد ، إلاَّ أننا في معرض هذا الجواب على السؤال ﴿ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِيْنَ ﴾ يستوقفنا طويلاً ويجعلنا نرجع قليلاً إلى الآيات قبلها في تعداد المحرمات ؛ في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيْرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة : ٣] فجعل سبحانه أكيلة السبع ، وهو أظهر في السباع من الحيوانات ، وأعلاها الأسد ، جعلت مع الميتة والخنزير في التحريم لأنه غير معلم . ومعلوم أنَّ الكلب سبع ، وكذلك السبع كلب في الحديث : « اللهمَّ سلِّط عليه كلباً من كلابك » فأكله الأسد . فالجنس يشملهما والتعليم فرق بينهما . أي قد شرَّف الكلب على الأسد مع ما بينهما من بون شاسع في الماهية . وكان تشريفه عليه إنَّما هو بهذا العلم .

وبالتالي ومن هذا المنطلق تنطلق إشارات التكريم بالعلم لكل من حاز علماً مفيداً سواء في ذلك الحيوان والإنسان وغيرهما . وهذه قضايا مسجلة نشير إليها إشارة عابرة بقدر ما يتَّسع إليه هذا المقام :

أخطر قضايا الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّيْ جَاعِلٌ فِيْ الأَرْضِ خَلِيْفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِيْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [البقرة : ٣١ ـ

٣٤] فلم يظهر شرف آدم إلَّا بالعلم . وكذلك قضية الهدهد مع سليمان . ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِيْنَ ﴾ وأصدر الحكم غيابياً ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيْداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّيْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيْدٍ فَقَالَ أَحطْتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِيْنٍ * إِنِّيْ وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيْمٌ ﴾ [النمل : ٢٠ - ٢٣] إلى آخر ما ذكر من حالتهم . وإزاء هذا العلم الذي أحاط به الهدهد مع يسارته ومكثه غير بعيد واكتشافه تلك الأمة وتلك المملكة ، جعل سليمان عليه السلام يتريّث في تنفيذ ما توعد به من عذاب شديد ، أو الذبح ، واعتبر هذا العلم سلطاناً مبيناً مسوغاً غياب الهدهد وموقفاً تنفيذ هذا الحكم فقال : سننظر . إلى آخر القصة ومجيء بلقيس مسلمة مع سليمان لله رب العالمين .

وهذا هو الجارح المعلم يشرفه علمه على سيد الوحوش الأسد ، فيبيح الله لنا صيده ويجعله من الطيبات التي أحلَّت لنا من بهيمة أي من حيوان أو طير ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ شكراً لله على هذا الامتنان وعلى هذا التعليم ، وفاء بحق الخالق سبحانه وما سخَّر لنا من صيد وأداة لصيده .

من لواحق الجواب على السؤال ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾

طعام أهل الكتاب ونساؤهم :

قد جاء الجواب قوله تعالى : ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِيْنَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] وتقدَّم الكلام على ذلك إلَّا أنَّ السياق في المصحف الشريف جاء بعد ذلك مباشرة

بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِيْ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهْوَ فِيْ الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ ﴾ [المائدة : ٥] .

والمجيء بذلك ظاهر في أنه تتمة للتشريع ، ودلالة على العمق والشمول ، حيث إنَّ موضوعه متعلِّق بأهل الكتاب ، وبخصوص طعامهم ونسائهم ، وهذا أمر يستدعيه الواقع لأنَّ المسلمين يعايشون أهل الكتاب ويخالطونهم ، ضرورة لوازم الحياة والجوار سواء كانوا عندهم في بلادهم وتحت العهد والذمة ، أو سافر المسلمون إلى بلادهم فكان المسلمون في حاجة لمعرفة حكم طعام هذا القسم من الناس ، وكذلك حكم نسائهم .

وفي السياق والأسلوب مثار تساؤلات وإشارات إرشاد وتوجيه ، يلزم الحديث عنها لقوة علاقتها بموضوع هذا السؤال والجواب .

أولاً ـ حول قوله تعالى: ﴿اليومَ أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ﴾ وكلمة اليوم ظرف. ومفهوم الظرف أنَّ ما قبله يغاير ما هو في ذلك الظرف، فما هو حالهم قبل اليوم؟ ويمكن أخذ الجواب على مفهوم هذا الظرف ممَّا تقدَّم، وهو أنهم قبل ذلك لم يكونوا على حلّيّة الطيبات بل كانوا يجمعون مع الطيبات أنواعاً من الخبائث ، وهي الأنواع التي جاء النص على تحريمها سابقاً ؛ من الميتة والدم ولحم الخنزير ، والمجني عليها من منخنقة وموقوذة ومتردية ، وأكيلة السبع ، وما كانوا يرتكبونه مع آمّين البيت الحرام ، وفي حق الهدي والقلائد ، وغير ذلك . حتى بيَّن الله تعالىٰ لهم ما حُرِّم عليهم ، وما هو حلٌّ لهم وقد خلص لهم حلُّ الطيبات ، والطيبات وحدها . وهذا إنَّما هو من هذا اليوم .

ونظير مفهوم هذا الظرف هو ما تقدَّم في قوله تعالى : ﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : ٣] . فمفهومه أنه قبل ذلك اليوم لم يكن قد أكمل الدين ولم تكن قد تمَّت النعمة، وأنه كان آخذاً في الإكمال ، والنعمة في الإتمام حتى ذلك اليوم ، فقد تحقَّق أنه كمل وأنَّ النعمة تمَّت . وهكذا في قوله تعالىٰ هنا ﴿ اليَوْمَ أحلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَات ﴾ .

ثانياً ـ ممَّا يستوجب الحديث عنه هو عموم قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ وهنا يتَّفق المفسرون أنَّ كلمة طعام وإن كانت عامة في كل مطعوم ، إلَّا أنها أريد بها خاص وهو ذبائحهم ، وموجب هذا التخصيص هو الإضافة في ﴿ طعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ لأنَّ الذبح من فعلهم ، أمَّا الحبوب والفواكه واللبن والعسل فليس من فعل أيديهم ، بخلاف الذبح فإنَّ له دخلاً في الحلّيّة والحرمة فكان هو المعني في عموم طعام الذين أوتوا الكتاب .

وقد أجمع المسلمون على أنَّ ذبائح المشركين الوثنيين لا تحلُّ لمسلم ، والفرق بين الفريقين ؛ هو أنَّ أهل الكتاب لا زالت عندهم بقايا من كتابهم ، ومن شرعهم أنهم كانوا يذبحون ويذكرون اسم الله ، وهذا هو الشرط الوارد في حق المسلمين كما في قوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِيْنَ * وَمَالَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ إلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١١٨ ـ ١١٩] .

أمَّا المشركون فلم يكونوا يذكرون اسم الله على ذبائحهم ، ولهذا حرمت ذبيحتهم لأنهم يعتبرون معتدين بذلك ، إذ يذبحون بهيمة الأنعام التي خلقها الله ورزقها بدون إذن من خالقها ، وهو ذكر اسم الله عليها ، وهذا المعني في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١] والفسق الخروج عن الطاعة .

وهنا قضية تناولها المتقدّمون بالبحث وواجهها المعاصرون علمياً ، وهي اللحوم المستوردة من الخارج ، فماذا حكمها ؟

ولا ينبغي أن نجهد القارىء الكريم في مبحث أصولي ، أو جدل فقهي ، ولكن نوجز العرض بما يعطي الصورة ، ويجعل المسلم في إمكانه أن يختار لنفسه فنقول له : إنَّ قوله تعالىٰ : ﴿ ولا تأكلوا ممَّا لم يذكر اسم الله عليه ﴾ وقوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ ومعهما ﴿ المنخنقة والموقوذة والمتردّية ﴾ يوجب حرمة كل ذلك سواء وقع لها على يد المسلم أو يد كتابي، لدلالة العموم في قوله تعالىٰ حرمت عليكم في جميع تلك المسميات . وعليه لو خنق الكتابي بهيمة بيده ، أو بحبل ، أو وقذها بسكين أو سهم ، أو أسقطها من مكان عال ، أو أغرقها في ماء حتى انكتم نفسها فماتت، من هذا كله ، أو ذبحها من موضع الذبح سواء ، ولكنه لم يذكر اسم الله عليها وذكر بدلاً منه اسم الصليب أو اسم عيسىٰ أو مريم أو غير ذلك ممَّا يعظمه عنده ، سواء كان مسيحياً أو يهودياً ، فإنَّ مقتضىٰ ذلك أن تحرم تلك البهيمة. لأنَّ المسلم إذا فعل هذا كان حراماً قطعاً .

وهذا قول جمهور العلماء إلَّا من شذَّ ، فقال : إنَّ تلك النصوص خاصة بالمسلمين . وأمَّا أهل الكتاب فإنَّ ذبائحهم حلال لنا ، ولا علينا من طريقة ذبحهم إيّاها . وقد عرفت أيها القارىء رأي جمهور العلماء .

ولكن يجب أن يكون الحكم في هذه المسألة مبنياً على يقين أو غلبة ظن قوية . وعليه نقدم لك أقسام ذبائح أهل الكتاب عند الفقهاء كما ذكرها والدنا الشيخ محمد الأمين ـ رحمه الله ـ في كتابه « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » عند بحثه لهذه المسألة تحت هذه الآية إذ قال : إنَّ ذبيحة الكتابي لها خمس حالات لا سادس لها :

الأولىٰ : أن يعلم أنه سمَّىٰ الله عليها ، وفي هذه تؤكل بلا نزاع . ولا عبرة بخلاف الشيعة .

الثانية : أن يعلم أنه أهل بها لغير الله . والتحقيق أنها لا تؤكل لقوله تعالىٰ : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ .

الثـالثة : أن يعلم أنـه جمع بين اسم الله واسم غيـره ، وظاهـر النص أنها لا تؤكل كالتي قبلها .

الرابعة : أن يعلم أنـه سكت ولم يسم الله ولا غيره ، فـالجمهور على الإباحة .

الخامسة : أن يجهل الأمر لكونه ذبح حال انفراده فتؤكل على مـا عليه الجمهور ، لأنه لم يعرف الكتابي بأكل الميتة انتهىٰ .

وعلى هذا فإنَّ من تحقق عنده أو غلب على ظنه أنَّ الكتابي من اليهود أو النصارىٰ ، قد سمَّىٰ غير الله أو ذبح على نصب أو خنق مثـلاً ، فلا يحـلُّ له أن يأكل . ومن لم يعلم من حالـه كيف فعل فـإنَّه على عمـوم الآية لـه أن يأكل وله أن يترك . ولكن يكون تركه تورعاً واحتياطـاً لا تحريمـاً . ولذا فـلا ينبغي أن يحرم ذلك على غيـره ، بل يكـون اقتناعـه في حق نفسه ، وتـورعاً عمَّا يشتبه عليه .

وهنا وبهذه المناسبة إذا كـان الأمر يـدور حول الجـواز والترك تـورعاً . والرسول ﷺ يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . وقال : « والإثم مـا حـاك في نفسـك » وقـال : « إنَّ الحلال بيِّنٌ وإنَّ الحرام بيِّن وبينهمـا أمـور مشتبهـات لا يعلمهنَّ كثير من النـاس فمن ترك الشبهـات فقد استبـرأ لـدينـه وعرضه » . ممَّا يجعل الأحوط هو الترك . وخاصة نحن ولله الحمد قـد تيسَّر لنا من الإنتاج المحلي مـا يكفي ويغني ، ولا توجـد حاجـة داعية لـذلك ولا اضـطرار ولله الحمد والمنَّـة . وليعلم أنَّ المستورد من بـلاد وثنية أو شيـوعية محرم اتفاقاً .

أمَّا ما جاء في قوله تعالى : ﴿ والمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ والمُحْصَنَاتُ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ [المائدة: ٥] فإنَّ مفهوم غير محصنات أهل الكتاب لا يحلُّ نكاحهنَّ بعقد الإيجاب والقبول ، وإنَّما الإباحة للكتـابيات فقط ، وهـو قول الجمهور إلَّا ما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ مجرد الإباحة لا يقتضي الندب ولا الاستحسان ، بل هو مجرد بيان الجواز فقط ، وتقديم المحصنات من المؤمنات يبيِّن الإرشاد إلى تقديمهنَّ لأنهنَّ العفيفات ، والمحصنات هنا هنَّ الحرائر المتعفِّفات ، بخلاف الإماء من أهل الكتاب فلا تجوز بعقد النكاح ، وإن كانت تجوز بملك اليمين ، والإماء المسلمات يجوز نكاحهنَّ لمن خشي العنت ولم يتَّسع طولاً للحرائر .

ويلاحظ اشتراط محصنين غير مسافحين ولا مُتَّخذي أخدان ، هذا منصب على حرائر أهل الكتاب لأنَّ المسلمات ملتزمات بأحكام الإسلام فلا يقارفن ذلك عادة .

وإذا كان نكاح الكتابيات من بعد رتبة المؤمنات وشرط فيهنَّ ذلك ، فالعاقل لا يقدم على زواجهنَّ إلاَّ في الحالات النادرة والظروف الخاصة .

أضف إلى ذلك ما يتوقَّع منهنَّ في معيشتهنَّ وفي تربية أولادهنَّ على ما هنَّ عليه من دينهنَّ .

ولا ننسىٰ أنَّ الأصل في هذا الموضع ، والأساس المبني عليه هو الطيبات ، سواء في المأكل أو الملبس أو المسكن أو الزوجات . ولعلَّ بهذا نكون قد أومأنا إلى نزاهة الإسلام وكمال تشريعه .

*****

السؤال التاسع الساعة والبعث والجزاء

****

قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٢] .

وذلك لأنَّ الساعة أمر غيبي وقد أخبرهم ﷺ بها فاستبعدوها ، ولم تقو عقولهم لأول وهلة على تصوّر ذلك ، وبالتالي على تصديق الخبر بها .

وقد اخترتُ الكلام على هٰذا السؤال لأهميَّته ولترتيب جميع أعمال المكلفين عليه ؛ لأنَّ الإيمان بالبعث والجزاء هو مصدر الانطلاق إلى فعل الخير والكف عن الشر ، تحسباً لذلك اليوم . ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوْ رَحْمَةَ رَبه قُلْ هَلْ يَسْتَوِيْ الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ ﴾ [الزمر:٩] . ﴿ وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيْناً وَيَتِيْماً وَأَسِيْراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوْراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوْساً قَمْطَرِيْراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوْراً ﴾ [الإنسان:٨ ـ ١١] . ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرَّحمن:٤٦] .

وفي مستهلِّ المصحف في أوائل سورة البقرة ﴿ ذٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِيْنَ * الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ ﴾ . وأهم الغيب هو البعث وما يتبعه ، إلى قوله : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُوْنَ ﴾ . أي : وبما يكون فيها ﴿ أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ [البقرة:٢-٥] .

وفي الفروع التكليفية نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِيْنَ * الَّـذِيْنَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُوْنَ * وَإِذَا كَالُوْهُمْ أَوْ وَزَنُوْهُمْ يُخْسِـرُوْنَ ﴾ ثم قال : ﴿ أَلَا يَـظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُـوثُوْنَ * لِيَـوْمٍ عَظِيْمٍ * يَـوْمَ يَقُـومُ النَّـاسُ لِـرَبِّ العَـالَمِيْنَ ﴾ [المطففين : ١ ـ ٦] فلو علم أولئـك وعملوا بمقتضى علمهم أنهم مبعوثون وقائمون لرب العالمين لما طففوا الكيل .

وقوله تعـالىٰ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِيْ يُكَـذِّبُ بالـدِّيْنِ ﴾ أي الجزاء ﴿ فَـذٰلِكَ الَّذِيْ يَدُعُّ الْيَتِيْمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِيْنِ ﴾ [الماعـون:١-٣] . أي : فلو كان يؤمن بالجزاء يوم الدين لما ارتكب كل ذلك .

وقوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعَاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعَاً * وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْرُ مَنُوْعَاً * إِلَّا الْمُصَلِّيْنَ * الَّذِيْنَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُوْنَ * وَالَّذِيْنَ فِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُوْمٌ * لِلسَّائِـلِ والْمَحْرُوْمِ ﴾ [المعـارج: ١٩-٢٥] كل ذلـك بناء على قوله : ﴿ والَّذِيْنَ يُصَدِّقُـوْنَ بِيَوْمِ الـدِّينِ * وَالَّذِيْنَ هُمْ مِنْ عَـذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ ﴾ [المعارج: ٢٦ ـ ٢٧] . فجنس الإنسان خلق هلوعاً ، جبلة إذا مسّـه الشر جزع ، وإذا حصل على الخير منع شحاً وبخلاً ، إلَّا المؤمنين المحافظين على الصلوات والمعطين الزكـاة ينفقون في السـرَّاء والضرَّاء . والمنـطلق في ذلك أنهم يصدقون بيوم الدين والحساب يخافون من الله سوء العذاب .

وكل أساليب القرآن الكريم تـرغيباً وتـرهيباً تقـوم على الإيمان بـالبعث ومن ثمَّ التحذير من النار والترغيب في الجنة .

وعلى ذلك عني القرآن الكريم بهذه القضية أيَّما عنـاية على مـا سيأتي إن شاء الله .

السؤال عن البعث :

جاء السؤال في أساليب متنوعة :

١ - ﴿ يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢] .

٢ - ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابَاً وَعِظَامَاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُوْنَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُوْنَ ﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٤٨] .

٣ - ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ ﴾ [يس: ٧٨] .

فهم يستبعدون الحياة بعد الموت وكانوا يقولون : ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيا وما نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّؤُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِيْ خَلْقٍ جَدِيْدٍ * أَفْتَرى عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبَاً أَمْ بِهِ جِنةٌ ﴾ [سبأ : ٧ - ٨] .

وفي سورة المؤمنون : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابَاً وَعِظَامَاً أَنَّكُمْ مُخْرَجُوْنَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوْعَدُوْنَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧] .

ومن هنا كان اهتمام القرآن بإثبات البعث بعدة أساليب وفي عدة صور :

أولاً : النص الصريح في الموضع من سورة الحج : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِيْ رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِيْ الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَىٰ الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِيْ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيْهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِيْ الْقُبُوْرِ ﴾ [الحج: ٥-٧] .

فقد أورد سبحانه الشبهة وهي الشك في البعث وأعقبها بالجواب

العملي حيث ردَّ الإنسان إلىٰ نفسه ليتأمَّل في أطوار خلقته من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وكل هذه الأطوار يغاير بعضها بعضاً في الماهية . ثم أطواره في الحياة طفلاً ، ثم يبلغ أشدُّه ، ثم يرد إلى أرذل العمر . أطوار يشاهدها في نفسه ولا صنع له فيها ولا يقوى على إيقافها .

وهذا الدليل متكرر كثيراً في القرآن ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ وَعْدَاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِيْنَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] . ﴿ فَسَيَقُوْلُوْنَ مَنْ يُعِيْدُنَا قُلِ الَّذِيْ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء:٥١] .

فلو تذكَّر الإنسان في خلقه أول مرة لما شك في البعث ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِيْ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ * قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]. وضمَّ إليه دليلاً آخر وهو قوله : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيْمُ ﴾ إلى آخرها [يس: ٨١] .

ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَقُوْلُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم:٦٦-٦٧] . فهذا الدليل الأول على إمكان البعث وجملة الأدلَّة كلها أربعة ، تقدم الأول في شخص الإنسان .

ثانياً : إنبات النباتات في الأرض . أي إحياء الأرض بعد موتها ، كقوله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِيْ أَحْيَاهَا لَمُحْيِيْ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [فصلت:٣٩] . ولأنَّ

إيجـاد الإنسان أقـرب ما يكـون إلى إنبات النبـات . بـل الإنسـان من نبـات الأرض : ﴿ واللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [نـوح:١٧] . وقد خلقـه الله من تراب، والنبات ينبت من التراب ولذا يربط سبحانه بين إنبات النبات وإحياء الأرض ويبيِّن الإحياء للبعث .

تـأمَّل أوائـل سـورة (قٓ) : ﴿ قٓ * وَالْقُـرْآنِ المَجِيْـدِ * بَـلْ عَجِبُـوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُوْنَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيْبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيْدٌ ﴾ «[قٓ:١-٣] .

وهذه هي قضية التكذيب بالبعث، فجاء الدليل المقنع : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيْظٌ * بَلْ كَذَّبُوْا بِـالْحَقِّ لَمَّا جَـاءَهُمْ فَهُمْ فِيْ أَمْرٍ مَرِيْجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـاهَا وَزَيَّنَّـاهَا وَمَـا لَهَا مِنْ فُرُوْجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَـاهَا وَأَلْقَيْنَـا فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَـا فِيْهَا مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيْبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكَـاً فَأَنْبَتْنَـا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيْدِ * وَالْنَّخْلَ بَاسِقَــاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيْـدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَـادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوْجُ ﴾ [قٓ:٤-١١] .

فكما أحيا بالمـاء بلدة ميتاً ، فكـذلك يـحيي الخـلائق ويـخـرجهم مـن قبورهم أحيـاء . ومثله قوله تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُوْنَ ﴾ [الأعراف:٥٧] .

ومن يتـأمَّل أطـوار النبات من بـذرة إلى زرع إلى سـاق وأغصـان ، ثم ثمرة يجدها تماثل أطوار الإنسان سواء .

ثـالثاً : خـلق السمـاوات والأرض لعـظم جرمهـا وقـوة بنـائها وسـلامتها على طـول المدىٰ من التفـطّر والشقوق . فـالقادر على خلق هـذه السمـوات قادر على خلق الإنسـان الضعيف : ﴿ لَخَلْقُ السَّمـٰوٰاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] . ﴿ أَوَلَيْسَ الَّـذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِقَــادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهْـوَ الْخَـلَّاقُ الْعَلِيْمُ ﴾ [يٓس:٨١] : ﴿ أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمـوَاتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِـيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣] .

ولهذا جاء في برهان الإيجاد وإلزامهم بالاعتراف بـالربـوبية لله تعـالىٰ عليهم، ربط بين خلقهم وخلق السموات والأرض كما تقدَّمت الإشارة إليه في قوله تعالىٰ :

﴿ أَمْ خُلِقُـوْا مِنْ غَيْـرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُـوْنَ * أَمْ خَلَقُــوْا السَّمـوَاتِ وَالأَرْضَ بـلْ لَا يُوْقِنُوْنَ ﴾ [الطور:٣٥] .

فلو تأمَّل أولـئك الدهريون والـلّادينيّون في ذوات أشخاصهم ، وفيما يحيط بهم من نبـاتات الأرض ، ومـا يظلّهم من السمـاء وما فيهـا من عـوالم فلكية ، لآمنوا بالله ، وكان لزاماً عليهم ذلك .

بل إنَّه لو نظر إلى طعامه وشرابه ،كمـا قال تعـالىٰ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَـانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الـمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيْهَـا حَبّاً * وَعِنَبـاً وَقَضْباً * وَزَيْتُـوْنَاً وَنَخْـلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبـاً * وَفَاكِهَـةً وَأَبّاً * مَتَـاعَاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَـةُ ﴾ [عبس:٢٤-٣٣] - يعني القيامـة - فربط بين معاشه ومعاده . ومثل ذلـك في النازعـات جمع كـل ما تقـدَّم : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقَـاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَـاهَـا * رَفَـعَ سَمْكَهَـا فَسَوَّاهـا * وَأَغْـطَشَ لَيْلَهَـا وَأَخْـرَجَ

ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا ومَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعَاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٥] .

حقاً إنَّ من خلق الإنسان ، وخلق السماء ورفع سمكها ، وأجرىٰ الشمس بالليل والنهار ، ودحىٰ الأرض ، وخلق الجبال رواسي ، ومتع الإنسان والأنعام بذلك - أي بما تنبت الأرض وتدفىء الشمس وتظلّه السماء - وما في الجبال من آيات ونبات وسكنىٰ وإيواء ، كل ذلك مسخَّر للإنسان في حياته ، فإنَّه قادر بلا شك على بعثه وإحيائه بعد مماته .

رابعاً : إحياء الموتى بالفعل في الدنيا . وهو أوقع في النفس وأوقى في الإلزام .

إذا كان إنكار البعث مبناه على استبعاده بعد أن تحوّل الميت إلى عظام بالية ، وتراب ممتزج بالأرض ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ، وَكُنَّا تُرَابَاً وَعِظَامَاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة : ٤٧ - ٤٨] . ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ ﴾ [يٓس : ٧٨] . إلى غير ذلك من النصوص. فيكون معاينة الأحياء لآحاد الموتىٰ أكبر برهاناً وأقوىٰ إقناعاً، لأنه من جنس ما ينكرون . فإذا عاينوا بعض أفراده كان لزاماً لهم في جميعهم لأنَّ الواحد بالنوع يعمّ جنسه .

وإحياء الموتىٰ في الدنيا على قسمين : قسم معنوي ؛ وهو النوم . وقسم حسِّي ؛ وهو أنواع متنوعة .

أمَّا النوم فكما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىٰ ﴾ [الزُّمر : ٤٢] .

وهؤلاء هم أصحاب الكهف ، لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا

تسعاً ، ثم بعثهم الله ، وتساءلوا بينهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وقد جعلهم الله آية على إمكان البعث في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف : ٢١] .

وفي سورة النبأ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : ١ ـ ٥] . ثم ساق الأدلَّة المثبتة للبعث ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [النبأ : ٦ ـ ٩] فذكر النوم من أدلَّة البعث .

أمَّا الإحياء الحسِّي وأنواعه ؛ فقد سجل القرآن إحياء أفراد من جميع الأحياء من الإنسان والحيوان والطير والحوت . وعلى جميع الأحوال ؛ من قتل قتلاً ، ومن مات بدون قتل . ومن أفراد وجماعات . وتفصيل ذلك كالآتي :

أولاً ـ الإنسان : أظهر ما فيه قتيل بني إسرائيل . قال تعالىٰ عنه : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٢ ـ ٧٣] .

ومجمل قصته أنه كانت له ابنة وله مال ، فخطبها ابن أخيه وكان فقيراً ، فامتنع عليه فسوَّلت له نفسه قتل عمه ليرث ماله ، ويتزوج ابنته . وكانت قريتهم منقسمة قسمين متخاصمين ، فقتل عمه وحمله إلى قسم الذين هم أخصامه ، ثم ذهب واشتكىٰ إلى نبيّ الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ وطالب بدم عمه ، ونفىٰ أولئك القوم أن يكونوا قتلوه ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ، كما قصَّ الله من نبئه ، فلمَّا فعلوا أحياه الله

وقال : قتلني فلان . أي ابن أخيه ، ثم رجع ميتاً بعد ما عاينوا إحياءه بالحركة وسمعوا قوله بالنطق ، أي عاينوا خصائص الحياة .

وهنا ينبِّه العلماء على الحكمة في ذبح البقرة أولاً ، فقالوا : لتفقد الحيوية تماماً ، حتى لا يتوهَّم سريان الحياة إليه منها ، لو كانوا ضربوه ببعضها وهي حية ، ولكن بعد أن ذبحوها وفقدت الحياة . ومعلوم أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه ، فيكون الإحياء من الله تعالىٰ . ثم قال تعالىٰ : كذلك . واسم الإشارة عائد إلى المصدر المضمن في إحيائه ، أي : ﴿ كَذَلِكَ ـ الإحياء الذي عاينتموه ـ يُحْيِيْ اللَّهُ المَوْتَى وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٣] إنَّ من أحيا نفساً واحدة قادر على إحياء جميع النفوس كما قال تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إنَّ اللَّه سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ ﴾ [لقمان : ٢٨] . فهذا فرد قُتل قتلاً فأحياه الله وهم يعاينون .

ثانياً ـ الإحياء الجماعي : كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إنَّ اللَّه لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

روىٰ ابن كثير قصتهم ، وتتلخّص في : أنهم عدة آلاف خرجوا من قرية يقال لها (ذا وردان) على فرسخ من واسط ، خرجوا مخافة الطاعون الذي حلَّ بقريتهم فنزلوا وادياً أفيح حتى ملؤوا ما بين عدوتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين صاحا بهم فماتوا عن آخرهم ، وتركوا حتى تمزقت أجسامهم وبليت عظامهم ، فمرَّ بهم نبيّ من بني إسرائيل اسمه (حزقيل) ، فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجاب الله سؤاله ، وأمره أن يقول : « أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي » . فاجتمع عظام كل جسم إلى بعض . ثم أمره أن ينادي : « أيتها العظام إنَّ الله يأمرك بأن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً » فكان ذلك وهو يشاهد ، ثم أمره فنادى : « أيتها الأرواح إنَّ الله

يـأمرك أن تـرجع كـل روح إلى الجسد الـذي كانت تعمـره » فـقامـوا أحياء ينظرون ، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون : سبحانك لا إلـه إلَّا أنت . وكانت في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمـاني يوم القيامة ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَىٰ النَّاسِ ﴾ أي فيما يريهم من الآيـات . أي : لأنَّ هذه الآيـات تدلُّهم على الإيمـان بالبعث وفيه سعادتهم .

ومن ذلك أيضاً مـا جاء في حق بني إسـرائيل في قـوله تعـالىٰ عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَـكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْـرَةً فَأَخَـذَتْكُمُ الصَّاعِقَـةُ وَأَنْتُمْ تَنْـظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْـدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُـرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥ـ ٥٦] .

وأصل هذا هو أنَّ موسىٰ عليـه السلام لمـا حرق العجـل الذي اتخـذه السـامـري اختـار من قـومـه سبعين رجـلاً من خيـارهم ، ليـذهبـوا معـه إلى المناجاة ، ليتوبوا إلى الله عمَّا وقع منهم من عبادة العجل ، وأمرهم بالصـوم والغسل وطهارة الثياب . ولمَّا جـاء موسىٰ لميقـات ربه ، وهـو الوقت الـذي وعده فيه ، قالوا يا موسىٰ اطلب من الله أن يسمعنا كلامه . فلمَّـا دنا مـوسىٰ من الجبل وتغشاه الضباب دعا قومه فدخلوا معه فيه ووقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلِّم موسىٰ ؛ يأمره وينهاه ، فلمَّا انكشف الغمـام قالـوا مقالتهم هـذه : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] فـأخذتهم الـرجفة فمـاتوا جميعاً ، وقام مـوسىٰ ينـاشـد ربه فـأحياهم إليـه ، وقامـوا واحداً واحـداً ينظر بعضهم بعضاً حين يحييهم الله . وهؤلاء هم المشار إليهم في قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيْقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ [الأعـراف : ١٥٥] . فهؤلاء سبعون رجلاً أخذتهم الصعقة فماتوا ، ثم أحياهم واحداً بعد واحد وهم يعاينون . وفيه الدليل على عدم رؤية اللّٰه تعالىٰ في الدنيا ، وذلك غير ممكن لأنه سبحانه لا

تدركه الأبصار ، ولا تقوىٰ على رؤيته الخلائق . ولقد دكَّ الجبل لمَّا تجلَّىٰ ربه إليه وخرَّ موسىٰ صعقاً . سبحانك يا ربِّ ما أعظم شأنك .

ومن الحيوانات ما جاء في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِيْ هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [البقرة : ٢٥٩] وقرىء اعلم بصيغة الأمر .

ففي هذه القصة إنسان وحيوان معاً أماتهما الله مائة عام وهي شبيهة بما قبلها، إلَّا أنَّ فيها مشاهدة مشهد تطوّر الحياة من جمع العظام ، وتركيبها ، ثم شدَّها بالعصب ، وكسوتها لحماً ، إلى أن تمَّ المشهد بعودة الحياة للحيوان مرة أخرىٰ ، حتى أنطقت الإنسان قائلاً أعلم أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير .

ومنه إحياء الموتىٰ والبعث والجزاء . ولذا جعله الله آية للناس دالَّة على القدرة الإلـٰهية على إحياء الخلائق بعد موتهم .

أمَّا من هو هذا ، وما هي القرية ، فهذا أمر تكميلي . فقيلَ : هو عزير ، وهذا مروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ . وقيل : أرميا ، أو غيرهما . فإنَّ الاسم لا يزيد في الصورة شيئاً .

وأمَّا القرية ؛ فبيت المقدس بعد تخريب بختنصر إيّاها .

أمَّا الطيور ففي قصة الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ ، وبعد قصة الذي مرَّ على القرية وفي نفس السورة : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ أَرِنِيْ كَيْفَ تُحْيِيْ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِيْ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ

جُزءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيْنَكَ سَعْيَاً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

وفي هذه القصة تطوّر في الآية ، وإبداعٌ في الصورة ، حيث يطلْب الخليل من ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ فيعمد إبراهيم إلى السؤال وفي صميم القضية ، ولم يأتِ المشهد مصادفةً ، بل جاء قصداً فهو طلب وإجابة . والصورة أربعة من الطير المختلفة أجناسها وإلاَّ لما كان للعدد فائدة بصرف النظر عن أنها من أي الأجناس كانت . فقيل طاوس وديك وحمامة وغراب ، وقيل غير ذلك ، وكما قال ابن كثير لو كان في بيانها فائدة لبيَّنها القرآن .

والخطوة الثانية بعد تخير الطيور ، ذبحها ، وتقطيعها ، وخلط أجزائها بعضها ببعض ، حتى الريش دمجه كله في بعضه ، وأجنحتها وأرجلها ورؤوسها ، ثم أخذ من مجموع خليطها أجزاء ووضعها على عدة جبال . ولو أراد الخليل بنفسه أن يفرز أجزاء كل طير على حدة دون اختلاطه بغيره من الطيور لما استطاع حيث اختلط الريش بالريش ، واللحم باللحم ، والدم بالدم . ولكن القدرة الإلـٰهية أن أمره الله تعالىٰ أن يدعهنَّ فينادي عليها واحداً واحداً ، فإذا بأجزاء الطير الذي ناداه باسمه تتطاير أجزاؤه الموزعة على رؤوس الجبال ، أربعة أو سبعة أو أكثر ، حتى يجتمع بعضها إلى بعض ، فيكتمل تركيب ذلك الطائر ويأتيه يسعىٰ إليه حيث هو في مكانه . وبعد أن اكتمل كل ذلك وأيقن كل اليقين ، قيل له : اعلم . أي علم اليقين وعين اليقين ، أنَّ الله عزيزٌ حكيم .

وبالتأمّل في هذه الصورة وما قبلها نجد تلك الصورة كما أسلفنا جاءت كلها عرضاً ، فكانت صورة الإحياء فيها مجملة . أمَّا هذه فعن سؤال وتطلّع فكانت الصورة مفصَّلة ، وأعمق حيث ذُبحت وقُطِّعت ، ثم اختلطت ، ثم وزعت على رؤوس الجبال حتى لم تبق شائبة شك في ارتباطها بالحياة ، وعودتها أبعد ما تكون إلاَّ على الله العزيز الحكيم .

ومن ذلك حوت موسىٰ مع صاحبه ، إذ قال لفتاه آتنا غداءنا . وكان غداؤهما حوتاً مشوياً معداً للأكل ، فكان جواب الفتىٰ ملفتاً نظر موسىٰ : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ فَإِنِّيْ نَسِيْتُ الحُوْتَ وَمَا أَنْسَانِيْهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيْلَهُ فِيْ البَحْرِ عَجَباً﴾ [الكهف : ٦٣] . ومهما يكن من ملابسات حمل الحوت معهما من كونه علامة على مكان الخضر أو غيرها ، فيهمّنا أنَّ حوتاً مملوحاً ـ كما قال المفسرون ـ تعود إليه الحياة فيتَّخذ سبيله في البحر سرباً .

وبهذا اكتملت لنا كل مشاهد إحياء الموتىٰ في الدنيا ؛ من إنسان قتيل وغير قتيل ، أفراداً أو جماعات ، وإحياء حيوان وحوت وعدد من الطيور . وكلها آيات محسوسة ملموسة ، حقيق بكل من تأملها أن يعلن قائلاً كما قال صاحب القرية : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]ولم يبقَ بعد ذلك استبعاد لبعث الموتىٰ ولا تساؤل عن الساعة أيّان مرساها فإنَّ علمها عند الله .

*****

****

قال تعالىٰ :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيْعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ * إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِيْنَ يُقِيْمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولٰئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ ﴾ [الأنفال : ١ ـ ٤] .

الأنفال : هي الغنائم ، وأصل النفل الزيادة ، ومنه النافلة زيادة على الفريضة . . . وعليه الحديث القدسي : « ولا يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل » أي بعد أدائه ما فرضه الله عليه . والآية الكريمة في حق الرسول ﷺ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] وسمِّيت الغنيمة نفلاً لأنها زيادة على القيام بحماية الحوزة . وقال الشاعر :

إنّا إذا احمرَّ الوغىٰ ذوو الغنىٰ ونعفّ عند مقاسم الأنفالِ

يعني قسمة الغنيمة : وهذا كما قال ﷺ في الأنصار : « إنَّكم لتكثرون عند الفزع وتقلُّون عند الطمع » .

ويطلق النفل على ما ينفله القائد ، أي يعطيه زيادة لسرية من الجيش ، أو فارس لمهمة خاصة .

والسؤال هنا باتفاق العلماء متوجّه لغنائم بدر . وأَكْثَرَ المفسرون في ذكر أسباب هذا السؤال ، ومجمله أنَّ أهل بدر تداولوا الحديث عن مغانمها ، بحكم أنها أول غزوة يغزونها ، وأول غنيمة يغنمونها . وقد سمعوا من رسول الله ﷺ عند خروجهم لعير أبي سفيان ، فقال لهم رسول الله : « لعلَّ الله ينفلكموها » وإن كانت العير قد ذهبت فقد جاءت قريش بالنفير وحصلت الغنائم ، وهم وإن كانوا قد ظفروا بالنصر فقد تطلّعوا للغنيمة . وقد كانوا بعد المعركة ثلاثة أقسام ، قسم أحاط برسول الله ﷺ خشية أن يأتيه من العدو بأس ، وقسم طارد العدو المنهزم يجهز عليه وقسم اشتغل بجمع الغنائم . وكان التساؤل بين هذه الأقسام عن الأولوية ، هل لمن كان يحرس رسول الله ﷺ ، أو لمن كان يطارد العدو ، أو لمن حازها وجمعها ؟ ولا يفوتنا أن ننوّه أنَّ هذا لم يكن عن تحاسد ولا مطمع ، فإنَّ القوم ما بين مهاجر ترك ماله ودياره ، كما قال تعالىٰ : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِيْنَ الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر : ٨] وما بين أنصاري من الذين ﴿تَبَوَّؤُوا الدَّارَ والإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِيْ صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] ولكنه التساؤل والتطلُّع والوعد الذي ملأ آذانهم عند الخروج من ديارهم «لعلَّ الله ينفلكموها».

كل ذلك أمر يحكي الواقع ويلائم الحال . إلَّا أنَّ الجواب جاء فيه ما يشبه العتب ، وينزع منهم الاختصاص : ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ومعلوم أنَّ كل شيء لله ، وأنَّ الرسول ﷺ محكم في نفوسهم وأموالهم . وقد قالوها في أول مجيئه ﷺ إلى المدينة لما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، وجاءه رجل من أصحابه ليلاً فقال ﷺ لبني عمرو :«أجيروه» ، أي ليستطيع المجيء إليه ﷺ نهاراً آمناً على نفسه . فقالوا : أجره أنت يا رسول الله ، إنَّك مأمون ومفوَّض في أنفسنا وأموالنا .

ومع ذلك فإنَّ قوله : ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ينزع عنهم أي

اختصاص فيها ، بينما هم الذين قاتلوا دونها ، بل وخرجوا على عدة بها ، وطبيعي جداً أن يتطلّعوا إليها .

ولكن لمّا كان هؤلاء هم صفوة الأمة ، وصدر أعيانها والمثل الأعلىٰ في المؤمنين كان منهج التربية فيهم ، قمة المناهج وأمثل التوجيهات. وذلك من جانبين :

الأول ـ إنَّ موقفهم المجيد ومسلكهم الحميد سواء من المهاجرين أو الأنصار من حيث المادة والمغنم موقف تعفّف وبذل وإيثار . فما كان ينبغي أن يكون لهم مجرد تطلّع لقسم الغنيمة كيفما كان .

الثاني ـ ولعلّه الأهم في هذا الموضوع ، وهو الموقف المتجدِّد في خصوص بدر ، حينما جاءهم الخبر أنَّ العير التي كان خروجهم إليها قد ساحل بها أبو سفيان ، وجاء الجيش وتغيَّر الموقف ، واستشارهم النَّبيّ ﷺ ، فكان منهم ما أثلج الصدر ، وطمأنَ النفس ، وتهلَّل له وجه رسول الله ﷺ بشراً وسروراً ، حتى قال قائلهم : والله يا رسول الله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسىٰ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون . وقال الآخر : يا رسول الله أمض لما أمرك الله لعلَّك خرجت تريد أمراً ، وأراد الله أمراً آخر ، والله يا رسول الله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك . وغير ذلك من أقصىٰ غايات الطاعة والامتثال ، ممَّا ينبىء بأنهم قد قطعوا أطماعهم عن التجارة والغنائم ، وتوجهت نياتهم خالصة لإعلاء كلمة الله .

ومن تكن هذه حاله لا ينبغي له أن يرجع ويتساءل عن المغانم والأموال ، ولعلَّ هذا هو مصدر هذا العتب ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أي حكمها وتصريفها . ثم يأتي السياق بعد ذلك مستتبعاً للجواب ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهنا نقف متسائلين عند واتّقوا الله . ومن الأتقىٰ لله إن لم يكن أهل بدر ؟ ولكن لأهمية التقوىٰ وفعاليتها ، قدم بها لأنها منطلق كل خير وعنها يحصل

الامتثال ، وأصلحوا ذات بينكم وهي النفوس والسرائر . وهنا وبعد الانتصار العظيم ، والفتح المبين ، يطالبون بنوع آخر من الانتصار وهو على ذات أنفسهم ليتغلّبوا على نوازعها ، ويتساموا إلى أعلىٰ درجات الكمال ، وفيه إشعار أنَّ حقيقة النصر إنّما هي في الانتصار على النفس ، لأنَّ من ضعف أمام نفسه لا يقوىٰ أمام عدوه . وعليه الحديث : « ليس القوي بالصرعة إنّما القوي من يملك نفسه عند الغضب » والأمة إذا ما أصلحت ذات بينها على أساس من تقوىٰ الله ، لا على تبادل المصالح كانت أمة مترابطة متحابة كالجسد الواحد .

ثم جاء بعد الحثّ على تقوىٰ الله وإصلاح ذات البين ، الحثّ على طاعة الله ورسوله . وهذه نتيجة طبيعية ، لأنَّ تقوىٰ الله لا تحصل إلّا بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، ومجموعها هو طاعة الله ورسوله ، وبهذه الطاعة يحصل لهم الرضا في الأنفال بما يحكم فيها الله ورسوله .

ثم جاءت صفات المؤمنين ؛ وهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، أي لتقوىٰ الله ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً لطاعتهم لله ، وعلى ربهم يتوكلون فيطمئنون لأحكامه وتقديره ، إلى آخر ما لهم في الدنيا من عزّة وكرامة ، وفي الآخرة من علوّ الدرجات والمغفرة .

وبعد هذا البيان والإرشاد ، جاء في سياق السورة تفصيل كيفية قسمة الغنائم فقال تعالىٰ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِيْ القُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ والمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا علىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] .

وهنا نلحظ أنَّ ما جعل لله والرسول في أول السورة اختصَّ بالخمس ، فإنَّ لله خمسه وللرسول ، ثم شرك فيه كل من يتطلّع إليه كل عاقل ويتمنّىٰ مجيئه لو لم يجيء ، ولذي القربىٰ وهم القرابة الأدنون ، واليتامىٰ من لا عائلَ لهم ، والمساكين العاجزين عن كسب كامل نفقاتهم ، وابن السبيل

المنقطع عن أهله وبلده ، وكلها مرافق عامة في مصالحهم هم ، فكان جعل حكم الأنفال لله والرسول ، في غاية الحكمة ومنتهىٰ الإصلاح لهم .

وممَّا ينبغي التنبيه عليه في هذا الموقف ، أنَّ قسمة المال في الصورة العامة التي لا تختصّ بشخص بعينه ، والذي تتطلَّع إليه النفوس وقد تشحّ فيه ، تولاها الله تعالىٰ وهي ثلاثة مواطن .

الأول منها ـ هو ما تقدَّم في قسمة الغنائم .

الثاني ـ المواريث ، كما جاء في الحديث : « إن الله قد أعطىٰ لكلِّ ذي حقٍّ حقه ، فلا وصية لوارث » . فقسمها الله من ثمن وربع ونصف وسدس وثلث وثلثين ، أنصباء محددة .

الثالث ـ الصدقات ، كما قال ﷺ : « إنَّ الله لم يكل قسمتها لأحد » . وتولى قسمتها سبحانه أي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ وَالعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِيْنَ وَفِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيْلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] ونلاحظ أنَّ مصارفها كلها في مرافق عامة .

ومعلومٌ أنَّ هناك ما يسمَّىٰ فيئاً ، وهو ما يؤخذ من العدو بدون قتال ، كما جاء في بني النضير حيث نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فكانت لهم الأموال المنقولة ، وأمَّا الأرض فكما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [الحشر : ٦] وجعل الله مصرفه مصرف الخمس من الفيء : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِيْ القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ . . الآية [الحشر : ٧] .

ولعلَّ بهذا يتَّضح السرّ والحكمة في نفل الأنفال ، لله والرسول ، فهو سبحانه أرحم بخلقه .

****

قال تعالىٰ :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

سبب النزول : لجأ المشركون إلى اليهود ليعاونوهم في تحدِّي رسول الله ﷺ ، فطلبوا منهم أن يعطوهم أسئلة يسألون بها رسول الله ﷺ ، يكون فيها تعجيز على حد زعمهم ، فتعاونت قوىٰ الكفر معاً على هذا المنهج ، فقدمت لهم اليهود أسئلة ثلاثة ؛ عن الرجل الذي طوف في البلاد وكان له شأن ، وعن فتية في سابق الزمن ، وعن الروح . وجاءتهم الإجابة عمّا سألوا وكان الجواب عن الروح ما ذكر هنا ، وعليه يكون السؤال والجواب مكيين .

وجاء في خصوص هذا السؤال سبب آخر ، وهو ما أورده المفسرون عن البخاري في رواية عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث المدينة ، وهو متّكىء على عسيب ، فمرَّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، قال : فسألوه عن الروح ، فقالوا يا محمد ! ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحىٰ إليه ، فقال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيْلًا ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه ، قال ابن كثير : هكذا رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية البخاري أنه ﷺ قال لهم : « ما رابكم إليه ؟ » يعني ما دفعكم وحملكم إليه ؟ وبمقتضىٰ هذا السياق يكون السؤال والجواب مدنيين .

جاءت الآية مدنية في سورة مكية ، وبصرف النظر عن زمن السؤال فإنَّ اليهود هم مصدره ، وغايتهم منه التحدِّي كما أسلفنا .

ويلاحظ في الجواب غاية الاقتضاب بما فيه صرف النظر عن سؤالهم ، إمَّا بتجهيل لهم وأنهم ليسوا أهلاً للإجابة ، أو استصغاراً لهم وأنَّ عقولهم لا تستوعبه ، كما لو سأل الطفل معلمه عن شيء يعلم المعلم أنَّ الطفل في غير مستوىٰ فهمه ، فيصرفه عنه ، ويرشح لهذا كله قوله تعالىٰ بعده : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلَّا قَلِيْلاً﴾ . وكما صرف النظر عن سؤال المشركين عن الأهلَّة تبدو صغيرة ثم تكبر . . . إلخ فأجابهم بأسلوب الحكيم ، وأحالهم على علاقتهم بها بأنها مواقيت للناس والحج .

ومن جانب آخر تنبيه على عظم المسؤول عنه ، وأنه من أمر الله في جميع شؤونه ؛ ما هيته ، أحواله ، إيجاده ، تصريفه كلها لله وحده ، وليس للبشر فيه دخل .

ما هو الروح المسؤول عنه ؟

سمَّىٰ القرآن الكريم الروح عدة مسميات ، حصرها ابن القيِّم في كتاب « الروح » (١٥٣) فقال : والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِيْ بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ : ٥٢] . وقوله : ﴿يُلْقِيْ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] .

الثاني : القوة والثبات والنصرة ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِيْ

قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

الثالث : جبريل ، كقوله تعالىٰ : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِيْنُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] . وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٩٧] . وهو روح القدس ؛ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَّبِكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [النحل : ١٠٢] .

الرابع : الروح المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ [النبأ : ٣٨] وفي قوله تعالىٰ : ﴿تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيْهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [القدر : ٤] .

الخامس : المسيح عيسىٰ عليه السلام كقوله : ﴿إِنَّمَا المَسِيْحُ عِيْسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

ولم يذكر الروح التي بها حياة الإنسان والحيوان ، وقال : إنَّها لم تطلق في القرآن إلَّا بلفظ (النفس) وذكر الأمثلة على ذلك كقوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر : ٢٧] . وقول الملائكة : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] إلى غير ذلك .

وعليه فقد اختار أنَّ المسؤول عنه هو الروح المذكور مع الملائكة في ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ وقوله ﴿ تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيْهَا ﴾ على أنه ملك عظيم جداً وذكروا فيه أخباراً غريبة ، قال عنها المفسرون : إنَّها منكرة .

أمَّا ابن كثير فقد اختار أنَّ المسؤول عنه ، هو الروح التي بها حياة الإنسان ، وساق في إيراده سبب النزول ، أنَّ اليهود قالوا حينما سألوا : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ وإنَّما الروح من الله ، وهذا نص صريح في أنها روح الإنسان . ولمَّا لم يكن في المسؤول عنه نص صريح ، وكان لفظ الروح يطلق على عدة معانٍ ، ووجدنا هذا

الاختلاف بين إمامين جليلين ، كان علينا أن نقارن بين تلك النصوص وننظر بالسير والتقسيم لنصل إلى الحقيقة ، ومعرفة الراجح من الأقوال ، فنقول وبالله التوفيق :

إذا كانت النصوص تدور على الروح في جسم الإنسان ، والروح في الملائكة وأنّه ملك عظيم ، والروح في الوحي ، والروح في النصرة والتأييد ، والروح في عيسىٰ عليه السلام ، تخرج الأوجه الضعيفة الاحتمال ، ويبقىٰ ما فيه الشبهة قوية :

أولاً ـ عيسىٰ عليه السلام : لم يكن اليهود ليسألوا عنه لما بينهم من العداوة ، فلن يكون موضع اهتمامهم .

ثانياً ـ النصرة والتأييد : قد يداخلها العدد والعتاد وله جانب مادي ، واليهود بعيدون عن تساؤلهم عن نصرة رسول الله ﷺ .

ثالثاً ـ الملك : إذا كان الروح يطلق على الملك ، فقد أطلق على جبريل صراحة كقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِيْنُ ﴾ . وكذلك في قصة مريم : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيَّاً﴾ ، فما المانع من أن يكون الروح المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلاَئِكَةُ صَفّاً﴾ أن يكون الروح هو جبريل ؟ ويكون من عطف العام على الخاص نظير قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ﴾ [البقرة: ٩٨] . فَإِنَّهُ من عطف الخاص على العام ، وهو نص صريح في جبريل وكذلك ﴿تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ والرُّوحُ فِيْهَا﴾ يعني جبريل ، بقي الأمر دائراً بين الوحي والروح في البدن .

واحتمال كونه الوحي يؤيِّده السياق ، حيث بدأ الحديث عن القرآن ، وأعقب السؤال والجواب أيضاً الحديث عن القرآن ، ابتداء من قوله تعالىٰ : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلاَ يَزِيْدُ الظَّالِمِيْنَ إِلاَّ

خساراً ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً ﴾ [الإسراء : ٨٢ ـ ٨٣] . وبعدها بآية واحدة جاء السؤال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ . وبعده مباشرة قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيْلاً ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيْرَاً ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْرَاً﴾ [الإسراء:٨٦ـ٨٨] فهذا السياق المكتنف للسؤال لو أخذنا بدلالته ، لكان ارتباط السؤال بالوحي قوياً ، لا سيّما اقترانه بأمر ربه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورىٰ : ٥٢] . فهي نظير (من أمر ربي) . وقوله ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ نظير ﴿ من أمر ربي ﴾ ولكن ملابسات السؤال وصدوره عن اليهود وهم أهل كتاب يضعف هذا الاحتمال ، لأنَّ أمر الوحي ليس يخفىٰ عليهم . فبقي الروح في البدن .

وقد اختار هذا القول ابن كثير كما أسلفنا وأبو حيان ، أمَّا ابن جرير ، فاقتصر في معاني الروح على جبريل وعلى الملك العظيم ، ولم يذكر غيرهما ، بل ولم يرجح أحدهما ، والقرطبي ذكر الأنواع كلها وقال : الأولىٰ بقاء الإبهام على أنه من أمر ربي لا يعلمه أحد ، وذكر أبو حيان أنَّ اختلاف الناس في الروح سبعين قولاً .

فتحصَّل الراجح أنَّ الروح المسؤول عنها هي التي بالبدن . أمَّا قول ابن القيِّم رحمه الله : إنَّه لم يأت في القرآن إلَّا بلفظ النفس كقوله : ﴿ يـٰأَيَّتُها النفس المطمئنَّة ﴾ وغيرها ، فيجاب عنه ، بأنَّ النفس والروح والنسمة بمعنىٰ واحد ، وقد جاء إطلاق الروح على ما في البدن في السنَّة الصحيحة ، كواقعة النوم حتى طلعت عليهم الشمس فقال ﷺ : « قبض أرواحنا » . . . وقول بلال : قبض روحي الذي قبض أرواحكم . وقوله ﷺ : « الأرواح جنود مجنَّدة » . . . إلخ .

ومع هذا الخلاف وهذه الإيرادات ، وقد استقرَّ الترجيح على أنها

الـروح التي بالبـدن ، فقد بقي للعلمـاء مباحث عـديـدة حـول الـروح ؛ في أحوالها لا في ذاتها وماهيّتها ، كالآتي :

هل هي عرض أم ذات ؟ وهـل هي قديمـة أم حادثـة ؟ وهي واحدة أم متعددة ؟ أي أقسام وأجناس ، وهل هي باقية أم فانية ؟ وهل ملازمـة للجسم أم غير ملازمة ؟ إلى غير ذلـك من الأبحاث المتشعبـة ، وقد أُلّفت في ذلـك الكتب وجمعت الأقـوال ، ومهمـا جمـع فيهـا أو ألف أو كتب ، فهـو داخـل تحت قوله تعـالىٰ : ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيْلاً ﴾ وبما أنَّ الـذي يهمنا من أمـر الروح ـ وفي حـدود قدرتنـا من حيث الفهم والاستيعـاب ـ إنَّمـا هـو مبحث أحوالها ، فإنَّا سنورد بإذن الله مجمل ما قيـل حولهـا تعريفـاً للإنسـان بنفسه .

خصائص الروح

كان الجواب عن سؤالهم بقوله تعـالىٰ : ﴿ قُلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ ﴾ مقنعاً للمسلمين مسكتاً للسائلين وهم اليهود المتعنتون .

ولكنَّ العلمـاء رأوا للروح خصائص ظـاهرة تخـالط الجسم فتكون فيـه الحيـاة ، وتفـارقـه فيكـون جثـة هـامـدة ، ينـام فيغيب عنــه الإدراك ويـرىٰ المنامات ، ويستيقظ فيعود إدراكه إليه ويحكي ما رأىٰ في منـامه ، وقـد يبقىٰ أثر ما رأىٰ في نومه إلى ما بعد اليقظة ، كما ذكروا عمَّن نام فرأىٰ أنه يشـرب اللبن ، ورأوا آثار اللبن على فمه ،أو طلبـوا منه أن يستقيء فتقيَّـأ لبناً ، ومن رأىٰ أنه يضرب فتظهر آثار الضرب عليه ، إلى غير ذلـك ممَّا أورد منـه الإمام ابن القيِّم أمثلة عديدة . وكذلك رأوا الجسم يدفن فيفنىٰ ويصير تراباً ، فهـل تفنىٰ الـروح وهي قسيمـة الجسم في تكـوين الإنسـان ؟ وجـاء في السنـة : « أرواح الشهداء في حواصل طير تـرتع في الجنـة » وسمعوا قـوله تعـالىٰ : ﴿يأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُـطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِيْ إِلَىٰ رَبِّـكِ رَاضِيَةً مَـرْضِيَّةً * فَـادْخُلِيْ فِيْ عِبَـادِيْ * وَادْخُلِيْ جَنَّتِيْ ﴾ .فتوجَّـه إليها الخـطاب،والخـطاب لا يكـون إلاَّ

لمن يعقل ، والمطمئنَّة صفة لها ، وادخلي في عبادي يثبت لها الدخول في غيرها ، وكل هذه صفات وخصائص للروح ؛ فذهبوا يبحثون في خصائصها . ومجمل تلك الخصائص موضوع البحث هي : أعرض هي أم ذات ، وقديمة أم حادثة ، وجنس أم أجناس ، وباقية أم تفنىٰ، وملازمة للجسم أم تفارقه ؟ إلى غير ذلك من الأبحاث ، وسنلم بإذن الله بهذه الحالات على سبيل الإيجاز . وقد ألفت عنها المؤلّفات ، وكتبت عنها الأبحاث، واستحدث في الآونة الأخيرة ادعاءات استحضار الأرواح ، والتنويم المغناطيسي ممّا لا أصل له من الناحية العلمية وعلاقتها بالتديّن .

أمّا قدمها وحدوثها : فقد نقل أبو حيان الإجماع على حدوثها وأنها مخلوقة لله ، وناقش ابن القيِّم كلام الفلاسفة بقدمها وأبطله في أكثر من مائة وجه ، وأظهر الأدلّة في أنها مخلوقة ، كقوله تعالىٰ : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِيْ الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد : ٢٢] والبرء : الخلق ﴿ هُوَ اللّٰهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ ﴾ [الحشر : ٢٤] وقوله : ﴿ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] ويكفي حكاية كل من ابن منده وابن المنذر والمروزي وابن تيمية ، الإجماع على ذلك ، ومن الجانب العقلي أنها إن لم تكن حادثة كانت قديمة ، ولو كانت قديمة لتعدّد القدماء ، والله يقول : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ [الحديد : ٣] أي فليس قبله شيء .

أمّا ذاتها ؛ فالمتفق عليه عند علماء أهل السنَّة أنها ذات متميزة وليست عرضاً ، والعرض عندهم ما قام بغيره ؛ كاللون والطعم والرائحة ، والذات ما قام بنفسه لأدلّة متعددة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ اللّٰهُ يَتَوَفَّىٰ الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِيْ غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيْهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] . فهي متميزة عن الجسم يطالبون بإخراجها، وقوله :﴿ يٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيْ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِيْ فِيْ عِبَادِيْ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٢٩] الاطمئنان ،

والرجوع ، والدخول من خواص الذات لا من خواص الأعراض ، وأحاديث الشهداء في أنَّ أرواحهم في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة ، ففيه انتقالها من أجسامها إلى حواصل الطيور ، وهذا مثل ما في الآية المتقدمة : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّىٰ الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ فالقبض، والتوفي، والإرسال كله من خواص الذوات ، إلى غير ذلك . والحديث : « الأرواح جنود مجنَّدة » فهي عالم مستقل « ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وقوله ﷺ : « إنَّ الروح إذا قبض تبعه البصر يشخص إلى السماء » .

وهل هي جنس أم أجناس ؟ يرىٰ البعض أنها أجناس كثيرة ، ويرىٰ البعض أنها ثلاثة أقسام ؛ مطمئنَّة ، ولوامة ، وأمَّارة .

وحكىٰ ابن القيِّم : أنَّ الصحيح أنها جنس واحد ، وإنَّما تلك صفات لها بعد أن لابست الجسم ، وهذه الصفات تسمَّىٰ باعتبار كل صفة باسم ، فتسمَّىٰ مطمئنَّة ، باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ، ومحبته ، والإنابة إليه ، والتوكُّل عليه ، والرضا به ، والسكون إليه . . . ، ولا تكون الطمأنينة الحقيقية إلَّا بالله وبذكره كما قال تعالىٰ : ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] فإذا اطمأنَّ القلب ذهب قلقه وانزعاجه ، واطمأنَّت معه روحه وجوارحه ، وكان في الجملة عبداً ربانياً لا يتحرك إلَّا لله ولا يسكن إلَّا بالله ، وبهذا تتحقق سعادة الإنسان في الدارين . انظر إلى طمأنينة إبراهيم لربه حيث لم يبال بنيرانهم، وبرعاية مولاه إيّاه جعلها عليه برداً وسلاماً ، وبطمأنينة موسىٰ لربه ، حين خرج ببني إسرائيل حيث تسير به السحابة ، حتى أوقفته على شاطىء البحر وجاء فرعون من ورائه ففزع من معه وقالوا إنَّا لمدركون ، فردَّ عليهم سريعاً يطمئنهم : كلَّا إنَّ معي ربي سيهدين ، إنَّه مع الله ومطمئن إلى جناب

الله ، وإلَّا فالله مع الجميع : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة : ٧] ولكن معيَّته سبحانه لموسىٰ معية نصرة وتأييد .

وبهذا يظهر فرق التفاوت بين نفس ونفس في طمأنينتها لربها ، فموسىٰ مع قومه سواء ، وموسىٰ لم يقل إنَّ معنا ربنا ، بل قال : إنَّ معي ربي ، مع أن من يكون مع موسىٰ يكون مع قومه لأنَّ مسيرتهم واحدة وتواجدهم واحد ، ولكنَّ قوة طمأنينة نفوسهم ليست واحدة .

ونفس الموقع مع رسول الله ﷺ في الغار ومعه الصديق ، إذ لحقهم القوم على آثارهم حتى وقفوا على فم الغار ، فتعتري الصديق المخاوف ، ويأتي قوله تعالىٰ : ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] مع فارق لطيف إذ جاءت المعيّة لهما (معنا) بخلاف موسىٰ مع قومه قال : إنَّ معي ربي ، بإفراد نفسه فقط لمَّا يشعر بعلوّ منزلة الصديق ، وخطر موقفه ودوره في هذه الرحلة ، وهو كذلك إذ أنه هو الذي أعدَّ العدة لها ، وهيّأ الرواحل وكان ينتظر تلك الصحبة ، وكان كلَّما همَّ بالخروج إلى المدينة يستمهله ﷺ قائلاً : « انتظر لعلَّ الله جاعلٌ لك صاحباً » فكانت صحبة رسول الله ﷺ ، ولكن أيضاً مع الفارق ، فالصديق تملكه الخوف ، والرسول بالغ الطمأنينة ، كما نلمس من عباراته ﴿ لا تحزن إنَّ الله معنا ﴾ وقد خصَّ بالسكينة في سياق الآية في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، وإنزال السكينة هو نتيجة تلك الطمأنينة .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في « درء تعارض العقل والنقل» (١٠٨/٢) : وفي الأنفس من يحصل له ما يوجب أن يرىٰ بعينه ، ويسمع بأُذنه ما لا يراه الحاضرون ولا يسمعونه ، كما يرىٰ الأنبياء الملائكة ويسمعون كلامهم . . . إلخ .

إنَّها أعظم نعمة ينعمها المولىٰ على عباده هي برد اليقين ، وطمأنينة

القلب إلى الله ، ممَّا تجعل العبد ملكاً وفوق الملوك سعادة ورضاً ، وبهذا نعلم أنَّ راحة البدن أو شقاءه إنَّما هو عن طريق الروح ، لأنها إذا أنست بالله واطمأنَّت إلى الله ، أفاضت من أنسها وطمأنينتها على الجسم ، بل إنَّها كلما قنعت ورضيت ، واستغرقت في ذكر الله قد يساعدها أكثر في الإقلال من تناول الطعام والشراب ، ولعلَّ هذا يقرب إلينا معنىٰ قوله ﷺ : « لست كأحدكم فإنِّي أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » ويواصل صيام نهاره بليله . بل إنَّها باستغراقها قد تسيطر على إحساس الجسم ، كما جاء عن الصحابي الجليل الذي أصيبت ساقه ولزم قطعها ، ولا يوجد البنج آنذاك ، فقال لهم ابنه دعوه حتى يكبر للصلاة ، فإذا كبر فشأنكم به ، فقطعت رجله وهو في الصلاة لم يتحرك .

والحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ سقط سقف المسجد من أحد جوانبه وهو يصلّي في الجانب الآخر فلم يشعر به ، كل ذلك من طمأنينة الروح إلى الله .

أمَّا النفس اللوّامة : فهي التي تذكر الله تارة ، وتغفل عن ذكره تارة أخرىٰ ، وفي حال غفلتها يرتكب صاحبها المخالفة ، فسرعان ما تنتبه وتعود لذكر الله فتلومه على فعله ، فهي نفس مؤمنة ولومها لصاحبها من آثار إيمانها ، وغفلتها نزعة من الشيطان قال تعالىٰ : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيْمٌ * إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١] . وهم الذين يصدق عليهم قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾ [التوبة : ١٠٢] وهكذا المسلم ينبغي أن يكون دائم الذكر لله لتطمئنَّ نفسه ، فإذا ما غفلت وألمَّ في أثناء غفلتها بشيء ، سرعان ما يتذكر ويستعيذ بالله ، ويرجع إلى الله عسىٰ الله أن يتوب عليه ، وعسىٰ من الله على التحقيق ، كما أطمع سبحانه العباد

بالتذليل على ذلك بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيم﴾ .

أمَّا النفس الأمَّارة : فهي ضد المطمئنَّة وهي الغالبة ، إلَّا من رحم ربي ومن تغلَّب عليها بذكر الله .

والأصل في هذا التقسيم قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ ـ ١٠] . فالنفوس واحدة تتفاوت بتفاوت الأعمال .

حالات الأرواح بعد قبضها

يدور الكلام على حالات الأرواح بعد قبضها على ثلاث حالات :

الأولىٰ : أنها تفنىٰ كما يفنىٰ الجسم .

الثانية : أنها تنتقل إلى جسمٍ آخر ، يعيش بها وهو مذهب التناسخ ، وكلاهما باطل .

الثالثة : قول أهل السنَّة والجماعة أنها باقية ولا تعود إلى أي جسم آخر ، بل تبقىٰ في مفردها حيث هي ، سواء كانت مؤمنة أم كافرة ، حتى يوم البعث وينفخ في الصور ، فتعود كل روح إلى جسدها ويبعث صاحبها بتلك الروح التي كان بها حياً في دار الدنيا .

والبحث هنا يدور على عدم فنائها ، ثم على حالاتها وعلاقتها بالآخرين من الأحياء ، أمَّا الشقّ الأول من هٰذا البحث ؛ وهو عدم فناء الأرواح وأنها تبقىٰ حتى تقوم الساعة وينفخ في الصور فتعود الأرواح إلى أجسادها . وذلك من نصوص الكتاب العزيز والحديث ، فمن الحديث ما هو مشهور من أنَّ أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة ، وأيضاً أرواح الأطفال تأوي إلى قناديل معلّقة في الجنة ، ومن الكتاب ما جاء في خصوص أرواح المؤمنين من قوله تعالىٰ : ﴿يٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِيْ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِيْ فِيْ عِبَادِيْ * وَادْخُلِيْ جَنَّتِيْ﴾ وجاء

أنها تزور القبور وتحس بالزائرين ، سواء من أول ما يدفن كما جاء في قوله ﷺ : « سلوا الله لأخيكم الثبات فإنَّه الآن يسأل » ووصية بعض السلف البقاء عند قبره بعد دفنه قدر نحر الجزور، وأنه يستأنس بوجودهم عند السؤال وكذلك بعد الدفن فقد يعيدها اللَّه إلى صاحبها حينما يمرّ به من يعرفه ويسلِّم عليه فتأتي وتردّ عليه السلام ، كما في خصوصه ﷺ قوله : « ما من أحد يسلِّم عليّ إلاَّ ردَّ الله عليّ روحي فأردُّ عليه السلام » . وفي عموم المسلمين كما في قوله ﷺ : « ما من رجل مسلم يمرّ على قبر أخيه المسلم وكان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه باسمه إلاَّ ردّ الله عليه روحه فيردّ عليه السلام» .

وهي تتزاور بعد الموت ، وقد تزور الأرواح بعض الأرواح الأحياء وتخبرها بأخبار صادقة ، كما في قصة وصية ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ وهي أنه لما استشهد مرَّ عليه رجل فوجد عليه درعاً ، فأعجبته ، فانتزعها عنه وذهب بها فأخفاها تحت رحله ، فلمَّا كان المساء جاءت روحه إلى خالد بن الوليد فقالت له : أنا ثابت وقد استشهدت ، فمرَّ بي فلان فأخذ درعي ودفنها تحت متاعه ، فأرسل إليه وخذها منه ، وإن عليّ دين كذا وكذا لفلان ، فمر أهلي يسددونه، وأنَّ عبيدي فلان وفلان عتقاء فأخبر أهلي بذلك ، وأكَّد عليه وأفهمه أنَّ هذا حق وليس بمنام . فلمَّا أصبح خالد أرسل إلى الرجل فأحضره وأجلسه عنده ثم أرسل رجلاً إلى رحله وقال له تجد تحت متاعه درعاً فأحضرها إليّ ، فذهب فأحضر الدرع كما أخبرت روح ثابت تماماً ، فقال خالد : هذه واحدة ، وبرهان صدقه ، فكتب إلى الخليفة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال أبو بكر : إنَّ موضوع الدرع دليل على الصدق ، فأخبر أهل ثابت بسداد ديونه ، وبإنفاذ عتق العبيد . وفيه يقولون : ميت أنفذت وصيته ، يعنون في الدين والعتق ، ونظائر هذه مشهورة عند الناس في جميع العصور .

وأعظم من هذا كله ما جاء عن سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه في حادثة مجيء اثنين من الأعاجم للعمل على نقل جثمانه الشريف ، فرأى

السلطان نور الدين محمود بن زنكي في سنة (٥٥٧ هـ) أنَّ النَّبيّ ﷺ يقـول له : « يا محمود أنقذني من هذين الرجلين » . وأراه رجلين أشقـرين ، ففزع محمود ، ونام ثم رأىٰ الرؤيا مـرة ثانية وثالثة ، وكان رجلاً صـالحاً ، ذا ورد بالليل ، وله وزير صالح فاستدعاه حالاً وأخبره بما رأىٰ وطلب رأيـه ، فعاجله بالسفر حالاً إلى المدينة ، فقدم بمال كثير وأخبر أهل المدينة أنه أتىٰ زائراً ، ودعا أهل المدينة كلهم ليعـطيهم من المال الـذي أحضره ، فحضـروا جميعاً ولكنـه لم يـر الـوجهين اللذين رآهمـا في النـوم فسـأل عمَّن بقي لم يحضـر للسلام عليه واستلام عطائه ، فقالوا له : لم يبق إلَّا رجلان من أهل المغرب عفيفين لا يقبلان من أحد شيئـاً ، هما يعـطيان النـاس وأثنوا عليهمـا كثيراً ، فأصرَّ على إحضارهما فأحضرا إليه فإذا هما اللذان رآهما في منـامه ، ويشيـر إليهما رسول الله ﷺ ، فعرض عليهما المال فأبيا أخذه وقالا : جئنا حجـاجاً وجلسنـا مجاورين ، فـطلب زيارتهمـا في مسكنهما فتمنَّعـا فألـزمهما ، فلمَّـا وصل وكان بالقرب من المسجـد النبويّ مـلاصقاً لجهـة الحجرة فلم يـرَ شيئاً غريباً ، ووجد كتباً وأموالاً ، فلمَّا دار في الغـرفة فـإذا به يسمـع رجع صـوت تحت مـا يشبه الغـطاء الخشبي ومغطَّىٰ بـالحصير ، فـأمر بكشفـه فإذا فتحـة لحفرة عميقة ثم اتجهت إلى الحجرة ، فسألهما فأخبراه أنهما من النصارىٰ ، أرسلهما قومهما في زيّ حجاج مغاربة ، ووكلوا إليهما نقل الجسم الشريف . فضرب عنقهما .

يقول السمهودي ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ سنة (٩١١ هـ) بعد إبراز هذه القصة : لم أجدها في تراجم السلطان نور الدين ، ولكن سمعت من فلان ، وقرأت رسالة فلان ممَّن عاصر تلك الحادثة .

قلت : إنَّ الأمور التي تتناقلهـا الأجيال قـد تكون خيـالات ، ولكن إذا كـان لها متعلقـات ماديـة ثابتـة لا تكون إلَّا عن حقيقـة ، وقد كـان بالمـدينة شاهدا عدل وثبوت وهما :

أ ـ دار الضيافة : وهي عبارة عن مبنىٰ كبير شاهدناه في الستينات شمالي باب المجيدي ، وهو في حالة قديمة ، وسألنا أي ضيافة لهذا المتهدم ؟ قالوا ضيافة السلطان نور الدين محمود لما جاء في قصة كذا ، ويذكرون القصة .

ب ـ سقيفة الرصاص : والسقيفة في المدينة عبارة عن زقاق ضيق توجد فيه بيوت متقابلة لشخص ، فيبني دَوْراً ثانياً ويسقف فراغ الزقاق ، ويمرّ الناس من تحته ، وكان هذا إلى عهد قريب منتشر بكثرة . ولمَّا سألنا عن الرصاص سبب التسمية ، قالوا : الرصاص الذي أذابه السلطان نور الدين محمود وصبه حول الحجرة الشريفة في حادثة كذا ، ويذكرون الحادثة .

فهذا من حيث الإمكان لا إشكال فيه ، ومن حيث الإثبات فإنَّه يدخل في حدود تعريف المتواتر من الأخبار الذي يرويه جمّ غفير عن مثلهم ، يكون مستنده الحسن . يستحيل تواطؤهم على الكذب .

وقد ترتبط الأرواح بأصحابها في القبر فقط دون أحد آخر ، وقد جاء في ليلة الإسراء أخبار النَّبيّ ﷺ عن موسىٰ الكليم ، أنه مرَّ عليه وهو قائم يصلِّي في قبره ، مع أنه أخبر عنه أنه لقيه في السماء السابعة أو السادسة ، وذكر فضيلة الشيخ عبد العزيز بن رشيد على شرح العقيدة الواسطية ، أنَّ سعيد بن المسيِّب في عام الحرة ، وخلو المدينة من أهلها إلى المزارع والأطراف ، وتعطل الأذان والجماعة في المسجد النبوي ثلاثة أيام ، فكان هو يحضر إلى المسجد النبوي ويجلس بالروضة ، فإذا جاء وقت الصلاة سمع الأذان من داخل الحجرة النبوية .

وذكر ابن القيِّم رحمه الله في كتابه « الروح » أنَّ طلحة مرَّ بقبر عبد الله بن عمرو بن حزام ، وجلس يستريح فسمع تلاوة القرآن من القبر ، فأي تلاوة ؟ وكيف وهو في لحده الضيق . وموسىٰ قائم يصلِّي في قبره ، وأيّ

قيام في لحد محدود . ثم ها هو يسبق رسول الله ﷺ إلى السماوات ، حقاً إنَّه عالم البرزخ ، وحياة الأرواح وبقاؤها ، ولا يعلم حقيقة ذلك ولا كنهه إلاَّ الله . وصدق الله العظيم : ﴿ قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيْلاً ﴾ .

ولعلَّ هذا القدر يوقف العلمانيين الماديين عند حد صغرهم ، ومحدوديتهم أمام إدراك كنه أنفسهم ، فهم أمام غيرهم أصغر وأضيق حدوداً . أما المؤمن فيزداد يقيناً بالله خالق كل شيء والعالم بكل شيء . ولا يسعنا إلاَّ أن نقول : سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علَّمتنا ، اللهمَّ علمنا ما جهلنا ، وذكرنا ما نسينا ، ووفقنا للعمل بما علَّمتنا . وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك على سيد الخلق نبينا محمد ﷺ ، والحمد لله رب العالمين .

علاقة الروح بالبدن

يقول الأصوليون : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، والتصوّر عندهم هو إدراك ماهية الشيء كما هو عليه ، والحال هنا في شأن الروح أنَّ أحداً لا يعرف ماهيتها كما قال تعالىٰ عنها : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ ﴾ ولكن العلماء لم يستطيعوا الكفّ عن التطلّع إلى ظواهر الروح مع البدن ، حيث شاهدوا بأعينهم ، ولمسوا بكل جوارحهم آثار تواجد الروح في البدن من مظاهر الحياة ، وآثار مفارقتها إيّاه من ظواهر الموت ، فتساءلوا كيف تكون علاقة هذه الروح بهذا البدن ؟ ونحن لم نشاهد فيه شيئاً زائداً حال حياته ، ولم نلاحظ عليه شيئاً ناقصاً حال الموت ، بل قد شاهدنا حالة بين بين لا هي حالة حياة بكامل إدراكه ، ولا هي حالة الموت بكامل سلبيتها ، وعليه فلا بد للروح من كيفية تعلق بجسمها فما هي ؟

ولعلَّ القرآن الكريم يعطينا مؤشرات دقيقة حول هذا الموضوع في قوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّىٰ الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ

الَّتِيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىٰ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

ومجمل أقوال المفسِّرين كالآتي :

قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره : النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلَّق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء الحية وهو الحياة ، وفي وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه ، وذلك هو الموت ، وأمَّا في وقت النوم فإنَّه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ، ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن ، فثبت أنَّ الموت والنوم من جنس واحد ، إلَّا أنَّ الموت انقطاع تام كامل ، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه . إنَّ القادر الحكيم دبَّر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه :

١ - أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه ، وذلك اليقظة .

٢ - أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه ، وذلك هو النوم .

٣ - أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت ، فهو لا يرىٰ فرقاً بين النوم والموت إلَّا الارتفاع عن البدن ظاهراً وباطناً ، أو ظاهراً فقط ، وأنَّ علاقة الروح بالبدن علاقة جوهر مشع نوراني روحاني .

وعند الألوسي ما يشبه ما عند الرازي ، مع إشارة في قوله تعالىٰ : ﴿حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا﴾ من أن يتوفىٰ الأنفس حين موتها الموت الحقيقي ، وهو قبض الروح عن الجسد كله ، والتي لم تمت في منامها أنَّ النوم موت ولكن في تدرّج ، وليس في حين واحد ، وساق الأحاديث التي في معنىٰ الوفاة بالنوم ، منها : « اللهُمَّ باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، إن أمسكتها فارحمها وإن

أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . وحديث ليلة الوادي : « إنَّ الله قبض أرواحكم حين شاء وردَّها عليكم حين شاء » .

وساق عن ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سليم بن عامر أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرىٰ الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرىٰ الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً . فقال علي ـ رضي الله عنه ـ أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ ﴾ فالله تعالىٰ يتوفىٰ الأنفس كلها، فما رأت وهي عنده تعالىٰ في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقّتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل ، فكذبت فيها ، فعجب لذلك عمر رضي الله عنه .

وبهذه المناسبة جاء التحذير من إيقاظ النائم بإزعاج وفجأة ، وقيل لأنَّ روحه قد فارقت ظاهر بدنه ، ويجب أن يؤخذ برفق تمهيداً لعودة روحه من الملأ الأعلىٰ وتعود إلى جسمها على حالتها التامة . حتى قيل : إنَّ بعض الناس إذا أفزع في نومه قد يُصاب بخبل ، والسنة أن تسمّي الله عند إرادة إيقاظ النائم .

وأمّا ما جاء في خبر عليّ ـ رضي الله عنه ـ فإنَّه يصدقه الحديث الصحيح : « الرؤيا الصادقة جزء من ستٍّ وأربعين جزءاً من النبوّة يراها الرجل الصالح أو ترىٰ له » ومعلوم أنَّ النبوّة تُتلقىٰ من الأعلىٰ ، ونسبتها إلى ستٍّ وأربعين جزءاً بالذات ، قالوا لأنه ﷺ مكث في غارِ حراء يتحنَّث قبل الرسالة ستة أشهر ، وكان ﷺ يرىٰ آنذاك الرؤيا فتأتي كفلق الصبح أي واضحة محققة ، والستة الأشهر بالنسبة لزمن الرسالة كلها الذي هو ٢٣ سنة يساوي ٢٣ × $\frac{١}{٢}$ = ٤٦ نصفاً .

وقد قسم العلماء الرؤيا ثلاثة أقسام :

أ - الرؤيا الصادقة التي يراها الشخص الصالح ، تكون واضحة الدلالة ظاهرة المعنىٰ فيها إرشاد وتوجيه ، يستبشر بها صاحبها ، وقالوا كلّما كان مطعم الإنسان حلالاً طيباً ، ولباسه نقياً ، وفكره خلياً ، كانت رؤياه صادقة .

ب - ورؤيا من انعكاس ما يزاول في يومه ، كمن كان صانعاً يرىٰ مجال صناعته ، ومن كان زارعاً يرىٰ أخبار زرعه ، ومن كان تاجراً يرىٰ أحوال التجارة وهكذا ، فهذه مجرّد انعكاس أفكاره .

جـ - ورؤيا مزعجة مخيفة ، يقوم صاحبها منزعجاً مثقلاً ، فقالوا : هي من وساوس الشيطان ، ومن آداب الرؤيا أنك إن رأيت ما يزعجك في منامك أن لا تقصّها على أحد وتتفل عن يسارك ، وتتحول على شقك الآخر أي إن كنت نائماً على شقك الأيسر تحول إلى النوم على الشق الأيمن ، فقد قال ﷺ في هذا التعليم أنها لا تضرّك . والرؤىٰ عالم واسع ، ولا يخفىٰ على أحد رؤيا نبي الله يوسف ورؤيا الملك وتعبير يوسف عليه السلام لهما ، ممَّا يؤكِّد أنَّ للروح تصرفات وهي في حال الحياة وحين ارتباطها بجسم صاحبها ، وقد شبَّه الآخرون علاقة الروح بالبدن مع رؤياها الرؤىٰ شرقاً وغرباً ممَّا لا يصله الجسم في سنوات أنه مثل الشمس وإشعاعها فالروح تكون في البدن ، وإشعاعها ينطلق إلى المسافات البعيدة ، أو يأتي بالأعمال العجيبة ، وذلك أن الروح تخلصت من قيود المادة وحجب البشرية عندما ينام الجسم .

ولقد شاهدنا في هذه الآونة الأخيرة نظائر لذلك ، منها تلك الطائرات التي توجه بالأشعة ، فهي متصلة بقاعدتها في الأرض والقاعدة تسيرها ، تطلقها وتوجهها ثم هي تعيدها ، وهكذا مراكب الفضاء وغير ذلك .

أمَّا مركزها في الجسم فلم يكشف عنه تبعاً لعدم معرفة حقيقتها ،

ولكن المعلوم طبياً من تحقق الوفاة ، أنَّ المركز هو المخّ حيث يقول الطب : إنَّ القلب وهو مسير الجسم قد يتوقف وتبقىٰ الحياة باستبدال قلب صناعي ، وقد يعمل ، ولا توجد الحياة بصفته آلة لضخّ الدم وتحريكه ، وقد يستطيعون الإبقاء على حركة القلب ساعات وأياماً ولكن بدون حياة الجسم .

أمَّا المعول على تحقق الموت فهو موت المخ ، وهذا لا يمكن استبداله بغيره ولا تشغيله في غير حالة الحياة ، وإذا كانت هذه حالة الروح تدير البدن ، ولا يعلم كنهها ، فإنَّ العقل كذلك يسجل مسيرة حياة الإنسان إلى حوالىٰ المائة سنة ، ويتذكر ما شاء حينما يشاء ، ولم يدرك كنهه ولا مقره ، ولو شُرِّح الجسم لما عثر عليه ، إنَّها القدرة القاهرة ، والآيات الباهرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:٣] .

*****

****

قال تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف : ٨٣] .

وقبل إيراد الجواب نجد أن هذا السؤال يثير تساؤلات عديدة هي : من السائل ؟ أهم اليهود ، أم المشركون ، أم المسلمون ؟

ومن هو المسؤول عنه ؟ أنبي ، أم ملِك ، أم عبد صالح ؟ وما جنسيته ؟ ومتى وأين كان ؟ وما المراد من إيراد هذا السؤال ؟ وشخصية المسؤول عنه من شخصيات التاريخ القديم ، فلماذا السؤال عنه اليوم ؟

والجواب عن تلك التساؤلات لن يكون قاطعاً يقيناً إلاَّ إذا اعتمد على نقل صحيح صريح . وبعض هذه التساؤلات قد يوجد فيه ما يعتمد عليه ، وبعضها إنَّما هو عمل تاريخي ، تستقرأ له سجلات التاريخ على ما فيها ، حيث إنَّ القرآن لم يكشف لنا عن شخصيته ولم يتعرض لتلك الجوانب منه ، سوىٰ ما وصفه به في تسميته بذي القرنين . ومن المعروف في قواعد أصول التفسير ، أنَّ الذوات التي لا يترتب على بيانها حكم ، أو تؤخذ منها حكمة ، أنها تطوىٰ ، ويكون القصد إلى العمل الذي صدر منها أو لها أو عليها .

كأصحاب الكهف مثلاً ، لم يذكر لنا أسماءهم ولا موطنهم ، بل ولا حتى عددهم صراحة، ولا عن الكلب الذي صحبهم ، سوىٰ أنه باسط ذراعيه بالوصيد . وطعام العزير ، لم يذكر لنا نوعه . وطيور إبراهيم ، لم يذكر لنا

أصنافها وغير ذلك ، لأنه ليس في إيرادها جديد في الموضوع ، والجديد هو مضمون الأحداث التي صاحبت تلك الذات .

وهكذا هنا لم يذكر لنا القرآن شيئاً عن شخصية ذي القرنين ، وإنَّما عمد إلى ما كان منه أو معه ، من أحداث جسام ، ومواقف عظام .

إلَّا أنَّ العلماء ـ رحمهم الله ـ يتطلَّعون فيبحثون في سجلات التاريخ ، بقدر ما يسعهم معتمدين الأخبار تارة ، والقرائن تارة أخرىٰ ، وهذا ينطبق على شخصية ذي القرنين .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تاريخه وتفسيره : لقد التبست شخصية ذي القرنين بالإسكندر المقدوني الذي بنىٰ الإسكندرية ، وطوف البلاد وهزم كثيراً من الملوك ، واستولىٰ على كثير من الممالك ، وقد ادعاه كل من الفرس والروم لشرف انتسابه إليهم . وقال آخرون : إنَّه من حمير ، وإنَّه يماني ، وأنشدوا لبعض الحميريين هذا الشعر :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكَاً تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأىٰ مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خُلُبٍ وثأطٍ حرمد[1]
من بعده بلقيسُ كانت عمتي ملكتهمو حتى أتاها الهدهد

وقد رجح الفخر الرازي في تفسيره هذا الأخير ، واحتجَّ بكثرة وجود لفظة (ذو) في ألقاب اليمنيين ؛ كذي يزن ، وذي نواس ، وذي المنار . وقالوا إنَّ اسمه عبد الله ، أو الصعب بن جابر ، وأنَّ (ذو) في اسمه مضاف ، والقرنين مضاف إليه ، وأنَّ هذا التركيب الإضافي وصف له .

أمَّا سبب وصفه بذلك فقد أورد الفخر الرازي نحو سبعة عشر وجهاً ،

---

(١) عن ابن عباس ، الخلب : الحمأة . والثأط : ما تحتها من طين ، والحرمد : ما تحته من الحصى والحجر .

أشهرها وأقربها أنه كان له ضفيرتان وضفائر الشعر تسمّىٰ قروناً . وأنشدوا له ما جاء في تفسير القرطبي :

فلثمت فاها آخذاً بقرونها   شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

أو لأنه بلغ طرفيّ الأرض مشرقها ومغربها ، أو لأنه عُمِّر طويلاً وقضىٰ قرنين من الزمن ، أو كان لتاجه قرنان ، أو كناية عن قوته وغير ذلك .

وتساءلوا عن نبوّته ؟ أكان نبياً ، أم لا ؟ أو ملكاً ، أو رجلاً صالحاً ؟

فالقائلون بنبوته استدلوا بأنَّ الله خاطبه : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنَاً ﴾ [الكهف : ٨٦] وبقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِيْ الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبَاً ﴾ [الكهف :٨٤] فقالوا : النبوّة من كل شيء ،وهي أقوىٰ الأسباب ، وأجيب عن ذلك بما أوتيته بلقيس من كل شيء . ومن لم يثبت نبوته ، قال : إنَّه ملك مسلم ، داع إلى الله .

وأمَّا عن زمانه ومكانه . فقد قيل إنَّه عاصر الخليل عليه السلام ، وطاف معه ، واستدلُّوا بما جاء في مكة من قول الشاعر عن ذي القرنين أيضاً :

وأقام ذو القرنين فيها حجة   خوفاً يطوف على اللَّظىٰ المتوقّد

وقيل إنَّه بعد نبيّ الله موسىٰ عليه السلام ، وقيل كان في زمن الفترة بين عيسىٰ عليه السلام ونبينا محمد ﷺ .

أمَّا عمره فقيل عمره اثنان وثلاثون سنة ، وقيل مائة سنة ، وقيل عمَّر قرنين من الزمن مائتيّ سنة ، والله أعلم بكل ذلك ، إذ ليس عندنا آثار صحيحة نعتمد عليها .

أمَّا السؤال ممَّن كان هو ؟ وهل هم المشركون أم اليهود؟ وهل كان في فترة مكة ، أم المدينة ؟ وبالنظر إلى أنَّ سورة الكهف مكية ، قيل إنَّ السؤال من

المشركين بمكة ، وقد قيل : إنَّ السؤال من اليهود بالمدينة . قال نزلت آيات ذي القرنين بالمدينة . وجاءت الروايات بالأمرين حكاها ابن كثير في تفسيره.

والمشهور أنَّ المشركين سألوا اليهود عن شيء يسألون رسول الله ﷺ تعجيزاً له ، فأعطوهم ثلاثة أسئلة ، فقالوا : سلوه عن الروح ، وعن فتية خرجوا في الأرض لا يعلم ما صنعوا ، وعن رجل طوف في الأرض . فجاءت سورة الكهف بالجواب عن سؤالين ؛ عن الفتية وعن ذي القرنين ، مع ما جاءت به من أخبار مماثلة أخرىٰ ، كخبر موسىٰ مع الخضر ، ونبأ الرجلين المؤمن والكافر الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ [الكهف : ٣٢] إلى آخر نبئهما .

أمَّا موضوع الروح فقد جاء في سورة أخرىٰ ، وبجواب مقتضب وصرفهم عنه : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ونلاحظ في إيراد هذا السؤال تضافر اليهود مع المشركين على تحدّي رسول الله ﷺ بأيّ شكل كان . كما أنَّ اليهود عمدوا إلى ما لا يمكن معرفته بالظن والتخمين ، وأنه لا يعرف إلَّا بوحي سماوي يظهر ذلك ، ممَّا ورد عن ابن عباس عند ابن إسحاق قال : حدَّثني شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ أربعين سنة عن عكرمة ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنَّهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا : إنَّكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ ، فإن أخبركم بهنَّ

فهو نبي مرسل ، وإلاّ فرجل متقول تروا فيه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنَّهم كان لهم حديث عجيب ، إلى آخر الأسئلة الثلاثة . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . وأخبروهم بما جاؤوا به من عند اليهود . فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه عنها . فوعدهم بالإجابة ولكن أبطأ عليهم ، فأرجف أهل مكة حتى نزلت سورة الكهف وفيها السؤال والجواب .

بقدر ما كان في السؤال من تعنّت ، وتضافر الفريقين ضد الإسلام فقد كان الجواب قوياً عالياً مستعلياً على كل مستويات التحدِّي . إذ جاءت له مقدمة توحي بعظم أمره وكبير شأنه : ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرَاً ﴾ .

وهذا مغاير لأساليب الإجابة عن الأسئلة الماضية بالجواب مباشرة . كما جاء عن الأهلّة : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ ﴾ . وعن الجبال بـ ﴿ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّيْ نَسْفَاً ﴾ . وعن المحيض ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ ﴾ . أمَّا عن ذي القرنين فجاءت هذه المقدمة ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرَاً ﴾ [الكهف : ٨٣] . وهذه المقدمة تسترعي الانتباه ، وتصغي لها الآذان ، وتنبّه الأفهام ، وتجمع الحواس لما سيتلىٰ عنه من ذكر ، يجب أن يحفظ ولا يهمل ، ويذكر ولا ينسىٰ ، ودرس تؤخذ منه المواعظ والعبر ، ولكأنَّه كنز من كنوز الأمم السابقة يُكشف ، أو لسان من ألسنة التاريخ يتكلَّم ، تتفتح له عيون عمياء ، وتصغي إليه آذان صماء ، يشهد بصدق ما جاء به ﷺ من وحي يتلىٰ ، وذكر يسمع . ثم جاء ولأول وهلة معلناً أنَّ ما وصل إليه هذا الإنسان الذي يكبرونه ويتعاظمون أفعاله ، إنَّما وصل إليه بتمكين من الله إيّاه وبما أعطاه الله من أسباب ومقومات ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِيْ الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبَاً فَأَتْبَعَ سَبَبَاً ﴾ أي اتبع ما آتيناه من الأسباب التي لو لم نمكن له فيها لما بلغ ما بلغ إليه ليرد الجميع إليه سبحانه ، إذ هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، وقادر أن

يعطي رسوله ﷺ كل شيء ، ثم أخذ يذكر أحداثه ، ومواقفه على ما سنورده إن شاء الله .

عرض لأحداث ذي القرنين

تقدَّم الحديث عن شخصية ذي القرنين ، والعوامل التي دفعت للسؤال عنه ، وتضافر اليهود مع المشركين في تقديمه وتحديهم به للنَّبيّ ﷺ .

وقد جاء الجواب على مستوىٰ هذا التحدّي ، ممهداً له بمقدمة تتناسب مع عظم الأحداث التي سجلها القرآن عنه ؛ مقدمة تنبىء عن قوة وتأييد وتمكين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِيْ الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف : ٨٤] .

ونلحظ هنا مؤكّدات الأسلوب الابتدائية (بـإنَّا) . وهذا ضمير التعظيم ، ولفظ (مكنَّا) بإضافة التمكين أيضاً لضمير التعظيم ، وكذلك في (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً) التعميم في العطاء وتسخير الأسباب . أي عطاء مستمراً لاستمرار أسبابه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي لم تكن أعماله خوارق عادات يجريها الله له ، ولكنها أعمال مسبّبة ومسببات مرتبطة بأسبابها . وهذا رسم المنهج العملي الذي يكتب له النجاح والبقاء ، لأنَّ الأعمال التي تأتي خوارق للعادات ، أو جاءت صدفة أو بدون مسببات لها ـ أي بدون أسباب مؤثرة فيها ـ تكون إمَّا نادرة ، وإمَّا مؤقتة ، ولا يملك الإنسان إعادتها ولا دوامها ، لأنه لا عمل له فيها .

أمَّا الأعمال التي تجلبها أسبابها ، فإنَّه يمكن جلبها في أي وقت ، وعند كل حاجة إليها ما دامت أسبابها متوفرة .

والأخذ بالأسباب هو سنة الحياة ، وبه جاء شرع الله ، وبه عمل رسول الله ﷺ ، فالمثل العام من زرع حصد والشرع جاء بمشروعية الجهاد وأمر بالأخذ بالأسباب لهذا الجهاد فقال تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . حتى جاء عن عمر ـ

رضي الله عنه ـ أنه قال : لا تحفوا أظفاركم عند قتال العدو فإنَّها سلاح . وسئل أحمد ـ رحمه الله ـ عن ذلك فقال : نعم أليس المجاهد يفكّ عقدة ، ويعقد حبلاً ؟ فالأظفار عون له على ذلك . والرسول ﷺ أخذ بذلك في جميع غزواته فمثلاً :

أ - في (بدر) رتب لأرض المعركة بتوفير الماء في حوض لهم ، وأخذ حفنة من الرمل ورمىٰ بها فأصابت عيون الأعداء .

وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ الأخذ بالسبب عمل رسول الله ، وإبلاغ هذا المسبب وهو هذا الرمل إلى محله كان من الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] فالتسبب منا والنتيجة من الله ، وكما قيل :

على المرء أن يسعىٰ إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتمّ المقاصد

ب ـ وفي (أُحُد) ضاعف ﷺ بين درعين أخذاً بأسباب الوقاية .

جـ ـ وفي (غزوة الأحزاب) قام بحفر الخندق ، وغير ذلك في الحياة العادية . وليس في الأخذ بالأسباب تعارض مع التوكّل على الله ، بل هو من التوكّل ذاته ، لأنَّ السبب ليس هو كل شيء ، وليس هو الغاية ، بل هو وسيلة لغيره . فهذه أمُّنا هاجر وهي التي أعلنت توكلها على الله ، وشدة يقينها بالله ، حين أراد الخليل عليه السلام أن يذهب عنها وهي بالوادي الذي وصفه الله غير ذي زرع فقالت : لمن تدعنا هٰهنا ؟ قال : لله . قالت: آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، فقالت : اذهب فلن يضيعنا الله . فمع هذا تأخذ في الأسباب للحصول على الماء ، فتعلو الصفا ، ولما لم تجد ماء تصعد إلى المروة ، وهكذا . حتى أغاثها الله بعد أن قطعت علائقها من أسباب الأرض وربطتها بأسباب السماء ، أي بعد أن بذلت أقصىٰ ما في وسعها .

وعليه الحديث : « لو توكلتم على الله حق اتكاله ، لرزقكم كما يرزق

الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . فقال كما يرزق الطير ، وليس للطير مزرعة ولا مستودع ، ولم يمكث في وكره ينتظر رزقه ينزل عليه من السماء ، بل إنَّه يأخذ بالأسباب فيتحرك يغدو ويروح ، ويهيِّىء الله له في غدوه ورواحه ما قسم له من رزق . ولهذا فقد أمر الله بعض الحجاج الذين كانوا يخرجون إلى الحج بدون تزود بزاد السفر ويقولون : نحن متوكلون على الله . فقال تعالىٰ : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وهذه هي سنة الحياة ربط المسببات بأسبابها ، والسبب هو ما يتوصل به إلى غيره . فمن طلب أمراً بدون أسبابه ، كان طلبه غير سليم . وكما قيل : إنَّ السفينة لا تجري على يبس .

وهذا ذو القرنين قد مكَّن الله له في الأرض ، وبواسطة ما أعطاه من كل شيء سبباً ، وها هوذا ﴿ أَتْبَعَ سَبَبَاً ﴾ أي اتبع الأخذ بالأسباب ليحقق ويصل إلى ما يريد ، ولعلَّ من أسرار نسق القرآن الكريم أن نجد جملة ﴿ فاتبع سبباً ﴾ آية مستقلة كاملة ، بينما غالب الآيات تكون سطراً وسطرين ، وصفحة كاملة كآية كتابة الدين مثلاً . وقد يكون السرّ هو التنبيه والتعليم والإرشاد ، أن اتباع الأسباب عمل في حد ذاته مستقل مقصود ومطلوب من المكلّفين .

ثم يأتي عرض الأحداث الثلاث التي سجلها القرآن عن ذي القرنين، ولعلَّها من أهم أحداث حياته ، فقال تعالىٰ : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبَاً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمَاً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنَاً * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابَاً نُكْرَاً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرَاً ﴾ [الكهف: ٨٥ ـ ٨٨] فقوله : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبَاً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه. وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ . قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي

وأبـو بكر عن عـاصم : ﴿فِيْ عَيْنٍ حَـامِيَـةٍ﴾ . وروي في ذلـك أثـر عن أبي ذرّ مرفوعاً . وقرأ الباقون: ﴿فِيْ عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهي قراءة ابن عباس. وذكر الفخر الرازي أنه اتّفق أنَّ عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال ابن عباس : حمئة . فقال معاوية لعبد الله بن عمر : كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين . ثم وجَّه إلى كعب الأحبار ، كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة . والحمئة : ما فيه ماء وحمأة سوداء .

وهنا مبحث جدّ دقيق ، وهو في معنىٰ قولـه تعالىٰ : ﴿ وَجَـدَهَا تَغْـرُبُ فِيْ عَيْنٍ ﴾ وأثار هذا البحث الفخر الرازي بقـوله : ثبت بـالدليـل أنَّ الأرض كرة ، وأنَّ السماء محيـطة بها ، ولا شـك أنَّ الشمس في الفلك ، والشمس أكبـر من الأرض بمـرات كثيـرة ، فكيف يعقـل دخـولهـا في عين من عيـون الأرض ؟ .

ثم ذكـر اختلاف التـوقيت بالنسبـة للبلدان المتباعـدة ، مُمَثِّلاً بمـا هـو معلوم اليـوم من أنَّ لحظة الغـروب في مكـان ، هي وقت العصـر في مكـان آخـر ، ومنتصف الليل في مكـان ثـالث ، ومعلوم اليـوم أنَّ الشمس لا تغيب عن وجه الأرض ، فكيف وجدها تغرب في عين ووجد عندهـا قومـاً ؟ وكيف يكونون عندها مع بعدها عن الأرض ؟

واتَّفَقَ المفسرون على أنَّ قوله تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْـرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ أنَّ هذا بحسب نظره ، وما وجده هو كالمشاهـد لكل إنسـان إذا كـان على شاطىء البحـر ، أو في سفينة ، وحـان وقت غروب الشمس ، فإنَّ الرائي يرى بعينه وكأنَّ الشمس تنزل وتغيب في ماء البحر، بينما الذين من وراء نقـطة مغيبها يـرونها مـرتفعة في الأفق . ولـو أنَّ إنسانـاً كان في طـائـرة مـرتفعة على سمت هـذا الرائي ، لاختلفت الـرؤية فيـراهـا من علىٰ الأرض تغرب ويراها من في الطائرة لا زالت في الأفق . ومعلومٌ أنَّ القرآن الكريم لا

يتعارض مع الحقائق الواقعية . فيكون وجدها أي في عينه ورؤيته هو ، لأنَّ الله تعالىٰ لم يقل إنَّها تغرب في عين ، بل قال عن ذي القرنين وجدها .

وهذا ينقلنا إلى بحث له أهميته ، يكشف عن هذه الحقيقة . وهو أن المشرق والمغرب أمر نسبي بالنسبة لموقع البلدان ، وقد جاء في كتاب الله لفظ كل من المشرق والمغرب ، مفرداً تارة ومثنىٰ تارة أخرىٰ ، ومجموعاً مرة ثالثة .

فمن مجيئهما مفردين قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] . وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِيْ مَنْ يَّشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾ [البقرة : ١٤٢] .

ومن مجيئهما مثنىٰ ، قوله تعالىٰ : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرَّحمٰن : ١٧] .

ومن مجيئهما مجموعين : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠] .

ويهمنا صيغة الجمع فقيل فيها : مشارق ومغارب الشمس والقمر ، والكواكب السيّارة . ولكن لا يُقال للقمر شروق ، ولا للكواكب ، ولكن يقال لها طلوع .

وقيل مشارق ومغارب للشمس خاصة ، ولكن بحسب فصول السنة ، حيث تنحرف شمالاً وجنوباً وكل يوم لها مشرق ومغرب .

ويمكن أن يُقال أيضاً : إن مشارق ومغارب الشمس هي أيضاً مواقع شروقها وغروبها بالنسبة للأماكن المتعددة ، بالنسبة لما يعرف اليوم بخطوط الطول ، ومعلوم أنَّ بين كل خط وآخر أربع دقائق ، فتعدد مشارقها ومغاربها بتعدد المواقع . وعليه فالذي وجده ذو القرنين هو واحد من تلك المغارب وهو مغرب نسبي ، والله تعالىٰ أعلم .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ يدلُّ على مكان معين ، وسيأتي بيانه إن شاء الله .

مع ذي القرنين عند مغرب الشمس

قدمنا أنَّ مغرب الشمس ومطلعها أمر نسبي ، وأنَّ المشرق والمغرب وردا مفردين ومثنيين ومجموعين . وأَنَّ العلماء قالوا في صيغ الجمع لتعدد المنازل على مدى السنة ، وأوردنا احتمال ذلك في اليوم الواحد بتعدد الأقاليم ، ومنازل الأمم ، وأنها بالنسبة لذلك يتعدد غروبها بعدد الأمم التي تمرّ عليهم في مسيرتها . وصدق الله العظيم : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيْمِ * وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيْمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِيْ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٨ - ٤٠] فالسباحة مستمرة والحركة دائمة .

ولكن فإن كان أمر الغروب نسبياً ، ويصدق على كل جزء من أجزاء الأرض أنه مغرب للشمس ، على وزن مفعل اسم للزمان والمكان . إلَّا أن النص صريح في أنَّ ذا القرنين أتبع سبباً حتى بلغ . وهذا يدل على حركة وانتقال ، بل وطول سفر حتى وصل إلى موضع معين ووجد الشمس تغرب عندها . فيكون هذا الموضع هو آخر موضع من القسم المعمور من الأرض والذي يمكن أن يصل إليه إنسان بمثل ما أوتي ذا القرنين من التمكين في الأرض ، والإيتاء من كل شيء سبباً .

وعليه يكون ذو القرنين قد وصل أقصىٰ جانب الأرض من اليابسة على وجه الأرض . وقد جاء عن طارق بن زياد لما غزا المغرب وفتح إفريقيا ، أنه لما وصل إلى البحر وهو المعروف اليوم بالمحيط الأطلسي ، أخاض فرسه فيه قليلاً ثم قال : اللهمَّ إنِّي لو كنت أعلم أحداً وراء هذا البحر لخضته وقاتلتهم في سبيل الله .

ويؤيِّد هذا أنَّ ذا القرنين وجد الشمس تغرب في عين حمئة ، ولم يجدها تغرب في صحراء جرداء ، ولا مروج خضراء ، فيكون قد وصل إلى شاطىء محيط من تلك المحيطات وانتهىٰ إلى هذا الحد .

أمَّا أحداثه هناك فإنَّه ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ من يكون هؤلاء القوم ؟ لم يذكر القرآن عنهم في أجناسهم شيئاً ، وإنَّما ذكر موقفه مع هؤلاء القوم في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنَاً﴾ . وَإِمَّا هنا للتنويع وليست للتخيير . لأنَّ مآلهم إلى نوعين ؛ كفر أو إيمان ، فالتعذيب للكافرين ، والحسنىٰ للمؤمنين ، كما بيَّن هذا التقسيم قوله أمَّا من ظلم أي ظلم نفسه أولاً ، وأعظم الظلم للنفس هو الإشراك بالله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

والقسم الثاني بقوله : ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ﴾ [الكهف : ٨٨] .

وإزاء هذا التقسيم كان موقف ذي القرنين مع هؤلاء القوم ، ممَّا يبرز حقيقة موقفه ومهمته في هذه الرحلة الطويلة ، حتى بلغ مغرب الشمس من أنها كانت رحلة دعوة إلى الله . وندرك من هذا أيضاً موجب تمكين الله له في الأرض ، وإيتائه من كل شيء سبباً ،ولعلَّها قاعدة عامة كما يشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ * الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١] .

وهنا نستميح القارىء في وقفة خفيفة نتأمل فيها منهج ذي القرنين مع الفريقين ، لنصحِّح مفاهيم بعض الكتّاب في قضية لها خطرها ، وهي قضية حرية الأديان ، ومبدأ الجهاد في سبيل الله ، حيث نجد ذا القرنين يعذب من ظلم ، ثم ينذره حين يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ، فلم يتركهم أحراراً فيما رغبوا ، ولم يقاتلهم دفاعاً عن نفسه ، فهو بلا شك أقوىٰ منهم ، ومكَّن الله له في الأرض .

وهكـــذا أدَّىٰ ذو القــرنين مهمتــه هنــاك ؛ أدب الــظالمين ، ومكـن للمؤمنين ، ثم أخذ راجعاً كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ .

والكلام على مطلع الشمس هنا كالكـلام على مغرب الشمس هنـاك ، إلَّا أنَّ هنا وصفاً زائداً، وقد يؤخذ منه تحديد المكان الذي بلغ إليه ، وذلك أنَّ الله سبحـانه وصف حـال مطلع الشمس الـذي بلغه ذو القـرنين بقـولـه : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْرَاً﴾ [الكهف: ٩٠] فهو قـد وصل إلى قوم تغـاير حـالهم حال غيـرهم عند طلوع الشمس عليهم ، إذ هم في مكان يغاير الأماكن التي تطلع عليها الشمس في مواطن أخرىٰ من سـطح الأرض، مِمَّا يدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٩-٩٠] قالوا لقد سار اثنتي عشرة سنة ، وقيل غير ذلـك . والـذي يهمنا أنـه سار من مـوطن غروب الشمس في طـرف الأرض من جهة المغرب ، ثم عاد وتابع السير إلى أول طلوع الشمس من جهة المشرق .

ولـو طوف حـول العالم في سيـر متواصـل ، لكـان بلغـه في أقـلّ من ذلـك . لأنهم يقولـون في علم الهيئـة : إنَّ محيط الكـرة الأرضيـة عنـد خط الاستواء يبلغ طوله (٢٤٩٠٢) ميلاً . ولو قدَّرنا للمسير العـادي (٢٠) ميلاً في اليوم لكان قطع هذه المسافة في (١٢٤٥) يـوماً . تعـادل (٢/١ ٤١) شهـراً وتساوي (١٢/٥ ٣) ثـلاث سنوات ونصفـاً تقـريبـاً ، هـذا إذا كـان مسيره متواصلاً . فكيف وهو صاحب هذه القوة والعدد الـذي معه ؟ لا شـك أنهـا رحلة طويلة وعمـلٌ جـد عـظيم . وبقي البحث عن حـال هؤلاء الـذين وجدهم عند مطلع الشمس ولم يجعل الله لهم من دونها ستراً .

نجـد بعض العلمـاء يقـول : ليست لهم بيـوت يـأوون إليهـا من حــرِّ الشمس ، وإنَّمـا يعيشـون في كهـوف ، وغيـران ، يـأوون إليهـا نهــاراً ثم يخـرجون لمعـاشهم ليلاً ، إلَّا أنـه يردّ على ذلـك أنَّ الكهـوف أصبحت لهم

ستراً، والحال أنَّ الله لم يجعل لهم من دونها ستـراً، وقال آخـرون: هم قوم عراة لا يلبسون الثياب، ويستشهدون بما يوجد في بعض مجاهل إفريقيا وآسيا.

وأقـول : لقد شـاهدت جمـاعة من هؤلاء العـراة في مكانٍ أحضـرتهم الحكومة من الغابات لتـأنيسهم ، وهي تعاني منهم معـاناة شـديدة في سبيـل تـوطينهم وتأنيسهم ، ولكن هؤلاء لا يصـدق عليهم النصّ القـرآني لأنَّ عـدم الثياب من جعلهم هم ، والمنفي هو ما كان من جعل الله ، أي من الأسباب الكونية ، ولو كان المراد نفي الثياب لكان التعبير حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قومٍ لم يجعلوا لهم من دونها ستراً . فـالجعل المنفي هـو من جـانب الله تعالىٰ ، وعليـه يغلب على الـظن أنَّ المكـان الـذي بلغـه ذو القرنين من جهة المشرق ، يصدق على المنطقة القطبية التي تستمـر الشمس طالعة عليهم مدة ستة أشهر في بعض الفصول ، وفي يـوم من السنة قـد ترىٰ الشمس تغـرب من جهة المغـرب ، ثم تشرق من جهـة المشـرق وليس بين غروبها وشروقها أكثر من ساعة زمنية .

فإذا كان يوم تلك المنطقـة في بعض الفصول يستغـرق نصف السنة ، فهي بلا شك لم يكن بينهم وبينهـا ستراً ، ويكـون ذو القرنين قـد وصل إلى هناك بما مكَّنه الله في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً .

وإنَّ قوله تعالىٰ بعد الـرحلة إلى المشرق : ﴿كَـذَلِـكَ وَقَـدْ أَحَطْنَـا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ [الكهف : ٩١] فيه إشارة . فإلىٰ أي شيء تشير ؟

قال المفسّرون إنَّها تشير إلى موقفه من القوم الذين وجدهم عند مغرب الشمس . أي أنَّـه قام فيهم بـالدعـوة إلى الله : أمَّا من ظلم ، وأمَّـا من آمن وعمـل صالحـاً ، فتكـون الإشـارة والكـاف لتشبيـه من وجـدهم عنـد مـطلع الشمس بحـال أولـئـك الـذين وجـدهم عنـد مغـربهـا ، وهـذا هـو الأظهـر والمناسب .

وقيل : إنَّها لتعظيم أمره ، وشدة معاناته في رحلته هذه الطويلة .

أمَّا قوله تعالىٰ : ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرَاً﴾ فإنَّه يطوي في مدلوله معاني عظيمة، وحقائق جسيمة من شأن ذي القرنين . طواها القرآن عنَّا ، ولكأنَّه يقول وقد أحطنا علماً واطلاعاً وإحصاء لما لديه من أحداث ، وإمكانيات ، ومواقف في رحلته لا ينتهي عجبها ، ولا يتَّسع المقام لسردها .

وهذا ممَّا لا يستبعد على مثل هذه الشخصية الفذة العظيمة . فلن تخلو حالاته وحياته عموماً ، من أحداث جسام ، ومواقف عظام . إلاَّ أنَّ الله تعالىٰ في أول الجواب قال : ﴿ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرَاً ﴾ ومن للتبعيض ، فأصل الجواب منصب على بعض أحواله ، وليست كلها ، وقوله هنا : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا ﴾ ولم تحيطوا أنتم ، وقد أحطنا لما لديه خبراً أي أنه مع عظيم تحركاته ، وجسيم خطواته لم تخف علينا منها خافية ، فكل ما كان منه لدينا خبره ، وإلينا مرجعه ، سبحانه لا تخفىٰ عليه خافية ، ومن جهة أخرىٰ فهو تأكيد لما تقدم من أنَّ الله قد مكَّن له وآتاه الأسباب .

ثم شرع في أمر الحدث الثالث في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبَاً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وسيأتي حديثه إن شاء الله تعالىٰ .

الحديث عن الحدث الثالث لذي القرنين

بعدما بيَّنَ تعالىٰ موقف ذي القرنين عند مغرب الشمس ، وكذلك عند مطلعها ، قال مبيناً الحدث الثالث : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبَاً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمَاً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِيْ الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجَاً عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدَّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّيْ فِيْهِ رَبِّيْ خَيْرٌ فَأَعِيْنُونِيْ بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمَاً * آتُونِيْ زُبَرَ الحَدِيْدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارَاً قَالَ آتُونِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرَاً * فَمَا اسطاعوا أَنْ

يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّيْ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّيْ حَقّاً ﴾ [الكهف : ٩٢ - ٩٨] .

هذا عرض لهذا الموقف الأخير ممَّا ساقه القرآن الكريم ممَّا وعد في قوله : ﴿ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ .

وفي هذا العرض لهذا الموقف من آيات التمكين وعلامات القدرة ما لا يحيط به الإنسان إلَّا بقدر ما يستوعب من هذا النص الحكيم ، وسنلمّ به إجمالاً .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ لم يبيِّن لنا اتجاهه من موضعه الذي كان فيه وهو مطلع الشمس ، فلم نستطع تحديد وجهة سيره شمالاً أم جنوباً ، بخلاف الرحلتين السابقتين ، فكانت الأولىٰ إلى مغرب الشمس ، والثانية إلى مطلعها . ولم يرجع من حيث أتىٰ ، فلم يبق إلَّا ؛ إمَّا إلى الشمال ، وإمَّا إلى الجنوب ، فأين إذاً ما بين السدَّين هاذين ؟

هنا تتعدَّد أقوال المفسرين ، ويوردون أخباراً كلها قابلة للنقاش ، فمن قائل في الصين ، ومن قائل وراء تركيا ، ومن قائل أرمينيا وأذربيجان .

ومرة أخرىٰ نقول : إنَّ القرآن لم يحدد مكانهما ، ولكن بين ما كان عندهما ، وقال الألوسي في تفسيره : هو على خط عرض ٩٠ إلى الشمال .

وكذلك القوم الذين وجدهم عنده ، لم يذكر لنا كتاب الله إلَّا أنهم لا يكادون يفقهون قولاً ، وهذا الوصف يشعر ببعد موطنهم ، عن موطن ذي القرنين الأساسي ، حتى تتفاوت لغتهم عن لغته .

وقد اشتكىٰ هؤلاء القوم من إفساد أمة أخرىٰ في الأرض ، وهم يأجوج ومأجوج ، وأخذوا يتفاوضون معه على أن يحجز بينهم بإقامة سد بين الجبلين .

والحديث الآن عن أمرين عظيمين ، عن السد وإقامته ، وعن يأجوج ومأجوج وما ورد من أخبارهم ، واستخلاص العبرة من كل منهما .

أَمَّا السدّ فكما قال تعالىٰ عن هؤلاء القوم: ﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِيْ الأَرْضِ﴾ وما نوع هذا الإفساد؟ يكفي أنهم يفسدون ولا يصلحون، سواءً أكان إفساداً مادياً في الأموال والممتلكات والزروع ، أو إفساداً أخلاقياً ، أو دينياً أو أيّ نوع كان . وهذا يوجّه الأمم الرشيدة أن تنحجز عن مخالطة المفسدين أيّاً كان نوع فسادهم ، لسلامة دنياهم ودينهم على السواء، وقد بذلوا لذي القرنين الخرج ، وهو الجعل ـ مالاً كان أو عرضاً ـ ليقيم السدّ بينهم وبين أولـٰئك المفسدين ، وذلك في أسلوب العرض في تلطّف ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجَاً عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدَّاً ﴾ وقدموا في الطلب قولهم (بيننا) لأنَّ الغرض الأول هو حماية أنفسهم من إفساد أولئك .

فكان جواب ذي القرنين مفيداً معنيين ؛ الأول شكر الله على ما أعطاه ، والثاني بيان مدىٰ تمكينه واقتداره على ذلك ، حيث قال : ﴿ مَا مَكَّنِّيْ فِيْهِ رَبِّيْ خَيْرٌ ﴾ ومن وراء هـٰذين المعنيين ، إظهار العبودية منه لربه تعالىٰ أمام هؤلاء القوم ، ومع هذا التمكين قال : ﴿ فَأَعِيْنُونِيْ بِقُوَّةٍ ﴾ . وقد فسرت القوة هنا باليد العاملة ، لأنَّ المادة متوفرة معه وقد رفض قبول الجعل منهم ، ممَّا يلفت النظر إلى أنَّ الأيدي العاملة هي القوة الحقيقية ، وهي الطاقة التي تستثمر الماديات وتطوّر المواد الخام بالتصنيع .

أجعل : مجزوم في جواب الطلب (أعينوني أجعل) ومفهومه إن لم تعينوني فلا أستطيع أن أجعل .

ونلحظ المغايرة في الجواب حين طلبوا منه إقامة سد فقال : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمَاً ﴾ فقال العلماء : الردم أقوى من السد ، لأنه عبارة عن تراكم مواده بعضها فوق بعض ، فكأنَّه يقول إن أعنتموني بقوة جعلت لكم

أقوىٰ ممَّا تريدون .

وهنا بدأ في إحضار مواد العمل أولاً . وخطة العمل الناجحة أن يحضر الإنسان مواد المشروع قبل الشروع. أي التخطيط ثم التحضير، ثم الشروع في التنفيذ .

وزبر الحديد : قطعه . قال ابن كثير : روي عن ابن عباس هي كاللبن . وزنة الواحدة قنطار بالدمشقي .

وخطة العمل في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ والصدفان : الجبلان المتقابلان المتساويان في الارتفاع ، كل واحد منهما يصادف الآخر .

وبعد رصف الحديد على هذه الصورة ، وسد ما بين الجبلين ، وملأ الفراغ بينهما ، قال : ﴿ آتُونِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرَاً ﴾ . والقطر هو النحاس . وقيل : النحاس الذائب ، كما قال تعالى في حق نبيّ الله سليمان : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيْحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ﴾ [سبأ : ١٢] . فتلاحم الحديد بالنحاس حتى صار كما يقال : مُرَدَّما . ويُقال ثوب مردّم : أي مرقع رقع بعضها فوق بعض ، أو البرد المحبر .

وقد روىٰ ابن كثير في تفسيره ، عن ابن جرير بسنده إلى قتادة قال : ذكر لنا أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ! قد رأيت سد يأجوج ومأجوج ؟ قال : « انعته لي » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال: « قد رأيته». وقال حديث مرسل. ثم قال : وبعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه ، وجهز جيشاً لينظروا إلى السدّ ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، حتى وصلوا إليه ، ورأوا بناء من الحديد ومن النحاس ، وأنهم رأوا فيه باباً عظيماً وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأنَّ عنده حرساً من الملوك المتاخمين ، إلى آخر خبرهم، وعادوا بعد أكثر من سنتين .

وقد يقول قائل وأين هو اليوم ؟ فنقول : عليكم أن تبحثوا عنه ، لقد قصَّ الله تعالىٰ علينا من خبره ، وأنه سيظل حتى يأتي وعد ربي فيجعله دكاء ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ .

وانطلاقاً من إيماننا بما أخبر الله تعالىٰ به ، فإنَّنا لنقف وقفة تأمل في هذا العمل الجبار على ضوء ما وصلنا من بعض صفات هذا السد .

عمقه وارتفاعه : قيل إنَّه نازل في الأرض إلى حد الماء ، ومرتفع فوق سطح الأرض قيل مائتي ذراع ، وقيل (١٨٠٠)ذراع ، وعرضه(٥٠) خمسون ذراعاً ، وطوله مائة فرسخ والتساؤلات هنا عن كيفية بنائه؟ كالآتي :

حجمه : وممَّا ذكر من الأبعاد ، يكون تقدير طوله (٢٠٠٠) ذراع في خمسين ذراعاً (١٠٠,٠٠٠ ، ذراع ، عنها (٧٥٠ ٠٠٠) متراً في طوله (١٠٠) فرسخ (٤٥) كم = (٤٥٠ ٠٠٠) × عرضه وارتفاعه = (٣٣,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠) ثلاثة وثلاثون ألف وسبعمائة وخمسون مليون متر مكعب. فكيف أوجدوا كمية الحديد لهذه الكمية الهائلة ؟ وكيف رفعوا تلك الكتل بارتفاع (١٥٠) متراً ؟ ثم لمَّا أوقدوا النار على هذه المقادير ، كيف يتمكنون من النفخ فيها ؟ وكيف يقتربون منها ؟ كلها أسئلة لا جواب عليها ، إلَّا بإثبات حضارة سادت ثم بادت . ولم لا يكونون قد توصّلوا إلى آلات تعدين الحديد والنحاس ، وآلات الصناعات ما لم نعلمه اليوم ، كما سبق للقدماء المصريين في مجال الطب والتحنيط .

حقاً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِيْ الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبَاً ﴾ .

ويهمُّنا أنه أقام السدّ الذي حجز المفسدين في الأرض ، وكما قال تعالىٰ عنهم : ﴿ فما اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبَاً ﴾ .

وهنا سرّ بلاغي من أسرار بلاغة القرآن ، وهو مقابلة الألفاظ

بالمعاني ، لأنه سبحانه بين عجز يأجوج ومأجوج عن النفاذ من هذا السدّ . لا بالظهور من فوقه ولا بنقبه واختراقه ، وهما متساويان من حيث منعهما وعجزهما. ولكن لما كان الظهور من أعلاه أيسر من اختراقه ونقبه، قابل الأيسر بالأخفّ ، والأشدّ بالأثقل ؛ ففي الظهور عليه قال : ﴿ فما اسطاعوا ﴾ بدون التاء . وفي النقب قال : ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ .

ومثل ذلك في موقف نبيّ الله موسىٰ مع الخضر عليهما السلام ، قال : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيْلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٧٨] . وأخذ يفسِّر له السبب في كل ما عمله ، وأخيراً قال له بعد أن علم السبب وهان عليه الأمر : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيْلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَاً ﴾ [الكهف:٨٢] نعود إلى ذي القرنين وقد أقام السدّ على ما أراد، وأعلن فضل الله عليه وعلينا جميعاً : ﴿ قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّيْ ﴾ أي تمكينه من إقامة السدّ وحجزه المفسدين بعيدين عن الناس ، ثم أعلن إيمانه بالبعث وبقدرة الله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ . ولو كان من الحديد المتلاحم بالنحاس أو أقوى من ذلك ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ .

يأجوج ومأجوج سبب إقامة السدّ

تقدَّم الكلام الموجز على بناء السد ، أمَّا يأجوج ومأجوج ، فلم يبيِّن لنا القرآن أجناسهم ولا شيئاً من خصائصهم ، إلَّا أنهم مفسدون في الأرض وقد أكثر الناس الكلام عنهم ، فمن قائل : إنَّهم كانوا من الترك ، وقائل : إنَّ الترك من بقاياهم حجزهم السدّ وتركوا من دونه فسموا الترك لذلك ، ومن قائل : إنَّ منهم الطويل السامق كالنخلة والقصير القزم ، ومن قائل : إنَّهم أجناس مختلفة عنَّا ، قصار الأجسام لهم أذان كبار يفترش أحدهم إحدىٰ أذنيه ، ويلتحف الأخرى ، بل قال بعض الناس : إنَّهم أبناء آدم دون حواء وأنَّ آدم نام فاحتلم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقهم الله منه .

قال ابن كثير : كل هذه الأقوال بلا علم ولا سند ، والصحيح أنهم أبناء آدم وحواء وساق الحديث الصحيح : « يقول الله تعالىٰ يوم القيامة : يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت ابعث بعث النار . فيقول كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فيومئذٍ يشيب الصغير وتضع كل ذات حملٍ حملها . فيُقال : ابشروا فإنَّ يأجوج ومأجوج لكم فداء » .

وذكر حديث الإمام أحمد في صفاتهم ، عن ابن حرملة ، عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ ، فقال : « إنَّكم تقولون لا عدوّ لكم وإنَّكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يخرج يأجوج ومأجوج ؛ عراض الوجوه ، صغار العيون ، صهب ، من كل حدب ينسلون كأنَّ وجوههم المجانُّ المطرَّقة » .

ومهما يكن من شيء في أخبارهم ، فممَّا لا شكَّ فيه عند كل مؤمن بالله وبكتابه ، أنهم موجودون وأنهم يوماً ما سيخرجون ، كما قال تعالىٰ : ﴿ حتَّى إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْنَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦ - ٩٧] .

فهذا إخبار من الله عنهم ﴿ حتى إذا فتحت ﴾ (وإذا) لما يستقبل من الزمن ، فيكون وجودهم محققاً قطعاً عند نزول هذه الآية الكريمة ، وأنها ستفتح أي يأجوج ومأجوج بعد نزولها لدلالة (إذا) على ما يستقبل من الزمن .

ويؤيِّد هذا ما جاء في الحديث الصحيح ، من حديث زينب بنت جحش - رضي الله عنها - أنَّ النَّبيّ ﷺ نام عندها ثم استيقظ محمراً وجهه وهو يقول : « ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج

ومـأجوج مثـل هذه ـ وحلّق بين أصبعين وعقـد (تسعين) ـ قـالت : قلت يـا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ ـ قال : نعم إذا كثر الخبث » .

فهذا الحديث ينصّ أنَّ السد موجود ومن ورائه يأجوج ومأجوج ، وأنـه قد انفتح منه ذاك القدر . وسواء كان المـراد من فتح ذاك القـدر الكنايـة عن مجيء الفتنة ، أو كان المـراد فتحاً حقيقـة ، وتبقىٰ تتزايـد حتى يفتح منـه ما يخرجون إلى العالم كما يفهم من قـوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَـاءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّيْ حَقّاً وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِيْ بَعْضٍ ﴾ .

أمَّـا متىٰ خروجهم ؟ فـإنَّ كتب الملاحم تنصّ على أنَّ ذلـك زمن نبيّ الله عيسىٰ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وذلك بعد أن يقتل الدجال .

وجـاء في خبـرهم : أنهم منـذ أن وجـد السـد وهم يحـاولـون نقبـه ، فيعملون طيلة النهار حتـى إذا رأوا شعـاع الشمس من رقّة مـا بقي من نحتهم للسد ، قال الذي عليهم : ارجعوا وستنقبونه غـداً ، فإذا رجعـوا إليه وجـدوه قد عاد إلى ما كان عليه أولاً ، وهكذا دواليـك ، حتى إذا اقترب الـوعد قـال قائلهم : ارجعوا وستفتحـونه غـداً إن شاء الله ، ولمـا قالـوا : إن شاء الله ، جـاؤوا إليه من الغـد فوجـدوه على مـا تـركـوه بـالأمس فتمكّنـوا من فتحـه ، فيخرجون كما وصفهم الله من كل حدبٍ ينسلون .

قال ابن حجر في «فتح الباري على صحيح البخاري» (١٣/١٠٩) وقد ورد في حـالهم عند خـروجهم مـا أخـرجـه مسلم ، من حـديث النـواس بن سمعان بعد ذكر الدجال وقتله على يد عيسىٰ ـ عليه السلام ـ قـال : «ثم يأتيه قـوم عصمهم الله من الدجـال ، فيمسح وجـوههم ويحدثهم بـدرجـاتهم في الجنة ، فبينما هم كـذلك ، إذ أوحىٰ الله إلى عيسىٰ أني قـد أخرجت عبـاداً لي لا يـدان لأحد بقتـالهم ، فحرّز عبـادي إلى الطور ، ويبعث الله يـأجـوج ومـأجوج فيمـر أوائلهم على بحيرة طبـرية فيشـربون مـا فيها ، ويمـرّ آخرهم فيقول : لقد كان بهذه مـرة ماء . ويحصـر عيسىٰ نبيّ الله ، وأصحابـه حتى

يكـون رأس الثـور لأحـدهم خيراً من مـائـة دينـار ، فيـرغب عيسىٰ نبيّ الله وأصحابه إلى الله ، فيرسل عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فَرْسَىٰ كموت نفس واحدة ، ثم يهبط عيسىٰ نبيّ الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجـدون في الأرض مـوضـع شبـر إلَّا مـلأه زهمهم ونتنهم ، فيـرغب نبيّ الله عيسىٰ وأصحابه إلى الله فيرسل طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شـاء الله ، ثم يـرسل الله مـطراً لا تكن منه مـدر ولا وبـر ، فيغسـل الأرض حتى يتركها كالزلقة ـ المرآة ـ .

ثم يُقال للأرض أنبتي ثمرتك ، وردي بركتك فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلّون تحتها ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتـأخذهم تحت آبـاطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم ، فيبقىٰ شـرار الناس يتهـارجون تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة » .

وفي روايـة لمسلم أيضاً ، «فيقولون : لقـد قتلنـا من في الأرض هلم فنقتـل من في السمـاء ، فيـرمـون بنشـابهم إلى السمـاء فيـردّهـا الله عليهم مخضوبة دماً ، أي لفتنتهم » .

وفي مسلم أيضاً: «ويبارك في الرِّسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفـآم من الناس ، واللقحـة من البقر لتكفي القبيلة من النـاس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخـذ من الناس ، فبينمـا هم كذلـك فبعث الله ريحاً طيبـة» إلى آخر الحديث .

وبعد هذا العرض لهذا الجانب من موقف ذي القـرنين عند السـدين ، نقف وقفة طويلة لنتأمل قضية هذه الأمـة من خلق الله ، ونتأمـل تاريخهـا وما هـو معلوم عنـد العلمـاء بـالمـلاحم والفتن التي تكـون في آخـر الـزمـان ، والعلامات التي تسبق قيام الساعة .

وقد جاء عند مسلم في «صحيحه» من كتاب الفتن في آخر جزء منه عن

أسيد الغفاري قال : اطلع علينا النَّبيّ ﷺ ونحن نتذاكر ، فقال : « ما تذاكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة . قال : « إنَّها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات » فذكر الدجال ، والدخان والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسىٰ بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ؛ خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

فنقول : إنَّ حضارات العالم كلها مهما بلغت من المعرفة ، لم تتجاوز في التاريخ أحداث ماضيها .

أمَّا حضارة الإسلام والمعارف لدىٰ المسلمين ، فقد استوعبت الماضي والحاضر وامتدَّت إلى المستقبل .

وها هو سؤال يثيره اليهود على أيدي المشركين بمكة عن ذي القرنين ، فيأتي الجواب وكأنَّه سجل تاريخ طويل ، يمتد من زمن الخليل عليه السلام على ما تقدَّم ، ويطوي الزمن إلى نزول عيسىٰ عليه السلام ، وخروج تلك الأمة على الناس من كل حدب ينسلون .

وإنَّنا وفي هذه الآونة ، وفي عصر الذرة والالكترونيات ، وغزو الفضاء ، لنقف موقف الحيارىٰ نتساءل أين السدّ ، وأين موقعه ؟ وأين يأجوج ومأجوج ؟ وما هي أخبارهم وحالة معاشهم ؟

كل ذلك لا نعلم عنه شيئاً ، مع احتمال أن يكون حول السد مواطن تعدين ، كما أشرنا في استخراج الحديد والنحاس وغير ذلك ممَّا يمكن أن يفيد في حياة الناس .

والسؤال الذي لم يجد جواباً ، لماذا لم تتجه أنظار الأمم إلى البحث عن موقعه مع توفّر الإمكانيات اليوم ؟ إنَّه حدث يحوي تاريخاً طويلاً .

ومثله لدينا عمل ثمود في مدائن صالح ، ينحتون من الجبال بيوتاً كما

ينحت الصبية في العجين .

ومثله عمل الفراعنة في مصر ، أقاموا مقابرهم كالجبال .

أمَّا هـذا السـد فلم يـزل في حـاجـة إلى البحث عنـه ودراسـة طبيعـة موقعه ، وإن بقاءه مجهول المـوقع إلى الآن ، لـدليل على محـدودية معـرفة الإنسان ، وإن فتت الذرة ، وإن غزا الفضاء .

وصدق الله العظيم ، إذ جاء في الجواب عن ذي القـرنين : ﴿ سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ وليس مجرد خبر ، بل ذكر يتلى وحدث تتذاكره الأجيال ، تستخلص منه العبر ، ويستشهد به على قدرة الله تعالى .

*****

****

قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّيْ نَسْفاً ﴾ [طه : ١٠٥] .

من البديهي أنَّ الجبال في شكلها وحجمها ووضعها تسترعي انتباه الإنسان ، وتثير تساؤله عنها ، لأنها أخذت حيّزاً كبيراً فيما يخالط الإنسان في تفكيره وفي معاشه . وقد لفت القرآن الكريم إليها نظر الإنسان في معرض بيان القدرة الإلـهية ، مقرونة مع أخصّ المخلوقات وأعمّها ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ١٧ ـ ٢١] .

قال بعض المفسرين : بدأ بالإبل كيف خلقت لعجيب خلقتها ، وهي أقرب إليهم من غيرها ، لأنها جزء من حياتهم ، وثنىٰ بالسماء لأنهم يقلبون النظر إليها رجاء السحاب والمطر والمرعىٰ ، فإذا نزل المطر لجؤوا إلى الجبال لتكنّهم عن الأمطار ، فإذا كفَّ المطر مشوا في الأرض للسقي والمرعى ، وكل هذه المسمّيات آيات على قدرة الله ، فكما أنَّ في خلقة الإبل بصورته وقوته ومنافعه آية ، كذلك رفع السماء مع حفظها على سعتها وارتفاعها ومرور السنين عليها آية ، وكذلك الجبال في إيجادها وكيف وجدت على تلك الحالة قوة وصلابة وحجماً وضخامة ، فلا شك أن تسترعي انتباههم ويسألون عنها ، وجاء السؤال بقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ

يَنْسِفُهَا رَبِّيْ نَسْفاً ﴾ . وبتأمّل نصوص الكتاب عن الجبال نجد أنها يمكن تصنيفها إلى الآتي :

١ ـ مبدأ إيجادها ، وكيف وجدت وهو المتقدم ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾[1] .

٢ ـ وجود الإدراك والإحساس على ما يعلمه الله منها كما في قوله تعالىٰ :

أ ـ في عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] والجبال شيء من الأشياء .

ب ـ خصوص جنسها ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِيْ السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ والشَّمْسُ وَالقَمَرُ والنُّجُومُ وَالجِبَالُ﴾ [الحج : ١٨] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِيْنَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] . والتذييل وكنّا فاعلين لدفع توهّم الاستبعاد كما في قوله : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيْحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُوْرَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ١٧ ـ ١٩] . وقوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِيْ مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] .

وهنا يحسن التنبيه على تسبيح الجبال وتأويبها مع داود عليه السلام من أنه تسبيح له حقيقة يعلمها الله سبحانه ، ولا نعلمها نحن ، وليس كما يقول البعض : إنَّ المراد منه هو الدلالة على التسبيح ، لأنَّ الدلالة أمر عام في

---

(١) وأخذت في إيجادها صفة من صفات الثمار والناس والدواب ، من اختلاف الألوان كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ من السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ومِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨] .

حق جميع الخلق ، فلم يبق لذكر نبيّ الله داود عليه السلام اختصاص .

وقد جاءت الدلالة العملية على تلك الحقيقة بما يسميه الأصوليون ؛ دلالة الاقتران ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِيْ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيْدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ [سبأ : ١٠ - ١١] فإلانة الحديد له عليه السلام خصوصية ، وهي فوق الإدراك ، فكذلك تسبيح الجبال معه فهو فوق الإدراك ، إلاَّ أننا شاهدنا عمله في الحديد ، ولم نشاهد أو لم نسمع ما يكون من الجبال من التسبيح ، بل جاء في حق النَّبيّ ﷺ حيث سبَّح الحصا في كفه ، وسمع الناس تسبيحه ، وحنَّ له الجذع وسمع الناس حنينه ، فلا مجال لشك ولا لتوقف في إثبات تسبيح الجبال لله تعالى . ثم جاء ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] وقوله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ونحو ذلك من الآيات التي تثبت للجبال إدراكاً وتسبيحاً لله تعالى .

٣ - بيان منافعها والحكمة من إيجادها . منها قوله تعالى : ﴿ وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : ٣٢ - ٣٣]. أي أرسى الأرض عن الاضطراب بالجبال ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : ٦ - ٧] . وقوله : ﴿ وَأَلْقَى فِيْ الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : ١٥] وهي الجبال .

ومن المنافع قوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِيْنَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] فاذكروا آلاء الله : أي نعمه .

قوله عن أصحاب الحجر : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِيْنَ ﴾ [الحجر : ٨٢] . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ

الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمْ الحَرَّ وَسَرَابِيْلَ تَقِيْكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٨١] .

٤ ـ الدلالة العملية المشاهدة لقدرة الله تعالىٰ على التصرّف في تلك الجبال كيف يشاء . من ذلك اندكاك الجبل لما تجلَّىٰ الله تعالىٰ له كما أسلفنا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيْهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١] وذلك لما امتنع بنو إسرائيل قبول ما جاءهم به نبيّ الله موسىٰ عليه السلام وقد صرَّح باسم الجبل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِيْ قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٩٣] إنَّه بلغ بهم منتهىٰ العناد ، حيث يهددون بالجبل فوقهم ومع ذلك يجيبون بقولهم : سمعنا ، فمتىٰ ننتظر منهم السمع والطاعة ؟ إنَّهم لا يفهمون إلَّا لغة القوة والغلبة والإذلال والقهر ، وحينذاك يستجيبون .

٥ ـ وحالة الجبال في نهاية أمرها ومصيرها . وهذه الحالة هي التي جاءهم الجواب عليها بقوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّيْ نَسْفاً ﴾ [طه : ١٠٥] وتتمَّة الجواب يبيِّن مدىٰ قدرة الله تعالى في صورة ذلك اليوم ومشاهده . وذلك في قوله بعدها : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً ﴾ [طٰه : ١٠٦] أي أملس أو مستنقع ماء ، والضمير عائد إلى الأرض بعد نسف الجبال أو إلى الجبال ذاتها صفصفاً : أي حين يعاينون الحقيقة يتبعون الداعي ، داعي البعث لا عوج له ، ولا محيد عنه : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ ـ خوفاً وهيبة ـ فَلاَ تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً * يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيْطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ ﴾ [طٰه : ١٠٨ ـ ١١١] مواقف عصيبة ومشاهد

رهيبة ، يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٩] الجبال تنسف ، والسماء تطوى ، والشمس تكوّر ، والبحار تسجر والنجوم تنكدر ، اللهمَّ سلِّم سلِّم .

وهذه الحالة جاءت نصوصها كالآتي :

أولاً : ترجف الأرض والجبال ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل: ١٤] والارتجاف : الاضطراب كحالات الزلزال .

ثانياً : تحمل الأرض والجبال وتدكّ ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤] .

ثالثاً : تصير بعد الدكّ كثيِّباً مهيلاً ، ثم تبس بساً ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٥ ـ ٦] .

رابعاً : تكون كالعهن المنفوش ، وهو الصوف المهيّأ للغزل .

خامساً: ثم تسير بين السماء والأرض كالسحاب: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : ٣] ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] .

سادساً : وفي هذا التسيير تتلاشىٰ كالسراب ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : ٢٠] أي لا شيء ،كما بيّن تعالى أنَّ السراب ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور: ٣٩] .

والعبرة والموعظة من وراء ذلك كله : هي :

أولاً : في القدرة الإلـٰهية التي نصبت تلك الجبال في أنحاء العالم ، ولو اجتمع سكان العالم كلهم على أن ينصبوا جبلاً واحداً لما استطاعوا ، ليقفوا عند حدهم من العجز .

ثانياً : إنَّ الجبال مع حجريتها وقسوتها فإنَّها تؤوب إلى الله ، وهي ألين من قلوب بعض البشر كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] وقد جا عنه ﷺ في حق جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ولما صعد عليه ﷺ ومعه أبو بكر وعمر اهتز بهم فقال له ﷺ : « اثبت أحد إنَّما عليك نبي وصديق وشهيد » .

ثالثاً : استعظامها واستنكارها ما استهانت وتجرَّأت عليه النصارىٰ من ادعائهم الولد له سبحانه ، كما في قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدَاً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئَاً إِدَّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدَاً ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٠] .

رابعاً : نهايتها المحتومة من نسف ودك وبس وتسيير وتلاشٍ كالسراب في سلسلة أحداث نهاية العالم واختلال نظامه ، وبدلت الأرض غير الأرض والسموات . ممَّا يذيب القلب رعباً ، ويذهل العقل هلعاً ، ويشيِّب الطفل جزعاً . أما لو عقله المشركون لبادروا بالإيمان ، أو تذكره المجرمون لعادوا إلى الإذعان ، وكلَّما تذكره المؤمنون يزيدون في الطاعة والإحسان ، وصدق الله العظيم : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَاً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيْبَاً * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمِّل : ١٧ - ١٨] ونسأل الله العفو والمعافاة .

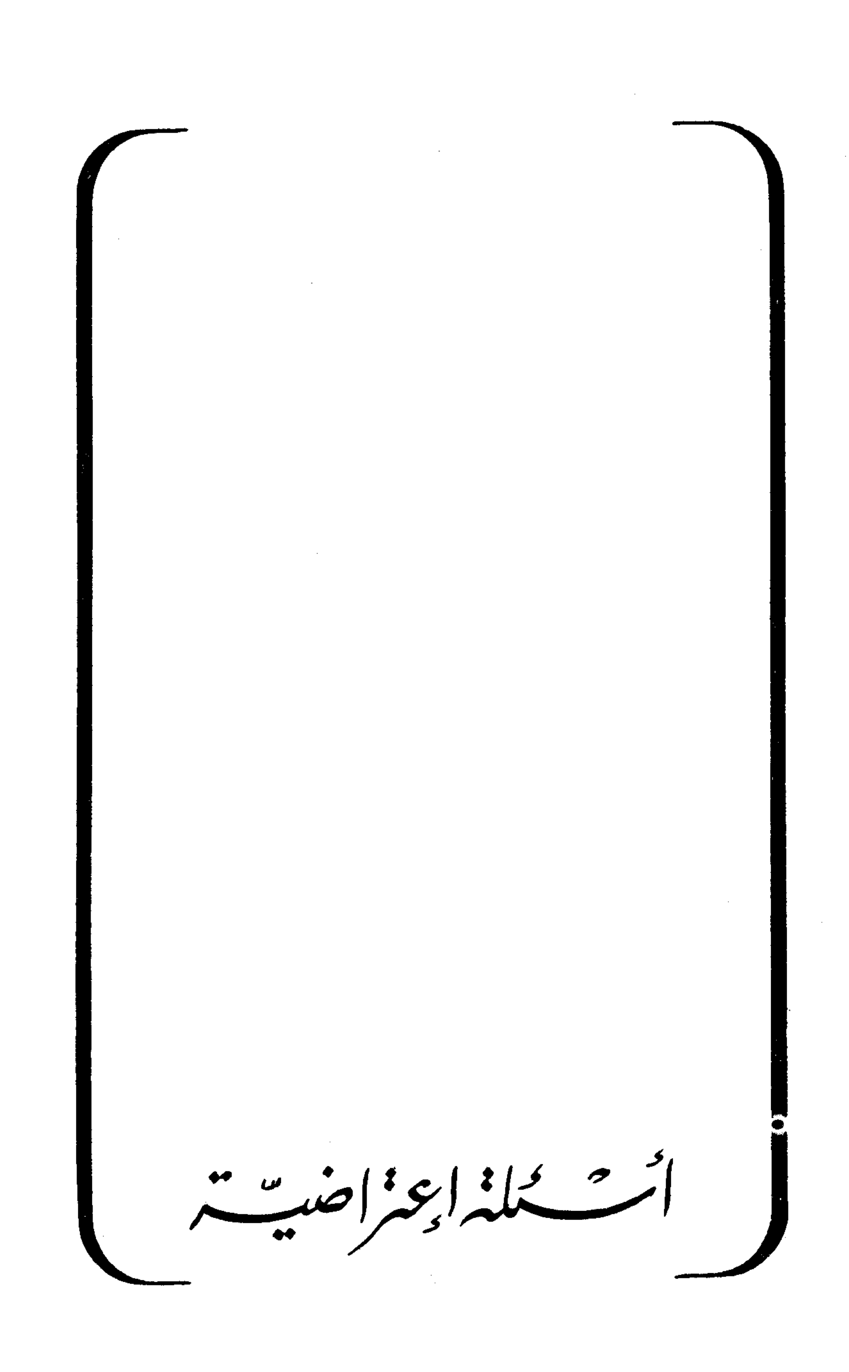
وعودة إلى السؤال والجواب مرة أخرىٰ نجد مقابلة بليغة بين سؤالهم عن أعظم مظاهر القوة عندهم ، يسألونك عن الجبال . فيأتي الجواب في غاية الاستهانة بها ؛ ينسفها ربي نسفاً أي إنَّ ما تتعاظمونه

في حسابكم هو أدنىٰ ما يكون في قدرة الله ، ثم إنَّ الإتيان بمادة النسف ما يخلع قلوب المعاندين ويرعد فرائصهم .

وهو الذي يتناسب مع مظاهر القوة التي ذكرت بعد النسف فيذرها قاعاً صفصفاً ، إلى وخشعت الأصوات للرَّحمٰن . كأنَّ الصورة قد خلعت قلوبهم فتراهم وهي تتلىٰ عليهم ؛ وقد خفقت رؤوسهم ، ووجلت قلوبهم من أثر هول تلك الصورة . وجاء قوله تعالىٰ بعدها : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ [طه : ١٠٨] ولا يستطيعون الاعوجاج عنه ، فمن باب أولىٰ تسمعون الداعي اليوم إلى الله وتؤمنون به وتطيعونه ، لتسلموا من هول ذلك اليوم الذي لا تنفع الشفاعة فيه إلَّا لمن رضي الله له قولاً ، ولن يرضىٰ إلَّا عمَّن آمن وعمل لذلك اليوم الذي تسير فيه الجبال وتنسف نسفاً .

*****




أسئلة إعتراضية

تقدَّم الحديث عن ثلاثة عشر سؤالاً كلها عملية موجهة من هذه الأمة لرسول الله ﷺ ، وكانت كلها واقعية مباشرة لحياتهم ، وكانت الإجابة عليها كلها تعليمية وتوجيهية للأمة ، كسؤالهم عمَّا ينفقون ؟ وعمَّا أحلَّ لهم ؟ وعن الخمر والميسر ؟ وعن المحيض ؟ وعن الجبال ؟ وعن الشهر الحرام ؟ وعن اليتامىٰ ؟ وغير ذلك ممَّا له صلة عملية بحياتهم ، وكان فيها من علوم وتوجيهات الشيء الكثير والكثير جداً .

وهناك أسئلة أخرىٰ من الأمم الماضية ، أو من الأنبياء أنفسهم ، أو من المشركين ، وهي بحسب حالات السائلين ،

فمنها الاعتراضية ، وهذه تأتي أجوبتها مسكتة .

ومنها الإنكارية ، وهذه غالباً تأتي أجوبتها واقعية .

ومنها الاستطلاعية ، وهذه تأتي أجوبتها عملية .

وقد تأتي الأسئلة من الله تعالىٰ موجهة للخلق ، فيها إلزام حيث لا يجدون محيداً عن الالتزام بما يراد منها .

وفي كل قسم من هذه الأقسام دروس وعبر وتوجيهات ، سنلمّ بأهمها إن شاء الله .

فمن الأسئلة الاعتراضية حسب ما قدَّمناه في هذا التقسيم ، الأسئلة الآتية : في قضية تنصيب طالوت ملكاً ، في قوله تعالىٰ :

﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى المَلأَ مِنْ بَنِيْ إِسْـرَائِيْلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسَى إِذْ قَـالُـوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكَاً نُقَاتِلُ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَـا أَلَّا نُقَاتِـلَ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنَـا مِنْ دِيَارِنَـا وَأَبْنَـائِنَـا فَلَمَّـا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَـالُ تَـوَلَّـوا إِلَّا قَـلِيْـلاً مِـنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِالظَّالِمِيْنَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكَاً قَالُـوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَـا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْـهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَـالِ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِيْ العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِيْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٦ - ٢٤٧] .

يبدأ هذا المـوضوع بـأسلوب التعجب من صنيع هؤلاء المـلأ من بـني إسـرائيل - والمـلأ أشرف القـوم ، قـال القـرطبي : كـأنَّهم ملئـوا شـرفاً - مـن بعد موت نبيّ الله موسىٰ حيث لحقهم ذل ومهانة ، فقالـوا لنبي لهم : - قيل : هو شمـويل - ابعث لنـا ملكاً نقـاتل معـه في سبيل اللَّه ، فهم أصحـاب الطلب وقـد توثق منهم بقـولـه: ﴿فَهَـلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ فتحمَّسوا في الجواب وعلَّلوا حـرصهم على القتال بأنهم قد أخرجوا من ديارهم وأبنـائهم ، ومع ذلـك لما كتب عليهم القتال تولوا إلَّا قليلاً منهم ، وقـد أجيبوا لـطلبهم فأخبـرهم نبيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُـوتَ مَلِكَـاً﴾ أي إنَّ اللَّه هـو الـذي اختـاره، وأنتم لم تعينوا شخصاً بذاته ، والله قد اختار لكم طـالوت . عنـد ذلك سألوا سؤال الاعتراض فقالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ مستغربين ذلـك ، ومعارضين في تنصيبـه ملكاً عليهم ، وراحـوا يعللون اعتراضهم بمقاييسهم فقالوا : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ﴾ فأبطل الله مقياسهم ، وأجـابهم بمـا يصحـح مفـاهيمهم الخـاطئة ، ويـوضـح لهم المقيـاس الصحيح ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ولا شك أنَّ اصطفاء الله

خير وأصحّ من اصطفائكم أنتم ، لأنـه سبحانـه أعلم بخلقه منكم وأعلم بمصالحكم منكم .

وكان هذا القدر يكفي ولكن بيَّن لنا من دواعي اصـطفائـه حتى لا يبقىٰ اعتراض آخر ، كأن يقولوا : ولماذا اصطفاه هـو ؟ فقال مـظهراً مـا تميّـز به طـالوت من خصـائص القيادة ومقـاييسها الصحيحـة : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِيْ العِلْمِ وَالجِسْمِ ﴾ .

وبتـأمُّل هـذين الـوصفين اللذين زادهمـا الله لـطالـوت وبسط لـه فيهما ؛ وهما العلم والجسم ، ومن لوازم البسط في الجسم القوة بدلالة المهمـة التي من أجلهـا اصـطفـاه وهي القتـال ، وبتـأملهمـا نجـدهمـا مؤهّـلات القيادة الحكيمـة الرشيـدة ، ونجده سبحـانـه قـدم العلم على القوة ، لأنه الأهم ، وقـد جمعهما الله لـه ، لأنَّ العلم وحده بـدون قوة تنفـذه يكون معـطلاً ويكون مجـرد فكرة في العقـل ، والقوة بـدون علم حمـاقة قـد تضرّ صـاحبها قبـل مضرَّة العـدو ، ولذا قيـل : الـرأي قبـل شجاعة الشجعان .

أمَّـا مقياسهم هم بسعـة المال فـلا قيمة لـه لأنَّ المـال قـد يكـون بأيدي الجبناء والجهّال والنساء ، فلا تأثير لـه مباشـرة في قتال العـدو ، وإنَّما يدير المال القائد العالم فيكون في يده سلاحاً فعالاً .

ثم ذيـل المـولىٰ سبحـانـه الجـواب هنـا بمـا يسكت المعتـرضين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُؤتِيْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لأنَّ تنصيب طـالوت ملكـاً تمليك لـه في ملك الله ، والله صـاحب الملك يؤتي ملكـه من يشـاء ، لا من تشـاؤون أنتم : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَـالِكَ المُلْكِ تُؤْتِيْ المُلْكَ مَنْ تَشَـاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَىٰ كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

ونظير هذا السؤال الاعتراضي من الملأ من بني إسرائيل ، سؤال المشركين واعتراضهم على بعثة نبينا محمد ﷺ رسولاً ، كما في قوله تعالى عنهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣٠ - ٣١] .

وقال ابن كثير قولهم (لولا نزل) أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يعني هلا كان إنزاله علىٰ آخر كبير عظيم في أعينهم من القريتين أي مكة والطائف ، وأرادوا بذلك الوليد بن المغيرة بمكة وكان من أعقلهم ، أو عروة بن مسعود الثقفي ، وكان صاحب أخبار وعلوم وحكم .

وهذا عين الاعتراض وبنفس المقياس عندهم حيث عظموا هذين الرجلين لثرائهما وأخبارهما وجاههما في قومهما .

وكان الجواب من الله تعالىٰ لهم من نفس الجواب السابق ، وذلك من أنَّ الله تعالىٰ هو الذي قسم أرزاقهم بينهم ، فهو أعلم بأحوالهم وهم لا يملكون لأنفسهم تدبير أرزاقهم وهي أمور مادية دنيوية قد تكسب بالسعي ، فكيف بالأمور الدينية التي لا دخل للكسب ولا للاجتهاد فيها ، بل هي محض اصطفاء : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] .

فهو سبحانه سميع بصير عليم بشؤون العباد : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقد جاء عنه ﷺ : « أنَّ الله اصطفىٰ قريشاً من كنانة واصطفىٰ بني هاشم من قريش واصطفاه ﷺ من بني هاشم فهو صلوات الله وسلامه عليه خيار من خيار من خيار » .

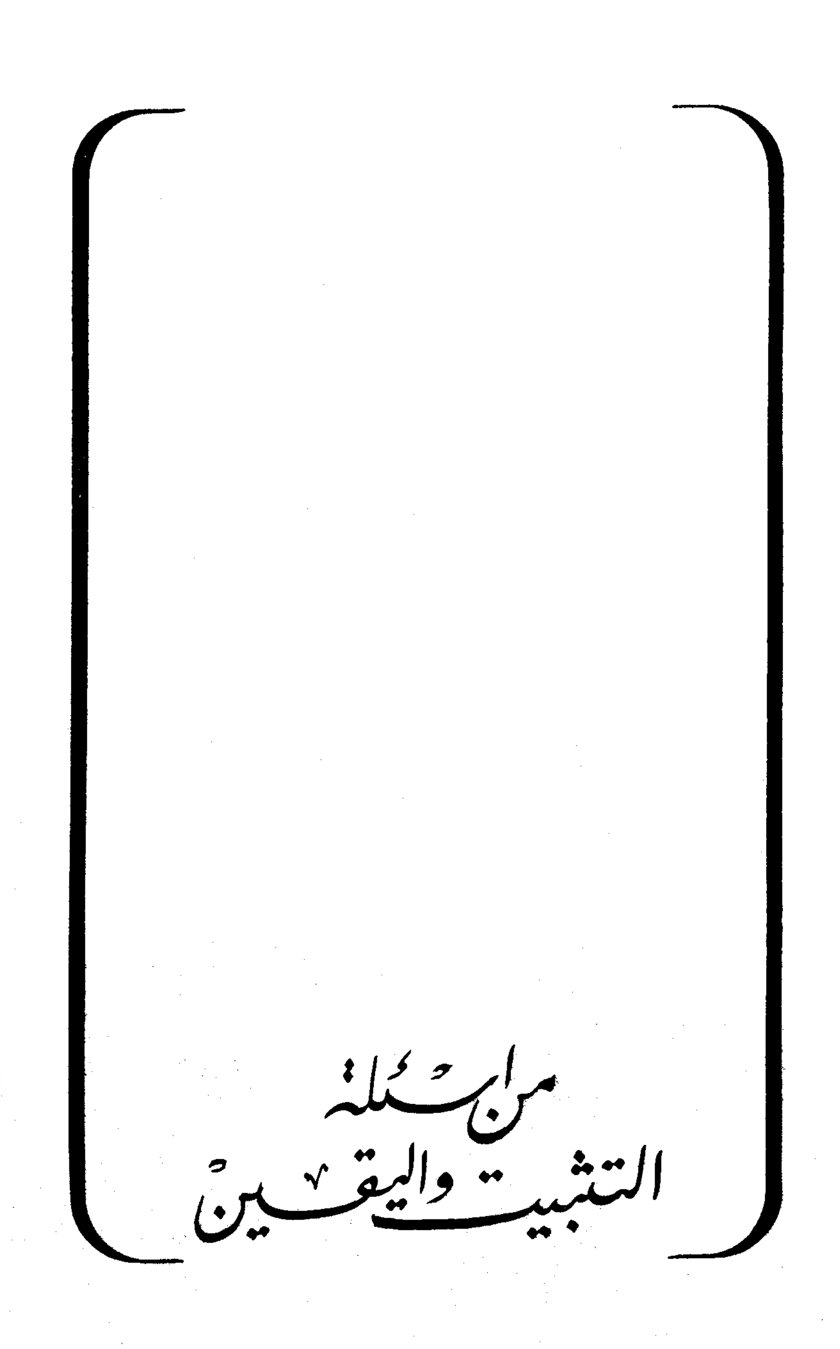
ومن هذه الأسئلة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤ - ٩٥] .

فقد اعترضوا على بعثة الرسول من البشر ، وكانوا يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فبيَّن الله تعالىٰ لهم أنَّ الرسول لقوم يجب أن يكون منهم ، فلو كان عمار الأرض ملائكة يمشون مطمئنِّين لأنزل الله عليهم من عنده ملكاً رسولاً ، أي من جنسهم ، وأنتم بشر فلا بد أن يكون رسولكم منكم ، ثم بين سبحانه أنه لو فرض على حد قولهم أن ينزل ملكاً رسولاً للبشر ماذا سيكون الحال ؟ فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] .

قال القرطبي ما معناه : إنَّ مخالطة البشر للملكَ على خلقته لا تتأتّىٰ لمغايرة جنسه لجنسهم، فلا تحصل الفائدة من إرساله، إذ لا بد أن نجعله في صورة رجل ، وقد جاءت الملائكة في صورة الرجال للرسل ، كما في قصة نبي الله إبراهيم لما جاؤوه وظنهم ضيوفاً فقدم إليهم عجلاً حنيذاً، فلمَّا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم فأفهموه أنهم رسل الله، وكذلك نبي الله لوط، ظنَّهم ضيوفاً وسيء بهم من مكر قومه، وخاف عليهم حتى قالوا له : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود:٨١] أي كان من الممكن أن نرسل ملَكاً لكم رسولاً ، وكان لا بد أن نجعله على صورة رجل لتتفاهموا معه ، ولكن لو حصل لالتبس عليكم الأمر لأنكم ترونه في صورة بشر ، وتعود المسألة إلى ما هو الواقع من إرسال البشر رسولاً . وهذا النوع من الأسئلة سميناه اعتراضياً ، وجاء جوابه مقنعاً .

*****




من أمثلة
التثبت واليقين



قد لا تأتي الأسئلة استفهامية ، ولا استفتائية في حكم مجهول ، ولكنها تأتي للتثبيت ، وزيادة اليقين ، وبعث الطمأنينة ، وتجديد الإيمان بربِّ العالمين .

وقد جاءت في القرآن على نوعين ؛ نوع في حالة وصورة تشبه الاستبعاد ، ونوع للاستبعاد ، ولكن للترقّي في العلم والمعرفة .

فمن الأول : ما جاء في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، ويبدأ سياقها من بداية قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وهذه الآية كالمقدمة للموضوع فيها مقارنة بين ولاية الله للذين آمنوا وبين ولاية الطاغوت للذين كفروا ، فولاية الله للمؤمنين ولاية هداية وإرشاد ، تخرجهم من ظلمات الجهالة ، وحيرة الشك إلى نور المعرفة وطمأنينة اليقين .

ثم جاء إلى صورة علمية في المحاجة بين خليل الرَّحمٰن والطاغية النمروذ بن كنعان ، وكل منهما يمثِّل فريقاً متميِّزاً تجلَّت فيه أثر ولاية من يواليه ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِيْ حَاجَّ إِبْرَاهِيْمَ فِيْ رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ ﴾ ونصّ المحاجة هو : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّيْ الَّذِيْ يُحْيِيْ

وَيُمِيْتُ ﴾ فإبراهيم عليه السلام مؤمن ومصدِّق بأن ربه هو الذي يحيي ويميت ، والنمروذ لم يؤمن بالله بل يدَّعي لنفسه الألوهية ، وهذا الذي جاء به إبراهيم أقوىٰ مظاهر الربوبية ، وهذا من النور الذي استنار به إبراهيم عليه السلام ، فما كان من طغيان النمروذ أن زعم لنفسه كبراً وضلالاً : ﴿ قَالَ : أَنَا أُحْيِيْ وَأُمِيْتُ ﴾ ولجَّ في طغيانه فأتىٰ بسجين محكوم عليه بالإعدام وقال : اذهب فأنت طليق وقال : قد أحييت ميتاً ، ثم جاء برجل مسكين بريء لا ذنب عليه فقتله ، وقال : قد أمته بعد أن كان حياً . حقاً إنَّه ظلام الجهل ، أطلق مجرماً وفوت على أولياء الدم حقهم ، وعطَّل عمل العدالة في شغبه وضلاله ، إنَّها ظلمات الطغيان أغلقت عليه العقل وأضلته السبيل ، وكان ذلك عنواناً على غبائه ، حتى إنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ أهمل هذا الجواب واعتبره كأن لم يكن ، وجاءه بسؤال آخر يكشف عن عينيه حجاب العمىٰ والضلال ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِيْ بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِيْ كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ولكأنَّ شروق الشمس من مشرقها قد أغشى بصره وأوقعه في حيرة .

ثم يأتي بآية السؤال عاطفاً على ما تقدَّم بقوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَالَّذِيْ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهْيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِيْ هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] . قالها استبعاداً حسب العادة لما رأىٰ من شدة خرابها . ولفظ (أنَّىٰ) يسأل بها عن الزمان ، والقرية هي بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر ، يعني متىٰ يحييها ؟ ويسأل بها أيضاً عن المكان : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وتأتي للتعجّب : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِيْ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] .

فلمَّـا كان السؤال هنـا فيه استبعـاد ، وفيه تعجّب بمقتضىٰ الإلف والعادة ، وليس هذا متعارضاً مع عقيدة البعث ـ كمـا يظن البعض ـ لأنَّ السؤال موجّه في خصوص قرية وإحياء عمرانها .

ولكن الجواب جاء أشمل وأعمّ وفيه الدليل العملي والبـرهان السـاطع على قـدرة الله تعالىٰ على إحيـاء ما هـو أعظم من تلك القـريـة ، وهـو إحياء الموتىٰ ، لأنَّ إحياء القرية الخاوية على عروشها ، قد يقع من أمة تأتي إليها لتسكنها فتبني خرابها ، وتغرس مواتها ، وتصبح عامـرة حية . أمَّا إحياء الموتىٰ فلا يقـدر عليه إلاَّ الله سبحـانه . ولهـذا جاء الجـواب على قوله : ﴿أَنَّى يُحْيِيْ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أن أماته الله فمات هو بنفسه ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ .

وقد لا يشعر بما وقع له من إماتـة مائـة عام أو أقـلّ أو أكثر ، لأنَّ الله قـد بعثه كمـا كان عهـده بنفسه ، بـدون تغيير في شكله وجسمـه ، ولهذا لما سـأله : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَـالَ لَـبِثْتُ يَوْمَـاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فـأخبره اللَّه تعالىٰ بحقيقة لبثه : ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِـائَةَ عَـامٍ﴾ هذا أمـر يثير التسـاؤل وكيف أكون لبثت مائـة عام ولم تـظهر عليّ عـوارض مضيّ هذه السنين كلها ؟ وقبل أن تتدافع الأسئلة عليه جاء التوجيه إلى الدليل الفعلي على مدة لبثه وإماتته ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ أي الـذي كنت تصحبه معـك من ماء وفـاكهة لم يتسنَّـه أي لم يتغيّر . ولكن كيف يكـون ذلـك دليلاً وهو لم يطرأ عليه تغيير ؟ فقد يكـون نام بعض اليـوم واستيقظ وإذا بطعـامـه كمـا هـو، فجـاء الـدليـل القــاطـع : ﴿ وَانْـظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِـنَـجْـعَـلَكَ آيَـةً لِلنَّـاسِ ﴾ فـي كـونـك لـبثـت مـائــة عــام ثــم بعثت ولم يتغيَّر فيك شيء ، وكـون طعامـك سريـع التلف وهو الفـاكهة تمكث تلك المـدة ولم تتغير ولم يتسنَّه ماؤك : ﴿وَانْـظُرْ إِلَىٰ العِظَامِ ﴾ أيُّ العـظام ؟ إنَّها عـظام حمـاره ، قـال المفسـرون : لقـد بليت أجـزاء

الحمار وتعرَّت عظامه عن اللحم والجلد ، وبقيت تلوح للناظر مجردة .

وهذا الوضع هو الذي يثبت له أنَّـه مكث مدة مـائة عـام وكان من الممكن أن يقـع له مـا وقع للحمـار ، ولكنه لم يتغيّـر فيه شيء ، فكـان عـدم تغيّره آيـة للنـاس . كمـا قـال تعـالى في أصحـاب الكهف : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيْمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَىٰ الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْـرِنَا رَشَـدَاً * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِيْ الكَهْفِ سِنِيْنَ عَدَداً ﴾ [الكهف: ٩ ـ ١١] وبيَّن تعالى تلك السنين بقوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِيْ كَهْفِهِمْ ثَلاَثَمِـائَةٍ سِنِيْنَ وَازْدَادُوا تِسْعَـاً ﴾ [الكهف : ٢٥] .

وقد بيَّن تعالى لنا أنه أحيـاهم وتساءلـوا بينهم : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُـوا لَبِثْنَا يَومَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وقالوا فيمـا بينهم : ﴿ فَابْعَثُـوا أَحَدَكُمْ بِـوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى المَدِيْنَةِ ﴾[الكهف : ١٩] . فهم بعد أكثـر من ثلاثمائة سنة لم يتغيّر فيهم شيء، وبيَّن لنا تعالى أنـه كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمـــال.

إذن فهو قد أحيـاه الله وبعثه فـوجد نفســه على ما كـان عليه قبـل موته ، وهذه آية .

أمَّـا حماره فقـد جرت عليـه سنة الله في المـوتىٰ ببلاء الجسم ، حتى لم يبق منه إلاَّ العظام ، والعظام فيها صلاحية البقاء إلى زمن أطول فنظر ليرىٰ آثار القدرة الإلـٰهية كيف ينشزها ، أي يرفعها بتركيبهـا بعضها مع بعض ، كما تكون في حالـة الحياة هيكـلاً عظميـاً ، ثم بعد نشـزها يكسوها لحماً ، وهذه آية أخرىٰ .

إنَّ ربط العـظام ببعض ونشزهـا ، هو بـدون شـك آيـة ولكن قـد يتخيّـل إنسان عمليـة ترابـطها وتـركيبها ، لأنَّ مـادة بنائهـا مـوجـودة من

الأضلاع وعظم الظهر والأرجل والعنق والرأس . . . إلخ . ولكن كيف يكسوها لحماً ، ومادة اللحم غير موجودة مع العظام ؟ فإنّه سبحانه يوجدها من العدم ثم يكسو بها تلك العظام ، ففي إيجادها آية ، وفي كساء العظام بها وعلى مقادير ومقاييس معينة ،ومع اللحم عروق تجري فيها الدماء ، وأعصاب تربط بعض الأجزاء ، وداخل الجوف أحشاء وكبد وأمعاء ، وكلها تقع موقعها ، وتقوم بأداء عملها حتى يصبح الحمار حيواناً مكتملاً ، وينبت له شعره وتعود له حيويته ، كل ذلك في لحظات وصاحبه يشاهد تلك العملية خطوة وجزءاً جزءاً، فإنّ ذلك التدرّج والتجزئة أبلغ في البيان ، وأصلح في إقامة البرهان من أن يفاجأ بالحمار كائناً حياً .

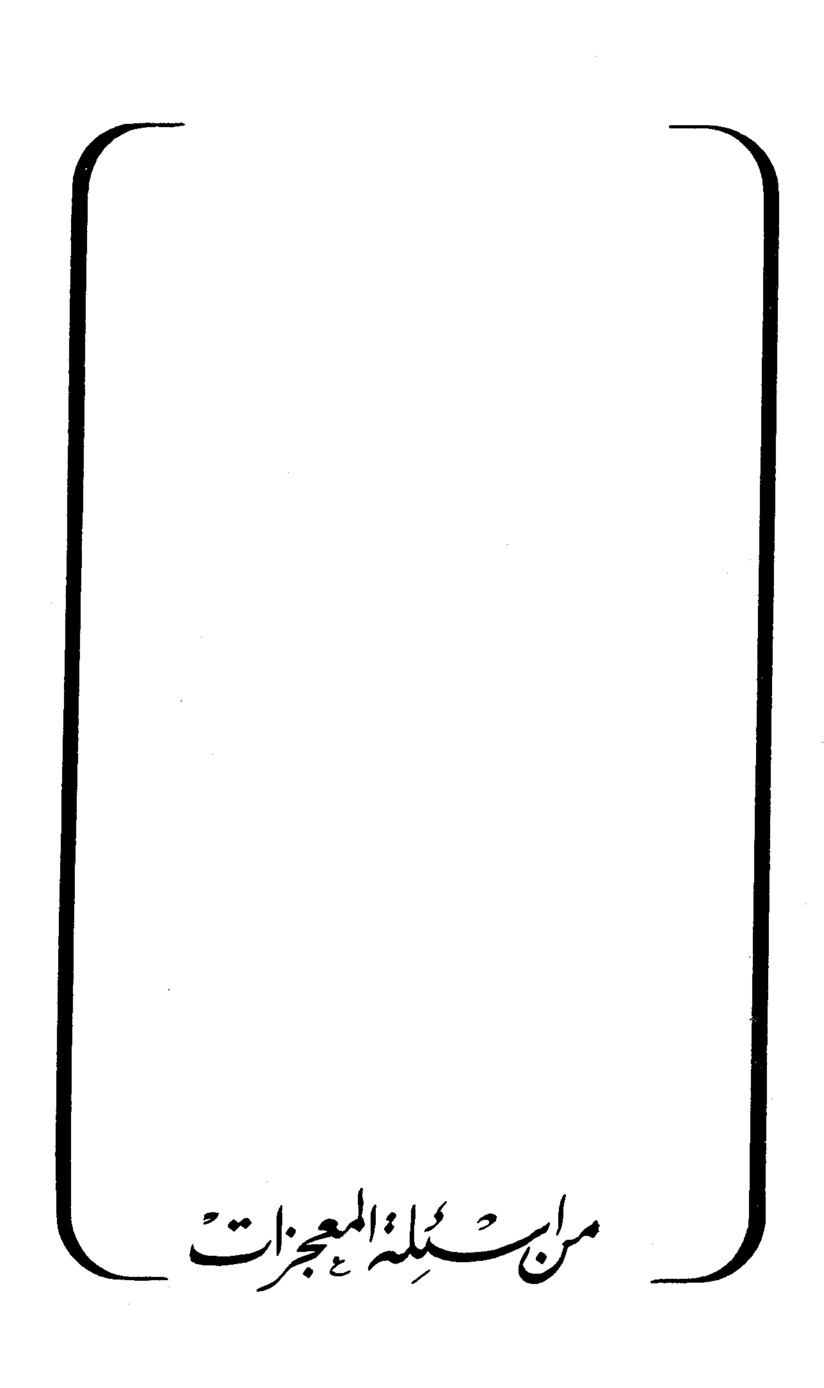
ولهذا بعد أن شاهد هذا المشهد العظيم ، نطق معلناً ومؤكداً علمه ويقينه ، ليس بقدرة الله تعالى على إحياء تلك القرية الخاوية على عروشها فحسب ، ولكن قدرته سبحانه على كل شيء ، من إحياء القرية، وإحياء الخلائق ، وغير ذلك ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

فكان السؤال ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وجاء الجواب عملياً فكانت النتيجة : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي علماً يقينياً لا نظرياً .

وإنَّ هذا لنموذج من نماذج إحياء الموتىٰ في الدنيا من أقوىٰ الأدلّة علىٰ إحيائهم الموعود به .

*****




من سلسلة المعجزات



سؤال الحواريين

****

يبدأ سياق هذا السؤال من قوله تعالىٰ في سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الحَوَارِيِّيْنَ أَنْ آمِنُوا بِيْ وَبِرَسُولِيْ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الحَوارِيُّونَ يَا عِيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيْعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ * قَالُوا نُرِيْدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِيْنَ * قَالَ عِيْسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيْداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِيْنَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ العَالَمِيْنَ ﴾ [المائدة : ١١١ ـ ١١٥] .

السؤال موجه من الحواريين ـ حواريو عيسىٰ عليه السلام ـ وهم بمنزلة الصحابة للرسول ﷺ ، وسؤالهم موهم التشكيك في استطاعة الله تعالىٰ وقدرته على إنزال مائدة من السماء ، ولكن لدفع هذا الإيهام جاء قبل إيراد السؤال أنَّ اللّه تعالى قد أوحى اليهم ﴿ أَنْ آمِنُوا بِيْ وَبِرَسُولِيْ ﴾ وصدر الجواب منهم بالامتثال ؛ قالوا : آمنَّا . ولم يكتفوا بإعلان إيمانهم بالله وبرسوله ، بل أشهدوا الله تعالى على ذلك بقولهم: ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ . ومن كان بهذه المنزلة لن يكون في حالة شك ولا تردّد ، وإنّما هو سؤال زيادة تثبت ويقين ، وزيادة طمأنينة لقلوبهم .

أمَّا صيغة السؤال، فقولهم (هل يستطيع) بياء المضارعة وإسناد الاستطاعة إلى رب عيسى ، مع رفع لفظ رب ، والقراءة الأخرىٰ هل (تستطيع ربك) بتاء الخطاب وإسناد الاستطاعة لعيسىٰ ونصب لفظة رب ، أي هل تستطيع سؤال ربك أن ينزل علينا مائدة ، ولكن القراءة الأولىٰ هي الأشهر .

وتوجيه سؤالهم هذا في استطاعة الله تعالىٰ ، مع ملاحظة إضافة لفظة الرب لعيسى ـ عليه السلام ـ مع إعلان إيمانهم من قبل ، فيه عدة أوجه للمفسرين ؛ وأولّها ـ والله تعالىٰ أعلم ـ هو أنَّ الاستطاعة بمعنىٰ الإمكان . يعني هل يمكن أن ينزل ربك علينا مائدة من السماء ؟ وذلك لأنه سؤال على غير العادة ، ولم يطلبه أحد قبلهم ولم يفعله الله تعالىٰ لأحد من قبل ، فهم مستبعدون أن يفعل الله لهم ذلك ، ولذا قيدوا الطلب بقولهم أن ينزل علينا ، أي خاصة لنا .

فالاستبعاد متوجه إلى إمكان استجابتهم لطلبهم ، لا من جهة قدرة الله أو عدم القدرة ، لأنهم أعلنوا إيمانهم بالله من قبل . أمَّا إضافتهم لفظ الرب لعيسى ـ عليه السلام ـ فهو تكريم لعيسى وتحقيق لشدة الرغبة في إجابتهم لطلبهم ، لأنهم يعلمون قوة صلة عيسى بربه وسرعة استجابة الله تعالى لعيسى أكثر منهم ، وقريب من هذا قولك مثلاً : اللهمَّ رب جبريل ، اللهمَّ رب محمد ﷺ مع أنه رب كل مربوب صغيراً كان أو كبيراً .

يؤيِّد هذا القول أنهم رأوا آيات الله سبحانه يجريها على يدي عيسىٰ من خلقه الطين على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ولم يفعله سبحانه لغير عيسىٰ ، إذن فهو سبحانه قادر على أن يستجيب لعيسىٰ إذا دعاه من أجلهم .

والمائدة : مأخوذة من ماد يميد إذا تحرك أو أعطىٰ ، ومائدة الطعام تتحرك عليها الأصناف الطيبة ، وهي عطاء من مقدمها لمن قدَّمها إليهم .

وقـولهم من السماء : لأنهـا محل الـوحي ، وعـالمهـا عـالم غيب عن الحس، بخلاف الأرض فقد شاهدوا العديد من الآيات المتنوعة ، ويريـدون أن يضمّوا إلى معرفتهم نوعاً آخر من المعرفة واليقين .

ولمَّا صرحـوا بهذا السؤال ، حـذرهـم عيسىٰ نتائـج ذلك فقـال : اتَّقوا الله أي خافوا عقابه على سؤالكم هـذا ، ولأنهـم قد عـاينوا من الآيـات على يدي عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ما فيه الكفاية ، بل إنَّ عيسىٰ بنفسـه آية ، فكـان يكفيهم ذلـك ، وسـاقـه مسـاق الشـرط ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي وقـد أعلنتم إيمانكم وأشهدتم الله عليه . وقال بعض المفسّرين اتَّقوا الله لتكونوا بالتقوىٰ أهلاً لأن ينزلها عليكم ولعلَّ الأول أرجح .

وبعد هذا الحوار من الجانبين ؛ والحواريون يـريدون إنـزال المائـدة ، وعيسىٰ يخشىٰ نتائج إنـزالها ، لأنـه يعلم من سنَّة الله في الأمم أنـه إذا أنزل آيـة محسوسـة ولم يؤمن بها القـوم أخـذهم الله وأهلكهم ، كمـا فعـل بقـوم صالح ، أجابهم لإخراج النـاقة من الصخـرة فكذبـوا بها وعقـروها ، فـدمدم عليهم ربهم بـذنبهم ، وهكـذا حـذرهم ، ولكنهم ألحّـوا وعلَّلوا فقـالـوا : ﴿ نُرِيْدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَـا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَـدَقْتَنَا ، وَنَكُـونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِيْنَ ﴾ .

فـذكروا أربعـة أهداف يـريدون تحقيقهـا ؛

أولها : أن يأكلوا منها .

ثانيها : أن تطمئن قلوبهم .

ثالثها : أن يعلموا علم اليقين بصـدق نبيّ الله عيسى ـ عليـه السلام ـ .

رابعها : أن يكـونـوا شهـدوا عليهـا عنـد من لم يشهدها .

ويلاحظ أنهم قدموا الهدف المادي وهو الأكـل منها ، وليس ذلـك لأنه أهمها ولكن لأنه أقواها دلالة ، لأنَّ به تتحقق أنواع العلم الثلاثة

العلم بالإخبار وذلك حاصل عندهم من مقتضىٰ إيمانهم .
والعلم بالمشاهدة وهذا يحصل بمجرد إنزالها ومعاينتها .
والعلم باللمس والمباشرة وهذا القسم هو حق اليقين .
لأنَّ مدارك العلم ثلاثة : علم اليقين ، وهذا يحصل بإخبار الصادق .
وعين اليقين ، وهذا يحصل بالرؤية بالعين .
وحق اليقين ، وهذا يحصل بالملامسة والمخالطة .

كمن يؤمن بوجود الكعبة عن طريق الإخبار ويتوجه إليها في الصلاة ، فإذا حضر عندها وعاينها ، ازدادت قوة علمه بها ، فصار عين اليقين ، حتى إذا لمسها ودخل إلى داخلها وصلّىٰ فيها حصل له حق اليقين .

ولهذا هؤلاء قدموا الهدف الأقوىٰ في تحصيل اليقين عندهم ، وهو بالأكل منها .

الهدف الثاني : وهو الغرض من السؤال ، وهو التثبت والطمأنينة في قولهم : ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ وهو طبق ما قال الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ ولكن ليطمئنَّ قلبي ﴾ .

والهدف الثالث قولهم : ﴿ وَنعلمَ أَنْ قد صَدَقْتَنَا ﴾ وهذا الهدف ليس خاصاً بهم ، لأنهم قد علموا أنه قد صدقهم وقد آمنوا به وبصدقه ، ولكن لما كانت رسالة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل ولن يحضر إنزال المائدة كل الإسرائيليين ، وكان هؤلاء الحواريون ملازمين لعيسىٰ ، فتكون المائدة دلالة صدق لجميع بني إسرائيل ، فهم يتكلمون باسم الأمة الإسرائيلية كلها ، لأنَّ ما ثبت من دلائل التصديق للصدر الأول في عصر الرسالة ، كان دليلاً لكل العصور التي بعدهم .

ولذا جاؤوا بالهدف الرابع في قولهم : ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ شاهدين عليها لمن ؟ لله . فالله هو الذي سينزلها ، لعيسى ، فعيسى هو الذي طلبها لهم، وهم قد أكلوا منها ، فلم يبق إلَّا الذين سيأتون

بعد زمن نزولها ، ولم يحضروها .

هناك توجه عيسى إلى الله تعالى قائلاً : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيْدَاً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ والعيد من العود ، لأنه يعود ويرجع في كل عام ، واتخاذهم يوم نزولها عيداً إبقاء على ذكرها ليتجدد لهم داعي التصديق والطمأنينة ، وأولهم وآخرهم هو ما أشرنا إليه لشمول الأمة كلها من أولها في عهد نبيّ الله عيسىٰ وآخرهم أي آخر زمن بني إسرائيل ، وآية منك ، أي على صدق عيسىٰ في رسالته ، والتصديق بما عندك ، وارزقنا أعمّ من طلب المائدة وأوسع من نوعها ، رزقاً عاماً للجميع لأنك أنت وحدك الذي تملك رزق العباد وأنت خير الرازقين .

ولعلّنا هنا نقف وقفة خفيفة لنربط بين موضوعيّ السؤالين .

سؤال العزيز : ﴿ أنّىٰ يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ وكان جوابه أن أماته مائة عام ثم بعثه ، فأيقن أنَّ الله على كل شيء قدير ، وكان نموذجاً عملياً للبعث ، لا يجحده إلاّ مكابر .

وفي هذا السؤال، وقد نزلت المائدة وأكلوا منها، فكانت آية عملية على وجود نعيم الجنة وأرزاقها المتنوعة ، فتكتمل دلائل البعث ولوازمه ، ممّا يورث الطمأنينة للمؤمن، ويدعو إلى إيمان الجاحد .

*****

سؤال الخليل عليه السلام

****

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِيْ المَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

من الأسئلة في القرآن التي جاء جوابها عملياً ؛ سؤال الخليل ـ عليه السلام ـ ، في قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِيْ كَيْفَ تُحْيِيْ المَوْتَى ﴾ ولعلَّه من أعظم الأسئلة من هذا النوع ، ومن أهمها إذ جاء جوابها عملياً .

ولذا فقد اشتمل على عدة مباحث وعلى العديد من التوجيهات ، ويذكر العلماء من أسباب هذا السؤال الشيء الكثير ، حتى عدد منها الفخر الرازي اثني عشر سبباً، واقتصر القرطبي على أربعة منها، ولعلَّ أرجحها أحد أمرين وهما :

أ ـ إنَّه لما قامت المحاجة بينه وبين الذي حاج إبراهيم في ربه ، وكان من حجة إبراهيم عليه أن قال له : ﴿ رَبِّيَ الَّذِيْ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ ﴾ وأجابه الخصم بقوله : ﴿ أَنَا أُحْيِيْ وَأُمِيْتُ ﴾ وقامت الحجة على الخصم ، وعلى كل جاحد لقدرة الله ووجوده ، ولمَّا لجأ الخصم الجاهل الطاغي إلى أسلوب الطغاة الذين يعجزهم إقامة البرهان فيعمدون إلى البطش لأنه لا سلاح لهم غيره ، ولما كان لموضوع الإحياء والإماتة دور كبير في المحاجة ، وانتقل عنه إلى موضوع الشمس لمغالطة الخصم ، أراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يري خصمه حقيقة الإحياء في تلك الصورة

الجلية ليقيم الحجة مرة أخرىٰ على خصمه ، فطلب من ربه أن يريه ، أي ومعه القوم المنكرون كيف يحيي الله الموتىٰ .

ب ـ والقول الثاني في سبب سؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه رأىٰ حيواناً على حافة البحر ، إذا جاء المد جاءت حيوانات البحر فأكلت منه ، وإذا جاء الجزر وانحسر الماء عنه ، جاءت وحوش البر فأكلت ، وإذا ذهبت الوحوش عنه ، جاءت الطيور فأكلت منه ، فرأىٰ أن تفرق جسمه في أجواف تلك الحيوانات وتلك الطيور فكيف سيكون إحياؤه ، وجمع أشتاته ؟

ومهما يكن من سبب فإنَّ سؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن عن شك لعدة أمور ؛

منها أنه مقام يرتفع عن مظانّ الشكوك ، وهو مقام النبوّة والرسالة ، بل والخلّة ، ومنها أنه لما سئل ﴿ أوَلَم تؤمن قال بلىٰ ﴾ ومنها وهو أقواها ، أنَّ حقيقة السؤال ليست عن التثبّت في خصوص القدرة ، وإنَّما السؤال متوجه إلى كيفية الإحياء ، والسؤال عن الكيفية لا يكون إلاَّ عمَّا ثبتت ماهيته وكان معلوماً للسائل والمسؤول . كما لو قلت : كيف بنىٰ زيد بيته ؟ فلا بد أن يكون البيت موجوداً وقد ثبت عند السائل والمسؤول أنَّ زيداً قد بنى بيته بالفعل . وكقولك : كيف وصل زيد ؟ لا يكون إلاَّ بعد تحقق وصوله .

وهكذا هنا السؤال ، كيف تحيي ؟ أي أنَّ الإحياء ثابت لدىٰ السائل والمسؤول ، وإنَّما الهيئة والحالة التي يكون بها الإحياء مجهولة للسائل معلومة للمسؤول .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ تؤمن ﴾ ليس سؤال إنكار عليه ، بل تقرير لما هو عليه ، أي إنَّك مؤمن بأنِّي أحيي وأميت فهو سؤال تقرير ، نظيره في قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندىٰ العالمين بطون راح

والجـواب نعم نحن كذلـك . هٰكذا جـواب إبـراهيم بلىٰ أنـا مؤمن ، وعنـدي علم اليقين بأنـك سبحانـك تحيـي وتميت ، وقد حـاججت خصمي بذلك ، ولكني مـع هذا العلم أريـد إضافـة دلالة أقـوىٰ تبعث على طمأنينـة قلبي .

وكما قدمنا في سؤال الحواريين ﴿ نُرِيْدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ أي بعين اليقين ، وكما قيل : ليس الخبر كالمعاينة .

وهنا يذكر المفسرون الحديث الذي رواه أبـو هريـرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً « نحن أحقّ بالشك من إبراهيم » فقـد أجاب عنـه ابن حجر في فتـح الباري على صحيح البخاري : بأنَّ ذلك على نفي الشك ، أي لـو كان وقـع شـك من إبراهيم لكنَّـا نحن أحقّ بـالشـك منـه ، والـواقـع أننـا لم نشـك ، فإبراهيم من باب أولىٰ لا يشك .

وقد التبس على البعض هذا الأمر من صدى قصته ـ عليه السـلام ـ في بداية أمره مع خصمه ، في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ لِأَبِيْهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامَاً آلِهَـةً إِنِّيْ أَرَاكَ وَقَوْمَـكَ فِيْ ضَـلَالٍ مُبِيْنٍ * وَكَـذَلِـكَ نُـرِيْ إِبْـرَاهِيْمَ مَلَكُـوتَ السَّمَوَاتِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُـوقِنِيْنَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَـوْكَبَاً قَـالَ هَذَا رَبِّيْ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِيْنَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَـرَ بَازِغَـاً قَالَ هَـذَا رَبِّيْ ، فَلَمَّـا أَفَلَ قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِيْ رَبِّيْ لَأَكُـونَنَّ مِنَ القَـومِ الضَّـالِّيْنَ * فَلَمَّـا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّيْ هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّـا أَفَلَتْ قَالَ يَـا قَومِ إِنِّيْ بَـرِيْءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمَواتِ وَالأَرضَ حَنِيْفَاً وَمَا أَنَـا مِنَ المُشْرِكِيْنَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُـهُ قَالَ أَتُحَـاجُّونِّيْ فِيْ اللَّهِ وَقَـدْ هَدَانِيْ وَلَا أَخَـافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّيْ شَيْئَاً وَسِعَ رَبِّيْ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمَا أَفَلَا تَتَذَكَّـرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٤ ـ ٨٠] .

ظنَّ البعض أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يعرف ربه تعالىٰ ، إلَّا بعد أن نظر في النجوم وتدرج بالنظر من النجم إلى القمر إلى الشمس ، وهذا مذهب القائلين بأنَّ الأديان وجدت نتيجة التفكير ، وهو مذهب باطل إذ الأديان نتيجة الوحي الإلـٰهي على من يصطفيهم الله من خلقه رسلاً للأمم .
وهذا السياق يرد من زعم ذلك ، لأنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل أن ينظر في النجوم أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وضلَّل قومه ، وهذا الإنكار لا يكون إلَّا من مؤمن بالله كافر بالأصنام ، ثمَّ إنَّ إبراهيم لم تخف عليه حالة النجوم ، ولا القمر ، ولا الشمس فهو يعايشها طيلة حياته فلم يقل هذا القول . ثم ها هو في نهاية السياق يقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّيْ بَرِيْءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيْفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ فأعلن بأنه مؤمن بربه متوجه إليه وهو خالق هذا العالم ، ومن قبلها قال : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّيْ ﴾ وهذا كله تسجيل أمامهم بأنَّ له رباً وأنه مؤمن به من قبل أن يقف معهم هذا الموقف ، وعليه فحقيقة موقفه هذا هو موقف محاجّة لإقامة الحجة عليهم ، بأنَّ تلك النيرات لا تصلح أن تكون آلهة لما يعتريها من النقص في أفولها ، وقد جاء بعد هذا العرض النص صراحة في قوله تعالىٰ ﴿ وحاجّه قومه ﴾ والرد عليهم بقوله ﴿ أَتحاجُّونِّيْ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ .

وجاء بعد هذا السياق ما هو أصرح في الموضوع من إقامة الحجة عليهم وبعد آيتين فقط قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيْمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وكان والدنا الشيخ الأمين ـ رحمه الله ـ يحتج في هذا المقام بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] فيقول : نفىٰ الله عن إبراهيم كينونة اليهودية والنصرانية والشرك ، وأثبت له أنه كان حنيفاً مسلماً . ويحتج بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] ، ومعلوم أن من أوتيَ رشده من قبل ، لن يتوقف إيمانه بربه على النظر في النجوم .

وبهذه المناسبة يمكن القول بأنَّ جميع رسل الله ، قد نشأهم الله تعالىٰ تحت رعايته وحفظه ، وعلى سبيل المثال هذا نبيّ الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ تولاَّه الله من أول لحظة ولادته إذ أوحىٰ إلى أمه أن ترضعه وتقذفه في اليمّ، وربط على قلبها وإن كادت لتبدي به، وساقه الله إلى مصدر خوف أمه عليه ، إلى فرعون فحرَّم الله عليه المراضع حتى ردَّه إلى أمه كي تقر عينها وتعلم أنَّ وعد الله حق ، وأنه راده إليها وجاعله رسولاً من المرسلين ، وصدق الله العظيم لما عدد نعمه على موسى قال : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّيْ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيْ ﴾ [طه : ٣٩] وقال بعدها : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيْ ﴾ [طه : ٤١] .

وهذا نبيّ الله عيسىٰ آتاه الحكم صبياً ، وهذا نبينا محمد ﷺ تولاَّه ربه من قبل مولده ، وصانَ تقلبه في الأصلاب من دنس السفاح الجاهلي ، وحفظه من مشاركة الجاهليين في أخطائهم ، ولم يقع واحد من الرسل في رذيلة قومه . ولهذا لما قام فرعون يعارض موسىٰ قال له : ألم نربك فينا وليداً ، ولو كان قد أخذ عليه شيئاً فرعونياً لذكره به وحاجّه فيه ، وكذلك النَّبيّ ﷺ قال له قومه : ساحر شاعر ، كاهن ، يعلمه بشر ، فلو وجدوا نقيصة جاهلية لاحتجّوا بها عليه .

وبهذا كله تبيّن أنَّ حقيقة موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ موقف محاجة ، ولا توجد شائبة شك تزاحم يقينه بالله تعالىٰ .

تفصيل الجواب

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِيْ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِيْ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيْنَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

لمَّا سأل الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ ﴾ قيل له : ﴿ أَوَلَمْ تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئنَّ قلبي ﴾ وقدمنا أنَّ السؤال هنا لم يكن عن شك ولا تردّد ، حاشاه ـ عليه السلام ـ من ذلك . ومعلوم أنَّ مطلب طمأنينة القلب في كل أمر عظيم ، إنَّما هو مطلب جِبِلِّيٌّ يتطلَّع إليه الإنسان ، وهو مطلب لزيادة اليقين .

وليس أعظم على العقل البشري من قضية إحياء الموتىٰ ، وإعادة الحياة للأجسام بعد فنائها ، ولذا طال جدال المشركين فيها مع رسول الله ﷺ كما قال تعالى عنهم : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيْبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيْدٌ ﴾ [ق : ٢ ـ ٣] وقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ ﴾ [يٓس : ٧٨] فكانوا يستبعدون ذلك جداً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِيْنٌ ﴾ [هود : ٧] . فهي القضية الكبرى مع الرسل ، وعليها يتوقف التكليف أمراً أو نهياً لأنَّ المكلف يفعل ما أمر به ابتغاء الثواب ، ويكفّ عمَّا نهي عنه مخافة العقاب ، وبالتالي إفراد المولى سبحانه بالرغبة والرهبة ، واتباع الرسل فيما جاؤوا به من عند الله .

وقد رتب الله تعالىٰ كل ذلك على الإيمان واليقين بالبعث ، في قوله

تعالى في افتتاحية المصحف الشريف بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم : ﴿ آلم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِيْنَ * الَّذِيْنَ يُؤمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١ ـ ٥] .

فكان منطلق إقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله على اليقين بالآخرة ، ورغب على اليقين بالآخرة الهدىٰ والفلاح .

ولهذا كان كل من صدق بالبعث ، سارع إلى الإيمان بالله ورسوله والتزم بالإسلام ، فكانت قضية إحياء الموت من أعظم القضايا ، فلا غرو أن يتطلَّع الخليل ـ عليه السلام ـ إلى كيفية إحياء الموتىٰ ، وإلى مشاهدة ذلك عياناً ، ليجتمع له علم اليقين ، وعين اليقين فيصل إلى حق اليقين .

ولهذا استجاب المولىٰ له وأراه في الحسّ والعيان ما كان مستقرّاً في ذهنه ، ثابتاً في قلبه ، وكما قدمنا فإنَّ السؤال من الخليل ، والإجابة للعالمين لقومه ، ولكل الأمم من بعده .

أمَّا صورة الإجابة ففي قوله تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ﴾ . أي الأحياء وأنت تشاهد مجرىٰ الحياة فيها ، وتلمسها بيدك ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي أضممهنَّ إليك . واختلف في أنواع الطير ؛ فقيل : طاوس وحمامة وديك وغراب ، ولا كبير فائدة تحت تعيين الأنواع كما لم تبين أسماء أهل الكهف ولا نوع خشب سفينة نوح . . . إلخ .

ولكن قيل أمر بأربعة من الطير ليكون أكمل في البيان ، وقيل تلك الأنواع الأربعة لما جمعت من بعض صفات الإنسان ، فالطاووس لغريزة الزينة والجمال ، والغراب لغريزة الحرص والجمع ، والديك للرغبة

الجنسية ، وقيل النسر بدل الحمام وهو رمز التعمير وطول البقاء وبعد الأمل ، إلى غير ذلك ممَّا يلتمس من المناسبات . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ قيل أجمعهنَّ كما قدمنا ، وقيل وقطعهنَّ ثم اخلطهنَّ بعضها ببعض ، كخلط المتاع في الصرّة ومنه (المُصَرَّاة) جمع الحليب في الضرع واختلاطه .

وكانت أربعة جمعاً ، لأنه طلب صورة كيفية إحياء الموتىٰ بالجمع ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ﴾ بعد أن جمع الطيور وذبحها وقطع أجزاءها ، أجنحتها وأرجلها ، ورؤوسها ، ونتف ريشها وخلط دماءها ، أخذ من المجموع أجزاء على كل جبل يليه جزء من هذا الخليط ، وأبقىٰ الرؤوس عنده ، ثم أمر بأن يدعوها ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ﴾ فدعى الطيور كلها فإذا بأجنحة كل طير وأرجله وريشه ودمائه يجتمع من على كل جبل حتى تكامل بجميع أجزائه ، وحضر عند إبراهيم ومدَّ له رأسه فركب على جسمه وعاد كما كان .

قال المفسرون وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقدم رأس الديك مثلاً لجسم الطاووس فيعرض عنه فيقدم له رأسه فيقبل عليه وتلتحم الرأس مع الجسد .

تلك الصورة المشاهدة المحسوسة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ هي في الواقع لجميع من بلغته ووعاها ، وآية ومعجزة له ، كما كانت المعجزة لعيسىٰ ـ عليه السلام ـ من بعده يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله .

ونحن لو جمعنا علمانيي العالم ، وأطباءه ، وفلاسفته ليتصوّروا كنه هذا المشهد ؛ طيور مختلفة الأنواع ، وكذلك الألوان ، ليكون اختلافها أقوىٰ في دلالة تميزها ، ورجوع كل جزء إلى أصله .

فبأيّ معقولية يتصور العقل إدراك الريش أنه للطاووس أو للغراب ؟

وبأيّ معقولية يتصور وجود قوة محركة تنقل هذا الريش من جبل إلى جبل لتتآلف مع بعضها؟ ثم أجنحتها، ثم أرجلها كل ذلك سواء. ثم ها هي قطرات الدم أشد اختلاطاً وامتزاجاً ، كيف عادت وتميّزت بعد أن اختلطت وامتزجت ؟ وهل امتزاج أجسام الموتىٰ بالأرض أكثر وأشدّ من امتزاج قطرات دماء الطيور بعضها ببعض؟ لا ثم لا! إنَّ أجزاء الإنسان مهما كانت أجزاء حيوية ، وإن تحلّلت وعادت إلى التراب ، إلاَّ أنَّ العناصر غير متحدة ، ولكن الدم سائل مع سائل ، واختلاطه أشد ، وتميّزه أصعب وأبعد .

ولكنها القدرة الإلـٰهية يشاهدها إبراهيم عليه السلام .

وسبق أن قدمنا أكثر من مرة أنَّ إحياء الموتىٰ في الدنيا من طيور إبراهيم ، وحمار العزير ، وقتيل بني إسرائيل ، وحوت موسىٰ ، هي صور عملية لإثبات البعث بعد الموت ، وإحياء نفس واحدة كإحياء جميع الأنفس ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

وقد جاء التذييل على هذا بقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ وعزيز هنا تتضمَّن قادر ، لأنَّ العزّة الغلبة ، والعزّة القوة ، فقيل عزيز قادر على فعل ما يريد من إحياء الموتىٰ ، ومجازاتهم ، وقيل : عزيز قادر على الانتقام ممَّن لم يؤمن بالبعث بعد إقامة الأدلة المحسوسة والمشاهدة . حكيم في نشر تلك الرفات ، وإحياء تلك الطيور ، وجميع أجزائها بحكمة بحيث لم يختلط عليه ولا ريشة واحدة من طير ، ولا قطرة واحدة من دم .

حقاً إنَّ الله عزيز حكيم ، فعال لما يريد ، وهذا نظير ما جاء في أعقاب ذكر إحياء الموتى في آخر سورة يٓس : ﴿ قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهْوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ * الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهْـوَ الخَـلَّاقُ العَلِيْمُ * إنَّمَـا أَمْـرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئـاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يّس : ٧٩ ـ ٨٢] .

فقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْـزٌ حَكِيْمٌ ﴾ يساوي ﴿ إنَّمَـا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

ولذا نزَّه نفسه سبحانه عقب هذه العظمة الجليلة ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِيْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يّس : ٨٣] .

وهنـا سؤال يطرح نفسه وهو : إنَّ إبـراهيم طلب من ربه أن يـريه كيفيـة الإحياء ، فهل أراه إياها ؟ الموجود في الصورة أنه أراه آثار الإحياء في عـودة الحيـاة إلى الطيـور أما كيفيـة وقوع ذلـك ، وكيف دبت الروح فيهـا فلم يـره إبراهيم .

وهذا مثل التيار الكهربائي ، إذا انقطع عن الجهاز فتوقف ، ففي حـالة عودة التيار نحن لا ندرك عودتـه ، ولكن نعلم بمشاهـدة تحرك الجهـاز نتيجة لعودته ، وعليه يكون المولىٰ عزَّ وجلّ استأثـر بالكيفيـة لأنها لا تكـون إلَّا إليه سبحانه .

*****

سؤال زكريا عليه السلام

****

قال تعالى :

﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ١ ـ ٥] .

تقدم الحديث عن سؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، وتساؤل العزيز أنَّى يحيى الله تلك القرية بعد موتها ، وسؤال الحواريين عيسىٰ إنزال المائدة من السماء ، وكان في كل حديث مواعظ وعبر، ومناهج هداية وإرشاد، وآيات عظيمة وبراهين عملية على إبراز الغيب في صور حاضرة ملموسة ، وفي سؤال نبي الله زكريا جوانب متعددة ، بل أسئلة متنوعة :

أ ـ أسئلة طلب واحتياج .

ب ـ أسئلة استطلاع وابتهاج .

ويبدأ السياق بمقدمات تسترعي الانتباه ، وتجمع الأحاسيس ، وتوقظ الفكر ، وذلك في قوله تعالىٰ في افتتاحية سورة مريم قوله تعالىٰ : ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ .

أمَّا المقدمة الأولىٰ ففي هذه الحروف المقطعة ، (كهيعص) والتي أعجزت العلماء في بيان معانيها ، حتى قيل إنَّها ممَّا استأثر الله تعالىٰ بعلمه .

وإنَّ أحسن ما قيل فيها : إنَّها بمثابة التحدّي الرمزي بهذا القرآن ، وإمعانٌ في بيان مدىٰ إعجازه ، مستدلين بأنَّ جلها يعقبه الحديث عن القرآن نفسه مثل : ﴿ آلم ذلك الكتاب ـ ق والقرآن المجيد ـ صٓ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي القرآن الذي أعجزهم الإتيان بمثله ، إنَّما هو مؤلف من هذه الحروف التي ينطقون بها وبها ينظمون أشعارهم ، ويؤلفون خطبهم .

ويبدو لي أنَّ مجيء هذه الحروف هنا ، مع عدم ورود الحديث عن القرآن له دلالة خاصة ، من جهتين :

الأولىٰ : جهة ما سيأتي بعده من أنه آية ومعجزة أيضاً ، وهو ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ والقصة بالغة الأهمية ، وخارقة للعادة ، وما يتلوها من قصة هي أدخل في باب الإعجاز من قصته ، وهي قصة مريم وابنها عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ، فالسياق سياق إعجاز أيضاً .

الثانية : جهة مجيء نوعية الحروف ؛ ك ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص ، بخلاف ألم ، وطٰه ، ويٰس ، لأنَّ كلاً في محله متناسب معه ، وذلك فيما يبدو لي ـ والعلم لله تعالىٰ ـ هو اختصاص هذه الأحرف في اللغة فـ (الكاف) تستعمل ضمير المخاطب تقول : أكرمتك وأعطيتك ، ولا شكّ أنَّ الخطاب يسترعي انتباه المخاطب ، و (الهاء) تستعمل للتنبيه ؛ فتدخل على اسم الإشارة (ذا) فتقول هذا ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ والتنبيه يسترعي أيضاً الانتباه ويوقظ الفكر للاستيعاب ، و (الياء) تستعمل للنداء ، تقول : يا زيد : ﴿ يـٰأَيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله ﴾ ﴿ قل يـٰأَيُّها الكافرون ﴾ والنداء يسترعي إقبال المنادى على من يناديه ، و (العين) تستعمل للذات ، جاء زيد عينه ، أي ذاته فلكأنَّها بعد الخطاب والتنبيه والنداء تعطي معنىٰ (أعني) ، و (الصاد) يُقال إنَّها تستعمل أيضاً للصوت ، ومنه الصدىٰ أي رجع الصوت ، ولكنها هنا تعطي معنىٰ

الصـدق ، فلكأنَّ المجمـوع ينحل عن قـولك : أخـاطب ، وأنبـه ، وأنـادي ، وأعني بصدق ﴿ ذكـر رحمة ربـك عبـده زكـريـا ﴾ فيقف القارىء والسامع عند ذكـر الرحمـة هنا فيجـدها رحمـة ربك وعبـده زكريا ، فتثير تساؤلاً سريعاً وملحّاً ما شأنه يـا رب فيأتي بـالموضـوع فيحـل أعماق القلب ، ويمـلأ أسماع الـدنيا معلمـاً عبـاد الله آداب السؤال ، ومقدمات الحاجة ، وتواضع الطلب الذي يستنـزل البشرىٰ بالعطاء .

والموضوع هنـا هو قـوله : ﴿ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ نِـدَاءً خَفِيّاً * قَـالَ رَبِّ إِنِّيْ وَهَنَ العَـظْمُ مِنِّيْ وَاشْتَعَلَ الـرَّأْسُ شَيْبَاً وَلَـمْ أَكُنْ بِـدُعَائِـكَ رَبِّ شَقِيّـاً * وَإِنِّيْ خِفْتُ المَـوَالِيَ مِنْ وَرَائِيْ وَكَانَتْ امْـرَأَتِيْ عَاقِـراً فَهَبْ لِيْ مِنْ لَـدُنْـكَ وَلِيّـاً * يَرِثُنِيْ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ .

وهذا سؤال الطلب والحاجة ، جاء في منهج الدعاء الكـامل ، أولاً في لفظ نادىٰ بدلاً من دعا ، لأنَّ النداء غـالباً مـا يكون للغـوث والعون ، أي في حالة الاضطرار ، بخلاف الدعاء فقـد يكون لـلاستزادة ، ثم في كـونه نـادىٰ ربه ، بدلاً من إلـٰهه ، لأنَّ معنىٰ الربـوبية في الإصـلاح والإحسان والعـطف والـرحمة ، ربِّ العـالمين الـرَّحمٰن الـرَّحيم . ثم كـون هـذا النـداء خفيـاً ، والخفاء في النداء إمَّـا لضعف الصوت وهـو أثر من آثـار الحاجـة والافتقار ، وإمَّا لعلمه ويقينه بأنَّ ربه في قربه منه ، يستوي عنده السر والعلن .

ثم عـرض حالتـه المستدعيـة للإجـابة والعـطاء ، وهي كامـل مـظاهـر الضعف البـدني : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيْ وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَـيْبَـاً ﴾ أعاد لفظ الرب تضرعاً وإلحـاحاً في الـدعاء ، واستعـطافاً في الإجـابة ، وإذا كان قد وهن العظم منه ، وهـو هيكل بنـاء الجسم ، فوهن الجسم كله تـابع لـه ، فلم يبق عضو إلاَّ وقـد أصـابـه الـوهن واشتعـل الـرأس شيبـاً ، جمـال الاستعارة في اشتعال الرأس شيباً يستوقف البلاغيين عند وجه الشبه في سرعة

انتشار الشيب في الشعر ، كسرعة اشتعال النار في الهشيم ، ولعلَّ مجيء هذا الوصف الدالّ على كبر السن ، لبيان أنَّ وهن العظم لا مرض عارض ينتظر زواله ، ولكن لكبر سن ينتظر ازدياده ، فهو أدخل في التوجّع والالتجاء ، وأدعىٰ عند الكريم للإجابة ، ثم الاعتراف بمدىٰ إنعام المولىٰ عليه وما عوّده من استجابة دعائه في السابق ، فقال : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي محروماً ونلاحظ أيضاً نبرات الاستعطاف في تكراره لنداء ربه ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ ﴾ ولم يقل بدعائك إلهي . ولكن يلازم نداء الرب سبحانه لمعاني الربوبية الواسعة .

ثم يذكر مخاوفه التي لا يبددها إلَّا فضل ربه وعطائه : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرَائِيْ ، وَكَانَتِ امْرَأَتِيْ عَاقِراً ﴾ موقف بين طرفين لا يملك فيهما شيئاً :

أ - مواليه من ورائه يتصرّفون في الناس من بعده على نحو وحال يخشاه منهم .

ب - عقر امرأته لا ينتظر أن يلد له وريثاً دون الموالي الذين يخافهم ، وليس من مخرج إلَّا فضل الله ولذا قال ﴿ فَهَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ وقوله فهب : الهبة هي العطية بدون مقابل ، وهي هنا العطاء الذي لا يتوقف على السبب المعهود ، وهي امرأته لأنها عاقر ، وقوله (من لدنك) إفصاح عمَّا انطوىٰ عليه الموقف وكأنَّه يقول إنَّ السبب الذي هو من لدنّي - وهي المرأة - لا يتأتّىٰ منه ذلك ، ولكن من لدنك أنت فإنَّك الرب القادر ، ثم تعلَّل لهذا الطلب بما فيه من المصالح الدينية والدنيوية ، ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي يرثني في خاصة نفسي ، ويرث من آل يعقوب النبوة والعلم والدعوة إليك ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ ففيه إظهار حرصه على استمرار الدعوة في آل يعقوب ، وحرصه على صلاح ولده وأن يكون هذا الصلاح من جعل الله ، لا أن يوكل إلى نفسه ، لأنه يعلم أنَّ من يهده الله فهو المهتدِ .

بعد هذه الصورة وما أُحيط بها من عواطف ، وما انطوت عليه من ضراعة ، وقوة الالتجاء وشدة اليقين بالله ، وعظيم الرجاء بربه جاءته البشرى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ .

يلاحظ أنَّ الجواب متطابق مع صورة السؤال ، فجاء مسبوقاً بالبشرىٰ (إنَّا نبشرك) لأنَّ الطلب والسؤال كان مسبوقاً بضراعة وإلحاح ، وجاء العطاء بغلام ، لأنَّ الدافع للطلب هو العجز والضعف في وهن العظم ، واشتعال الرأس شيباً ، والغلام شعار الفتوة والقوة كما قيل : غلام إذا هزَّ القناة سقاها .

وذكر اسمه وتعيينه تأكيد للاستجابة المحقّقة المتعينة لا مجرد غلام . وكونه لم يجعل له من قبل سمياً في مقابل حرصه على صلاحه ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ .

إنَّ هذا السؤال الأول من سؤالي زكريا ـ عليه السلام ـ يرسم المنهج الأمثل في آداب الدعاء ولطائف مقدماته ، وما تضمّنه من ضمان الإجابة .

السؤال الثاني من زكريا عليه السلام

كان السؤال من زكريا ـ عليه السلام ـ سؤال طلب وحاجة مع مسوغات ودوافع تجلت في ندائه لربه نداء خفياً ، ثم جاءته البشرىٰ بمطلوبه ، حيث كان مطلوبه ولياً يرثه ويرث من آل يعقوب ، فكانت البشرىٰ غلاماً اسمه يحيىٰ لم يكن له من قبل سمياً ، وتقدَّم الكلام على ذلك .

والسؤال الثاني: سؤال استبشار وابتهاج ، وإعجاب بسرعة الجواب ، وحسب العادة لم تكن الظروف مواتية لتحقيق ما طلبه ، فبعد أن سمع البشرىٰ من الله تعالىٰ ، أو من الملائكة بأمر من الله عزَّ وجلّ ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًا ﴾ رجع إلى نفسه ،

وحاله وحال زوجه ، فقال : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِيْ غُلَامٌ ﴾ أي والحال كون امرأتي عاقراً ، أي غير منجبة . وهو كذلك ، كما قال : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أي لم أتوقع أن يولد لي الولد .

هذا هو تصوير نبيّ الله زكريا للموقف من الطرفين ، وهذا هو موقفه من تلقّي البشرىٰ بالغلام ، والحالة التي لا يتوقّع منها الإتيان بهذا الغلام الموعود ، بل قد يزيده تساؤلاً أنَّ الغلام الموعود به لم يكن على عادة الزوجين الكبيرين سناً ، الهرمين جسماً من ضعف الولد ونضوه ، بل على أكمل صورة وأوفر خلقة : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي مسامياً ومعادلاً .

إنَّه لم ينسَ الحالة التي وصفها عند السؤال في قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّيْ وَهَنَ العَظْمُ مِنِّيْ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ لم ينس هذا الدعاء في استعطافه والتجائه ، بل غطّت حلاوة البشرىٰ ونفحاتها كل شعوره فراح يتساءل ولكأنّه تساؤل ينطوي على التعجّل بتحقيق ما بشربه (أنّىٰ) متىٰ ، وكيف يكون لي هذا الغلام ؟

فكان الجواب المقنع الذي لم يدع للشيخ تساؤلاً ، ولم يبق في الموقف لبساً ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ لقد أعاد هذا الجواب لزكريا ـ عليه السلام ـ ماضي وجوده الذي لم يشك ولم يلتبس عليه شيء من شأنه وهو تلك الحالة والصورة التي هي أشدّ إعجازاً ، وأمعن اقتداراً حين خلقه الله ولم يكُ شيئاً . كما قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِيْنٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيْهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيْعَاً بَصِيْرَاً ﴾ [الإنسان : ١ ـ ٢] .

وهذا الدليل يأتي كثيراً في إثبات المعاد ، سواء لمنكريه كما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ * قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهْوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ ﴾ فها هنا نبّه على أنه

لم يتساءل المُنْكِرُ عمَّن يحيـي العظام وهي رميم ، إلَّا لأنه نسي خلقـه الأول من نطفة ، فردَّه سبحانه إلى القدرة التي أنشأته أول مرة ، وبالطبع فإنَّ إعادته مرة ثانية أهون من إنشائه الأول .

وكذلك هنا في قوله تعالىٰ ﴿ قـال كذلـك ﴾ كأنَّـه بمثابـة إمضاء الأمـر والقطع بتحقيقه وإنفاذ ما وعد به في البشـرىٰ ﴿ إنَّا نبشِّـرك بغلام ﴾ فقـوله : ﴿ قال كذلك ﴾ أي كذلك الأمر قد صدر ، والوعد قـد وقع ، ولا غـرابة ولا استبعاد ، ولا توقف ولا خلف للوعد ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ نـظير مـا جاء في آخر (يٓس) ﴿ إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وفي هذا الإيراد أصبح الأمر يقيناً عند نبيِّ الله زكريا وينتظر التنفيذ ، ويتـطلَّع إلى الوقت المعهود ومعرفته ، فانتقل من موضوع السؤال وأمـر تحقيقه إلى كيفيـة الإيجـاد وساعـة تحقيقه : ﴿ قَـالَ رَبِّ اجْعَلْ لِيْ آيَـةً ﴾ والآيـة العـلامـة ، فجعل الله له علامة من نفسه كما قال تعالى : ﴿ قَـالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّـاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَـوِيًّاً ﴾ وسـوياً هنـا محتملة أن تكون وصفـاً له بـأنه يمتنـع عليه الكلام مع أنه خلقه خلقاً سوياً بدون عجز ولا عاهة ولا مرض ، ولذا كان إذا سبَّـح الله طاوعـه اللسان فسبح ، وإذا أراد الكـلام مـع النـاس امتنـع عليـه الكلام ، وسوياً محتملة أيضاً الوصف لليالي ؛ أن كاملة بأيامها ، ولعلَّ الأول أرجـح ، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ المِحْـرَابِ ﴾ وهو مـوضع ومكـان تعبده أو جلوسه لقومه ، فأوحى إليهم أي أشار أن سبحوا بكرة وعشيّاً ، إلى الموعد الذي جعل علامة له على تحقق البشرى .

وهناك عرض آخـر لهذه الحـالة في سـورة آل عمران في عـرض قضية مـريم في قولـه تعالى : ﴿ إذْ قَـالَتِ امْرَأَةُ عِمْـرانَ رَبِّ إنِّيْ نَذَرْتَ لَـكَ مَا فِيْ بَطْنِيْ مُحَرَّراً فَتَقَبَّـلْ مِنِّيْ إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْـعُ العَلِيْمُ * فَلَمَّا وَضَعْتَهـا قَالَتْ رَبِّ إنِّيْ وَضَعْتُهَـا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الـذَّكَرُ كَـالأُنْثَى وَإنِّيْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإنِّيْ أُعِيْذُهَـا بِكَ وَذُرِّيَّتَهـا مِنَ الشَّيْطَانِ الـرَّجِيْمِ * فَتَقَبَّلَها رَبُّهَـا بِقَبُولٍ

حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهْوَ قَائِمٌ يُصَلِّيْ فِيْ المِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيَّاً مِنَ الصَّالِحِيْنَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِيْ غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِيْ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِيْ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ [آل عمران : ٣٥ ـ ٤١] .

فنجد هنا إيضاحاً وتوجيهاً من بداية ما شاهد زكريا عند مريم تلك التي تقبلها ربها بقبول حسن والتي أنبتها الله نباتاً حسناً ، وأصبحت في كفالة زكريا وظهرت مكانتها عند كافلها وعامة أهلها ، فكلّما يدخل عليها زكريا يجد عندها رزقاً أي رزقاً خاصاً غير متوقع وعلى غير المعتاد ، وليس عموم الرزق لأنَّ عمومه لا يسأل عنه ، ولكنه رزق خاص استرعىٰ انتباهه في الوقت الذي هو كافلها وهي في المحراب ، فكيف وجد عندها ؟ ومن أين جاءها ؟ فسألها : ﴿ أنّىٰ لك هذا ﴾ أي من أين ومتىٰ جاء إليكِ ؟ وكان جوابها مقنعاً وباعثاً آمالاً جديدة عند زكريا ـ عليه السلام ـ ، إذ قالت له : هو من عند الله ، فليس بعيداً ولا غريباً على قدرة الله أن يكرم السيدة مريم التي تقبلها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، فهي إذاً ليست في كفالة زكريا بقدر ما هي في رعاية الله تعالىٰ .

وفي أثناء تفاعل زكريا مع هذا الجواب المقنع ، نبهته مريم بأن فضل الله واسع وأنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، وأيضاً وعلى غير العادة يرزق من يشاء بما يشاء أنّىٰ شاء ، فكانت هذه الإجابة تنبيه شامل لزكريا ـ عليه السلام ـ .

عند ذلك توجه زكريا لربه يسأله من واسع فضله ، هنالك ؛ أي في

تلك اللحظة التي أثارت مريم فيها انتباهه ، والتي عاين فيها سعة فضل الله ، دعا زكريا ربه ، دعا الرب سبحانه الذي يرزق من يشاء بغير حساب ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ ﴾ إنَّها دعوة مخلصة ، وتوجه صادق من منطلق المعاينة ودوافع اليقين . فكان الجواب : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهْوَ قَائِمٌ يصَلِّيْ فِيْ المِحْرَابِ ﴾ وهذا أيضاً إبراز لصورة التضرّع إلى الله بعد أن دعا ربه ، قام في محرابه يصلِّي لله ويتقرَّب إلى الله بصلاته ، فما قضىٰ صلاته حتى نادته الملائكة : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ .

ومن لطيف الإشارة هنا أن تعلمه الملائكة في صورة نداء ، وكأنَّه كان في قيامه في المحراب في صلاته ، مستغرقاً في مناجاته ، مستجمعاً حسه وفكره وقلبه مع الله ، حتى لا يكاد يسمع ما حوله حتى تناديه الملائكة وتبلغه البشرىٰ .

إنَّ في هذا العرض توجيه لتخير وقت الدعاء عند فيض فضل الله ، وتوجيه لدواعي قبول واستجابة الدعاء حين قام يصلِّي ، وأقرب ما يكون العبد لربه وهو يصلِّي ، وفي هذا العرض إظهار قدرة المولىٰ سبحانه على خرق العادة والإتيان بالمعجزات ، والتفضُّل على من يشاء بغير حساب .

ومن هذا القبيل حادثة الخليل ـ عليه السلام ـ وزوجه سارة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيْمَ بِالبُشْرَى قَالُوا سَلَاَمَاً قَالَ سَلَامٌ ﴾ إلىٰ قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ وَمِنَ وَرَاءِ إسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِيْ شَيْخَاً إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيْبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إنَّه حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ ﴾ [هود : ٦٩ ـ ٧٣] .

فلتقو الآمال في الله وليعظم الرجاء في فضله ، ولنجدد الإيمان بقدرة الله تعالى .

*****

سؤال مريم عليها السلام

****

قـال تعالى :

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٠].

تقدَّم سؤال نبيّ الله زكريا بقسميه ؛ الـطلب ، والحاجـة : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَـظْمُ مِنِّيْ وَاشْتَعَلَ الـرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِـدُعَـائِـكَ رَبِّ شَقِيّـاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ ومجيء البشرى له بغلام اسمـه يحيى ، وسؤاله التعجبي والائتناسي بفضل الله عليه في موقفه بين العطاء العظيم ـ أن يعطى الغلام الذي ليس له سمياً ـ وبين كبره وعقر امرأته ، وجاء تأكيد الأمـر ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ .

وجاء يحيى وحمل الأمانة ﴿ يَـا يَحْيَى خُذِ الكِتَـابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَـاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : ١٢ ـ ١٥] .

لقد حمل الأمانة بقوة وأوتي الحكم صبياً ، فلم يسامه أحـد من قبل ، وحناناً وعواطفَ تفيض على والـده الشيخ الـذي وهن العظم منـه ، وبلغ من الكبر عتياً ، أحوج ما يكون لهذا الحنـان ، حنان في إحسـان وتقىً وإيمان ، لا حنـان الصدقـة والترحّم ، بـل زكاة وتقـوىً لله ، وبراً بـوالديـه متـواضعـاً معهما ، ولم يكن جباراً عصياً ، إنَّها نعم تتضافر وعطاءات تتوافر . ﴿وَسَلَامٌ عَـلَيْهِ يَوْمَ وُلِـدَ وَيَوْمَ يَمُـوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ سلام في جـميع أطواره ، إن الكريم إذا أعطىٰ لا شك يجزل العطاء .

وبعد أن تمَّت المعجزة لزكريا وامرأته، فأنجبت العاقر، وولد للشيخ الكبير، وهذا على خلاف العادة والاضطراد، تأتي صورة أعظم، ومعجزة أقوىٰ دلالة وأظهر في القدرة، تسترعي الانتباه وتذكر على مرّ الزمن آية وبرهاناً.

﴿وَاذْكُرْ فِيْ الكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] ارتباط وثيق بين الخبرين، فمريم هي التي كانت في كفالة زكريا، إنَّها حلقة من سلسلة أحداث كريمة، ومعالم من نور في سجل تاريخ البشرية، ذرية بعضها من بعض. مريم التي نذرتها أمها لله، وهي لم تزل في بطنها لم تعلم نوعها، أذكراً هي أم أنثىٰ؟ وكانت تتمنَّاها ذكراً ليخدم المعبد، ولكنها وضعتها أنثىٰ. وللغرض الذي من أجله وجدت، ولا يتأتَّىٰ من الذكر، قيل لها وليس الذكر كالأنثىٰ، وعلمت أمها أنَّ دورها عظيم، وأنَّ لها شأناً أكبر، فعوذتها بالله من الشيطان الرَّجيم هي وذريتها وأودعتها رعاية الله: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ورأىٰ زكريا على يدها وفي محرابها الأعاجيب من الأرزاق والنشأة الفاضلة، تلك هي مريم؛ مثال الطهر والعفاف لنساء العالمين، كما أنَّ يوسف ـ عليه السلام ـ كان مثال الطهر لشباب المسلمين، بل وللرجال أجمعين.

وتأمَّل هذا السياق في هذا التصوير:

﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ [مريم: ١٦] والنبذ الطرح ولا يكون بعيداً، ومنه النبيذ؛ طرح التمر والزبيب في الماء، أي أنها عزلت نفسها عن الناس في خلودها للعبادة، فلم تخالطهم ولم تعبد عنهم، بدليل ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾ [مريم: ١٧] ولعلَّ في اتخاذها المكان إلى الشرق رمز النور والاشراق.

وذكر الفخر الرازي عن ابن عباس: أنَّ النصارىٰ اتخذوا مكان مولد عيسىٰ قبلة لهم.

وهنـاك وفي خلوتها ، وبينهـا وبين أهلها حجـاب ، يـأتيهـا الملك في تلك الصورة فتمثل لها بشراً سوياً .

إنَّها مفاجأة لفتاة ناشئة ، وفي خلوة عن أهلهـا ، تجد نفسهـا بين يدي بشر سويّ مكتمل الخلقة .

لا شك أن تسرع إليها المخاوف ، وتتجسَّم أمامها الأخطار بقدر عفتها وطهرها ، إنَّها امرأة من البشر ، وهذا بشر سوي .

فهناك امرأة العزيز تغلق الأبواب وتقول ليوسف هيت لك ، وهنـا مريم ابنة عمران تقول لمن تمثَّل لها بشراً سـوياً : ﴿ إِنِّيْ أَعُـوذُ بِالـرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : ١٨] .

إنَّها لحظة خوف ورجاء تعوّذت فيها بالرَّحمٰن، تسترحم الماثل أمامهـا وهي لا تعلم من هو ، وتتوسَّم فيه الخير والتقىٰ ، لأنَّ التقوىٰ خير حـاجز لـه وواقٍ لها ـ كما قالت فتاة بني إسـرائيل للشـاب : اتَّق الله ولا تفضن الخاتم إلَّا بحقه فقام عنها ـ فعلم جبريل مخاوفهـا ، فعرفهـا بنفسه ، وطمـأنها على نفسها، وألقى إليها بالبشرىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم : ١٩] أرسلت إليك لمهمة فلا تخافي ولا تجزعي وتقبَّلي رسالة ربك ، لقد أرسلت : لأهب لـك غلاماً زكياً ، هناك انتقلت مريم من حالـة روع ومخاوف إلى حـالة استيضـاح وتفاهم ، لقد أمنت جانب الرسول وأنه من عند الله ، ولكن ما جاءها بـه لم يكن معهوداً ، ولا هي مسبوقة فيه ، ولا تكذيب لرسول ربها إليهـا ، فلم يبق إلَّا الاستفسار ، والاستيضـاح والتساؤل عن الكيفية التي بهـا تتمّ الـرسالـة ، مع سلامتها عند قومها وأمـام الناس جميعـاً ، فسألت ، وجـاء سؤالها جـامعاً حاصراً لأطراف الموضوع : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِيْ غِلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِيْ بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَـغِيّاً ﴾ أي أن مجيئهـا بـالغـلام لا يكـون عـادة إلَّا بمسّ الـزوج ، وهي لم تتزوج ، أو عن طريق البغاء ، وهي التي أحصنت فرجها عن هذا ، ولم تـكُ بغياً ، ولا ثالث لهذين الأمرين .

فجاءها الجواب القاطع وبنفس الأسلوب الذي جاء به الجواب لزكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١] ويبين الغرض من وراء ذلك من الآيات والعبر والدلالة على القدرة الباهرة : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ [مريم : ٢١] وانتهى الحوار وقضي الأمر ، وتمّت مهمة رسول ربها إليها ، وبدأت مرحلة الإيجاد والتنفيذ : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ [مريم : ٢٢] . وهنا ابتعدت عن أهلها تنتظر أمر حملها ، ولم يطل بها الأمر ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ٢٣] وهناك تواجه الواقع ، وتتصوّر مواجهة المجتمع ، فهي في حالة المخاض وليس عندها من يعنيها ، وتفكر في المصير بعد ذلك ، فعظم عليها الأمر وثقل عليها حمله : ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ ولم أواجه هذا الموقف ولا أعلم ما سيكون من بعد : ﴿ وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ [مريم : ٢٣] إنّها أقصى حالات الخوف والفزع وتجسيم المخاوف والمخاطر .

وهناك يبدأ انفراج الأزمة ، وتنقشع سحب الخوف ، وتتبدّد الهموم حين تسمع نداءه من تحتها : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : ٢٤] إنَّ مجرد ندائه إيّاها يبعث الطمأنينة ، لأنه ليس من العادة أن يتحدث مولود عند ولادته ، ممّا ينقلها إلى عالم المعجزات وخوارق العادات . ثم هو يوجه إليها التعليمات ، ويعرفها بنفسه ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : ٢٤] ويضع يدها على معجزات أخرى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : ٢٥] فأي قوة لامرأة وفي حالة نفاس أن تهزّ جذع نخلة ، ولكنها سنّة الله ، الأخذ بالأسباب ، فعليها هي أن تمد يدها إلى الجذع ، وعلى الله الإتيان بالثمرة ، لقد كان يأتيها في محرابها الرزق من غير هز ولا غرس ، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وكان من الممكن الإتيان بعيسىٰ ـ عليه السلام ـ من غيرها ، بل ومن

غيرأم ، ولكن لتتمّ الآية كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

ويُقال أيضاً : إنَّها لما كانت في محرابها كانت متفرغة لعبادة ربها ، وفي دور الإعداد للمهمة المنتظرة منها ، ولما خرجت من محرابها وجاءها المخاض بدأت رحلة الجهاد في تنفيذ ما أريد منها .

ولكن هنا تساؤل وهو : إنَّ أرض فلسطين أكثر أشجاراً وثماراً من النخيل ، فلم لم يكن مجيئُها لأيّ شجرة أخرىٰ ؟ قالوا : إنَّ هذا هو اختيار الله لها لأنه قرىء ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ أي أتى بها إلى النخلة . وقرىء ﴿ فَاجَأَهَا الْمَخَاضُ ﴾ .

ولما في النخلة من مناسبة ألطف ، فهي أشبه الأشجار بخواص الإنسان ، وثمارها أطيب ما يكون للنفساء ، وأهم من هذا كله ما يوحي به لفظ قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل إلى النخلة ، ممَّا حمل القرطبي على القول بأنه جذع يابس ، وليس بنخلة مثمرة ، ليكون آية لها بمجرد ما تهزّه يساقط عليها رطباً ، ورطباً جنياً كأجود ما يكون ، كما أجرىٰ لها الجدول، فقيل لها : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ بولدك ولا تتمنّي الموت بسببه لأنه سيكون له شأنه .

مريم في المواجهة

قال تعالى :

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ [مريم: ٢٧].

بعد اللحظات العصيبة التي مرَّت بها مريم ، من حين أجاءها المخاض إلى جذع النخلة وتمنّيها الموت قبل هذا ، وقد فرج الله عنها ، من حين ناداها من تحتها ـ على بعض القراءات بفتح الميم ـ يعني طفلها ،

ورأت الآيات في كلامه ، وتساقط الرطب من الجذع ، بعد هذا كله عادت إليها شخصيتها ، وارتدَّ إليها اعتبارها عند نفسها ، وهناك قويت على المواجهة ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ ويلاحظ أنه في الحالة الأولى جاء قوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي اضطرَّها للمجيء إلى الجذع ، وهنا جاء قوله : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ والإتيان يكون اختيارياً ، وأتت به قومها وليس أهلها ، لأنه ليست في معرض من يلوذ بأهله لحمايته ، بل في معرض التحدِّي للقوم أجمعين ، والتنصيص على أنها (تحمله) دلالة صريحة على عدم مبالاتها بهم ، فهي تعلن أمومتها له ، وكأنَّ في لفظ (تحمله) التلويح بمعنىٰ التحمل ، أي تتحمل مسؤوليته .

أتت به قومها تحمله ، وتحمل الوصية والتعليمات ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦] .

وكأنَّه إلى هنا قد انتهىٰ دورها منذ أن أتت به ، وما وراء ذلك فليس عليها منه شيء ، ولهذا قويت على الإتيان به قومها واثقة من نفسها .

وفوجىء قومها ، فاتهموا ولم يستفهموا ، وكان الأولىٰ بهم أن يبدؤوا بالسؤال والاستفهام ، فلعلَّه طفل لبعض النسوة أودعته عندها ، أو لقيط أنقذته أو غير ذلك ممَّا يقع عادة ، ولكنها بوادر العداء ومظاهر الغباء . فابتدروها قائلين : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي فرية من غير وجه حق ، والفرية : الكذبة ، والحديث المفترىٰ : الكذب ، وولد الزنا فرية لأنه قد تلحقه أمه بزوجها فرية ، ثم ذهبوا يلوثون سمعة أهلها في أسلوب التعريض (يا أخت هارون) وهارون هذا أخوها نسباً وليس هو هارون النَّبيّ أخو موسىٰ ـ عليهما السلام ـ فبينهما مئات السنين ، أو نسبوها إلى هارون النَّبيّ على حد نسبة البشر لآدم ، يُقال ابن آدم ، تنويهاً بصلاح من نسبت إليه ، وما كان ينبغي لها أن تكون عليه من منهج صلاحه ، ثم انتقلوا إلى والديها بقولهم : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨]

وهذا من دلالة مفهوم المخالفة أبعد أنواع الاتهام ، لأنهم بهذا يقولون لها : فلم أنت لست مثلهما ؟ وكيف خالفت منهجهما ؟ وهذا على اعتبار الواقع والعادة ، أنَّ الوسط الفاضل تنشأ أبناؤه أفاضل ، والعكس بالعكس ، كما جاء في التحذير من المرأة الحسناء في المنبت السوء ، في قوله ﷺ : « إيّاكم وخضراء الدمن » . قالوا وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء » .

ولمّا جاهروا بهذا الاتهام ومريم لا تملك ما تجاوبهم به ، والموقف جد خطير ، ولو أنها أتت بحجاج العالم لتقنع القوم بالحقيقة لما قنعوا ، وليس لهذا الموقف إلَّا أن يتولىٰ صاحب القضية بنفسه الإفصاح عنها ، والإبانة عن نفسه وعن موضوعه ، فتخلَّت هي عن الدفاع عن نفسها ، لأنها في الواقع ليست هي صاحبة القضية وإنَّما القضية لطفلها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ فكان ذلك استخفافاً بهم وعدم مبالاة بما تفوهوا به في حقها ، فزاد في تعنّتهم وقالوا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ [مريم : ٢٩] إنَّه اعتراض سليم ، وتساؤل وارد ، ولكنهم سجلوا على أنفسهم مقدمة الحجة عليهم في قولهم (كيف) متعجبين مستنكرين أن يكلموا من كان في المهد ، لأنَّ من كان في المهد لا يتكلَّم ، ليكون كلامه حجة دفاع وإلزام ، دفاع عن أمه وإلزام لقومها : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أعتقد أنه لا يستطيع أحد أن يعبّر عمَّا أصاب القوم من دهشة أسكتت ألسنتهم أن ينطقوا بكلمة ، وشلَّت تفكيرهم أن يعلّلوا لذلك بأيّ علة .

إنَّها المعجزة الخارقة للعادة والمخالفة لما تعوّدوا ، طفل رضيع في المهد يخاطبهم فيسمعون ، ويكلّمهم فيفهمون !! ومن الإعجاز أن يبدأ حديثه بإعلان أنه عبد الله ، ليقطع عليهم تأليهه أو نسبة الولد لله ، فكان ما قاله لهم أعظم حجة عليهم .

ثم أخذ في بيان موضوعه ومنهجه ورسالته إليهم : ﴿آتَنِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [مريم: ٣٠] . فأيُّ كتاب لمن في المهد ؟ إنَّها المعجزة ، وأيّ

نبوة لمن في المهد ؟ إنه فضل الله ليعلم أولئك الفلاسفة والمغالون ، أنَّ النبوّة ليست أمراً مكتسباً يمكن الوصول إليه بكسب من العبد ، بل هي نعمة من الله وهبة منه جلَّ جلاله ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]. ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ثم جاء إليهم هم ، وما سيعود عليهم منه : (وجعلني مباركاً) أي وستعود بركته عليهم أين ما كان ، ممَّا يعطيه الشمول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِيْ مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ﴾ [مريم : ٣١] .

ثم عدَّد ما أوصي به ، والموصي له هو الله تعالىٰ : ﴿ وَأَوْصَانِيْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [مريم :٣١] وليعلم أولئك المغالين مرة أخرىٰ ، أنَّ التكاليف لا تسقط عن أحد ما دام على قيد الحياة ما دام يعي ويعقل .

وقد يسأل سائل : هل يصوم ويصلِّي وهو لم يزل في المهد ؟ أم أنه يؤدِّي ذلك إذا وصل إلى سن التكليف ؟ ويرجح القرطبي الثاني ، وهل ظل يتكلَّم بعد هذا الموقف ، أم انقطع عنه الكلام حتى بلغ السن الذي يتكلم فيه المواليد عادة ؟ وهو الأصح عند المفسرين .

ثم بيَّن موقفه من أمه فقال : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِيْ جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَومَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : ٣٢ ـ ٣٣] .

ونلحظ هنا مشاركة عديدة في سياق مجيء يحيىٰ ومجيء عيسىٰ ، مع تفاوت في موضوع السلام ، حيث كان السلام على يحيىٰ (والسلام عليه) أنَّ الله تعالىٰ سلم على يحيىٰ .

وعيسىٰ قال : (والسلام علي) أي أنه هو الذي سلَّم على نفسه ، لكنه وهو في المهد لم ينطق إلاَّ بما أنطقه الله فيعود الأمر إلى الله تعالىٰ ، خلافاً لما ذهب إليه البعض . ويهمنا هنا أنَّ عيسىٰ ـ عليه السلام ـ كما أعلن في أول حديثه للقوم أنه عبد الله ، ختم حديثه بما يؤكِّد أوله ، في كونه كما

ولد سيموت ، وكما سيموت سيبعث ، والموت من لوازم المخلوقين ، فلا يكون ابناً لله ، لأنه على الفرض ـ وإن كان فرضاً خطأً ـ لو كان لله سبحانه ولداً ـ وحاشاه أن يكون له ولد ـ لما كان لهذا الولد الذي يدعونه أن يموت ، تعالىٰ الله عزَّ وجلّ عن ذلك علوّاً كبيراً .

وقد جاء سؤال مريم كما جاء سؤال زكريا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِيْ غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِيْ عَاقِرَاً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِيْ غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِيْ بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ والجواب متَّفق ﴿ قَالَ كَذَلكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ومع زكريا ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ ومع مريم ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ فهي أسئلة استفهامية تعجبية . وأجوبتها قطعية عملياً ﴿ وَكَانَ أَمْرَاً مَقْضِيّاً ﴾ .

وفي ثنايا السؤالين والقصتين ، تكتمل حلقات القدرة الإلـٰهية في منهج إيجاد الخلق ، والردّ على أولـٰئك الطبيعيين والـدهريين ، إذ بـدأ المنهج من خلق آدم ـ عليه السلام ـ حيث أوجده الله من عدم من غير أب سابق ولا أم ، كما قال تعالى في أول أمره يخبر الملائكة : ﴿ إِنِّيْ خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِيْنٍ ﴾ [صۤ: ٧١] وفيٰ هذا الإخبار أقوىٰ إظهار للقدرة لأنه قال خالق بشراً ، ومن أيّ شيءٍ سيخلقه ؟ من طين ، وما أبعد الطين عن طبيعة البشر ، بعد الجماد من الحيوان ، ولكنها القدرة الإلـٰهية .

ثم خلق من آدم حواء : ﴿ يَاَّيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : ١] وهذه أقرب إلى التجانس ، بشر من بشر ، ولكنها مغايرة امرأة من رجل . ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] لا على سبيل الطبيعة والعادة ، ولكن تحت نظام القدرة والسلطان ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ * أَوْيُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْماً ﴾ [الشورى : ٤٩ ـ ٥٠] .

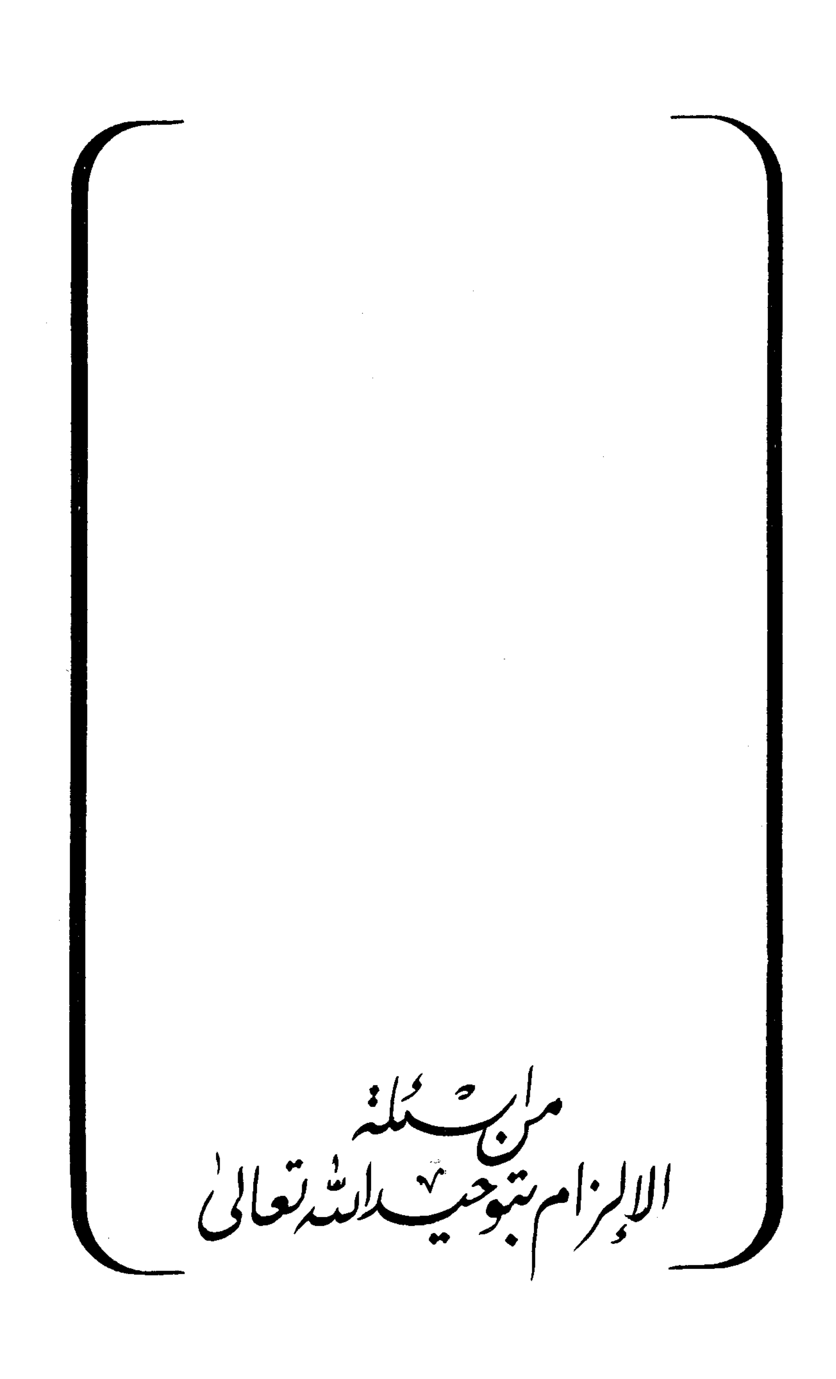
وكل ذلك مشاهد محسوس ، لكنه قد يمرّ دون أن يستوقف أحداً .

فتأتي قضية إبراهيم وزوجه سارة ، وهي العقيم فبشرت بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فتعجّب من هذا الخبر وتجاب ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود: ٧٣] .

ثم تأتي قضية زكريا وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، ويسأل ربه الولي من ورائه يرثه ، فيبشَّر بالغلام فيعجب أن يؤتىٰ الولد وامرأته عاقر ، إن كبر السن وعقر المرأة مدعاة لعدم الإنجاب ، فإتيان الولد منهما دلالة متجددة علىٰ استمرارية القدرة الإلـٰهية في الخلق والإيجاد .

ثم تأتي المعجزة في عيسىٰ رجل يؤتىٰ به من امرأة ، عكس مجيء حواء من آدم ، والكل من منهج واحد ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران : ٥٩] .

وقد ختم الله موضوع عيسى بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ [مريم :٣٤] من أنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً إلى آخر صفاته ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٥ - ٣٦] .


مسألة
الإلزام بتوحيد الله تعالى



﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قال تعالىٰ :

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيْهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ * أَمْ لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيْدُونَ كَيْداً فَالَّذِيْنَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيْدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور : ٣٥-٤٣] .

تلك أسئلة إلزامية تكررت أكثر من عشر مرات ، تلزمهم بما أنكروه ، وتنتزع منهم إقراراً بما جحدوه ، وتظهر قضايا هذا الإلزام في قضية كبرىٰ تسبق هذا السياق . وهي موقف بعض المشركين من رسول الله ﷺ حين اتهموه بالكهانة ، ورموه بالجنون ، ونسبوه إلى الشعر . يردُّون ما جاء به من الوحي الإلٰهي المنزل ، وما صحب ذلك من تبرئته ﷺ من كل ما رموه به ، وإلزامهم بصدقه ﷺ ، وثبوت رسالته إليهم ، وذلك من بداية قوله تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[الطور : ٢٩] ثم جاءت الأسئلة الإلزامية التقريرية تنكر عليهم ، وتلزمهم من بداية قضية الرسالة والرسول ، ثم انتهت إلى قضية الخلق والخالق ، ثم الرزق والرازق ، ومن ثمَّ إلى النتيجة الكبرىٰ في قضية الألوهية في المعبود والعابد . فيشمل هذا السياق أهم أصول القضايا الإلٰهية .

وتكون البداية معهم انطلاقاً من موقفهم مع رسول الله ﷺ ، لإثبات

الرسالة وإلزامهم بها ، لأنه إذا أقيمت الحجة عليهم بثبوت رسالة محمد ﷺ إليهم من عند الله ، في ذلك إلزامهم بكل ما يأتيهم به من الله .

والجو العام هو أنه ﷺ لما جاءهم بغير ما ألفوا ، وبإبطال ما هم عليه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك كل معبوداتهم ، استنكروا وتعجبوا : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ : ٥] فكانوا في موقف بين ارتباطهم بالقديم ، ودهشتهم بالجديد ، والقديم يشدهم إلى نهج الآباء ، والجديد يخاطبهم بوحي السماء ، فلم يستطيعوا قطع حبال الماضي ، ولم يقدروا على تحمّل واستيعاب الحاضر ، فراحوا يتهمون الرسول بما يبطل الرسالة ، فقالوا : مجنون ، والمجنون يهذي ، وقالوا : كاهن ، والكاهن يتخرَّص ، وقالوا : متقوّل ، والمتقول يكذب ، وقالوا : شاعر ، والشاعر يتخيل. فجاء قوله تعالى : ﴿ فَذَكِرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي استمر على التذكير بنعمة الله وهي الرسالة والوحي المنزل ، ولن تكون بتذكيرك بنعمة ربك لا كاهناً ولا مجنوناً ، وفي وجه آخر أنَّ الباء للقسم ، والنعمة مقسم بها ، والمقسم عليه نفي الكهانة والجنون ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور : ٣٠] وهم يعلمون حقيقة الشعر ، ويتحاشون مجابهة الشعراء فقالوا : ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور : ٣٠] الموت ، أو الزمن ، فيتحدَّاهم ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِيْنَ ﴾ [الطور : ٣١] وكلانا ينتظر النتيجة . ثم ينبّه فيهم مداركهم ، ويردهم إلى عقولهم ﴿أَنْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ [الطور : ٣٢] ولو حكّموا عقولهم لعلموا أنَّ رسولهم ليس كما قالوا ، وهم يعرفونه من أول نشأته فيهم ؛ بالعقل والفضل والصدق ﴿ أم هم قومٌ طاغون ﴾ [الطور : ٣٢] فتجاوزوا حق المعقول : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور : ٣٣] نسب القول لغير قائله ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٣] فهم يعرفون صدقه وأمانته ، وهو عندهم الصادق الأمين ، ولكنهم لا يؤمنون بما جاءهم به ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِيْنَ﴾ [الطور : ٣٤] .

وقد انجلىٰ هذا الموقف عن حالتين :

أ ـ إمَّا أن يكون طعنهم في شخصية الرسول ﷺ بالجنون والكهانة ، وقد أبطل الله عليهم ذلك بأنه ليس بنعمة ربه بكاهن ولا مجنون .

ب ـ وإمَّا أن يكون طعنهم في موضوع الرسالة بأن ما جاءهم به رسولهم شعر أو كلام متقول ، وقد أوقفهم على حافة التحدّي ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِيْنَ ﴾ وهم الشعراء والفصحاء والبلغاء ، فما جاز على فرد منهم وهو محمد بن عبد الله ، فإنَّه يجوز على مجموعهم فليأتوا مجتمعين بحديث مثله .

وكما تحدَّاهم في أول سورة البقرة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِيْ رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُو شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴾ [البقرة : ٢٣] وهنا نفس الموقف فليأتوا بحديث مثله ، أي كما أنَّ محمداً ﷺ مثلكم وواحد منكم ، وأنتم مثله وادعيتم أنَّ ما جاء به إنَّما هو شعر أو مقالات متقولة ، فإنَّ مقتضىٰ المثلية الموجودة بينكم وبينه أن تأتوا بحديثٍ مثل الحديث الذي جاءكم به شعراً أو متقولاً ، وكان في هذا التحدي إسكات لهم وإلزامهم بالحقيقة أنه نعمة الله تعالىٰ على الخلق أجمعين ، ولم يزل هذا التحدّي قائماً إلى اليوم وإلى الغد وإلى ما شاء الله ، ولم يزل الوحي نعمة من الله يتجدَّد نفعها ويعمّ خيرها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

وبعد تثبيت قضية الرسالة ، وصدق الرسول ، انتقل السياق إلى قضيتهم هم في أنفسهم ، قضية إيجادهم وخلقهم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾ فألزمهم تعالىٰ بقدرته ووحدانيته في ذواتهم أنفسهم ، وذلك بأنهم موجودون ولا ينكرون وجودهم فمن أوجدهم ؟ ولا يخلو ذلك من أن يكونوا خلقوا من غير شيء ، أي من غير خالق ، أو من غير مادة يخلقون منها ، أو أن يكونوا هم خلقوا أنفسهم ، وكلا هذين القسمين باطل ، لأنَّ الخلق من غير شيء محال ، لأنَّ غير شيء يعني العدم ، والعدم لا يخلق ولا يتأتّىٰ من العدم وجود ؛ ولأنهم لن يدعوا أنهم هم

الـذين أوجدوا أنفسهم بـأنفسهم ، ولو ادعـوا لكانـوا كاذبين ، لأنهم قبـل أن يخلقوا كانوا في العدم . إذن لا بد لهم من خالقٍ وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

ومن أنفسهم إلى أعـظم العوالم إلى السمـوات والأرض فقـال : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ . هذه الأجرام متناهيـة العظم، وفي نهاية الإبداع والإتقان ﴿مَا تَرَىٰ فِيْ خَلْقِ الـرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَـارْجِعِ البَصَـرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْـكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهْـوَ حَسِيْرٌ ﴾ [الملك : ٣ ـ ٤] ومعلوم أنهم لم يخلقوها ، ولكن ليطلعهم على قـدرة الله تعالى ، وبالتالي على عجزهم ، وعدم اقتدارهم على الإيجاد .

هب أنهم وُجـدوا ، ووُجـدت السمـواتُ والأرض ، فمن الـذي بيـده الخزائن ، ومنه العطاء ، وله السيطرة ؟ فقال : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّـكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُونَ ﴾ والخزائن هنا تعمّ كل مصدر عطاء حساً ومعنىً .

فمن الحسي : المـاء تنزلـه السماء ، والنبـات تنبته الأرض ، والثمـار تثمـرهـا الأشجـار ، وكنـوز الأرض ، وأرزاق البحـار ، وكـل مـا ينفـع الخليقة .

ومن المعنوي : إرسال الرسل ، والإنعام بالهداية والتـوفيق ، فخزائنـه ملأىٰ سبحانه وتعالىٰ ، لا مانع لما أعطىٰ ، ولا معطي لما منع .

فقـد ألزمهم في خلق أنفسهم ، وفي خلق العـوالم من حـولهم ، وفي فيضه عليهم من خزائنه ، وهي لوازم الربوبية تنتزع منهم الإقـرار لله سبحانـه بأنه الواحد الأحد المستحقّ للعبادة دون سواه ، وذلك عن طـريق الإلزامـات العقلية المتعددة .

ثم جاءهم عن طريق السماع والأخبار ، فقـال تعالىٰ : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُـونَ فِيْهِ فَلْيَـأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ ﴾ بعـد أن يصعـد سلمهم المـزعـوم بسلطان وحجة على ما زعموه داحضاً دعـواهم ، والحال أنـه لا سلم لهم ولا مستمع

منهم ، فتبطل ادعاءاتهم عقلاً ونقلاً .

ثم جاء إلى سفاهة عقولهم هم . فقال : ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ﴾ حينما قالوا الملائكة بنات الله افتراء على الله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] .

وهذا غاية الجور والحيف ، كما قال تعالىٰ لهم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيْزَىٰ ﴾ [النجم : ٢١ - ٢٢] فهي مقالة ترفضها عقولهم ويكذبها واقعهم : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيْمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] .

ثم جاءهم عن طريق المعاوضة والمادة ، فقال : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي على دعوتهم إلى الله ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ وثقل عليهم دفع الأجر لك على دعوتهم، والحال أنه ﷺ حتى الصدقة لا يقبلها، أي أنه لم يطلب منكم نفعاً مقابل دعوتكم ، وهذا أدعىٰ لقبولها بمقتضىٰ الفطرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِيْنَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِيْنَ * اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس : ٢٠ - ٢١] وقد بيَّن تعالىٰ أنه لا يسألهم أجراً في قوله: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً إِلَّا المَوَدَّةَ فِيْ القُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ:٢٣] . فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فما هي حجتهم في عدم اتباعك ؟ . أم عندهم الغيب ولديهم العلم بما يبطلون ويردون دعوتك ؟ والجواب أيضاً لا . فلم يبق أمامهم إلَّا طريق واحدة بحسب منهجهم ، وهو أن يكيدوا لك فقال : ﴿أَمْ يُرِيْدُونَ كَيْدَاً ﴾ أي ضرراً بك وهي حيلة العيي العاجز عن إقامة الحجة. سنة الأمم من قبل؛ كالنمروذ مع إبراهيم، وفرعون مع موسىٰ ، والسحرة الذين آمنوا ، وإذا كان الأمر كذلك ، واستنفذت سبل الإقناع ﴿فَالَّذِيْنَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيْدُونَ ﴾ .

ثم جاء إلى النتيجة النهائية : ﴿أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ ﴾ يلجؤون إليه

في الرغبة والرهبة ، حاشا وكلاَّ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

* * *

السؤال الأول في سورة الواقعة

قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨ ـ ٥٩] .

تقدَّم في سورة الطور السؤال المتضمّن قانون الإلزام عند علماء الكلام ، بأنَّ الله سبحانه هو وحده الخالق المدبّر لهذا العالم والمسيطر عليه ، في قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ إلى آخر السورة تقريباً . والإلزام فيه كما تقدَّم ، بأنهم قد جرىٰ إيجادهم في الدنيا ، فكيف وجدوا ، أخلقوا من غير خالق ؟ وهذا مستحيل ، أم هم الخالقون ؟ وهذا أيضاً لا يستطيعون ادعاءه ، والحال أنه لا بد لهم من خالق ، ومفهوم ضمناً أنه الله سبحانه .

وفي سورة الواقعة نجد المنهج نفسه ، حيث التصريح بما أبهم هناك ، والتفصيل لما أجمل ، وذلك في قوله سبحانه :

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ نعم نحن ضمير التعظيم والإجلال ، نحن خلقناكم فلم توجَدوا من غير شيء ، ولم توجِدوا أنتم أنفسكم ولكن نحن الذين خلقناكم فلولا تصدقون ، أي كان عليكم أن تصدقوا ، ثم بالتالي تقومون بلازم هذا التصديق ؛ وهو الإيمان بالرسول ﷺ ، وتصديقه فيما جاءكم عن الله تعالىٰ ؛ من إفراده بالعبادة ، والإيمان بالبعث والجزاء ، وما يتبع ذلك ، ولكنكم لم تصدقوا .

ثم جاء إلى إقامة الدليل عليهم من أنفسهم ، بتوسع وتفصيل فقال : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ أي أخبروني عن هذا المني الذي تمنون ، والذي هو أصل تخلقكم في الأرحام ، أأنتم تخلقونه ؟ أي توجدونه في أجسامكم ، وتخرجونه إلى الوجود ؟ أم الله

تعالىٰ يخرجه من بين الصلب والترائب ؟ ومن جهة أخرىٰ هبه وجد ، وأفرز من مصدره ، أأنتم تخلقونه إنساناً ؟ وعلى النحو الذي جاء تفصيله في موضع آخر فيما بعد في قوله تعالىٰ : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىً * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩] الجواب قطعاً : إنا لم نخلقه ولا نستطيع إيجاده ، وبعد أن وجد واستقرَّ في قراره المكين ، لا نستطيع تطويره من مني إلى علقة ، فمضغة ، فخلق آخر ، وأنت سبحانك يا الله الذي تخلقه إيجاداً وتطويراً .

ثم ينتقل معهم إلى قضية القهر والسلطان ، والتي لا ولن يجدوا عن الإذعان لها محيداً ، وهي في مقابل القضية الأولىٰ تماماً ، ألا وهي قضية العدم ، فقال تعالىٰ : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ ﴾ وهنا وقفة إجلال لعظمة الله ، وسلطانه وقدرته وقهره ، لمخلوقاته لأنَّ هذا الإنسان الذي يجحد إيجاده ، وما يترتَّب عليه ، ويكابر في أوامر الله ويتجاوز حدوده ، كما تقدَّم في سورة الطور قوله : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ فهما كان طغيانه وتعنته وتطاوله إذا نزل به الموت كان أحقر ما يكون عند نفسه ، ويذهب عنه ذاك الطغيان وحبط عنه ذاك السلطان ، كما قال تعالىٰ عنهم : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّيْ مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّيْ سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٨ ـ ٢٩] .

فقوله سبحانه (نحن قدَّرنا) له دلالتان :

الأولىٰ : أنَّ تقدير مجيء الموت لكل واحد هو من عند الله ، فهذا يموت طفلاً ، وذاك يعمَّر كهلاً .

والثانية : أنه قدرٌ محتَّم لا محيد لأحد عنه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ [العنكبوت : ٥٧] . وهذا من جانب الخلق نهاية الذلَّة والفقر والعجز والضعف ، ومن جهة الله تعالىٰ نهاية العزّة والسلطان والقدرة .

وفي كلا معنيي قوله تعالىٰ (نحن قدَّرنا) جاء التحدّي المعلن

والاستسلام المذعن .

ففي قضية التقدير بالدقيقة والثانية والنَّفَس واللحظة ، جاء قوله تعالىٰ : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤] ومثلها في يونس (٤٩) وكذلك في النحل : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] .

ومن الإعجاز القرآني هنا أن يتقدَّم في اللفظ أحد المتساويين اللذين هما (يستأخرون ، ويستقدمون) إذ المراد نفي استطاعتهم تغيير المقدر الذي قدره الله في قوله : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ وقد قدم لفظ ﴿ لا يستأخرون ﴾ لأنَّ غرض كل إنسان عند الموت لو يجد سبيلاً إلى التأخّر ولو لحظات ، يوصي فيها ، أو يتدارك شيئاً ما ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ، وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يٓس : ٥٠] .

كما أنَّ من ساءته حياته وضاق بها ذرعاً لا يستطيع أن يقدّم ما كان مقدراً ، لا يستطيع تقديمه ولا لحظة .

أمَّا التحدي في الوفاة ذاتها ففي قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ أي الروح عند الاحتضار ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ وأنتم ملتفّون حوله ولا حول ولا طول لكم ، نفسه تحشرج وأنفاسه تتردّد ، فلا يملك أقرب الأقربين له شيئاً ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ ولكن عميت بصائركم وغشيت أبصاركم فلا تبصرون .

وعند ذلك يأتي التصريح بالتحدِّي ووصمتهم بالعجز ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي الروح وتوقفون نزعها وخروجها من جسدها وتعيدون الحياة إليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولن يستطيعوا إرجاعها بل تنفلت من

بين أيديهم وهم صاغرون ، فلا يملكون إلَّا البكاء والعويل .

وبهذا تقوم الحجة على الخلق بالأمرين المتقابلين الأول : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ والثاني ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ ﴾ .

ومنه يخلص إلى قضية البعث بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيْمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٠ - ٦١] .

ويدلُّ لها أيضاً بما يسلّمون به ويعلمونه حقيقة العلم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أم نسيتم ؟ وقلتم : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ولو تذكرتم النشأة الأولىٰ بأن آدم نشأ من تراب .

السؤال الثاني في سورة الواقعة :

قال تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٤] .

ومن قضية الخلق والموت ، إلى الزرع والمعاش : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧] إنَّ قضية الحرث والزرع هي قضية الحياة والمعاش ، ممَّا لا غنىٰ لهم عنه ولا قوام لهم إلَّا به ، فيأتي هذا التساؤل : أخبروني عن مرئياتكم وآرائكم ، هذه الأرض تحرثونها نعم ، تشقونها بالمحراث وتهيئونها للزرع فتطعون الحب وتدفنونها وتغيبونه في التراب ، وهذا غاية جهدكم ، أخبروني بعد هذا العمل ، أأنتم تزرعون ما حرثتم ، أم نحن الزارعون ؟

وهنا وقفة ما أطولها ، وقفة تراقب الزرع في إنباته ، وفي انشقاقه الأرض عن (زريعته) الغضة اللطيفة فتتجه إلى أعلىٰ ، بينما تتجه الجذور إلى باطن الأرض ، وهي تلك الشعيرات الدقيقة ، كيف قويت على

الانسياب في باطن الأرض ؟ وامتصَّت المياه تغذي النبات . وقفة تساؤل ، من الذي أجرىٰ هذا التعديل في طرفي النبتة ؟ ما كان للثمرة إلى سطح الأرض، وما كان إلى التغذية وتثبيتها إلى باطن الأرض ، ونحن قد ألقينا بها عشوائياً لا ندري طرفاً من طرف ، فيأخذ كل طرف طريقه .

هبها أنبتت ونمت ، من يأتي للقمح بالسنبل تعلو هامتها ؟ وهب أنَّ السنبلة ظهرت ، من الذي أجرىٰ اللبن في أبراجها المحكمة ؟ هبه جرىٰ فيها ، كيف استوىٰ وانعقد حباً متراصاً ؟

وهذه الأشجار ، فمثلاً النخلة : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق : ١٠] أصلها (نواة) ثبتت وامتدَّت إلى السماء ؛ جذع جاف ، وجريد مجرد أعزل ، ينبت في رأسها هذا الطلع ، ثم يتفطَّر عن حبات اللؤلؤ ، ثم يتحوَّل إلى عقود الزمرد ، ثم هو ينمو حلواً أحمر ، أوأصفر إلى غير ذلك ، وتقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. سبحانك اللهمَّ وبحمدك أنت الخالق وأنت الرازق وأنت المحيي وأنت المميت أنت وحدك ، وأنت المعبود وحدك .

* * *

تقدَّم الحديث عن قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ والأسئلة بعد ذلك لإثبات هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِأَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وذكرهم بماضيهم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم جاء إلى قضية معاشهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ وتقدَّم

الكلام مفصلاً عن هذا كله .

وتمام قضية الحرث والزرع قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ .

وهذا من التدرّج معهم في إقامة الأدلّة عليهم ، في عجزهم وافتقارهم إلى الله تعالىٰ ، وعلى قدرته سبحانه وتصرفه في الكائنات بإرادته ومشيئته ، فيما هو كائن وما سيكون ـ ولا يكون شيء إلّا بإرادته سبحانه ـ فيقول لهم : هب أنكم حرثتم ونحن زرعنا ونبت الزرع ، من الذي بقدرته أخرج الثمرة من صميم الزرع كالسنبلة في أعالي القمح والذرة ؟ وكالثمرة من تحت الزهرة ، إنّه القادر سبحانه ، لو نشاء لأوقفنا مجيء الثمرة ولجعلنا زرعكم حطاماً لا ثمرة له ، والزرع الذي لا ثمرة له ليس منه إلّا إيقاد النار ، أو تحميل السقوف ونحوها ، ولا يكون الزرع مصدر معيشة لكم ، وعندئذٍ تفكهون إنّا لمغرمون . وأصل التفكّه تناول أنواع الفاكهة المختلفة المتعددة ، ثم انتقل إلى تنوّع الحديث المختلف ، ثم بين نوع تفكّههم في الكلام فيقولون فيما بينهم : إنّا لمغرمون ، أي خسروا في الحرث والبذر دون الحصول على ثمرة ، ثم يضربون عن هذا النوع ويقولون : بل نحن محرومون . أي محرومون ثمرة حرثنا .

وذلك شبيه بمقالة أصحاب الجنة : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِيْنَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيْمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِيْنَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِيْنَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِسْكِيْنٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِيْنَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : ١٧ ـ ٢٧] أي حرموا ثمار جنتهم بسبب معصيتهم ومنعهم حق المساكين .

وهكذا هنا لو يؤاخذهم الله بكفرهم وجحودهم ، لحرمهم ثمرة زرعهم

ولجعلها حطاماً ، وقد بين سبحانه مدىٰ حلمه على من كفر في قولـه تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّـرَ بِآيَـاتِ رَبِّهِ فَـأَعْـرَضَ عَنْهَـا وَنَسِيَ مَـا قَـدَّمَتْ يَـدَاهُ ﴾ [الكهف : ٥٧] إلى قوله تعـالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغَفُـورُ ذُو الرَّحْمَـةِ لَوْ يُؤَاخِـذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف : ٥٨] . وفي سورة فاطر قولـه تعالى : ﴿ وَلَـوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّـاسَ بِمَا كَسَبُـوا مَا تَـرَكَ عَلَى ظَهْرِهَـا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّـرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ ﴾ الآيـة [فاطـر : ٤٥] .

السؤال الثالث في سورة الواقعة :

قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الماءَ الَّذِيْ تَشْرَبونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨ ـ ٦٩] .

ومن ثمَّ جاء السؤال الثالث عن الماء الذي به قوام الزرع ، والذي هـو قوام حياتهم ، بل حياة كل شيء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُـلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ولكنه خاطبهم في خاصتهم فقال : ﴿ أَفَـرَأَيْتَمْ المَـاءَ الَّذِيْ تَشْرَبُونَ ﴾ أي أخبروني عن مصدره ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ ﴾ وهي السحب كما تشاهدون نزوله ﴿ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ ﴾ .

لا شـك أنهم يـذعنـون قسـراً ، ويعتـرفـوَن قهــراً ، ويقـرُّون أنهم لم ينـزلوه ، وكم مـرَّت بهم سنون جـدب ، فلا سمـاء تمـطر ولا أرض تنبت ، وبالتالي فلا ضرع يحتلب ، ولذا عقب عليه بقوله ﴿ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ ﴾ نعم أنت يـا رب ، ومعلومٌ أنَّ إنزال المـطر يأتي عقب مـراحل ، كلهـا دالـة على قدرة الله تعالىٰ ومشيئته :

أولاً ـ إثارة الرياح بشرىً بين يديّ رحمته : ﴿ وَهْوَ الَّذِيْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابَاً ثِقَالاً سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

ثانياً ـ تلك الرياح تزجي وتدفع السحاب ثم يؤلف بينه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض محمّلاً بالماء ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾ [النور : ٤٣] .

لنقف هنا وقفة مع الجغرافيين والطبيعيين القائلين : إنَّ نزول المطر يحدث طبيعياً من تبخير الشمس لمياه المحيطات ، فتتصاعد الأبخرة حتى تصل إلى درجة برودة تتكاثف فيها فتعود ماء فينزل في صورة المطر .

وقد يستدلُّون بقول الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج لهنَّ نئيج

يزعم الشاعر أنَّ للسحب خراطيم تمدّها إلى البحر فتشرب منه ثم تمطر . ونقول لهم إنَّ بطلان هذا كله من عدة أوجه :

أولاً ـ عن تبخّر مياه المحيطات : إنَّ الشمس تطلع كل يوم والمحيطات متواجدة دائماً ، فلماذا لم تنتظم الأمطار باستمرار شروق الشمس واستمرار البخار ؟

هب أنَّ البخار تكاثف ، من الذي يسوقه حيث يمطر ؟ إنَّه سبحانه يصيب به من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء .

ثانياً ـ هب السحب أرسلت خراطيمها فشربت من البحار ، إنَّ مياهها ملح أجاج فمن الذي حوله إلى عذب فرات ؟

ثالثاً ـ إنَّ آيات القرآن الكريم تنصّ بصراحة ووضوح أنَّ السحب أوعية للماء كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾ [النبأ: ١٤] ثمَّ إنَّ تلك السحب يجعلها الله ركاماً يملؤها ماء من جبال في السماء من برد .

رابعاً ـ في الحديث الصحيح أنَّ النَّبيّ ﷺ كان يخطب فدخل رجل وقال يا رسول الله سَلِ الله أن يسقينا ، هلكت الماشية وجفّ الضرع وتقطعت السبل ، فرفع ﷺ يديه ودعا الله : « اللهمَّ اسقنا وأغثنا » إلى آخر دعائه قالوا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، فنشأت سحابة قدر الترس حتى ارتفعت فانتشرت فأمطرت حتى كان يوم الجمعة الثانية دخل الرجل فقال والرسول ﷺ يخطب، يا رسول الله ادع الله أن يمسكها عنها، فرفع ﷺ يديه ، وقال : « اللهمَّ على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر » فأمسكت وخرجنا نمشي صحواً . فهذا سلع في طرف بيوت المدينة وما في السماء من قذع ولا سحابة ، فتنشأ من خلفه سحابة في الحال وعند دعاء النَّبيّ ﷺ فتمطر أسبوعاً إلى الجمعة الثانية فيدعو ﷺ فتمسك ، ويخرجون في الصحو تحت أشعة الشمس، فأين ذهب التبخّر، وكيف نشأت ، وكيف انتهت ؟

ولست أدري كيف نسي هؤلاء قوله تعالىٰ في نصر نبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّيْ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ [القمر: ١٠-١١] فهل كان ذلك عن تبخير الشمس لمياه المحيطات ؟

تلك هي القدرة القادرة والإرادة المدبرة ، ينشىء السحاب الثقال كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيْ يُرِيْكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعَاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢] .

فإذا أنشأه جعله ركاماً ، ثم ترى الودق يخرج من خلاله ، ثم يسوقه حيث شاء يصيب به من يشاء ، ويصرفه عمَّن يشاء ، وفي الحديث : أنَّ رجلاً ممَّن كان قبلكم بينما يمشي في فلاة من الأرض إذ سمع صوتاً في السحاب يقول : اذهبي فأمطري فاسقي مزرعة فلان .فمشىٰ الرجل في ظل السحابة حتى وقفت على حرة فأمطرت وتجمع الماء في (شرجة) وانحدرت إلى مزرعة فإذا برجل يحول الماء يسقي زرعه ، فناداه باسمه الذي سمعه

وسأله عمَّا يفعل في مزرعته ، وأخبره بما سمع ، فأخبره صاحب المزرعة أنه يتصدَّق بثلث ما يخرج منها .

وقد بيَّن تعالى مهمة هذا الماء أنه ليس للشرب فحسب ، بل بما هو أعمّ من ذلك ، في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيْهِ تُسِيْمُونَ * ﴾ أي ترعى دوابكم ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ﴾ أي الذي تحرثون ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالأَعْنَابَ ﴾ أي التي تغرسون . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ - ١١] .

ثم يقول تعالىٰ مبيناً عظيم المنَّة وواسع النعمة : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجَاً ﴾ مالحاً أو حاراً متأججاً ، فلا تستطيعون شرابه ولا ينبت لكم نباتاً ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي تلك النعم المتوالية في إيجادكم ، من مني يمنىٰ وإنبات النبات وثماره ، وإنزال الماء تشربونه وبه حياتكم ، ممَّا يستوجب عليكم شكر المنعم ، ومن الإعجاز مجيء اللام في (لجعلناه حطاماً) . وعدم مجيئها في (جعلناه أجاجاً) ، لأنَّ الزرع متعدد مختلف فاقتضىٰ اللام للتأكيد ، والماء نوع واحد فتغييره أيسر .

السؤال الرابع في سورة الواقعة

قال تعالىٰ : ﴿ أفرأيتم النار التي توروِن * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ [الواقعة : ٧١ - ٧٢] .

كان السؤال الأول عن تخليق النطفة ، والثاني عن إثبات الزرع ، والثالث عن إنزال الماء من المزن ، أمَّا الرابع فعن نشأة النار وعن شجرتها ومهمتها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِيْ تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعَاً لِلْمُقْوِيْنَ ﴾ وكان الختام ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤] سبحانه ما أعظم شأنه وقدرته .

والكلام على هذا السؤال يختلف عن الأسئلة قبله ، لأنَّ الأسئلة قبله أتت بالإثبات ، ومقابلته بالنفي ، ففي خلق المني إنساناً ، قابله بتقدير الموت : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُم المَوْتَ ﴾ وفي إثبات الزرع قابله بسلب الثمرة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ وفي إنزال الماء للشرب قابله بسلبه خاصيته : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِيْ تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجَاً ﴾ .

وهنا وفي السؤال عن نشأة النار لم يأت بمقابل نشأتها بالعدم مثلاً ، ولعلَّ السر في ذلك أنه سبحانه جعل النار تذكرة ، والتذكرة يجب أن تظلّ قائمة ، ولا يليق بها أن يأتي ما يغيبها عن الخاطر ، ولا يقلّل أمرها ، فتظل تذكرة إلى نهاية العالم .

وللحديث عن النار جهات متعددة :

موقعها في الترتيب ممَّا سبقها ، فقال المفسرون : إنَّ الإنسان بعد أن خلقه الله يحتاج إلى حراثة الأرض وزرعها ، وقد حرث والله زرع له فجاء الحب وطحنه ، فلزمته المياه لعجنه فأكل ، فاحتاج إلى الماء ليشرب ، ولكن في هذا نظر ، لأنَّ أكل الحب بعد عجنه يحتاج إلى النار لنضجه قبل أن يأكله وقبل أن يعطش بسببه ، ولعلَّ الحكمة هي مراعاة الأهمية فقدم الأهم فالأهم ، وذلك أنه بعد خلق الإنسان يأتي بعده وجود الطعام ، يليه في الأهمية الماء ، وهما قوام الحياة ويستطيع الإنسان الحياة والبقاء عليهما بدون إيقاد نار ، كما في الحديث : ثلاثة أهلة شهران على بيت محمد وآل محمد لم يوقدوا ناراً ، فقال السامع وعلام كنتم تعيشون قالت : على الأسودين ؛ التمر والماء .

أمَّا النار فإنِّي أعتقد أنها بداية تحضر الإنسان ، وانطلاق تطور حياته

سواء في سلمه أو حربه .

أمَّا في سلمه : ففي تطوير طعامه وتنويع مآكله ، وفي صناعاته في جميع المجالات ، ففي مجالات الزراعة وإيجاد الآلات الزراعية لا يمكن تصنيعها إلاَّ بعنصر النار ، وفي مجال البناء قلَّ أن تحصل على نوع منها بدون عنصر النار ، وفي مجال المواصلات ، لن تتحرك تلك المحركات إلاَّ بالاحتراق الداخلي من طائرات وسيارات إلى غير ذلك ممَّا لا يمكن حصره .

وأمَّا في حربه : فيكفي قولهم أوقدوا نار الحرب ، وقولهم استمرَّ إطلاق النار أو توقف ، ولم يتطوّر استعمال النار في شيء كتطوّره في ميدان القتال وأساليب الحروب ، وما تفتيت الذرة إلاَّ نوع من تطور استعمال النار ، وما غزا الإنسان الفضاء إلاَّ علىٰ قوة الطاقة الحرارية في اندفاع الصواريخ والمراكب الفضائية .

وإذا كانت المياه مصدر الحياة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فإنَّ النيران يصدق عليها أنها مصدر كل حركة آلية ، في الصناعات وتطوير المواد الخام ، والمواصلات براً أو جواً ، أو بحراً ، حتى السفن الشراعية فلعنصر النار دخل في مهمتها ، إن لم يكن في حركتها ، ففي صناعتها ، حتى قلمك الذي تخطّ به ، وقرطاسك الذي تكتب فيه ، لعنصر النار تأثير في وجوده وتصنيعه ، وهذه الشمس أليست كتلة نارية لا يقدر قدرها إلاَّ الله .

ونلاحظ في هذه الأسئلة ما كان لنا في المسؤول عنه سبب أسند إلينا ، ففي النطفة : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ وفي الزرع ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ وفي النار : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ وما لا سبب لنا فيه أسند لنا نفعه ، وعلاقتنا به ، كالماء ليس لنا تسبب في إنزاله قال : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ لأنه محض إنعام الله تعالىٰ .

قـد جاء في النـار قيد (التي تـورون) أي تـوقـدون ، وفيـه دلالـة من جانبين ، الأول جانب إيقادها ، ونحن نشـاهده ونلمسـه وليس لنا إلاَّ الأخـذ في الأسباب ، سواء بحك الزند وضربه ، أو بحكّ العود من الشجر على مـا سيأتي . وبتأمـل ذلك نجـد القدرة البـاهرة ، فهـذا زند وحجـر ، حديـدة باردة وحجر جاف ، قدحنـا بعضهما ببعض فـانطلقت شـرارة أوقدت النـار ، فمن أين جـاءت تلك الشـرارة ؟ أمن الحـديـدة ، أم من الحصـاة ، أم من بينهما ؟ قد يقول قائل إنَّ الاحتكاك يولد حرارة فنقول نعم ، وإنَّا لنتساءل عن سرّ هذا التوالد ، يقول الفلاسفة : إنَّ النار كامنة في الزناد وبقـدحه تـظهر ، ونقول إنَّ القدرة في مكمنهـا ، ثم في إظهارهـا وكذلـك اليوم أعـواد الثقاب تحمل النار كامنة في طرفه ، ونحن لا نـدرك إلاَّ حركـة إشعالـه ، أمَّا مجيء الشعلة فلا ندركها حقيقة .

ومن جـانب آخـر في هـذا القيـد (التي تـورون) تخصيص عن بقيـة النيـران التي لا دخل لنـا في إيقادهـا ، كنيـران الشهب ، والنيـازك والتي إن سقطت على جبل دكته أو قسمته . وقد تنزل على أرض سهلة فتُنْبِـعُ الماء ، وكنيران البراكين التي تذيب الصخور وتسيل ودياناً تجري .

وناهيك بنار الآخرة ـ عـافانـا الله وجميع المسلمين منهـا ومن حرّهـا ـ فقد جاء في الحديث أنَّ نارنا التي نستخدمها قد أطفئت سبع مرات ، وكيف لا ؟ وهي ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ممَّا يشعـر أنَّ نار كل شيء بحسبه ، وأنها تتفاوت قوة وضعفاً .

فالقيد بقوله تعالىٰ : ﴿ النار التي تورون ﴾ وتستخدمـون ولا غنىٰ لكم عنها ، هبكم أخذتم في أسباب وجودها ، أأنتم أنشأتم شجرتها ، وجنسها ، وهل أدركتم عنصرها ؟

إنَّهم يقولون : النار جوهر شفاف ، فما هي أجزاء هذا الجوهـر ؟ وممَّ يتركب ؟ إنَّ الزرع والإنسان يتكونان من خلايـا معروفـة ، والماء من عنـاصر

غازية هوائية ، أمَّا عنصر النار فما هو ؟ سواء لهب النار أو قبس النار ، إنَّ اللهب من قبيل الهواء لا يحسّ له جرم ملموس ، أو القبس فأصله جرم الفحم أو الخشب ، ولكن النار المتوقدة فيه فما هي ؟ وإذا كنَّا لا ندرك كنهها ، فكيف نستطيع إنشاءها ؟

يقرب لنا هذا ما استحدث من الطاقة الكهربائية ، نحن قد أحدثنا الحركة وعنها تولّدت الطاقة ، فهل أدركنا نشأة تلك الطاقة ، وأدركنا كنهها ؟ إنَّنا نشاهد التيار يسري في الأسلاك ، أي نعلم ذلك بالتجربة ولكن هل ندرك كيف يسري ؟ إنَّ السلك مغلف بمادة (المطاط) ، ونقول إنَّها عازلة ، ولو تلامس السلكان لاشتعلت النار واحترق العازل ، ولو مسّ الإنسان ذاك السلك لقتله ، فجسم الإنسان لا يصلح أن يكون عازلاً . فما هو السر في كيفية سريان التيار ؟ إنَّنا لا نشعر بحركته ، ولكن نعلم بوجوده عن طريق تأثيره ، فنحن اكتشفنا الكهرباء ، ولا زلنا عاجزين عن تصوّر حقيقتها ، مع أنها دخلت في جميع شؤون حياتنا .

وصدق الله العظيم : ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ لقد جاء الجواب بتعيين فائدتها ، لأنّ تعيين المنشىء قد ظهر بمجرد السؤال ، وليس فيه خلاف، إنَّه سبحانه الذي أنشأ شجرتها. وقد يُقال : إنَّ شجرتها ما توقد به من الحطب والفحم أو البترول ومشتقاته ، ولكن الأول أظهر في المعنىٰ ، والدلالة على القدرة ، ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي تخويفاً من نار الآخرة ، وقد جاء قوله تعالىٰ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] . فلم يمض يوم على إنسان إلَّا وكانت النار له تذكرة ، سواء مباشرة كأن يشاهدها أو يلمسها في عمل ما ، أو في تأثيرها ؛ في طعام أو شراب حار شديد الحرارة ، إلى غير ذلك : ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِيْنَ ﴾ قيل هم المسافرون ، وقيل الجائعون أو المستمتعون ، قال ابن كثير : ومن لطيف صنع الله أن جعل النار كامنة في الحجر والحديد ، يحملهما المسافر ضمن متاعه وهو آمن منهما ، فإذا نزل أخرج زناده وأورىٰ

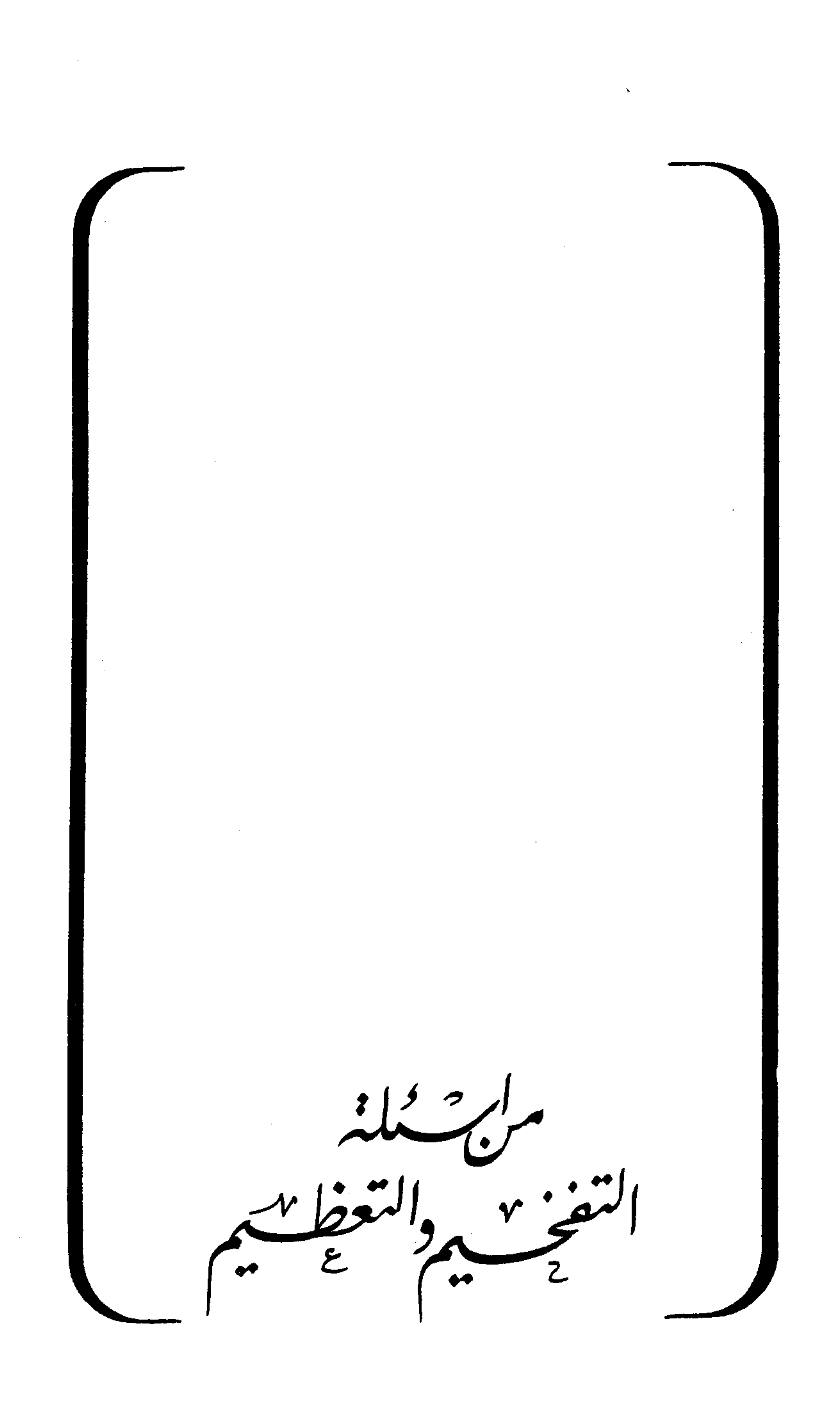
ناره واستمتع بها ، ومن عظيم قدرته أنه كما أنشأها فهو يسيرها ، فقد يسلبها حرارتها ، وتفقد خاصيتها بأمر منه سبحانه ، كما فعل في نار النمروذ مع إبراهيم عليه السلام : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِيْ بَرْداً وَسَلَامَاً عَلَىٰ إِبْرَاهِيْمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . فكانت كما قال تعالى برداً وسلاماً عليه في الوقت الذي تشتعل فيما أوقدوا من وقود حطب ونحوه .

كما أنَّه سبحانه أقام الحجة القاطعة على عظيم قدرته في عنصر المياه متلاطمة الأمواج في عرض البحار ، إذ فلق البحر لموسىٰ ومن معه ، وجعل له طريقاً يبساً ، وكان الماء السائل الجاري ، حواجز وفرق ، كل فرق كالطود العظيم ، ولهذا عقب سبحانه في كل منهج التساؤل في سورة الطور والواقعة ، عقب بالأمر بالتسبيح ، ففي آخر سورة الطور ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِيْنَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور : ٤٨ ـ ٤٩] .

وفي آخر سياق أسئلة سورة الواقعة عقب أيضاً بقوله تعالى : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِيْنَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيْمِ﴾ وفي نهاية السورة أيضاً ختمت بالأمر بالتسبيح فجاءت نهايتها قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِيْنِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيْمِ ﴾ .

إنَّها حقاً في جملتها أسئلة تقرّر عظيم نعم الله ، وتنتزع الاعتراف بوحدانية الله ، وتستوجب الشكر وتعلن التسبيح .

*****


من أسئلة
التفخيم والتعظيم



تمهيد :

أسئلة التفخيم من أساليب البلاغة عند العرب ، وذلك في صوغ الكلام في أسلوب الاستفهام ، وليس المقصود منه استفهاماً لأنَّ المسؤول عنه ليس في علم المسؤول وليس بوسعه الإجابة عنه ، ولكن يوجه إليه السؤال إظهاراً لعجزه عنه ، وبياناً لعظم أمره ، وتفخيم حاله ، والتهويل من شأنه ، بحيث أنَّ المسؤول عنه لم يستطع إدراكه ، وكذا يعقب عليه دائماً بنفي الإدراك للمسؤول عنه ، كقوله تعالى : ﴿ الحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾ وقوله : ﴿ القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ ممَّا يزيد في شدة تهويل الأمر ، والتخويف منه والتنبيه لأخذ الحذر والتأهّب فيه ، والإقبال عليه والسعي لتحصيله والفوز به .

فهما أسلوبان في سياق واحد ، ولكن متضادان في المقصد والغاية .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ القَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ * لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ إلى آخر السورة

وكقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِيْ عِلِّيِّيْنَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ * إن الأَبْرَارَ لَفِيْ نَعِيْمٍ ﴾ [المطففين : ١٨ - ٢٢] إلى آخر السياق ، ممَّا يحفز العبد على الجد في العمل ، والحرص

على التحصيل ليكون من أولئك المنوّه عنهم وعن مكانتهم العالية . وهذه الأسئلة تنقسم إلى قسمين : أسئلة تهويل وتخويف ، وأسئلة تفخيم وتعظيم وعلوّ شأن .

وأسئلة التهويل هي أيضاً قسمان : قسم في التهويل بيوم القيامة بصفة عامة ، وقسم بالتهويل بالنار بصفة خاصة . وكلا القسمين فيه تنويع في العرض .

فالقسم الأول: يعرض ذلك باسم الحاقة تارة، وباسم القارعة، وباسم الواقعة ، وتارة بيوم الدين وبيوم الفصل .

والقسم الثاني : يعرض باسم صقر ، وسجين ، والهاوية ، والحطمة عياذاً بالله ، وهذا التنويع أشدّ تخويفاً وأكبر تهويلاً .

أمَّا أسئلة التفخيم والتعظيم فلم يتنوع فيها العرض : ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ، وإن جاء وصفها بأنها ليلة مباركة ، ولكن ليس في أسلوب التفخيم ولا أسلوب السؤال، بل إخبار صريح . وكقوله في عليين وما أدراك ما عليون . وإن كان جاء وصف الجنة بصور متعددة ، ولكن أيضاً بأسلوب خبري لا إنشائي . وقد لوحظ أنَّ جميع هذه الأسئلة من هذا النوع ، وهي نحو اثني عشر سؤالاً قد جاءت كلها في قصار السور ، ابتداءً من سورة الحاقة، ثم المدَّثر، فالمرسلات والانفطار، والمطففين، والطارق، والبلد، والقارعة، والهمزة، والقدر . وكلها سور مكية تتسم بقصر الآيات وبمواضيع الزواجر والقوارع ، والتأكيد على تثبيت عقيدة البعث وتوحيد الألوهية، وإثبات الرسالة وهذه المبادىء هي قاعدة انطلاق العمل الإسلامي .

وأول هذه الأسئلة وهو حريّ بأولوية الكتابة فيه ، وفي نظيره ما جاء في قوله تعالى : ﴿ الحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾ .

والحاقة : اسم فاعل من حق الشيء : إذا ثبت ولم يعد فيه شك ،

ويقال حاققته فحققته أحقه : أي غالبته فغلبته ، وذلك مثل قولك سابقته فسبقته أسبقه .

والحاقة هنا : اسم ليوم القيامة والبعث ، وموجب تسميته يوم القيامة بذلك قال فيه ابن عباس وغيره ، لأنها حقّت لكل عامل عمله ، أو لأنها تبدى حقائق الأمور ، كقوله تعالى في سورة الطور : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦] .

وقيل : لأنَّ الأمر يحق فيها وأنها حاقة لا محالة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : ١ - ٢] .

وكل هذه المعاني صحيحة وصادقة عليها لصدق وقوعها كلها يوم القيامة ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ما الحاقة ﴾ ما هنا هي أداة السؤال ، وسؤال بها عن الماهية ولذا قال «الكشاف» : أصلها ما هي : أي أي شيء هي تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها ، وهي في موضع الخبر لكلمة الحاقة الأولىٰ ، وقد أظهر اللفظ بذاته بدلاً من المجيء بضمير ينبىء عنه إمعاناً في تفخيمها وأظهر لشدة هولها .

قال أبو حيان : (ما) استفهام لا يراد حقيقته ، بل التعظيم ، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ بلفظه إذا أريد التعظيم والتهويل .

«وما أدراك ما الحاقة » قال الزمخشري في « الكشاف » : وأي شيء أعلمك ما الحاقة . . يعني أنك لا علم لك بكنهها ومدىٰ عظمها ، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه ، وكيفما قدّرت حالها فهي أعظم من ذلك .

وهنا قول لطيف لابن عباس ينطبق على هذا السؤال وأمثاله ، فقد جاء عنه رضي الله عنه ؛ أنَّ كل ما في القرآن من قوله تعالىٰ ﴿ وما يدريك ﴾

فلم يُدره عنه ، ولم يعلمه به ، وما جاء (وما أدراك) فقد أدراه وأعلمه به .

وبالرجوع إلى معاجم ألفاظ القرآن نجد (وما يدريك) جاءت ثلاث مرات وكلها لم يرو بيانها ، وهي :

﴿ وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيْبَاً ﴾ [الأحزاب : ٦٣] .

﴿وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيْبٌ ﴾ [الشورىٰ : ١٧] .

﴿وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٣] .

وهذه لم يكشف عنها في القرآن .

أمَّا لفظ (وما أدراك) فجاء ثلاث عشرة مرة ، وكلها قد أدراه به وبينه عقبه في سياق سورته ، وسنبيّن ذلك عند إيراد كل سؤال إن شاء الله .

وهنا بعد إيراد السؤال مكرراً ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ شرع في البيان مع مقدمات طويلة فقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ ﴾ [الحاقة : ٤] إخبار عن أمم ماضية عبرة لقريش ، والقارعة ، قال الزمخشري : هي الحاقة المتقدم ذكرها ، أعادها بهذا اللفظ زيادة في تهويل شأنها ، ولم يعدها بالضمير كأن يقول كذبت ثمود وعاد بها ، لا ! بل أعاد ذكرها بوصف ظاهر آخر ، لتدل على معنى القرع الذي يكون في الحاقة . والقارعة التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال وتقرع السماء بالانشقاق والانفطار ، وتقرع الأرض والجبال بالدكّ والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار .

ويقال أيضاً تقرع الشمس بالتكوير ، والبحار بالتسجير ، والكون كله بالتبديل والتغيير كما قال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وبرزوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

ثم بيَّن عاقبة كل مكذب : فأهلكت ثمود بالطاغية ، وأهلكت عاد

بريح صرصر عاتية ، وبين هلاك فرعون ومن قبله والمؤتفكة ، وأخذهم أخذة رابية ، وهذا كله في الدنيا ثم جاء إلى تفاصيل الحاقة فقال تعالىٰ : ﴿ فإذا نُفِخَ فِيْ الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٣] وبين القوارع التي تكون فيها فقال: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهْيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٤ ـ ١٦] وما تكون عليه الملائكة آنذاك ثم جاء لإحقاق الحقائق فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ١٨ ـ ١٩] مع بيان مقره ﴿ فَهْوَ فِيْ عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِيْ جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيْئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِيْ الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢١ ـ ٢٤] أي بما قدمتم سلفاً من صالح الأعمال ، وعن القسم الثاني ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِيْ لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٥ ـ ٢٦] إلى نهاية مقره ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيْمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِيْ سِلْسَلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢] إلى آخر ما يكون من حاله ، فقد بيَّن ما الحاقة وكيف حقَّت ، والقارعة وقوارعها للعالم .

وبعد هذا السياق الطويل يختمه بقسم لو تعلمون عظيم ، فقال : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ـ ٣٩] أي بكل كائن في هذا الوجود ؛ وهذا لا شك قسم عظيم ، وعلىٰ أي شيء يقسم سبحانه ؟ يقسم على صدق وإحقاق هذا القول وصدق هذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيقول : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيْلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيْلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ ـ ٤٣] .

ومن إعجاز الأسلوب القرآني أن يكون ختام السورة بقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِيْنِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيْمِ ﴾ [الحاقة : ٥١ ـ ٥٢] بدأت بالحاقة ما الحاقة وانتهت بحق اليقين .

قال تعالىٰ : ﴿القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ﴾ . [القارعة : ١ ـ ٣] .

تقدَّم الكلام علىٰ معاني القارعة عند الكلام على معاني الحاقة ما الحاقة ، حين جاءت بعدها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ﴾ [الحاقة : ٤] .

وهنا جاءت مستقلة ومفصلة : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ تكرار وتهويل تماماً كما جاء في ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾ .

أمَّا بيان هذا التساؤل فهو موضوع السورة كلها ، وقد قدمنا سابقاً أنَّ ابن عباس قال : كل ما جاء بلفظ (وما أدراك) فقد أدراه الله به .

وتطبيق ذلك هنا بالتفصيل كالآتي : فقدم أنها التي تقرع هذا العالم كله بقوارع تغير من أوضاعه ، فتقرع الإنسان فتهلكه ، والجبال فتفتتها ، والأرض فتدكها ، وكل شيء فتغيره ، وأوردنا قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

وهنا جاء التفصيل الجزئي البالغ للنهاية فقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ ﴾ والفراش هو المثل الواضح في التفرّق والاضطراب ، لا ينتظم له اتجاه ولا تلتئم منه جماعة ، وهكذا الناس يوم القيامة لا يلوي أحد علىٰ أحد ، وهم في غاية الضعف أشد ضعفاً مَن الفراش . ووصفه بالمبثوث : أي المنتشر على غير هدىٰ ، كما جاء الوصف في موضع آخر في سورة ﴿ القمر ﴾ فقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِيْنَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٦ ـ ٨] .

وكأنَّها لشدة هولها قد حطمت أولئك العتاة ، وهشمت أولئك الطغاة ، فأصبحوا فراشاً مبثوثاً ، وجراداً منتشراً ، خشعاً أبصارهم ذلَّة ومهانة ومخافة وفزعاً ، ثم يعطف على الناس وما آلوا إليه ، بعطف الجبال الشمّ الشوامخ ﴿وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] يا لهول ذلك اليوم ، تلك الجبال على ضخامتها وشدة صلابتها تقرعها القارعة فتصير كالعهن المنفوش ، كالصوف .

ويلاحظ أنَّ هذه السورة (القارعة) كما اشتركت مع سورة (الحاقة) في مدلول المسمَّىٰ ، وهو يوم القيامة ، واشتركت أيضاً في السياق وأسلوب التعبير واتفقت أيضاً في عرض أحداث ذلك اليوم ، وما يكون من أحداث وتغييرات .

فكما أنَّ الحاقة تغيير الأرض والجبال بالدكّ ، والسماء بالانشقاق ، فكذلك هنا تكميل للصورة بأنَّ الناس يكونون كالفراش المبثوث ، وتصبح الجبال بعد دكّها وتفتيتها كالعهن المنفوش . فكأنَّ هذه السورة امتداد لتلك ، ثم تعرض هذه السورة أحوال الناس في عرصات القيامة ، ومآلهم عن طريق الأعمال ونوعيتها ، وثقل الموازين وخفتها ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَهُوَ فِيْ عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : ٦] ونلاحظ آية عجيبة ، فبينما الجبال الرواسي أصبحت كالعهن المنفوش لا وزن لها ، بل وتتحول سراباً : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : ٢٠] نجد الأعمال الصالحة قد ثقلت في الموازين، وقد بيَّن حديث البطاقة مدىٰ ثقلها في حديث : « الرجل يأتي بسجلات أمثال الجبال كلها سيئات ، ويظن أنه هالك ، ثم يؤتى ببطاقة ويقال له : لك عندنا أمانة ، ويرى البطاقة فيقول يا رب وما تغني هذه عني فتوضع في كفة الميزان فترجح بها وتطيش كل تلك السجلات ، فيقول وما في هذه البطاقة فيقال له : فيها لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله » . أو كما قال رسول الله ﷺ . وقوله تعالى هنا : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ

مَوَازِيْنُهُ ﴾ يعادل في سورة الحاقة ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ ﴾ .

ثم يأتي القسم الثاني فيقول : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ ﴾ وهو أيضاً يعادل ما جاء في الحاقة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ وبين ما لكل منها كذلك فقال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَهْوَ فِيْ عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ويقول البلاغيون: عيشة راضية: بمعنىٰ مرضية ، أو بمعنىٰ راضٍ عنها أهلها ، وقيل إسناد الرضىٰ إلى العيشة تعظيم لتوفّر الرضىٰ وكل دواعي السعادة والهناء والسرور فيها ، حتى لو كانت العيشة كائناً له إدراك لأدرك معاني الرضىٰ بكمال ما هو متوفر فيها ، وعلى كل حال ومن ذلك كله ، فإنَّ هذا التعبير أقصىٰ ما يكون تصويراً لحسن مآلهم على إيجاز لفظه . ويوضحه ما جاء في مقابله للفريق الثاني ، في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ . إنَّه تسلسل وتتابع في بيان مآل الفريق الثاني ، ممَّا يبرز معاني القارعة وتجسيمها ففي (خفت موازينه) شدة حسرته وأسفه ، ثم تأتي الداهية في قوله تعالىٰ : ﴿ فأمه هاوية ﴾ الأم موضع العطف والشفقة والصون والحفظ والحضانة ، تكون هاوية .

ويأتي الأسلوب للتفخيم مرة أخرىٰ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ فالإخبار بأنَّ مآله هاوية في النار ، نهاية في الزجر والتهويل ، ووصف النار بأنها حامية ، يوهم أنَّ نار الدنيا ليست حامية .

وكما أجمل هنا وصف النار بأنها نار حامية ، فقد جاء تفصيلها في تساؤل آخر في قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِيْ وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيْدَاً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِيْنَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيْداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيْدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيْدَاً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ ﴾ [المدَّثر : ١١ - ٢٥] كل هذا عرض لموقف هذا

العاتي المعاند الذي عارض القرآن بسحر يؤثر ، وقابل النعمة بالجحود والكفر ، تكون النتيجة : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدّثر : ٢٦ ـ ٢٨] كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وبيَّن الله تعالى هنا أيضاً أنَّ المراد بهذا العدد إنَّما هو التهويل بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ [المدثر : ٣١] أي ومعلوم أنَّ ملكاً واحداً يكفي لتحطيم العالم ، ولكن الأساليب كلها أساليب تهويل وتفخيم .

ومثله أيضاً في شأن سوء مآل الكفار ـ عياذاً بالله ـ من وصفها بالهاوية وما أدراكَ ما هية نار حامية ، ووصفها بصقر ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ جاء أيضاً وصفها بأشد من ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ وقد بيَّن سبحانه نوع وقودها في قوله تعالىٰ : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم : ٦] وهذا يوضح التسعة عشر بأنهم غلاظٌ شداد ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] وإذا كان وقودها الناس والحجارة فقد اشتدَّ أوارها وعظم سعيرها ، وتطاير شررها ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : ٣٢ ـ ٣٣] .

ولم يقتصر البيان هنا على أنها نار موقدة ، وبالتالي محرقة ، بل قال تعالىٰ : ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة : ٧ ـ ٩] .

إنَّه عرضٌ إخباري ، ولكنه في وصفه أشد من أي أسلوب آخر ، وعيداً ورعباً ، فهذا الهمزة اللمزة الذي تغنىٰ بجمع المال وعدده ، ظاناً أنه

مخلد في نعيمه بجمع ماله ، يكون مآله أن ينبذ ويطرح في الحطمة ، وتوصد عليهم في عمد ممددة ، فتكون عليهم - عياذاً بالله - سجناً مغلقاً .

وإذا جمعنا كل تلك الأساليب لكل تلك النصوص ، من الحاقة والقارعة والهاوية وصقر ، وانتهينا من حقيقة وقوعها ، نأتي لقوله تعالىٰ في المرسلات ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ﴾ [المرسلات : ٧ - ١٤] .

إذا جمعنا هذا كله وجئنا إلى بيان يوم الفصل ، وهو يوم الحاقة والقارعة والواقعة ، نجد هذه المقدمات العظام وعظائم الوقائع ، ندرك حقيقة الإعجاز في كتاب الله ، والغاية القصوىٰ في قرع القلوب بآيات الله ، فلم يكن ليعرض عنها إلاَّ من أضلَّه الله أعاذنا الله والمسلمين من تلك الأهوال ونجَّانا من سوء المآل، ووفقنا لكل ما يحبه من صالح الأعمال في الأقوال وفي الأفعال .

السؤال عن الطارق:

قال تعالى :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق : ١ - ٤].

لقد تميَّز الأسلوب هنا باقتران السماء مع الطارق في البداية ، بينما أفرد الطارق في الإخبار والتكرار ، على خلاف الأسئلة السابقة من هذا النوع ، فكانت تأتي دون اقتران غيرها معها ، وتكرر هي بعينها كقوله تعالىٰ : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ وقوله : ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ . وقوله : ﴿ كلاَّ إنَّ كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون ﴾ لم يذكر مع الحاقة ولا مع القارعة ولا مع عليّين غيرها .

كما تميز الأسلوب هنا بأنه أسلوب قسم ، إذ الواو في ﴿ والسماء ﴾ واو قسم والطارق معطوف عليه، فالطارق قد فخم مرتين: مرة بالإقسام به، ومرة بالسؤال عنه بهذا السؤال في هذا المقام . ولئن كانت الأسئلة للتفخيم والتهويل بأمر الآخرة ، فإنَّ التفخيم والتعظيم هنا لآيات كونية هي من أعظم مظاهر القدرة الإلـهية ؛ السماء بعظم جرمها ، والنجم يعني النجوم وعظيم تأثيرها .

ولقد أخذت السماء حيّزاً كبيراً في أساليب الدلالة على قدرة الله تعالىٰ ، ففي أول نداء للناس لعبادة الله تعالىٰ ، يأتي في أوائل المصحف الشريف جاء قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] واستدلَّ على استحقاقه للعبادةوحده بقوله : ﴿ الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة : ٢٢] فجعل السماء بمثابة البيت الكبير الذي يؤويهم ، ثم قال : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢] فكانت السماء أيضاً مصدر أسباب الرزق لهم ، وجعلها آية قدرته في قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٢٨] .

وبين تناهي هذه القدرة إلى ما لانهاية لها في قوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ الذِيْ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا * ثُمَّ اسْتَوَى عَلَىٰ العَرْشِ ﴾ وتبع ذلك بالآيات العلوية فقال : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيْ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ثم ما هو أعمّ من ذلك كله فقال ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ وبين الغرض من هذا العرض كله فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢] .

وتمدح سبحانه بخلق السموات طباقاً مع حفظها وصيانتها ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِيْ بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ * الَّذِيْ

خَلَقَ المَـوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَـلاً وَهْوَ العَـزِيْزُ الغَفُـورُ * الَّذِيْ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقَاً مَا تَرَىٰ فِيْ خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَـارْجِعِ البَصَـرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْـكَ البَصَرُ خَـاسِئاً وَهْـوَ حَسِيْرٌ ﴾ ثم ربط بين السماء والنجوم في قولـه تعالىٰ : ﴿ وَلَقَـدْ زَيَّنَّا السَّمَـاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ وَجَعَلْنَـاهَا رُجُـوماً لِلشَّيَـاطِيْنِ ﴾ [الملك : ١ ـ ٥] . فهذه بعض النصوص عن عظم آية السماء بإيجاز .

ومثلهـا أيضاً شغلت النجـوم حيزاً في التوجيـه الإلٰـهي ، فقـد ربطهـا سبحانه بصميم حياتهم في رحلاتهم وكثرة تنقلاتهم في الصحراء الشاسعـة ، فقال تعالىٰ : ﴿وَأَلْقَىٰ فِيْ الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُوْنَ ﴾ [النحل : ١٥ ـ ١٦] .

وفي معرض امتثالهـا وإذعانهـا لله كما في قـوله : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرَّحمٰن:٦] على أنَّ النجم هو الكوكب ، وليس النبات الصغير .

ومثلها في الاهتداء بها قولـه تعالىٰ : ﴿ وَهْـوَ الَّذِيْ جَعَـلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَـدُوا بِهَـا فِيْ ظُلُمَـاتِ البَـرِّ والبَحْـرِ قَـدْ فَصَّلْنَـا الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧] .

وقد أفرد بالقسم السماء والنجم كذلك .

فمن القسم بـالسماء قـوله تعـالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ ﴾ [البروج:١] .

ومن القسم بـالنجم قـولـه تعـالىٰ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَـوَىٰ * مَـا ضَـلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم : ١ ـ ٢] .

ولعلَّ من هذا العرض شبه الإجمـالي يتبيَّن لنا مـدىٰ تفخيم أمر النجم المعبَّـر عنه هنـا بالـطارق ، وقد فسَّـره سبحانـه بأنـه النجم الثـاقب ، وسمي النجم طارقاً لأنه يأتي ليـلاً ، وكل آتٍ ليـلاً يسمَّىٰ طارقـاً ، لأنــه يحتـاج أن

يطرق الباب ، واستشهدوا لهذا المعنىٰ بما جاء من أشعار وأحاديث ، فمن الحديث قوله ﷺ للعائد من سفر : « لا يطرق أهله ليلاً ، وليكلّمهم كي ترجع المغيبة وتحتدّ الشعثاء » . . . إلخ .

وقال ابن عباس : كل قادم ليلاً أو نهاراً له خطره ، فهو طارق كما جاء في الحديث قوله ﷺ : « أعوذ بك من طوارق الليل والنهار إلاّ طارق يطرق بخير يارحمٰن » .

ومن الشعر قول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

ولكن القرآن الكريم قد فسَّر الطارق هنا بأنه ﴿ النجم الثاقب ﴾ وسمي ثاقباً : إمَّا لأنه يثقب ظلام الليل وإمَّا لشدة ضوئه . . .

ويقال للأعواد الصغار التي تشعل النار (ثقاب) ولعلَّ منه (أعواد الثقاب) المصنعة المسماة (بالكبريت) ، وقيل الثاقب لنجم خاص لشدة ارتفاعه ، والعرب تقول للطير إذا ارتفع في طيرانه (ثقب الطير) ، أو أنه لجنس وعموم النجم ، والثاقب ما ترمىٰ به الشياطين ، فتثقبها أي تخترقها وتهلكها ، وهي وهي حرس السماء ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسَاً شَدِيْدَاً وَشُهُبَاً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابَاً رَصَدَاً﴾ [الجن: ٨-٩] . بهذا كله يتبيّن مدىٰ تفخيم أمر الطارق النجم الثاقب .

ولهذا أعقبه تعالىٰ بقضية الإنسان نفسه ومن مجال الحفظ ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ وهذا هو جواب القسم ، وبينهما من المناسبة الظاهرة من عموم الحفظ والقدرة ، فكما أنَّه سبحانه ربط بين السماء والنجم بأنَّ النجم حفظ للسماء من كل شيطان رجيم ، فلا تصل الشياطين إليها ولا يتمكَّن أحدهم من استراق السمع ، على مدىٰ سعة

السماء وانفساحها ، فلم يتمكَّن ولا فرد من أفراد الجن على كثرتهم أيضاً أن يصلوا إلى مكان استراق السمع ، وهذا لقوة الحفظ ودقته ، فكذلك ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال المفسرون : المراد بالحافظ حفظة الأعمال يكتبون على المكلّف عمله ، ويبدو لي أنَّ الأمر أعمّ وقد جاءت بعض النصوص عنه ﷺ أنه لولا حفظ الله للإنسان لاجتالته الشياطين .

ثم رجع بالإنسان إلى بداية أمره ولفت نظره لأوليته : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ فهو أيضاً من هذا القبيل، لأنَّ هذا الماء الدافق، من خلصه من الدم وغيره من السوائل في جسم الإنسان ؟ ومن الذي ميزه من بين الصلب للرجل والترائب للمرأة ؟ أو منهما معاً ؟ إنَّه منذ انفصاله من مكانه واستقراره في قراره المكين ، إلى قدرٍ معلوم ، لم يحفظه إلاَّ الله تعالىٰ من الاختلاط والتداخل ، بل يأتي خلقاً سوياً وفي أحسن تقويم .

ثم ينبهه إلى المآل والمعاد : ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ﴾ وتنكشف وتظهر ، وحينئذٍ فلا قوة لهذا الإنسان في نفسه ولا ناصر له من غيره ، ويعود إلى السماء ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ وهو المطر ترجعه مرة بعد أخرىٰ ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾وفي هذا أيضاً مؤشرات الطوارق لأنَّ نزول المطر يطرق الأرض بانصبابه عليها ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا ﴾ وانصداع الأرض عن النبات يعطي الطرق في بروز النبات وظهوره كأنَّه يطرق الوجود بعد العدم .

وتختم السورة بربط دقيق قوي متين ، تربط بين الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وبين هذه الآيات الكونية المشاهدة .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ فهو فصل بيّن لا لبس فيه ، كما أنَّ الطارق الذي هو النجم الثاقب أمر فصل لا هزل فيه ، فكذلك القرآن الكريم طارق هذا الوجود بالنور الثاقب الذي بدد ليالي الجاهلية ونشر الهداية الإلٓهية.

قال تعالى : ﴿كلَّا إنَّ كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليُّون ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ١٩] .

يستهل هذا السؤال موضوعه بكلمة (كْلا) وهي كلمة إضراب عمَّا قبلها ممَّا يشعر بأنَّ هذا السؤال مرتبط بما قبله ، والذي قبله فعلاً هو سؤال مماثل ، وهو في مقابل عليين أيضاً وهو : ﴿كَلَّا إنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِيْ سِجِّيْنٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّيْنٌ*كتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[المطففين: ٧-٩] وبنفس البداية نجد أداة الإضراب « كلا » فنرجع إلى ما قبلها فنجد البداية من أول السورة ﴿ المطففين ﴾ ونجدها هي أيضاً مبتدئة بالتهويل والويل والوعيد للمطففين قال تعالىٰ : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِيْنَ * الَّذِيْنَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَّا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيْمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ [المطففين : ١ ـ ٦] وَإنَّ من يعنىٰ بالمناسبات بين السور يجد المناسبة قوية بين هذه السورة والتي قبلها (سورة الانفطار) حيث جاء فيها فجمل هذين الفريقين : الفجار والأبرار في قوله تعالىٰ هناك : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِيْ نَعِيْمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِيْ جَحِيْمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّيْنِ ﴾ [الانفطار : ١٣ ـ ١٥] .

فجاء في هذه السورة (المطففين) بتفصيل ذلك المجمل زيادة في التهويل بشأن الفجار ، وزيادة في التكريم بشأن الأبرار .

قال أبو حيان : في هذا الإنكار والتعجّب ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس خاشعين ، ووصفه سبحانه بربِّ العالمين ، دليل على عظيم هذا الذنب وهو التطفيف .

وبتأمل هذا العمل توجد فيه عدة جرائم ، منها :

١ ـ خيانة الأمانة .

٢ ـ إفساد المعايير التي هي فواصل الحقوق بين الناس ، وقد عظم الله

شأنها كما في قوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيْزَانَ * أَن لَّا تَطْغَوْا فِيْ المِيْزَانِ * وَأَقِيْمُوا الوَزْنَ بالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيْزَانَ﴾ [الرحمٰن : ٧ ـ ٩] والمطفِّف يهدم هذا كله .

٣ ـ ومن ثمَّ يأكل أموال الناس بالباطل .

٤ ـ الاستهانة بجبروت الله واطلاعه على ما يخفيه المطفّف .

والتطفيف أعمّ من كونه في الكيل وفي الوزن ، بل في كل وفاء واستيفاء ، روىٰ القرطبي عن مالك : يُقال لكل شيء وفاء وتطفيف ، وروي عن سالم بن أبي الجعد وغيره : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة بمكيال ، فمن أوفىٰ أوفي له ، ومن طفَّف فقد علمتم ما قال الله عزَّ وجلّ في ذلك : ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ وقد ساق مآل أولئك الفجار في ثماني آيات .

وبعد سؤال عن مآل الفجار ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِيْ سِجِّيْنٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّيْنٌ﴾ إلى أن انتهىٰ بهم إلى الجحيم في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُم لَصَالُوا الجَحِيْمِ ﴾ وإذا كان كل هذا الوعيد في الشيء الطفيف ، فكيف بالغصب والسلب والنهب والغش والرشوة وكل أوجه الكسب الحرام ، عياذاً بالله ؟!

ثم بعد أن انتهىٰ المصير بالفجار إلى الجحيم ، عرض جلَّ جلاله مكانة الأبرار ومصيرهم ، وفي ثماني آيات أيضاً . فقال تعالىٰ : ﴿ كلَّا إنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِيْ عِلِّيِّيْنَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ ﴾ وفي كونه في عليين ، ويشهده المقربون ، غاية في الرفعة والتكريم .

ثم يصف حالهم ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِيْ نَعِيْمٍ عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ وفي لفظ الأرائك ـ جمع أريكة وهي السرير المرتفع ـ مناسبة مع عليين وما هم عليه ﴿تَعْرِفُ فِيْ وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيْمِ﴾ أي آثار النعيم بادية على محياهم، زيادة في إظهار سعادتهم وحسن مآلهم ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أي لم يفض ختمه إلاَّ إليهم إمعاناً في تكريمهم ، ثم ختم السياق بمسك الختام فقال : ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ فشرابهم الرحيق ويأتيهم مختوماً ، وخاتمه الذي ختم به إنَّما هو المسك ، فيجمع بين لذة الطعم وطيب الريح ، ثم ندب إلى التنافس إليه ﴿ وَفِيْ ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ ثم بيَّن نوعاً آخر من أنواع شراب هؤلاء الأبرار ، وهو شراب مزاجه من تسنيم ، والتسنيم : الارتفاع ، وهو علم على عين متميزة بذاتها من عيون الجنة ﴿ عَيْنَاً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فهم المقربون في أوسع مجالات النعيم ، وهم الذين سمت منازلهم في عليين . جعلنا الله تعالىٰ وإيّاكم منهم بمنّه وكرمه .

قال تعالى :

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ * لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيْهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الفَجْرِ ﴾ [القدر : ١ ـ ٥] .

لقد اشتمل هذا السؤال سورة كاملة ، هي سورة القدر .

قيل القدر : الرفعة والمكانة العالية ، وقيل القدر : التقدير والبيان إذ فيها بيان مقادير كل شيء ، لأهل الأرض في عموم السنة ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِيْنَ * فِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ * أَمْرَاً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِيْنَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ ﴾ [الدخان : ٣ ـ ٦] .

وبتأمُّل سياق السؤال نجد الأمرين محتملين ومتلازمين ، لأنَّ الليلة

التي فيها تقدر مقادير كل شيء في هذا العالم لسنة كاملة ، لا شك أنها ليلة رفيعة القدر .

وعلى ما قال ابن عباس وغيره : كل ما جاء في القرآن (وما أدراك) فقد أدراه إيّاه وبيَّنه له في نفس السياق . وقد ظهر لنا في كل ما تقدَّم ، فإنَّه هنا وفي هذه السورة الكريمة ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ، ومعلوم أنَّ المراد هو إنزال القرآن الكريم ، وليلة شهدت بداية إنزال القرآن لا شك أنها تكون أعظم ليلة ، تعظم بعظم ما شهدته ، ولذا شرّفت على عموم ليالي العام كله ، حيث فضلت ألف شهر تزيد عن بضع وثمانين سنة ، فنسبة تفاضلها تعادل واحداً إلى ثلاثين ألف ضعف .

ثم وصف الله تعالىٰ ما يكون عليه الكون في تلك الليلة المباركة ، وكأنَّ العالم في أبهىٰ حلل الجمال والكمال ، وتتجدَّد فيها صلة الأرض بالسماء ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ ومادة تتنزَّل تدل على تجدد النزول وتكرره طيلة الليلة ، تنزل طائفة بعد أخرىٰ ، نزول الملائكة متواصل ، والروح فيها وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ، جبريل الذي كان ينزل بالوحي نوراً ينير البصائر ويهدي القلوب ، وروحاً يحيي موات النفوس .

فها هو في هذه الليلة المباركة ينزل مع الملائكة بإذن ربهم من كل أمر ، ويخبر سبحانه عن حال العالم تلك الليلة : ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ .

فما أعظمها من ليلة وأعلىٰ قدرها ، وما أعظم ما تأتي به لهذا العالم القلق المضطرب أحوج ما يكون إلى الطمأنينة والاستقرار ، هذا العالم الذي تتلاطم فيه أمواج الفتن بالقتال وسفك الدماء أحوج ما يكون إلى التهادن وحفظ الدماء ، واستبقاء النفوس وصيانة الأموال وكل نفيس .

إنَّها نعم يجلّ وصفها ، قد نوَّه المولىٰ سبحانه بعظم قدرها .

وفي الختام نسأل المولىٰ تبارك وتعالىٰ أن يجعلنا وإيّاكم من الأبرارِ في عليين يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك .

كما أنّنا لندعو العالم إلى دعوة القرآن الكريم ، دعوة الإسلام والسلام التي جاءت بها ليلة القدر وبالله تعالىٰ التوفيق . والحمد لله رب العالمين وصلّىٰ الله وسلّم على خاتمِ النبيّين والمرسلين نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

*****



فهرس

****